ه . ج . ايزنك



علم النفس الحديث

ونتائجه الاجتماعية

ترجمة :

الدكتور عبد المجيد نشواتي



الدراسات النفسية

٣٦

الإشراف الفني :
زهير الحمد
المخطوط :
عبد الرزاق قصيباتي

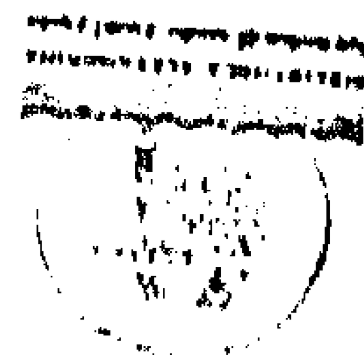
علم النفس الحديث

ومشكلاته الاجتماعية

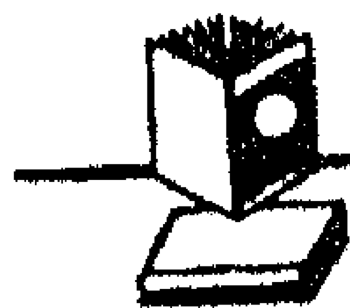
هـ . ج . ايزنك

علم النفس الحديث

ونتائجه الاجتماعية



ترجمة :
الدكتور عبد المجيد نشواتي



منشــورات وزارة الثقــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب :

Psychology is about People

H. J. E'jsenck

Benguin Books 1977

علم النفس الحديث ونتائجه الاجتماعية = Psychology in about people/
هـ. ج. ايزنك ؛ ترجمة عبد المجيد نشواتي . ـ دمشق : وزارة الثقافة ،
١٩٩٦ . ـ ٣٦٨ ص : مص ؛ ٢٤ سم . ـ (الدراسات النفسية ؛ ٣٦) .

١ ـ ١٥٠ اي ز ع ٢ ـ ٣٠٢ اي ز ع . ٣ ـ العنوان
٤ ـ العنوان الموازي ٥ ـ ايزنك ٦ ـ نشواتي ٧ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ١٩٩٦/٣/٢١٧

مقدّمة

ان عالم النفس هو عالم اجتماعي ، وإذا كان لنتائجه أية حقيقة واقعية فيجب أن تكون ممكنة التطبيق على مشكلاتنا الاجتماعية المعاصرة .

والعالم الاجتماعي خارج إلى حد ما ، فنحن كعلماء لانستطيع عمل الكثير حيال الحرب الذرية ومنعها ، أو حيال القلاقل والاضطرابات الاجتماعية أو حيال الاضرابات والتحديات الأخرى إن ادعاء القدرةعلى معالجة الامراض الاجتماعية جميعها قد جعل من عالم النفس والتحليل النفسي أمراً مضحكاً .

وقد أدى ذلك إلى اعتقاد العديد من الناس بأن العلم الاجتماعي لا ينطوي على أي شيء حقيقي يمكن للمجتمع أن يتعلّمه منه . واعتقد أن هذا الأمر ليس صحيحاً فعلا ، فلقد نجحنا في السنوات الخمسين الأخيرة بعض الشيء ، وهناك على أقل تقدير ، عدد من المسائل نستطيع تقديم بعض الاجابات الأولية عنها .

ويتناول هذا الكتاب معالجة بعض هذه المسائل وبعض الاجابات عنها وينبغي للقارىء أن يحكم ما إذا كان هناك مبالغة في هذا الادعاء . فحيثما يتوافر العديد من الأدلة ، بحيث تكون جميعها متعارضة ، يغدو الحذر أمراً ضرورياً بشكل واضح عند قبول أي شيء يدلي به فريق معني .

يبدأ الكتاب بالقاء نظرة على تناقض علم النفس الحديث . فهناك علماء نفس تجريبيون يستخدمون اساليب علميّة دقيقة في بحث مشكلات تبدو للكثير من الناس مبتذلة وغير مثمرة وهناك علماء نفس اجتماعيون وأطباء نفسيون ، ومحللون نفسيون ، يبحثون في مشكلات هامة ذات صلة وثيقة بالحياة الاجتماعية بشكل واضح ، إلا أنهم وفي أحسن الاحوال يستخدمون أساليب ونظريات يمكن الشك في دقتها العلمية . وأنا معني بالاشارة إلى أن هذا الصراع مصطنع وغير ضروري ، فهناك أساليب بحث ونظريات ومفاهيم تمكننا من الجمع بين المشكلات الهامة والطرق العلميّة الدقيقة . ومفهوم « الشخصية » هو مفهوم رئيسي يبرهن قولي هذا. بيد أنني لن أخوض في التفصيلات الآن ، بل سيرى القارىء نفسه ما الحل الذي اقدمه لهذا التناقض الدائم الوجود ، وسيكون قادراً على الحكم على مدى ملاءمته .

ويستمر الكتاب في القاء نظرة على مشكلة معينة أثارت اهتمامي في الماضي ، وكنت قد تناولتها بشيء من العمق ، وهي مشكلة العلاقة بين الشخصية والجنس . وفي الامكان اختيار العديد من الامثلة الأخرى

لتمثيل الأهداف التي اشتمل عليها الفصل الأول . لقد توافرت حديثاً نتائج تجريبيّة هامة في هذا المجال ، ورأيت من الهام أن يشترك القراء معي في الاطلاع على هذه النتائج . وقد تم **تناول الموضوع ذاته في فصل لاحق يبحث في الادب الاباحي** . ويمكن طمأنة القراء من الآن بأنني لم أقم بصوغ قالب جديد للكتابات الغزيرة التي انتجها المحامون والشعراء والسياسيون والمسرحيون والمؤرخون والاطباء النفسيون والآخرون الذين أحسوا بأنهم ملزمون بالكتابة عن المسائل النفسية حتى دون معرفة سطحية بعلم النفس . لقد اسست ما يجب أن أقوله على بحوث علمية اعان خبراء المجالات الآنفة الذكر عدم وجودها باستمرار . إن احدى عجائب الحياة الحديثة حقيقة ، هي أن الناس العاديين — أي غير العارفين — في هذه الامور يستطيعون توجيه جمهور القراء نحو كتابات ليست جديرة بالاهتمام إلا بسبب ما تنطوي عليه من جهل عميق بالطبيعة الواقعية للموضوعات التي تتناولها هذه الكتابات .

يتناول الفصل الثاني من الكتاب تقنيات عالم النفس السلوكي وتطبيقاتها في ميادين متنوعة . ولقد حاولت في هذا الفصل تبرير اقتراحي بأن علم النفس قد تقدم على نحو كاف ، بحيث يمكن استخدامه في حل مشكلات واقعية ومتنوعة جداً في مجال التربية ، والصحة النفسية ، وعلم الجريمة ، ومجالات أخرى عديدة . أما الفصل الثالث ، فيتضمن نقاشاً مسهباً لمشكلة تناولتها في البدء في مقالة نشرت في ورقة سوداء في التربية ، وهي مشكلة

النخبة الفكرية وانتقائها وتربيتها . وكان مفهوما الجدارة : والتوسط شعاري المعركة البديلة . لقد حاولت على نحو حذر نوعاً ما تلمس طريقي بين الشعارات البديلة من خلال الاحتكام إلى حقائق تجاهلها مراراً المشايعون لجانب أو آخر . **ويتناول** الفصل الرابع الاتجاهات الاجتماعية وقياسها ، كما يتناول **التناقض السياسي الهام الناجم** عنها . ويبدو أن الآراء التي تؤمن بها قيادة الحزبين السياسيين الكبيرين (العمال و**المحافظين**) وتنشرها ، ليست هي الآراء التي يؤمن بها اتباع هذين الحزبين ، بل هي الآراء التي (**يؤمن بها**) اولئك الذين يصوتون لصالح خصومهم . فالسياسيون المحافظون يدافعون عن الآراء التي (**يؤمن بها**) ناخبو الطبقة العمالية في حزب العمال . وسياسيو حزب العمال يدافعون عن الآراء التي « **يؤمن بها** » ناخبو الطبقة المتوسطة في حزب المحافظين . لقد تم بحث عواقب هذا الخلط المرح الصاخب (أو المأساوي) على نحو مسهب بعض الشيء . واخيراً ، يتناول الفصل الخامس بعض الاعتراضات التي يوجهها العديد من الناس إلى علم النفس العلمي بشكل عام ، وإلى السلوكية بشكل خاص . وقد حاولت تبيان أن هذه الاعتراضات قائمة إلى حد بعيد على سوء فهم لطبيعة العلم وطبيعة السلوكية .

يجب أن تبدو موضوعات هذا الكتاب متنوعة ، وهي كذلك فعلا ، فكل فصل من فصوله يشكل وحدة مستقلة ، ويمكن قراءته (وربما التمتع به) على نحو منفصل . غير أن هناك عدداً من الأفكار تتخلل الفصول جميعها . وقد تكون الاشارة إلى هذه الأفكار بشكل مختصر امراً

جديراً بالاهتمام . لقد كان هدفي الأول هو تبيان الحاجة إلى دراسة علمية للمشكلات الاجتماعية . فالحلول غير القائمة على معرفة علمية ، بل على الحدس والتعصب والفائدة السياسية ، من غير المرجح أن تبرهن على فائدة ثابتة طويلة المدى . إن الكثير من الناس يعتقدون بأن لدينا الكثير من العلم ، بيد أن هذا الإعتقاد خاطىء كلياً . فمشكلتنا لاتتمثل في اننا نعرف كثيراً جداً ، بل في أن ما نعرفه قليل جداً . والأدهى من ذلك ، هو أن معرفتنا غير متوازنة . فنحن نعرف كل ما نحتاج إليه تقريباً من علم الفيزياء لتحقيق أغراض عملية ، كما نعرف بعض ما نحتاجه من علم الأحياء ، إلا أننا لا نعرف شيئاً تقريباً عن علم النفس . لذلك تعوق الآثار المفيدة للمعرفة العلمية بعدم قدرتنا على استخدام هذه المعرفة بشكل حكيم . قد يشعر العديد من القراء ، كما هو الحال بالنسبة لي ، أن جميع ادعاءاتنا المسيحية أو الانسانية كانت مقابر عندما تساقطت القنابل الذرية دون انذار على المدنيين من الرجال والنساء والاطفال اليابانيين في نهاية الحرب العالمية الثانية . لقد وجه اللوم غالباً إلى العلماء الذين اكتشفوا القنبلة الذرية وصنعوها ، بيد أن العلماء ليسوا هم السبب في استخدامها بل السياسيون والقادة العسكريون الذين اتخذوا قرار استخدام هيروشيما وناغازاكي كميدان اختبار للعبتهم الجديدة . ان العلماء الذين كانوا أداة ابتكار تلك القوة المدمرة ، قد حاولوا دون جدوى ايقاف هذا العمل ألاجرامي . ان أي شخص معني بهذه القصة المعقدة المخيفة يمكنه الرجوع إلى قراءة كتاب نويل فارديفيس المعنون بلورنس واوبنهيمر وسيرى

بنفسه أن العلماء لايظهرون كقديسيين في الواقع ، بل كمخلوقات بشرية واقعية لهم معايير أخلاقية وقيمية شبيهة جداً بأخلاق منتقديهم وقيمهم . ان بعض السياسيين والجنرالات هم الانذال والقساة والمؤثرون ، وهم قصيرو نظر على نحو غبي يستثير النفور والكراهية بشكل خاص . انهم هم الذين استخدموا ذلك الاختراع في غير وجهته الصحيحة ، ووضعوه في خدمة انانياتهم الخاصة واغراضهم اللا انسانية . وهم الذين افسدوا بالمواربة والتهديدات والكذب المفضوح الطبيعة الأخلاقية لبعض العلماء وجعلوهم يذعنون لأعمالهم الشائنة . ان قصة استخدام القنابل الذرية في هيروشيما وناغازاكي يجب أن تكون معروفة على نحو أكثر تسامحاً مما هي عليه الآن ، كما يجب القاء تبعة هذه القصة ومسؤليتها بشكل دائم على من يخصه اللوم

اني اطرح أمثلة عن حالات عديدة تبين أن المعرفة النفسية متقدمة على نحو كاف يجعل في الامكان حل المشكلات الاجتماعية . وأنا على يقين بأن هذا النمط من المعرفة سوف يتمخض عن نتائج أكثر تأثيراً بشكل واسع خلال وقت قصير نسبياً ، لو زرق بالدعم والمال اللذين يزرق بهما البحث العلمي في الفيزياء النووية . وانني اتقدم ايضاً بأسباب تبرر عدم احتمال حدوث هذه الحالة المؤاتية للمسائل ، فأصحاب السلطة ينزعون إلى ادراك علم النفس كمنافس مزعج ، بدلا من ادراكه كمساعد مفيد . وربما سيتغلب الزمن على هذه الشكوك المتأصلة فيهم . وعلينا أن ننتظر ونرى .

وهدفي الثاني من الكتاب ، هو أن أي أمل في ايجاد حلول عامة صادقة عالمياً للعديد من مشكلاتنا ، هو أمر في غير موضعه . إن وجود فروق شخصية متجذرة بين الناس ، يجعل الأخذ بمثل هذه الفروق الفردية في الحسبان أمراً ضرورياً . إن القوانين والاعراف الجنسية التي يقبل بها شخص انطوائي ، ليست مقبولة على نحو مماثل من جانب شخص انبساطي ...الخ.لقد كانت مهمتي الاساسية في علم النفس هي تأكيد عوامل الشخصية هذه ، ومحاولة جعل هذه العوامل قابلة للقياس والبحث العلمي . وتشير النتائج المتوافرة حتى الآن وبشكل صلب إلى هذه الفروق مرتبطة على نحو وثيق بفروق وراثية في بنية ووظيفة كل من جذع المخ والمخ الخلفي ولحاء المخ. يكره علماء النفس التجريبيون غالباً قبول وجود فروق فردية أو لايوافقون على جعل هذه الفروق موضوع بحث علمي . بيد أنني كنت قادراً ، حتى في مجال علم النفس التجريبي نفسه ، على تبيان خطأ وجهة النظر هذه وقصورها . لقد بينت في العديد من المهام المخبرية ، أن الأفراد المنبسطين والانطوائيين ، أو أن الناس المتزنين والانفعاليين ، يستجيبون على نحو مختلف تماماً لمثيرات متماثلة . غير أن المسألة ما زالت بحاجة إلى المزيد من البحث والتأكيد ،وهذا ما حاولت القيام به في سياق بحث المشكلات الاجتماعية ، مثل المشكلات التي تنشأ من الدافع الجنسي .

والفكرة الثالثة التي تتخلل فصول الكتاب جميعها ، هي أن المشكلات الاجتماعية معقدة . وقد لايبدو هذا الأمر بحاجة إلى تفصيل أو توسع من حيث الاسهاب فيه ، فالكثير من الناس يوافقون على أنه افتراض

مطلق . غير أن هذه الحقيقة العامة ـ أي تعقيد المشكلات الاجتماعية ـ يتم نسيانها غالباً عند الممارسة أو التطبيق ، حيث تطرح أسئلة غاية في البساطة وليست ذات معنى ، وتعطى أجوبة لامعنى لها بالطريقة ذاتها وغالباً ما تكون مشوبة بالانفعال . وعلى سبيل المثال ، ان سؤالا من نوع « هل نظام المدارس الشاملة أفضل من نظام المدارس الثانوية التقليدية ، أو من نظام المدارس الحديثة والتقنية ؟ » هو سؤال لامعنى اه بشكل واضح ومع ذلك نوقد بحماس شديد من جانب الكثير من الناس الذين يجهلون التعقيدات التي ينطوي عليها والحقائق البسيطة المعروفة حول بعض هذه المشكلة .

فماذا تعني كلمة « أفضل » في هذا السياق ؟ هل تعني أنها تؤدي إلى معرفة أكبر ؟ أم إلى تكامل اجتماعي أكثر ؟ أم إلى تطور شخصي أفضل ؟ أم ماذا ؟ . . .الخ.وإذا حددنا معنى كلمة «افضل»، فالأفضل من أجل من ؟ هل من أجل الاطفال جميعهم ؟ أم أطفال الطبقة العاملة فقط ؟ أم أطفال الطبقة المتوسطة فقط ؟ وهل الأفضل من أجل الاطفال الانبساطيين أم الاطفال الانطوائيين ؟ وهل من أجل الاطفال المتزنين أم غير المتزنين ؟ وحتى لو طرحنا أسئلة تتعلق بالتنظيم والكادر والابنية المدرسية والتسهيلات المتوافرة وتدريب المعلمين والاتجاهات ، فمن المتعذر أن نصل إلى استنتاج أن التغيير سيكون « من أجل الافضل » بالنسبة لبعض الاطفال ، ومن حيث بعض الاتجاهات ، ومن « أجل الأسوأ » بالنسبة لأطفال آخرين ومن حيث اتجاهات أخرى . ان السياسيين ، وبخاصة عندما يظهرون على

شاشة التلفزيون ، يبسطون جميع هذه التعقيدات (وتعقيدات أخرى كثيرة ناقشتها في الفصل يتناول نشوء فكرة التوسط ـ أي فكرة الشخص المتوسط القدرة) في محاولة منهم لاستقطاب الرأي العام . وما من شيء يجعل الوصول إلى قرار حكيم أمراً أقل احتمالا مثل هذا الاستقطاب السياسي . ربما يكون هناك مصوتون لهذا القرار ، غير أن ذلك ليس هو الاسلوب المناسب من أجل الوصول إلى حل عقلاني حكيم لمشكلة صعبة معقدة . والأمر نفسه ينشأ فيما يتعلق بالمشكلات الأخرى جميعها التي يتناولها الكتاب . إن البساطة الظاهرية لهذه المشكلات ، وكما يعرضها المؤيدون في أي من الجانبين ، تخفي تعقيداً كبيراً لايترافق غالباً إلا مع جهل تام بمعرفة أية حقائق يمكن أن تساعد في الوصول إلى حل . انني لا أدعي تقديم حلول أو أدوية (علاج) عامة لأي من المشكلات المبحوثة في هذا الكتاب . ولكن الحمقى أو بعض السياسيين قد يتخيلون توافر « حلول » من هذا القبيل في المرحلة الراهنة لمعرفتنا ، أو قد يشعرون على نحو كاف من اليقين بأنهم قادرون بصدق على الدفاع عن حل أو آخر من الحلول المقترحة . لقد حاولت عوضاً عن ذلك القاء الضوء على الصورة « المشكلة ، » من خلال حقائق معينة ذات علاقة وثيقة بالموضوع وغير معروفة على نحو واسع ، إلا أن التفكير فيها أمر هام . وأعتقد أن ذلك هو مهمة عالم النفس الاساسية ، وليس الادعاء بأنه وحده من يعرف كيفية حل مشكلاتنا جميعها ، بل يجب عليه أن يقف جانباً محاولا جعل البحث الكلي أكثر واقعية وأقل حدة . ان الحقائق لاتفرض قراراً

علينا ، لكنها تساعدنا كثيراً في الوصول إلى قرار أكثر حكمة من القرار الذي قد نصل إليه في حالة عدم توافر مثل هذه الحقائق .

ان الحقائق السيكولوجية ليست الاشياء الوحيدة التي يجب أخذها الحسبان لدى صنع القرارات ، إلا أنها مؤشرات هامة تم تجاهلها فيما نتعرض له من مخاطر .

يذهب بي هذا إلى هدفي الرابع من الكتاب ، وهو أن مشكلاتنا يمكن أن تنظم على نحو أفضل كثيراً إذا القينا الانفعال جانباً ، وتبنينا العقل كموجه في عملنا . فالعقل هو أكثر الاشياء التي تميزنا عن البهائم العجماء ، وهو الذي جعلنا أسياد العالم ، وهو الضامن الوحيد لأي أمل في استمرار وجودنا .

ان المعارض للحاء المخ الجديد الذي يعتبر أساس العقل ، هو جذع المخ الذي يعتبر أساس الانفعال وأساس المشاعر وعادات العمل القديمة وقد نشأ هذا الجذع عن نمو تطوري لم يعد مفيداً لنا الآن ، وبات يهددنا بالقتل جميعاً . ان العلم تعبير عن العقل في أعلى أشكاله . لذلك كان العلم أملنا الوحيد في سبيل البقاء . ولهذا السبب ، يحقق الهدف الرابع لهذا الكتاب هدفه الأول ولكن من منطلق مختلف جزئياً . فما نحن بحاجة إليه هوعلم أكثر كماً وأفضل نوعية بشكل خاص ، علم موجه نحو أكثر مشكلاتنا الراهنة الحاحاً . وأنا على يقين بأن هذه المشكلات ليست فيزيائية ولا بيولوجية ، بل هي مشكلات نفسية . لقد وجدنا حلولا لمعظم

المشكلات التي سببتها الطبيعة لنا ، وما تبقى لنا من مشكلات هي من صنع الانسان نفسه ، ودراسة الانسان فقط هي التي يمكن أن تساعدنا في ايجاد حلول لها . ان ما قاله « الكسندر بوب » في شعره المعروف جيداً والقائل بأن « الدراسة المناسبة للنوع الانساني هي الانسان » ، ما زال صحيحاً في يومنا هذا كما كان في السابق ، رغم التقدم الذي احرزه العلم منذ أيام « بوب » وحتى الآن .

* * *

الفصل الأول

الفأر أم السرير؟
بين علم النفس التجريبي وعلم النفس العيادي

كنت مفتوناً دائماً بروح الدعابة ، ولقد رأيت في النكات والصور الكاريكاتورية والهجاء أموراً لاسبيل إلى مقاومتها ، وموجهات للضمير القومي أكثر أهمية بكثير من المجلدات والتحليلات الأكثر رزانة . وقد يعود ذلك إلى أن والدي كان كوميدياً شهيراً على شاكلة الممثل الكوميدي « بوب هوب » ، حيث اعتاد تأليف توريات با للاتينية دون أن يتعرض لعواقب وخيمة بسببها . وعلى أية حال ، ان المبدأ الذي اعتقد بإمكانية الدفاع عنه في هذا المجال ، هو اننا نستطيع أن نعرف الكثير عن « صورة » شخص ، أو قطر ، أو جماعة (مثل رجال الشرطة ، أو العاهرات ، أو علماء النفس) من خلال التفكير في النكات التي تروى عن هؤلاء ، أو الرسوم الكاريكاتورية التي يستثيرونها . فكر في علم النفس في ضوء هذا المبدأ ، فماذا تجد ؟ هناك فئتان من النكات شائعتان بوضوح

حول علم النفس وعلماء النفس . انني أضع تحت عنوان « علم النفس وعلماء النفس » الاطباء النفسيين والمحللين النفسيين . ولم أقم بذلك لأن هؤلاء يعرفون الكثير عن علم النفس ، فعلم النفس لايشكل أي جزء رئيسي من تعليمهم ــ وهو عكس الاعتقاد الشائع أو حتى الحس السليم بل قمت بذلك لأن الانسان العادي لايستطيع التمييز بين عالم النفس والمحلل النفسي والطبيب النفسي ، وهم الاشخاص المعنيون بتلك النكات . يشير هذان النوعان من النكات وعلى التوالي ، إلى نكات تتعلق بالتجريب على الفئران ، ونكات تتعلق بمرضى التحليل النفسي وهم على اسرة العلاج . يعرف القراء دون شك الكثير من النكات في هذين المجالين ، وربما كان أفضلها ما ظهر في صحيفة « نيويوركر » (يعود ذلك دون ريب إلى أن الامريكيين أكثر معرفة بعلم النفس ومزاعمه) . ومع ذلك ، ان عينة صغيرة من هذه النكات يمكنها أن تعد العدة للبحث اللاحق الذي سيذهب بنا إلى ميدان أكثر اتساعاً نتبين فيه طبيعة علم النفس وهدفه ومكانته في العالم الحديث . دعنا نبدأ بالنكات المتعلقة بالدراسات النفسية التي جرت على الفئران (نكات الفئران) ، ومن ثم نتابع الحديث عن النكات المتعلقة بعلم النفس العيادي (نكات السرير) .

اعتاد « بيتشكومبر » تقديم أكثر مقالاته الصحفية هزلا بقوله « لقد برهنت التجارب التي تناولت دراسة الفئران . . . » ثم يتابع الحديث عن موضوعات بعيدة جداً عن أي شيء يمكن برهنته بشكل معقول من خلال النتائج التي تتمخض عن التجارب على الفئران . كأن يقول أن لدى عمال المناجم في نورث هامبرلاندر أياً سيئاً حيال السيد تشامبرلين ، أو أن النساء ذوات الأقدام الكبيرة نادراً ما يكسبن بطولات الرقص . ان تضمين هذه

الاقوال واضح ويشير إلى ما يلي : كم هم حمقى علماء النفس ! انهم يعملون في المخابر مع الفئران بعيداً ، معتقدين أن لنتائجهم صلة بالمشكلات الواقعية لمجتمعنا . والفكرة ذاتها ينطوي عليها رسم كاريكاتوري شهير يصور فأراً وهو يدخل بناء جامعة جليلة ، متلفتاً حوله ومتسائلا : ما الطريق المؤدية إلى قسم علم النفس ؟ ينطوي هذا الرسم على فكرة مفادها أن علماء النفس وحدهم هم الحمقى لانشغالهم بالفئران ، بينما يعنى علماء الاجتماع والاكاديميون العقليون بالناس . وأخيراً هناك رسم كاريكاتوري شهير يصور فأراً في صندوق وهو يضغط على رافعة مخاطباً فأراً آخر بقوله « أنا على يقين بأنني قد قمت باشراط ارادة هذا الانسان المجرب ، فحالما اضغط على هذه الرافعة ، يقوم هو باسقاط كرية طعام عبر هذا الانبوب المائل » . ان مثل هذه النكات والرسوم الكاريكاتورية كثيرة جداً ، وتشير بمجملها إلى فكرة واحدة مفادها : يعتقد علماء النفس بأنهم علماء ، لكنهم اضطلعوا بشكلية العلم الفارغة فقط . لقد خانتهم الحقيقة الواقعية ، وراحوا يلعبون بمشكلات مصطنعة استخدموا فيها الفئران كذريعة لفشلهم في احداث علم نفس انساني مناسب ، ربما يكون فيه بعض الفائدة في مواجهة مشكلاتنا . ان نقداً من هذا النوع ، ليس مقصوراً على النكات فحسب ، بل قام به في كثير من الاحيان كتاب أكثر جدية ، بما فيهم علماء النفس انفسهم .

أما النكات المتعلقة بالتحليل النفسي (نكات السرير) فتقوم بشكل نموذجي على التعارض الفاضح بين الادعاء والاداء ، أو بين الحقيقة والوهم . والرسم الكاريكاتوري الشهير في هذا المجال يصور اثنين من المحللين النفسيين وهما يخرجان من احدى المستشفيات ، احدهما شاب يبدو عليه

التعب والانهاك ، والآخر مسن يبدو عليه الهدوء والحيوية . يسأل المحلل النفسي الشاب زميله « كيف تستطيع أن تنصت لهم كل هذه الساعات — يقصد مرضى التحليل النفسي — وتحتفظ بهدوئك هذا ؟ » اجاب المحلل النفسي الأكبر سناً : من الذي ينصت ؟ وقصة خرى شهيرة في هذا المجال ، هي قصة الأم الغنية التي تستدعي محللا نفسياً كلما اساء ابنها الصغير التصرف ، لأنها غير قادرة على معالجة مشكلاته بنفسها . وفي أحد الايام رفض الابن النزول عن حصانه الخشبي الهزاز رغم كل توسلاتها . ولما اعيتها الحيلة استدعت المحلل النفسي طالبة مساعدته . جاء المحلل النفسي وتقدم من الطفل وهمس في اذنه بضع كلمات كان لها تأثير السحر ، فقد نزل الطفل عن الحصان بشكل مطيع وسلك طيلة اليوم وكأنه ملاك . لم تستطع الأم أن تتخيل ماذا قال المحلل النفسي لطفلها . وعندما جاء الاب إلى البيت أخبرته بالقصة ، فلم يستطع هو أيضاً معرفة ما قال المحلل النفسي للطفل . وأخيراً سألا جوني الصغير عما قاله له المحلل النفسي ، فانفجر باكياً وهو يقول « لقد قال لي بأنه سوف يقطع « حمامتي » لو لم اسلك بطريقة مناسبة » .

في الوقت الذي تهاجم فيه نكتة الفئران عالم النفس بسبب بحثه العلمي الدقيق ولكن على موضوعات مبتذلة غير هامة ، فان نكتة السرير (نكات التحليل النفسي) تعترف بأن عالم النفس يمكن أن يعالج موضوعات هامة غير أنه يفعل ذلك باسلوب غير علمي ، حيث يتصرف بشكل عادي تماماً ، ويخفي جهله وراء مظهر أنيق وتسجيل حشو الكلام . من الواضح أنك لاتستطيع كسب المعركة ، فإما أن تكون من النوع المتحذلق المنعزل حيث تقوم على نحو جاد يبحث نظري (بحث البرج العاجي) لايؤثر في

الحياة بأية طريقة كانت ، ولا يؤدي إلى أية اكتشافات هامة ، بل إلى مجرد الاهتمام بالعلمية الشكلية ، أو أنك تنهمك في مشكلات واقعية بحماس متهور ، وتضلل كل شخص بمصطلحات لغوية طنانة لا نهاية لها ، بحيث تفشل في تقديم الفوائد التي وعدت بها على نحو متسرع . ان ما تفعله في ضوء هذين الاتجاهين ، يتوقف على ما إذا كنت شخصاً منبسطاً أم منطوياً . ان الاشخاص الذين يختارون التجريب على الفئران هم من النوع الانطوائي ، أما الذين يفضلون العمل مع الانسان فهم من النوع الانبساطي ، مع وجود استثناءات نادرة . ولكن في أي من الحالتين ، يغدو علم النفس غير مفيد وغامض ولعبة غير هامة يقوم بها اشخاص جاهلون وسخفاء بعض الشيء وفق قواعد عشوائية وسواء كانت هذه الصورة صحيحة (ان اجزاء منها صحيحة جداً كما سنرى) أم غير صحيحة ، فليس هذا ما يعنينا الآن . غير أن هذه الصورة تمثل افكار الرأي العام حيال علم النفس كما يدركها رسام كاريكاتوري بملاحظاته الحاذقة .

ان النكات والرسوم الكاريكاتورية والظرف والسخرية تتطلب بشكل عام تفسيراً حسب رأي فرويد . فهل نستطيع تفسير تلك النتائج ؟ يرى الفلاسفة والكتاب عموماً أن الفكاهة تنطوي على عنصرين ، احدهما شكلي ، والآخر انفعالي . تعتمد الفكاهة من حيث جانبها الشكلي على التعارض ، إذ يصار إلى احداث نسق غير متسق من عناصر متعارضة تأخذ شكل تركيب مفاجيء . اما من حيث جانبها الانفعالي فقد تؤدي الفكاهة إلى تفريغ المشاعر العدائية أو العدوانية أو الجنسية ، أو أنها تعبّر ببساطة عن مزاج وسعادة ورضا .

ان نكات الفئران والسرير تعبر بشكل أكيد عن انتقاد وعدوان . بيد أن المسألة التي تستثار هنا هي ما إذا كان هذا العدوان لاشعورياً أم شعورياً ان فرويد على يقين طبعاً بأن العدوان مكبوت بسبب الخوف من العواقب التي تترتب على الافصاح عنه وأن الفكاهة (مثل الاحلام وزلات اللسان) تتيح للعدوان فرصة الهروب من هذا الكبت ، عن طريق انتاج الضحك والتسلية كعواقب لهذا الهروب . ولكن هل هذه المشاعر حيال علم النفس ، هي بأي معنى من المعاني مشاعر « لاشعورية » حقاً ؟ لقد تحدثت إلى العديد العديد من القراء العاديين ، والعديد من اناس لايدعون بأنهم علماء نفس وتبين لي دون أدنى شك ، أن لدى معظمهم ، أن لم يكن لجميعهم ، وجهات نظر مضمرة من النوع الذي تصوره الرسوم الكاريكاتورية بشكل جيد . وبإمكان القارىء طبعاً أن يماوس التجربة ذاتها ويسأل نفسه ما إذا كانت هذه الأفكار تعبر عن اتجاه تفكيره العام حيال علم النفس ، أم أنها خلفية مكبوتة لتفكير شعوري مختلف كلياً ، سلطت الاضواء عليه نكات ورسوم كاريكاتورية كالتي تم ذكرها .

ان نظريتي الخاصة في الفكاهة مناقضة تماماً لنظرية فرويد ، ويمكن دعوتها بنظرية « سمة » أو حتى بنظرية « حالة وسمة » . وطبقاً لهذه النظرية ، يتراوح الناس على متصل ممتد « للعدوانية » أو « الجنسية » بدءاً من عدواني جداً أو جنسي على نحو نشط جداً ، إلى عادي من حيث العدوانية أو الجنسية ، وانتهاء بلا عدواني وجبان أو ضئيل الاهتمام بالامور الجنسية . وطبقاً لنظرية فرويد ، فإن الناس غير العدوانيين أو غير الجنسيين ظاهرياً ، قد كبتوا نزعاتهم العدوانية والجنسية ، ويثمنون النكات العدائية والجنسية لأنها تحرر مشاعرهم « اللاشعورية » . أما الناس

العدوانيون والنشطون جنسياً ، فهم ليسوا بحاجة إلى مثل هذا التحرر ولا يثمنون هذه النكات بشكل خاص . وهناك الكثير من الادلة التي تخالف بوضوح التفسير الفرويدي لسيكولوجية الفكاهة ، فالاعمال التي قام بها العديد من المجرمين ذوي منحى التحليل النفسي ، وما قمت به أنا من اعمال ايضاً ، تبين أن الناس الانبساطيين هم أكثر عدوانية ظاهرياً وأكثر نشاطاً من الوجهة الجنسية ، كما أنهم يفضلون النكات العدائية والجنسية . وبتعبير آخر ، يعبر الناس عن سمات العدوانية العادية لديهم أو عن اثارتهم الجنسية بطرق عديدة مختلفة ، احداها تثمين النكات المنسجمة . والنتيجة نفسها قد ظهرت عندما تستثير غضب مجموعة من الناس بأحد اشكال المعالجات التجريبية ، أو تحرضهم جنسياً . لقد تبين أن هؤلاء الناس يميلون إلى الفكاهة العدائية والجنسية تحت ظروف الاستثارة على نحو أفضل مما هم عليه تحت ظروف عدم الاستثارة . لذلك يدحض كل من منحى « السمة » ومنحى « الحالة » (أي تحديد المستوى العادي للعدوانية ، أو المعالجة التجريبية لمستوى العدوانية الراهن) آراء فرويد ، فكما يكون الناس في العموم ، فإنهم يستجيبون للنكات وفقاً لذلك . وهذا يوحي أن لدى معظم الناس اتجاهات حيال علم النفس ، غير أن هذه الاتجاهات لاتشكل مضاداً « شعورياً » لعداء وعدم تقدير لاشعوري عميق ، بل كل ما هنالك ، هو أن الناس يشعرون على نحو اصيل (عفوي) بوجود خطأ ما في علم النفس ، وأنه ينبغي عدم الوثوق بعلماء النفس عموماً ، وأن علم النفس شبيه بالاله الروماني جانوس ، فهو يقدم وجهين مختلفين كلياً ، الأمر الذي يجعل أي ادعاء لعلم النفس بأنه « علم » موضع شك نوعاً ما .

ليست هذه المشاعر حيال علم النفس وقفاً على الناس العاديين فحسب فعالم النفس الشهير « كوفكا » يروي في أحد كتبه خيبة أمله عندما كان طالباً يافعاً وتقدم إلى قسم علم النفس آملا في تعلم شيء حول الانفعالات والشخصية والمرض العقلي والاتجاهات الاجتماعية ، فعلم أن عليه أن يعمل على ميكانيزم ادراك اللون ! ان العديد من الطلاب قد واجهوا مثل هذا الصراع ، حتى أنه اصاب اعضاء أكثر خبرة في مهنة علم النفس . ولقد اشرت في كتابي « المعقول واللامعقول في علم النفس » (Sense and Nonesense in psychelogy) إلى انتشار هذا الاتجاه الانفصامي الذي يقسم علم النفس إلى قسمين أحدهما تجريبي والآخر اجتماعي . قسمان يصعب أن يستخدما مصطلحات واحدة ، وينشرا في دوريات مختلفة كما يصعب أن يقرأ اتباع احدهما ما يكتبه اتباع الآخر انهذا الانقسام في علم النفس موثق علىنحو جيد.فلقدوجهنا اتجاهنا العلمي نحو الداخل،واصبحنا نعرف الحقائق المتعلقة بالمقالات التي يقرأها اعضاء كل جانبمنالجانبين، والدوريات التي ينشرون فيها ابحاثهم، والمصادر التي يشتقون منها اعمالهم . ان الحقائق ليست موضع جدل أو نزاع ، وقد اصاب الرأي العام كبد الحقيقة بالعذر الذي يكون فيه هذا الغموض الآثم موضع اهتمام . غير أن الفساد لاينتهي عند هذا الحد ، بل يذهب أبعد من ذلك .

ان فشل جانبي علم النفس في السير معاً جنباً إلى جنب ، قد منعه من انجاز وحدة جوهرية تسم علماً اصيلا . ويصاب معظم طلاب علم النفس عندما يباشرون قراءة أول كتاب مقرر لهم ، بحقيقة مفادها أنه لاتوجد ارتباطات أو علاقات بين فصول الكتاب . فكل فصل من هذه

الفصول — فصل في الادراك ، وفي الاشراط ، وفي الذاكرة ، وفي الذكاء وفي التعلم ، وفي الاتجاهات ، وفي الشذوذ النفسي — يشكل وحدة مستقلة في ذاته . ويمكن قراءة هذه الفصول بأي ترتيب كان تقريباً . وغالباً ما يعرضها مدرسون مختلفون بترتيبات مختلفة تماماً . ان حقائق احد الفصول ونظرياته لاتؤدي منطقياً إلى حقائق فصل آخر ونظرياته . فعندما تنتهي من قراءة فصل ما ، فإن الفصل اللاحق لايبتدىء بالخط الذي طرحه ذلك الفصل ، بل يباشر خطاً جديداً مختلفاً كلياً . لذلك تتبنى الكتب المقررة المختلفة اساليب مختلفة تماماً لدى ترتيب موضوعاتها . ومن الطبيعي أنه ما من ترتيب يمتلك خطاً معنياً بشكل واضح ، وما من ترتيب يتفوق على آخر . فبعض الكتب تستهل موضوعاتها بمقدمة (بقصد اعطاء الطالب خلفية عامة في الفيزيولوجية وعلم الاعصاب والتشريح) ، ثم نطرح اعمالا تجريبية دقيقة حول الاشراط والتعلم والادراك والذاكرة ، وتنتهي اخيراً بخيارات « واهنة » من علم النفس الاجتماعي أو علم نفس الشذوذ أو علم نفس الشخصية . وتقوم كتب اخرى بعكس هذه العملية ، املا في استثارة اهتمام الطالب ، حيث تبدأ بموضوعات « هامة » . وتجعله في نهاية المطاف قادراً على تثمين الاتجاه العلمي من خلال انهاء الكتاب ببعض المسائل (المواد) الاكثر تجريبية . غير أن كل ذلك أمر عشوائي مطلق ، إذ لايوجد سبب ملزم يؤدي إلى تفضيل طريقة على أخرى ، وما من بدائل أخرى قد تم تجريبها على نحو ناجح .

ترتبط بمشكلة انفصام علم النفس مشكلة أخرى تتعلق بالمفاهيم الاساسية التي تؤسس علماً ما . فعلم الكيمياء بلغ رشده بإعلان النظرية

الذرية لدالتون ، وإلا كيف سيكون حال الكيمياء دون مفهوم الذرة ؟ ولقد تأسس علم الحياة (البيولوجيا) على مفهوم الخلية بشكل محكم . كما أن علم الوراثة قائم على فكرة المورث (gene) . وهناك العديد من الامثلة التي يمكن تقديمها في هذ الصدد ، ولكن لاحاجة بنا إلى ذلك ، فمن الواضح أن أي فرع من فروع المعرفة العلمية يتوقف على مثل هذه الشرطي كمفهوم اساسي لعلم النفس . بيد أنه لايمكن الأخذ بهذا المفهوم على نحو جدي ، فالادراك ، وعلم النفس الاجتماعي ، وحتى التعلم اللفظي ، ليست قائمة على قوانين الاشراط بشكل واضح ، على الرغم من أن هذه القوانين مفيدة في تفسير ظواهر وحقائق معينة في تلك المجالات . وهناك اقتراحات اخرى تم طرحها على نحو أقل وثوقاً ، بيد أن أياً منها لم يلق كثيراً من الحماس ، وغالباً ما دفن بهدوء دون أن يحظى با لمراسم الدينية للدفن . ان هدف هذا الفصل هو اقتراح مثل تلك الوحدة الاساسية في سبيل تبيان امكانية استخدامها في توحيد المجالات المتنوعة المنفصلة لعلم النفس ، ولاظهار كيف يمكن تسخير قوة علم النفس التجريبي في حل المشكلات الاجتماعية . انني لاادعي طبعاً أن لهذا الاقتراح مفعول السحر ، بحيث يتمكن من ايجاد حلول لجميع المشكلات التي اشرت إليها في الصفحات السابقة . لكنه يستطيع او اتخذ وجهاته الصحيحة ، أن يوجه حماس طلاب علم النفس ونشاطاتهم العلمية الجادة نحو اقنية أكثر اثابة وقيمة ، كما يستطيع أن يعمل كحافز ممكن في توحيد علم النفس .

يمكنني القول باختصار — توسيعاً لاقتراحي في الوقت الراهن بأن الشخصية هي الوحدة الاساسية في علم النفس . يتطلب هذا المفهوم

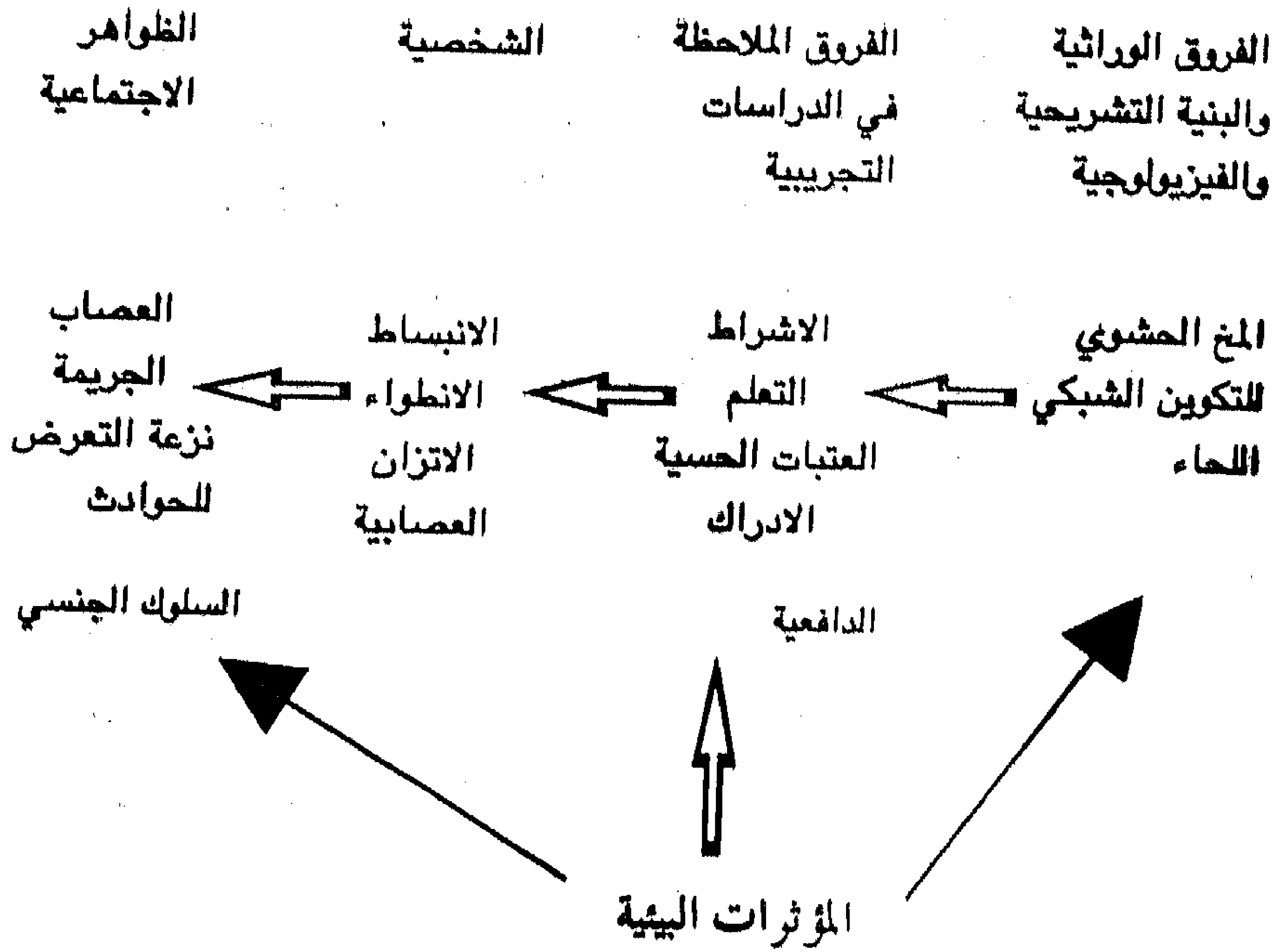
حتى يغدو مقبولا من وجهة نظر علمية ، أن يكون مرتكزاً بشكل راسخ على شروط سابقة وشروط لاحقة تمكن من ملاحظته على نحو صحيح ، وقياسه بشكل دقيق ، وتقدير كميته على نحو ذي معنى . كما أنه من غير الممكن قيام علم نفس تجريبي مناسب ، أو علم نفس مقبول علمياً ، دون تضمين مفهوم الشخصية هذا في أكثر مستويات علم النفس اساسية . تنطوي هذه الاقوال على أفكار ليست سهلة ، لذلك تتطلب بعض النقاش قبل فهم معناها ومضمونها الحقيقي بالشكل المناسب . ان الفكرة العامة التي افصحت عنها بإيمان منذ نشر كتابي الأول (ابعاد الشخصية) « Dimensions ofPersonality » سنة (١٩٤٧) ليست بالفكرة التي تشفع بنفسها لدى معظم علماء النفس . لقد حاولت القيام بمجرد جسر الفجوة بين اتجاهين منفصلين في علم النفس ، وهو الامر الذي كان قائماً آنذاك . فالتجريبيون يرفضون النظر في امكانية معالجة الشخصية كمفهوم علمي مفيد ، أوأن لهذا المفهوم أية صلة وثيقة بأعمالهم . كما يرفض علماء النفس الاجتماعي معالجة مفهوم للشخصية يصر أن يؤسس بشكل صارم على نتائج بيولوجية وتجريبية . وعلى الرغم من ذلك ، فإنني آمل أن أكون قادراً على تبيان امكانية بناء سلسلة سببية متكاملة بدءاً من التفكير في البنى التشريحية والفيزيولوجية الموجودة في العقد القاعدية والقشرة الدماغية ، وعبر المفاهيم العصبية مثل الاثارة *

* « الاثارة » هي خاصية للقشرة الدماغية وتتراوح على متصل يمثل النوم والنعاس احدى نهايته ، بينما تمثل الاستثارة العقلية المميزة نهايته الأخرى وتقاس الاستثارة عادة بجهاز (EEG) Electroenceqhalograqh الذي يسجل موجات المخ ، اي النشاط الكهربائي للحاء المخ والذي يمكن التقاطه من فروة الرأس . وهناك ادلة على أن الاستثارة اساسية بالنسبة للنشاط العقلي ، وهي محددة ببنية لجذع المخ تدعى بالتكوين =

و « المخ الحشوي » ، والانتهاء بالفروق الفردية في التعلم ، والادراك ، والعتبات الحسية ، وموضوعات أخرى في علم النفس التجريبي . تشكل هذه الموضوعات الشروط « السابقة » التي يرتبط مفهوم الشخصية بها . أما من حيث الشروط « اللاحقة » التي ترتبط بهذا المفهوم ، فهناك تنوع من الظواهر الاجتماعية ، مثل العصاب ، والاجرام ، والسلوك الاجتماعي المضاد عموماً ، وقابلية التعلم ، والسلوك والاتجاهات الجنسية ، والاتجاهات الاجتماعية بشكل عام ، وكذلك انماط السلوك الاكثر تحديداً ، مثل اكتساب الانحراف اللفظي ، أو انجاب أطفال غير شرعيين ، أو النزعة للاصابة بالحوادث المفاجئة ، أو التفوق في الالعاب الرياضية . ويبين الشكل رقم (١) مخططاً عاماً لتلك السلسلة السببية ، حيث تبدأ وتنتهي بحقائق قابلة للملاحظة المباشرة ، في حين يتضمن المراكز جميع مظاهر مفهوم الشخصية الهامة ، إلا أنها غير قابلة للملاحظة على نحو مباشر .

من الواضح أن مفهوم الشخصية ، وهو مفهوم اساسي في هذا النموذج ، يستلزم تعريفاً دقيقاً . لقد استخدم مصطلح « الشخصية » بمعان كثيرة مختلفة حتى من جانب علماء النفس أنفسهم ، وان أي تعريف

= الشبكي . ولقد تبين أن خاصية انماط الرسوم المخية الكهربائية للاثارة المرتفعة ، موجودة عند الاشخاص الانطوائيين على نحو اكثر تواتراً بشكل حقيقي . كما تبين ايضاً أن السلوك الانفعالي محكوم إلى حد كبير بنظام مستقل نسبياً عن الجهاز العصبي المركزي ولحاء المخ ، ويسمى بالجهاز العصبي الودي ونظير الودي « السيمبثاوي والبارا سيمبثاوي » ، ويدعى عادة بـ « الجهاز الذاتي » بسبب تلك الدرجة من الاستقلالية الذاتية ان هذا النظام — المستقل نسبياً — محكوم ببنية اخرى لجذع المخ تدعى بـ « المخ الحشوي » ، وتوحي بعض الادلة بأن هذه البنية زائدة النشاط عند الاشخاص الانفعاليين والعصابيين . ان نظام التنشيط الانفعالي ، ونظام الاثارة اللحائي ، مستقلان عن بعضهما معظم الاوقات ولكن عندما يواجه شخص انفعالا شديداً ، فان هذا الانفعال يتدفق في النظام الاثاري .



الشكل رقم (١) : يمثل هذا الشكل مثالا مبسطاً يمكنه توضيح (وليس برهنة !) وجود مثل تلك السببية . لنأخذ شخصاً مزوداً وراثياً بمخ حشوي يؤهله على نحو مسبق لامتلاك انفعالات قوية ذات ديمومة طويلة ، وبخاصة انفعالات الخوف والقلق. كما أنه مزود بتكوين شبكي يجعل لحاءه في حالة ثابتة من الاثارة المرتفعة. تسهل مثل هذه الاثارة انتاج استجابات شرطية قوية ، وسنرى في الدراسات المخبرية أن مثل هذا الشخص يصدر رجاع خوف فيزيولوجية قوية عندما يتعرض لتهديد صدمة كهربائية مثلا ، وسوف ينتج استجابات شرطية على نحو سريع وقوي . ينزع مثل هذا الشخص إلى تطوير سمات شخصية تسم شخصياً منطوياً ذا استعداد عصابي . وإذا كانت الظرو جميعها غير مواتية ، فمن المرجح أن يصاب هذا الشخص بانهيار عصبي يترافق بأعراض القلق والمخاوف المرضية واعراض الوسواس القهري ، والاكتئاب التفاعلي .... وهكذا . وبالمقابل ، ان غياب الاثارة اللحائية القوية ، يؤدي إلى اشراط ضعيف ، وشخصية اندفاعية يحتمل أن تنغمس في نشاطات اجتماعية مضادة . لقد بحث الدليل على هذه الحقائق بشكل مفصل في كتابي (الاساس البيولوجي للشخصية) «The Biological Basis of personality» . ولقد عرضت هذه التأكيدات هنا على نحو ايقاني تماماً لتوضيح معنى المخطط الذي اقترحه هنا .

للشخصية هو تعريف عشوائي إلى حد ما ، ولايمكن الدفاع عنه إلا على اسس تشجيعية . يسود في علم النفس الحديث حالياً ثلاثة تصورات للشخصية بشكل اساسي . ولايصعب استخراج تعريفات أخرى عديدة، بيد أن أية تعريفات اضافية ستكون اما اشكالا مختلفة للتعريفات التى سنتناولها بالبحث الراهن ، أو انها تعريفات استخدمها نفر قليل من الناس حيث يصبح البحث فيها على نحو مفصل مجرد حذلقة لاضرورة لها . ان تصورين من تلك التصورات الثلاث ، يستبعدان على نحو بارع مصطلح « الشخصية » من الاستخدام العلمي كلياً ، على الرغم من انهما يتخذان اتجاهين مختلفين في تبرير هذا الاستبعاد . دعنا نتناول في البدء وجهة نظر (فلسفية) تبناها علماء نفس المانيون . تعنى وجهة النظر هذه بدراسة ووصف « الحالات الفرودية » ، ويعتقد مؤيدوها أن الأفراد جميعهم « فريدون » ، وأن هذه « الفرويدية » هي التي تكون شخصياتهم، والعلم لايستطيع تطويق الفريدية بدلالة قوانين عامة ، لذلك فإن دراسة الشخصية بطريقة علمية هو أمر مستحيل . تقوم هذه الحجة على مقدمة صادقة . فكما يقول سبينوزا « كل شيء موجود هو شيء فريد ، وما من شيء في العالم يماثل على نحو دقيق خفّي القديم » . ان هذه الحقيقة — حقيقة فريدية الاشياء — لم تحل دون انجاز نجاح معتدل لمحاولات العلوم الفيزياوية والكيمياوية في بناء سلسلة من الحقائق الصادقة عالمياً . وان وجود السيارات والتلفزيونات ، والقنابل الذريّة ، والبنسلين ، وأشياء أخرى مفيدة عديدة (ان أي عنصر من هذه الاشياء هو فريد ، فما من سيارة أو تلفزيون أو قنبلة أو مستخرج كيميائي ، يماثل على نحو دقيق سيارة أخرى أو تلفزيوناً آخر ، أو قنبلة أخرى ، أو مستخرج كيميائي آخر) يبين

وجود خلل في تلك الحجة . ربما تشك ، على سبيل المثال ، ان احدى السيارات ليست مماثلة على نحو دقيق لأية سيارة أخرى ، ولكن فكر في متغيرات مثل العدد الدقيق لجزيئات الهواء الموجودة في إطار كل عجلة ، أو في كثافة الطلاء الدقيقة (حسب وحدات الانغستروم) على كل نقطة ، أو في العدد الدقيق لنقاط البنزين في الخزان ، أو حتى في التناسقات الزمنيّة ـ المكانية للسيارة في لحظات متتالية ، فستجد بشكل واضح أنه لايمكن افتراض التماثل المطلق ، كما لايمكن في الواقع احراز مثل هذا التماثل . كل ما نستطيع قوله في هذا الصدد ، هو أن هناك « شيئين . يمكن أن يتشابها على نحو كاف يمكننا من معالجتهما كتمثالين في معادلتنا من أجل هدف معيّن . وبتعبير آخر ، قد تحول الفروق الباقية دون تماثل هذين « الشيئين » ، غير أن هذه الفروق لاصلة لها بالهدف العلمي موضوع الاهتمام . ولايمكن مضارعة مبدأ « الفريديّة » إلا بعدم صلته بالأهداف العلميّة . ان العالم يبحث عن الثوابت (المبادىء أو اللامتغيرات) ، وبقدر نجاحه في اكتشافها ، تغدو الدراسة العلميّة للظواهر موضوع البحث ممكنة. والسؤال عما إذا كان العالم اكتشف أم لم يكتشف مثل هذه الثوابت هو أمر تجريبي . فنحن لانستطيع اخباره بناء على اسس « قبليّة » أنه بصدد مهمة سخيفة ، على الرغم من أنه قد يكون كذلك فعلا ! تتوافر الآن حقائق علميّة لاجدال فيها تبيّن امكانية اكتشاف ثوابت معيّنة في سلوك الكائنات الانسانية . وإن مدى مواءمة اطلاق هذا التعميم على السلوك الانساني جميعه ، هو مسألة تتطلب التفكير ، ولايمكن اتخاذ قرار بشأنها إلا على اسس تجريبيّة .

تشير نتيجة هذا النقاش إلى أنه على الرغم من الحقيقة الاساسيّة للفريدية الشخصيّة ما زالت أمراً غير مشكوك فيه ، إلا أنها لاتعوق بالضرورة استخدام مفهوم الشخصيّة في اطار عمل علمي . شريطة أن يستخدم بمعنى مقيّد ، مع فهم دقيق للثوابت في السلوك الذي نرغب في تطبيق هذا المفهوم عليه . لقد نبّهنا إلى استبعاد التعميمات الغامضة . ومازال هذا التنبيه قائماً على نحو قوي . يجب علينا أن نبرر استخدامنا لمصطلح الشخصيّة ، وأن نبيّن في كل خطوة من خطوات البحث اننا في وضع نعالج فيه مجموعات معيّنة من الناس على انهم متكافئون ، أي أن نبيّن بان الخصائص التي يختلفون فيها لاعلاقة لها بهدفنا الخاص .

تقع وجهة النظر الفردية (أي دراسة ووصف الحالات الفردية) على احدى نهايتين متطرفتين لمتصل ، في حين تقع على نهايته الأخرى وجهة النظر المسماة بالسلوكية الجديدة المتمثلة على نحو ظاهري بأعمال سكنر واتباعه والمقبولة من جانب معظم علماء النفس على نحو ضمني . ان السلوك ، طبقاً لوجهة النظر السلوكية هذه ، هو وظيفة لحوادث (شروط) احتماليّة نستطيع معالجتها . فالفأر يتعلم الضغط على رافعة (عتلة) في صندوق إذا كان الضغط متبوعاً بالطعام . ويمكننا احراز ضبط تام على اداء الفأر من خلال تغيير توقيت تقديم الاثابات تقدم الاثابات أما على نحو منتظم « بعد كل مئة استجابة ضغط على الرافعة » أو على نحو عشوائي ، أو طبقاً لنظام آخر (. ويعنى علم النفس التجريبي على نحو مشابه بالمشكلة العامة لاكتشاف القوانين التي تأخذ شكل : ا = (ب) س ، حيث أن السلوك « ا » وهو وظيفة (الطبيعة الدقيقة لما يراد اكتشافه) لمثير أو مجموعة مثيرات « س » . هذا ويمكن بناء علم

نفس تام ومقنع بناء على مجموعة قوانين عامة من هذا القبيل . ان « ا » في مثالنا السابق (أي الضغط على الرافعة) هو وظيفة ل « س » (أي التعزيز بالطعام) ، وأن جميع ما يترتب على التجريبي عمله هو اكتشاف الوظيفة الدقيقة المؤثرة بتجريب جداول تعزيز مختلفة . اين موقع الشخصيّة في هذه الصورة ؟ لامكان للشخصيّة هنا ، فقد اصبحت شيئاً زائداً غير ضروري . فالعضويات جميعها تسلك طبقاً لقوانين يضعها (أو بالاحرى يكتشفها) عالم النفس لجميع الأفراد وكأنهم توائم متماثلة . قد يكون هناك فروق مزعجة على نحو سطحي في « التاريخ التعزيزي » للأفراد المختلفين ، (يجب أن لانقلق بصدد ذلك ازاء الفئران لأن تاريخها محكوم بشكل وثيق) بيد أنه يمكن ازالة هذه الفروق السطحيّة إذا كان ذلك ضرورياً . ويمكننا عموماً تجاهل العضويّة التي تؤدي وظائفها طبقاً لقوانيننا . هذا هو مبدأ « العضوية الفارغة » . ففي حين تعتبر الفردية بالنسبة لعالم النفس الفردي شيئاً نفسياً وغاية في الأهمية بحيث لايمكن تحليلها ، فقد توقفت هذه الفردية عن الوجود كلياً بالنسبة للسلوكية الجديدة ، أو أنها على أقل تقدير لم تعد ذات شأن أو اهتمام .

لم تأخذ هذه الفكرة شكلا ظاهرياً دائماً ، بل هي متضمّنة في الطرق الواقعية التي يستخدمها التجريبي لدى اداء تجربته . افترض على سبيل المثال أن التجريبي معني باكتشاف إلى اية درجة يحدد مستوى صعوبة المادة المتعلمة التعلم الاستظهاري (الصم) . سوف يختار عدداً قليلا من الطلاب (ينبغي لهؤلاء وفق الانظمة أن يشتركوا في التجارب النفسيّة كأفراد دراسة لعدة ساعات في كل فصل دراسي) ويطبق عليهم سلسلة من المقاطع اللفظية عديمة المعنى ، أو من الازواج المترابطة (مثل

الزوج XIR – PUW ، حيث يجب على فرد الدراسة أن يتعلم لفظ المقطع « PUW » عندما يعرض عليه المقطع « XIR ») . ويراعي التجريبي لدى بناء هذه المواد تكوين سلاسل تختلف في درجة صعوبتها، بحيث يكون من السهل تعلم بعضها، ومن الصعب تعلم بعضها الآخر. قديسهل تعلم سلسلة ما لأن القيمة الارتباطية للمقاطع مرتفعة (ان المقطع « NOD » اسهل من المقطع « PUW » (، أو قد يكون الارتباط بين مقطعين عديمي المعنى صعباً لأن المقطع الاول قد ازدوج سابقاً بمقطع مختلف . وفي أية حالة ، يستخرج المجرب متوسط الزمن الذي يستغرقه أفراد الدراسة في تعلم قوائم المقاطع المختلفة ، مبيّناً أن الفروق من حيث الزمن المستغرق في التعلم لايمكن أن ينشأ بالصدفة ، بل هو ناتج من صعوبة القوائم المتعلمة ، حيث يتم تعلم القائمة الصعبة على نحو ابطأ من تعلم القائمة السهلة . (ان القراء الذين لايصدقون بأن مثل هذه النتائج المبتذلة الساحقة تشكل المادة الاساسية للعديد من دوريات علم النفس ، مدعوون لمراجعة عدد قليل منها) . سوف يجد المجرب أيضاً أن هناك فروقاً فردية كبيرة في تعلم أية قائمة ، حتى فيما بين افراد الدراسة الذين اختيروا على نحو مرتفع ، كما هو الحال عندما يكون هؤلاء الأفراد طلاباً جامعيين . كما قد يجد المجرب في الواقع أن بعض الافراد ينجحون في تعلم القائمة الصعبة على نحو اسرع . سيعمل المجرب على تناسي هذه الحقائق بشكل مخجل وسريع محتجاً ببعض العوامل المتدخلة غير الهامة يقول بها الاحصائيون خصّيصاً لهذا الغرض ، ويدعى ذلك عادة بـ « الخطأ الاحصائي » . لقد ادخل هذا الاصطلاح اصلا ليتولّى أمر ذلك الجزء من التباين في النتائج التجريبيّة ، والذي

يمكن عزوه إلى اخطاء المصادفة . (الاخطاء المرتكبة نتيجة اختيار افراد الدراسة وطرق ضبط متغيراتها ــ المترجم) . ويفترض أن تصبح هذه الاخطاء ضئيلة جداً باجراء ضبط تجريبي مناسب على المتغيرات ذات العلاقة .

والأمر الغريب حول معظم التجارب النفسيّة، هو أن ذلك الخطأ، هو في الواقع كبير جداً ، ويتجاوز في كثير من الاحيان « الآثار الرئيسيّة » التي يعنى المجرب بها بشكل حقيقي ، مثل مستوى الصعوبة في مثالنا السابق ، على الرغم من اعتباره ضئيلا بالمقارنة مع الآثار الناتجة عن المتغيرات المعالجة . ويمكنك تذليل هذه المشكلة ـ مشكلة ضخامة مقدار الخطأ ــ احصائياً بزيادة عدد أفراد الدراسة أو بتكرار التجربة . وتستطيع بهذه الطريقة الحصول على نتائج تمكنك التقاليد الاحصائية من وصفها بأنها « ذات دلالة احصائية » . غير أن هذه الحيلة لاتزيل الضعف الاساسي لمجمل هذا العمل التجريبي ، والمتمثل في حقيقة مفادها أن افراداً مختلفين قد استجابوا على نحو مختلف لمجموعات مثيرات متماثلة ! ان افراد التوائم المتماثلة قد اصبحوا افراداً مستقلين ، وقد كانت صدمة هذا الحادث الجارح قاسية جداً بحيث كتبها علماء النفس التجريبيون كلياً في لاشعورهم . لقد اقترح بعض علماء النفس توسيع نموذج « المثير الاستجابة » لتسلسل الحوادث ، بحيث تتوسط العضوية بين المثير والاستجابة ، ويصبح النموذج على الشكل التالي « مثير ــ عضوية ــ استجابة » ، بيد أن قليلا من التجريبيين قد اخذوا الاقتراح ، واصبحت التوصية أكثر عرضة للنقد من التأييد . ان سكنر واتباعه لايقبلون حتى بهذا الوسيط اللفظي ، لأنهم كما رأينا ، يعاملون العضوية كشيء

« فارغ »(أي لاوجود لها أو لاأهمية لها على أقل تقدير) . تبرر هذه المعالجة المتعجرفة في بعض الاحيان بأحد سببين هما :

(١) القول بأن العلم معنّي بالقوانين القابلة للتطبيق عالمياً ، وأن الفروق بين الأفراد ليست قانونية ، لذلك يمكن احالتها بشكل مناسب إلى الخطأ الاحصائي .

(٢) الفروق الفردية لاتنشأ إلا لأن المتغيرات ذات العلاقة لم تكن مضبوطة بشكل مناسب ، وستزول هذه الفروق عندما يمكن ضبط هذه المتغيرات بشكل محكم . أن أياً من هذين السببين ليس صحيحاً . فالاختلافات الفردية قانونية كما سترى ، لذلك يجب أن تشكل جزءاً من الضبط الأفضل يؤدي إلى زوال الفروق الفردية ، بل على العكس . ان احكام الضبط يزيد وضوح هذه الفروق .

ان مثالا نطرحه في هذا المجال ، قد يجعل النقاش فيه أكثر واقعيّة . افترض اننا نطرح سؤالا يبدو لعالم النفس التجريبي ذا معنى تماماً ، وهذا السؤال هو : هل يؤدي تقديم المقاطع العديمة المعنى بمعدل ثانيتين أو اربع ثواني لكل مقطع إلى أية فروق في عدد الاخطاء المرتكبة قبل انجار التعلم ، في حالة تعلم المقاطع العديمة المعنى ؟ يصنف افراد الدراسة في تجربة نموذجية تتناول الاجابة عن هذا السؤال في مجموعتين ، ويتم تقديم المهمة التعليميّة لاحدى المجموعتين بأحد معدلي سرعة التقديم أولا ، ثم بمعدل سرعة التقديم الآخر ، في حين تقدم المهمة ذاتها إلى المجموعة الأخرى تعكس ترتيب سرعة معدل التقديم . تتمخّض هذه التجربة عن نتيجة مفادها أن استخدام معدل الثانيتين في تقديم المقاطع اللفظيّة العديمة المعنى

يؤدي إلى مزيد من ارتكاب الأخطاء . تبدو هذه النتيجة معقولة تماماً ، وتتفق مع ما قد يتوقعه الفرد . فالضغط الذي يتعرض له الفرد عندما يجب عليه أن يتعلم المادة بشكل سريع يجعله اقل قدرة على تعلمها بشكل مناسب أو أن ضرورة استعادة المادة المتعلمة على نحو سريع جداً تعمل ككابح يعـّوق استرجاعها . ومهما كان الأمر ، دعنا نتناول هذه المناقشة على نحو أكثر عمقاً . من الواضح أن الناس يختلفون من حيث درجة تعرضهم للارتباك لدى مواجهة مواقف التسريع . فالناس الانفعاليون الذين يتصفون بنزعة للعصاب ، قد يكونون عرضة لهذا النوع من « الارتباك » بشكل خاص . لنفترض اننا طبقنا استبيان شخصيـّة على افراد دراستنا الآنفة الذكر ، وطرحنا عليهم اسئلة حول همومهم وقلقهم وارقهم وآلام رؤوسهم ، ومن ثم امعنا النظر في النتائج (نتائج تعلم المقاطع العديمة المعنى) الخاصة بالأفراد ذوي الاجابات « الانفعالية » أو « العصابيـّة » الكثيرة ، والخاصة بالأفراد ذوي الاجابات « الانفعالية » أو « العصابية » القليلة . تسفر مقارنة النتائج عن نتيجة منوّرة ، إذ تبيـّن عدم وجود فرق بين الأفراد المتزنين انفعالياً من حيث عدد الاخطاء المرتكبة ، سواء تم تقديم المثير (المقطع العديم المعنى) بمعدل ثانيتين أم بمعدل أربع ثواني وقد كان متوسط عدد الاخطاء التي ارتكبوها في الحالتين (٦٥) خطيئة . اما افراد الدراسة « العصابيون » (وضعت كلمة « عصابيون » بين قوسين للاشارة إلى أن هؤلاء الأفراد ليسوا مرضى عصابيين بالمعنى الاكلينيكي للكلمة ، بل هم طلاب اسوياء تماماً ، لكن اجاباتهم على استبيان الشخصيـّة بيـّنت أن لديهم نزعة طفيفة نحو الاضطراب الانفعالي) فقد ارتكبوا في شروط معدل التقديم السريع ضعف عدد الاخطاء (٩٠ خطيئة) التي

ارتكبوها في شروط التجربة يؤثر في بعض الأفراد دون البعض الآخر . لذلك لايمكن الوصول إلى استنتاج عام بهذا الصدد ، وأن الفروق الفردية ليست نتيجة المصادفة ، بل هي فروق حقيقيّة ذات معنى تماماً ويمكن التنبؤ بها فعلا . وقد تم اجراء التجربة في الواقع لاختبار هذه الفرضيّة بالتحديد . كما وجدنا ايضاً أنه لايمكن القول بأن اثر درجة مرتفعة من « العصابية » هو امر ايجابي أم غير ايجابي ، لأن تحديد ذلك الأمر يعتمد على شروط الوضع . فالأفراد « العصابيون » هم افضل من الأفراد المتزّنين عندما يعملون في ظل شروط لاتستثير القلق إلى أية درجة ملحوظة أي عندما يعملون في ظروف لايخضعون فيها لضغوط الوقت . كما أن هؤلاء الأفراد اسوأ من الأفراد المتزنين انفعالياً بشكل سوي . عندما تكون شروط العمل صعبة . سيكنس عالم النفس التجريبي هذه النتائج الهامة جميعها ويضعها تحت سجادته بحيث يعيدها إلى الخطأ الاحصائي وتغدو بذلك منسيّة . ان كل ما يفيدنا التجريبي به في مقاله الأخير حول الحقيقة العالميّة المزعومة ، هو أن معدلات التقديم السريعة هي امر معوق لدى مقارنتها بمعدلات التقديم البطيئة ان هذه العبارة صادقة جزئياً في احسن الاحوال ، وتسيء تمثيل تعقيد الوضع على نحو فاضح .

ان الاهتمام بالشخصيّة كمتغير متدخل يمكننا من اكتشاف حقائق اعمق عديدة حول التجربة . يمكننا هذا المتغير من تخفيض حجم الخطأ الاحصائي على نحو دراماتيكي ، ويجعلنا قادرين على تكوين تنبؤات بالغة الدقة حول سلوك الأفراد . لذلك قد نتمكن من الاستنتاج (بحذر شديد طبعاً !) بأن اطفال المدارس ذوي الدرجة المرتفعة من حيث « الانفعالية »

ربما يعملون على نحو أفضل في أوضاع الاختبارات الروتينيّة (الحساب الآلي) ويفشلون في الاختبارات التي تتطلب ايجاد حلول اصيلة للمسائل الحسابية . أو ربما نستنتج أن الاطفال الذين يتصفون بدرجة مرتفعة من الانفعالية يعملون بشكل أفضل في الامتحانات « التجريبية » ، إلا أنهم قد يفشلون في الامتحانات الجادة . (لقد لقي هذان التنبؤان بعض التأييد التجريبي). وأخيراً يمكّننا هذا التوسع في التجربة بحيث تتضمن متغيرات الشخصيّة ، من صدق النظريات التي تتناول طبيعة التعلم ، أو طبيعة القلق ، كما يجعل من الممكن بالنسبة لنا الرد على اولئك الذين يعتقدون بأن مقاييس الشخصيّة غير مفيدة لأنه يمكن تزييفها بسهولة ، ولأن الاطفال (أو الراشدين بالنسبة لهذه المسألة) لايعرفون انفسهم . من الواضح انهم يعرفون انفسهم على نحو كاف تماماً بحيث يجعل التحقق التجريبي من التنبؤات امراً ممكناً ، وأنهم لم يزيفوا نتائجهم على نحو كاف بحيث يتدخل في التجربة ويؤثر في نتائجها .

ان للفئران فرديتها ايضاً ، وصحيح دون ريب أن ما يمكن أن يقال عن فأر ما ، سوف يكون صادقاً بالنسبة لفأر آخر . لقد تناولت احدى التجارب مشكلة اثر أبخرة كحولية في معدل نشاط الفئران . تبدو هذه المشكلة بسيطة وواضحة تماماً . ومع ذلك ، قام الباحث باختبار ست سلالات مختلفة من الفئران ، ووجد أن أبخرة الكحول قد ادت إلى زيادة نشاط سلالتين ، وإلى تخفيض نشاط سلالتين ، في حين لم تؤد هذه الابخرة إلى أية آثار ملحوظة عند سلالتين . ما قيمة نظرية « توائم البيضة الموحدة » الآن ! من الواضح أنه يمكن الحصول على أية نتيجة مرغوب فيها

عديدة من خلال الاختيار المناسب لأفراد الدراسة ، سواء كان هؤلاء الأفراد كائنات انسانية أم حيوانية . (وتذكر أن افراد التجارب النفسيّة يتم اختيارهم على نحو مرتفع جداً في غالبيّة الحالات وأن العينات العشوائية لمجتمع الدراسة لم تخضع لاختبارات عمليّة اطلاقاً . وعوضاً عن ذلك ، نعول بثقة تامة على طلاب جامعيين اذكياء ، ذوي ثقافة عالية ، ودافعية مرتفعة ، ولديهم افكار كاملة حول هدف التجربة التي يطلب منهم الاشتراك فيها — وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فكيف يتسنى لنا تعميم أية نتائج نستخلصها من مثل هذه المجتمعات الدراسية غير العادية جداً ؟) حتى أنه قد اقترح أن بعض الصراعات النظرية الضارية بين المعسكرين المتعارضين في نظرية التعلم لاتعود إلى أية فروق حقيقيّة ، بل تعود إلى مجرد حقيقة أن مجموعة من علماء النفس قد اجروا تجاربهم على فئران استولدت خصيصاً لتكوين سلالة « انفعالية » ، في حين اجرى علماء مجموعة اخرى تجاربهم على فئران « لاانفعالية » . وهكذا ، هل يمكن اهمال الفروق الفرديّة ومتغيرات الشخصيّة » من الثأر لنفسه ، حتى عندما يتناول بحثنا فأراً وضيعاً .

إذا كان علماء النفس التجريبيّون مذنبين ، فإن علماء النفس الاجتماعيين مذنبين كذلك ، لأنهم يرتكبون الخطأ نفسه تماماً . ان الاسئلة المطروحة ، والمشكلات المعروضة ، تصاغ بمصطلحات عالمية على نحو دائم تقريباً . يتساءل عالم الاجتماع : هل تؤدي الاسر المنشقة (الاسر التي ينفصل فيها الوالدان نتيجة طلاق أو خلاف مما يحرم الاطفال من الرعاية الوالدية المناسبة — المترجم) إلى انتاج الجريمة ؟ ويتساءل عالم

التّربية : هل المديح افضل من اللوم لاستثارة دافعيّة الاطفال ؟ ويتساءل الطبيب النفسي : هل العلاج النفسي افضل من الدراما الاجتماعية ؟ (الدراما الاجتماعية هي احدى طرق العلاج الجماعي وتعتمد على قيام الأفراد المشكلين بتمثيل ما يعانون من مشكلات — المترجم) . بيد أن هذه الاسئلة ليست ذات معنى ، ولا تشكل مشكلات يمكن الاجابة عنها بجواب فريد . فقد تأخذ الآثار وجهة معيّنة لدى بعض انماط الناس ، في حين قد تأخذ وجهة مغايرة لدى انماط اخرى من النا س . لقد اوحت التجارب أن الاطفال الانطوائيين يسجحون بشكل افضل عندما يتلقون المديح فقط ، أما اللوم فيؤدي إلى استثارة دافعية الاطفال الانبساطيين نحو أكثر ارتفاعاً . وتبيّن بشكل مشابه أن الاطفال القلقين يستجيبون على نحو يختلف عن استجابة الاطفال غير القلقين . ويستجيب مرضى الطب النفسي بشكل مختلف لانماط العلاج المختلفة . وهناك بعض الادلّة على أن المصابين بمخاوف مرضيّة ولديهم قلق قوي ، يستجيبون على نحو افضل للعلاج المسمى بـ « التفجر الداخلي » (Imqlosion) ، بينما يستجيب المصابون بمخاوف مرضيّة — الخوافون — ولديهم قلق ضعيف على نحو افضل للعلاج المسمى بـ«سلب الحساسية») . (Desensitizaion) *

* يشكل العلاج بالتفجر الداخلي والعلاج بسلب الحساسية نوعين مختلفين من معالجة اطفاء رجاع الخوف الانفعالي الشرطية ، مثل المخاوف المرضية المتنوعة . يتعرض المريض في حالة العلاج بالتفجر الداخلي إلى موضوع او وضع مخيف لفترة طويلة من الوقت حيث يترتب على ذلك انتاج خوف وقلق كبيرين . ويشفى المريض بهذا العلاج (او بالاخرى جهازه العصبي الذاتي) لأنه يدرك في نهاية المطاف أنه ما من شيء مميت او حتّى خطير يمكن أن يحدث له على الرغم من تعرضه لذلك الوضع المخيف . او قد يكون هناك تعويد بسيط ، إذ لا يمكنك الاحتفاظ بحالة من الخوف=

ان للاسر المنشقّة آثاراً مختلفة على الاطفال المختلفين ، وما من تعميم عالمي ممكن . يوجه علماء النفس الا جتماعيون تأييداً كلامياً ظاهرياً لهذه الآراء في أغلب الاحيان ، إلا أن أعمالهم لاتحمل دليلا على تحول تام بصدد العمل بموجبها .

تنطوي الحجة السلوكيّة طبعاً ، رغم جميع ماقلناه حتى الآن ، على بقيّة اساسية ذات معنى جيد . إن آثاراً تجريبيّة معينة ، هي على درجة من الاتساع والعالميّة بحيث لاتؤدي الفروق الفردية إلى اختلاف كبير جداً . وقد تكون القوانين العامة القائمة على ايجاد « المتوسط » مفيدة ومعقولة لدى البحث في هذه الآثار . ان الناس الجائعين (والفئران كذلك) سوف يبحثون عن الطعام ، وسوف يؤدي العطش إلى سلوك الشرب . إلا أن مثل هذه التعميمات العالميّة نوعاً ما هي ضئيلة ومتباعدة ، ويصعب اعتيارها اكتشافات عالميّة هامة . لقد تم انجاز بعض الاكتشافات الواقعية الهامة ، وسأكون آخر شخص ينتقص من قيمة العمل التجريبي الأصيل . ومع ذلك ، فإن الحقيقة التي ما زالت ماثلة امامنا ، هي أن الفروق الفرديّة تلعب دوراً هاماً في الغالبيّة العظمى من الحالات ، وتتعرض لخطر اهمال الباحث لها .

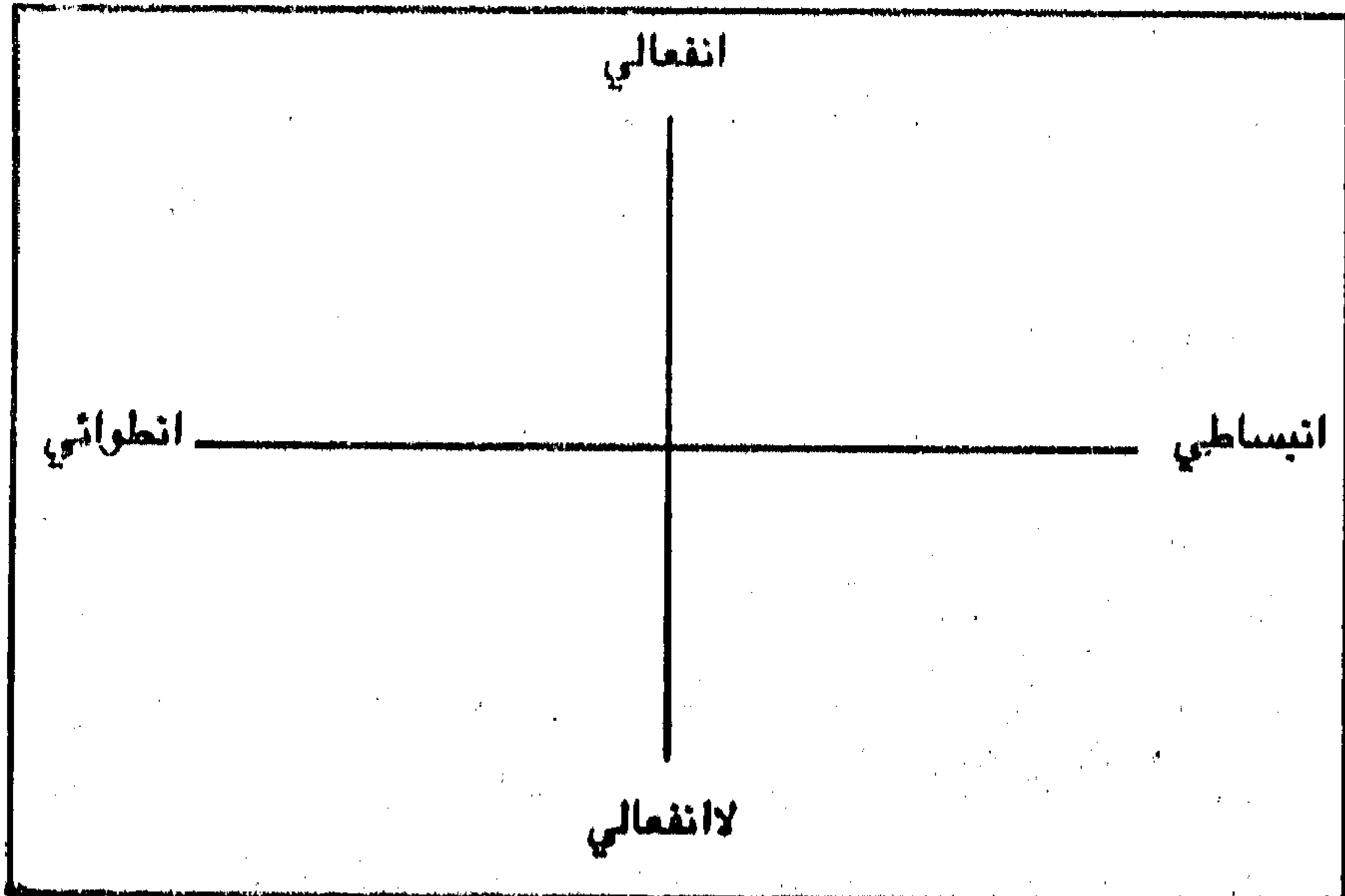
= الشديد إلى الأبد . اما في حالة العلاج بسلب الحساسية ، فيصار إلى تعريض المريض تدريجياً للشيء أو الوضع الذي يستثير خوفه مع مراعاة كونه في حالة من الاسترخاء . يجنب المريض في هذا العلاج جميع الرجاع الانفعالية القوية ، ويدرب تدريجياً على مواجهة الموضوع او الوضع المخيف بحيث يأخذ هذا الوضع شكلا تهديدياً اكثر فاكثر . لقد تبين أن هذين النوعين من العلاج ناجعان بشكل معقول ، ولكن ما زالت هناك مشكلة تحديد متى ينبغي تفضيل احدهما على الآخر ، ومشكلة لماذا يكون احدهما اكثر فاعلية في علاج احدى الحالات ، بينما يكون الآخر اكثر فاعلية لدى علاج حالات اخرى .

ولكن كيف يتسنى لنا اكتشاف المتغيرات الهامة والثابتة التي تسمى وراءها إذا أردنا ادخال « الشخصيّة » كمتغير متداخل في المجال التجريبي والمجال الاجتماعي كليهما ؟من الواضح أن مصطلح « الشخصيّة » واسع وعام جداً بحيث يمكن أن يمثّل أي شيء ما عدا برنامج بحث علمي ، لذلك يجب تحليله بتفصيل شديد قبل أن نتمكن من استخدامه . يحتل الاستخدام المقترح لمصطلح الشخصيّة موقعاً متوسطاً تقريباً بين النهايتين المتطرفتين اللتين انتقدناهما . فالشخصيّة ليست فريدة على النحو الذي يقول به علماء النفس الفرديّون ، وليست عالميّة على النحو الذي يرغب فيه السلوكيّون . لقد اقترحنا عوضاً عن ذلك ، ان هناك ابعاداً معيّنة للشخصيّة ، وهي ابعاد هامة وذات صلة وثيقة بالاسئلة مواقع الناس عليها بدءاً بالمرتفع وانتهاء بالمنخفض ، كما أنها تؤدي إلى احداث انماط للشخصيّة كتلك التي يحدثها بعد الانبساط — الانطواء . وبذلك نتمكن من تقسيم المجتمع الكلي (المجتمع موضوع الدراسة) إلى مجموعات متجانسة نسبياً من حيث خصائص معيّنة توحي النظرية بأنها خصائص هامة وعلاقية وثابتة تقريباً. والسؤال عما إذا كانت التجربة تؤيد حقاً النظريات التي تعتمدها لدى اختيار ابعادنا ومجموعاتنا ، هو امر تجريبي طبعاً . ومن غير المفيد أن نصرّ ، كما فعل العديد من علماء النفس ، على أن برنامج بحث علمي من هذا النوع يشوّه الفردية الانسانية ، او أنه يدخل تعقيداً تافهاً في مجال البحث النفسي . ان الحقائق وحدها التي يجب أن تقرر ما إذا كان برنامج كهذا ناجحاً أم غير ناجح . وقادراً على انجاز اسهام اصيل في علم النفس . ان الاستدلال « القبلي » المسبق في العلم هو امر محرّم . وقد قطعنا شوطاً منذ عهد الفيلسوف هيجل عندما اعلن بوضوح استحالة امكانية وجود أكثر من سبعة كواكب سيارة .. على

اعتبار أن هذا العدد سحري — ولقد اكتشف الكوكب الثامن بعد هذا التصريح بفترة وجيزة فقط . قد يكون من غير السهل طبعاً اكتشاف أكثر الاقسام فائدة ، أو قياسها على نحو دقيق ، أو دمجها في نظرية عامة تتضمن ايضاً علم النفس التجريبي وعلم النفس الاجتماعي . ومع ذلك ، فإن المغامرة تستحق الجهد لما قد يترتب على النجاح فيها من ثمار .

ان النظرية التي تبدو الأفضل ملاءمة للحالة التي نحن بصددها ، هي احدى النظريات التي تعود في اصولها إلى عصور مغرقة في القدم . وعلى الرغم من قبول هذه النظرية ، إلا أنها بحاجة إلى شيء من الصقل واعادة البناء عموماً . تعود نظرية الأمزجة الأربعة — الصفراوي ، والدموي ، والبلغمي ، والسوداوي — إلى الطبيب اليوناني جالينوس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي ، وحتى أنها تعود إلى ابعد من ذلك . وقد جعل « عمانويل كانت » من هذه الامزجة عمله شائعة في كل صالون ثقافي في اوروبا عندما بنى عليها بحث الشخصيّة في كتابه « الأنثربولوجيا » (Anthropolgie) . ولقد اجرى « وليم فوندت » الذي يدعى بأبي علم النفس الحديث احياناً ، العمل الاصلاحي الرئيسي الذي تحتاج إليه هذه النظرية . لقد نبذ فوندت احد معتقدات القدماء الأساسية عندما بين أن النظر إلى هذه « الانماط » الاربعة كأنماط مانعة على نحو تبادلي (أي أن اتصاف احد الأشخاص بأحد الانماط الأربعة يحول دون اتصافه بأي نمط آخر — المترجم) ، وأن تصنيف الناس بدلالة واحد أو آخر من هذه الانماط ، هو امر مناف العقل . لقد اصرّ عوضاً عن ذلك على أن السوداويين والصفراويين يشكلون معاً انماطاً انفعالية ، في حين يشكل

الدمويون والبلغميون انماطاً الانفعالية . وبذلك يمكن تصنيف الناس على طول بعد لا إنفعاليّة . فالصفراويون والدمويون متقلّبون (أو منبسطون كما ندعوهم الآن) ، اما البلغميون والسوداويون فهم غير متقلّبين (انطوائيون) . ويمكن تصنيف الناس كذلك على طول بعد ثان ، هو بعد الانبساط ـ الانطواء ، حيث يشكل هذا البعد لدى تقاطعه عمودياً عمودياً مع البعد الاول (الانفعالية) زوايا قائمة . يتوافر لدينا بهذه الطريقة بعدان متصلان بدلا من اربعة اصناف مستقلة . توجد « الانماط » الاربعة الاصليّة الآن في الربعيّات الاربع الناتجة من تقاطع هذين البعدين عمودياً مشكلين ما يشبه الصليب ، بحيث يقع الناس الانفعاليون واللاانفعاليون بشكل متطرف على نهايتي احد البعدين ، بينما يقع الناس الانبساطيون والانطوائيون بشكل متطرف على نهايتي البعد الآخر ، كما هو موضح في الشكل رقم (٢) . ان الصفراويين وفقاً لهذا الشكل هم انبساطيون



انفعاليون ، وإن السوداويين هم انطوائيون انفعاليون . لقد قاوم هذا المخطط ، باجراء تنقيحات ثانوية عليه ، صروف الدهر . وهناك عدد قليل من البحوث الرصينة التي تناولت الشخصيّة مستخدمة اختيارات واستبيانات بنيت على هذا المخطط وانتشرت على نحو واسع ومقنع ، إلا أنها لا تعرض هذين البعدين (انبساطي — انطوائي ، انفعالي — لاانفعالي) على نحو بارز . لقد راجعت في كتابي « بنية الشخصية الانسانية » (The Structure of Human Personality)ما كتب عن الشخصيّة جميعه ، ودعني هنا ادلي بالحقيقة فقط دون أي توسع في ذلك . (استخدم العديد من الباحثين مصطلحات مختلفة للدلالة على هذين العاملين أو البعدين ، فعالم الشخصيّة (ر . ب . كاتل) يستخدم مصطلحي « الخارجي » و « الداخلي » للدلالة على بعد الانبساط — الانطواء ، مصطلح « القلق » للدلالة على بعد الانفعالية أو العصابيّة ، كما يستخدم علماء آخرون مصطلحات مختلفة . ان استخدام مصطلحات مختلفة ليس امراً ذا شأن طبعاً ، لأن المصطلحات عشوائية اصلا ، غير أن مضاعفة المصطلحات قد يكون امراً مضللا .) .

لقد بنيت نظريات « جاليبوس » و« كانت » وحتى « فوندت » على الملاحظة ، إلا أنها لم تكن أكثر سوءاً من غيرها في هذا المجال . لكن الملاحظة غير المزودة بأدوات البحث العلمي ليست موثوقة في العلم بشكل تام ، فنحن نتطلع إلى الموضوعيّة والدقة والقياس . ماذا تعني النظرية حقيقة ؟ توحي النظرية بأن سمات معيّنة مثل المقدرة الاجتماعية ، والحيوية ، والفاعلية . . . توجد مقترنة مع بعضها ، ويجب علينا ازاء هذه الحقيقة التجريبيّة المزعومة افتراض مفهوم « فوقي » مثل

مفهوم « الانبساط » تندرج تحته تلك السمات . وبذلك تؤسس « الانماط » بناء على الارتباطات المتبادلة الملاحظة بين السمات . لايتضمن ذلك أن على كل شخص أن يكون أما منبسطاً مهتاجاً أو منطوياً منسحباً ، بل يعني فقط أن باستطاعة كل شخص أن يجد مكاناً له على هذا البعد (بعد انبساطي — انطوائي) أو المتصل المحدد . ولقد تبيّن في واقع الأمر أن معظم الناس يقعون فعلا بين النهايتين المتطرفتين لبعد الانبساط — الانطواء ، وتشكل درجاتهم عليه منحنى شبيهاً جداً بمنحنيات توزع صفة الطول أو الوزن أو الذكاء بين الناس . والشيء ذاته يصدق على بعد الانفعالية أو العصابية . هل تؤيد الوقائع ما توحي به النظرية ؟ الجواب : نعم . فقد قدمت مئات البحوث التي لم تتناول دراسة الشخصية في اوروبا وامريكا فحسب بل في اليابان والهند وثقافات غير بيضاء اخرى ايضاً : دليلا مقنعاً على أن هذه المفاهيم ذات امكانية تطبيقيّة واسعة جداً . وسنبالغ لو قلنا أنها قابلة للتطبيق على نحو عالمي ، لأن هناك العديد من الجماعات لم تتناولها البحوث بالدراسة (من الاسكيمو وحتى البوشمن) ، ولكن يحتمل أن تكون استثناءات كهذه غير هامة نسبياً لهذا تعتبر الابعاد التي تم وصفها خاصيّة النوع الانساني بكل معنى الكلمة . ويوحي منشأها التاريخي بأنها قابلة للتطبيق منذ الفي سنة خلت على اليونان والرومان على حد سواء .

تستخدم معظم البحوث مقاييس تقدير ، حيث يقوم ملاحظون بإعطاء درجات لأفراد الدراسة بناء على سلوكهم أما في الحياة بشكل عام ، أو في اوضاع خاصة أعدّت تجريبياً . وهكذا إذا كنت معنياً

بدراسة المثابرة ، فيمكنك أن تسأل المعلمين أو الآباء أو رفاق المدرسة عن مثابرة مجموعة معينة من الصبيان أو البنات في الحياة اليومية ، أو في أو في المدرسة ، أو في النشاطات الرياضيّة . . . الخ . أو يمكنك اعداد اختبارات خاصة لايعرفها الاطفال وتقيس مثابرتهم . وعلى سبيل المثال يمكنك أن تعطي الاطفال اختبار ذكاء وأن تقيس الوقت المستغرق في الاجابة عن كل فقرة من فقراته . والآن إذا ادخلت في الاختبار فقرة صعبة للغاية بحيث يتعذر على الأطفال الاجابة عنها ، فإن طول الفترة الزمنيّة المستغرقة بين البدء في الاجابة وحتى التخلي عنها ، تشكل مقياساً للمثابرة . كما يمكنك قياس قوتهم العضليّة استخدام أداة لقياس القوة الميكانيكية . ثم تطلب منهم سحب الاداة إلى منتصف القوة القصوى طالما استطاعوا على ذلك صبراً . ولما جرت موازنة بينهم من حيث القوة يعتبر مدى تحملهم لسحب الاداة مقياساً للمثابرة . ترتبط هذه « الاوضاع الحياتية المصغرة » مع بعضها تماماً ، كما ترتبط بمقاييس تقدير خارجية ايضاً . توفر هذه المقاييس بجملتها صورة صحيحة عن سمات انسانية معينة بشكل معقول . كما وتتفق هذه المقاييس تماماً مع استبيانات تقدير الذات التي يملؤها افراد الدراسة انفسهم لدى تقديرهم لشخصياتهم الخاصة بهم . ان هذه الاستبيانات — استبيانات تقدير الذات — عرضة للتزييف طبعاً ، ويلاحظ هذا التزييف عادة عندما يكون الشخص المعني مدفوعاً بالرغبة في اظهار نفسه بصورة حسنة ، كما هو الأمر عندما يطلب منه ملء استبيان عرضاً عند تقدمه لشغل وظيفة ما . (يتضمن كتاب « انسان التنظيم » — organiszation Man — قواعد تساعد

طالب الوظيفة في التغلب على الاستبيان . ويبدو أن معظم الناس ليسوا بحاجة لهذه القواعد ، إذ يتمكنون من التغلب على الاستبيان من دونها . لذلك هناك ارتياب كبير في قيمة الاستبيانات عند استخدامها لأغراض الاختيار المهني) . ولكن عندما لا توجد مثل تلك الدافعيّة ، يكون الناس صادقين ومتبصرين بشكل مدهش . لقد اعتدت اتخاذ موقف شكوكي جداً ازاء النتائج التي تسفر عنها الاستبيانات ، والبرهان على ذلك مقنع تماماً تكون هذه الاستبيانات صادقة على نحو معقول إذا تم بناؤها جيداً ، وتم التحقق من صدقها بطريقة ملائمة ، وطبقت في ظل شروط مناسبة . ان مثل هذه المواصفات هي اساسية في الاستبيان . أما الاستبيانات السخيفة التي يجدها الفرد احياناً في صحافة « الاحد » تحت عناوين مثل : « هل انت زوج جيد ؟ » أو « كيف حياتك الجنسية » فهي استبيانات عديمة القيمة تماماً .

يزعم احياناً أن ليس لنتائج مثل تلك الدراسات قيمة عاميّة لأنها تؤدي إلى برهان دائري . وقد تبيّن فعلا أن الفكرة الكليّة لعلم نفس « السمة » ليست تقدماً على مذهب الغرائز القديم . فقد درج اصحاب هذا المذهب على القول بأن الاشخاص يسلكون باسلوب اجتماعي مألوف نتيجة « غريزة » الاجتماعية التي يتمتعون بها ، ويسلكون بطريقة عدائية نتيجة « غريزة » العدوانية . وكان الدليل على هذه الغرائز المناسبة حقيقة بسيطة مفادها أن الناس كانوا اجتماعيين الوفين أو عدوانيين ! من الواضح أن هذا الدليل دائري وغير علمي . ولكن هل السمات غير

مفيدة على نحو مماثل ؟ من المؤكد أننا نشتق فكرة سمة الاجتاعيّة من ملاحظة حالات معيّنة يفضل فيها شخص الذهاب إلى حفلة على المكوث في البيت والانشغال بالقراءة ، أو أنه يجد متعة في التحدث إلى الناس ، أو أنه يشعر بعدم السعادة عندما ينكفىء إلى نفسه . ان الشيء الذي لايمكن إنكاره هنا ، هو أن اشتقاق السمة على هذا النحو ، لايمكننا من تفسير السلوك الاجتماعي بدلالة السمة ، إذ ما زلنا لانعرف شيئاً عن العناصر السببيّة في الوضع ، أي اننا لانستطيع معرفة لماذا يسلك بعض الناس بهذا الاسلوب ، بينما لايسلك آخرون بالاسلوب ذاته . بيد أن ذلك — أي البحث في اسباب السلوك — ليس هدف علم نفس السمة . فالوصف يتقدم على التحليل السببي . ويجب علينا باديء ذي بدء أن نعرف ما هو الشيء الذي ينبغي لنا تفسيره ، وذلك قبل أن نأمل في تقديم تعليل تطوري أو سببي له . لنأخذ سمة « الاجتماعية » كمثال : لقد بينت دراسة تفضيلية عدم وجود سمة مفردة للاجتماعية ، بل هناك ثلاث سمات للاجتماعية على الأقل ، وهي سمات مستقلة عن بعضها تماماً . فالانطوائيون لااجتماعيون لأنهم لايبالون بالناس الآخرين على نحو خاص ، غير انهم يستطيعون النجاح تماماً في وضع اجتماعي عندما يشعرون بميل قوي لذلك . والعصابيون لديهم ميل قوي للنجاح في وضع اجتماعي ، إلا أنهم يخشون الناس الآخرين ، أو يخشون خداع انفسهم . أما الناس ذوو النزعات الذهانية ، فهم ميالون إلى كراهية الناس الآخرين لذلك يحافظون على الابتعاد عنهم . توضح هذه النتائج الوضع الوصفي وتجعل من الممكن الآن المضيّ في وضع فرضيات سببيّة . ان الأفكار

الغامضة لـ « الاجتماعيّة» لن تزودنا بنقطة انطلاق ضرورية لتقدم ابعد . وطالما كنا لانغالي في تقادير النجاح الذي احرزناه في تحليلاتنا الاحصائية للشخصيّة إلى « سمات » ، يمكننا أن ندعي بشيء من التسويغ ، بأننا قد خطونا فيما وراء الحس العام ، وانجزنا بعض النجاح في الخطوة الأولى من بحثنا العلمي ، وهي المرحلة الوصفيّة .

نصل بعد ذلك ، وعلى نحو وصفي ، إلى ما يمكن تسميته بأنه صورة ثنائية البعد للانسان ، حيث يتموضع تعقيده غير المحدود في نقطة ما من تقاطع بعدي انبساط — انطواء ، وانفعالية — اتزان . يرى معظم الناس بما فيهم العديد من علماء النفس ، أن هذه الصورة مفرطة في التبسيط وسخيفة تقريباً ، بحيث تثير من السخرية ما يجعل أي شخص ساذج يشك في قدرة صورة محددة احاديّة كهذه أن تفي الطبيعة الانسانية حقها « في جميع جوانبها » . غير أن ايفاء الطبيعة الانسانية حقها ليس هو هدف عالم النفس طبعاً . فعالم النفس لايحاول منافسة الفنان في تصوير الحياة ، بل يهدف إلى التحليل ، ومع ذلك قد يكون الكثير مما يقوم به حرماً على الفنان . ان التحليل يعني الامساك بخيط واحد من جديلة متنوعة على نحو غير محدود ومتابعته حتى النهاية . والتحليل يعني ترجمة قوس قزح وسحره إلى اشعة ضوئية ساطعة من خلال تجربة موشور نيوتن — تذكر في هذا المجال غضب « غوتيه » ومحاولاته العقيمة للاطاحة بابحاث نيوتن في اللون والضوء ، عندما كان مدفوعاً بافتقار شعري إلى فهم مهمة العالم والتعاطف معه . ان التحليل يعني اختزال « ماندل » للتنوع والتعقيد اللامتناهيين لميكانيزمات الوراثة إلى عدد بسيط من حبوب البازلاء الملساء والمتغضّنة في ذرية جيلين ابويين لنوعين من النباتات . لقد اعتبرت

اعمال ماندل غير جديرة بالاهتمام طبعاً ، ولم يأخذه أي شخص على محمل الجد ، حتى من جانب زملائه العلماء الذين كانوا أكثر اهتماماً منه بمجموعية الوراثة ، عند محاولتهم تفسير عدد كبير غير محدود من السمات تقريباً ، ولم يقصروا وصفهم على سمة واحدة فقط . ومع ذلك فقد كان نيوتن وماندل على صواب طبعاً ، بينما كان غوتيه والآخرون الذين سخروا باعمالهما على خطأ . ان للعلم قواعده واجرءاته الخاصة به ، ويجب أن لايحكم عليه بدلالات غريبة عنه . فإذا اردت شعراً ، فعليك بشكسبير او غوتيه . أما إذا اردت فهماً علمياً يبيّن لماذا يتصرف الناس على النحو الذي يتصرفون به ، فليس أمامك حينئذ إلا علم النفس كدليل أو موجّه ، رغم الحالة المتواضعة التي هو فيها الآن .

إن معظم الناس في الواقع لايريدون وصفاً علمياً للطبيعة والشخصيّة الانسانية على الاطلاق ، مهما يمكن أن يصرحوا به من اقوال . وحقاً إن هذا هو آخر شيء يرغبون فيه فعلا . لذلك يفضلون كثيراً « فرويد » راوي القصص العظيم ، أو « يونغ » مبدع الاساطير ، على علماء آخرين مثل « كاتل » و « جيلفورد » ، علماء يتوقعون من الناس تعلم مصفوفات جبريّة ، ودراسة التفصيلات الفيزيولوجية للجهاز العصبي ، واجراء تجارب فعلية ، بدلا من الركون إلى حكايا مسليّة ، وتواريخ حالات تحرر جنسيّة ، وتأمل ساذج . وبمقتضى ذلك ، يمكن بسهولة الاحاطة بمحادثة بعد العشاء حول « عقدة اوديب » أو « حسد القضيب » (هذه مصطلحات فرويدية — المترجم) . بينما يكون الحديث عن مصفوفة لاجراماتية أو عن تكوين شبكي الشكل اصعب كثيراً . ان الشعراء والكتاب المسرحيين يستحقون الثناء حقاً لاعترافهم بافكار شبيهة في

طبيعتها بتلك الأفكار التي تشكل لحمة فنهم وسداه . فطالما كان جمهور قرائهم على الفة بهذه الأفكار ايضاً ، كان شعورهم بالسعادة كافياً بحيث يمكنهم من ممارسة لعبة التفسير والرمزية ، بغض النظر عما إذا كانت هناك اية حقيقة واقعية وراء هذه اللعبة أم لا . وغالباً ما يرى الفرد أن اختبار كون نظرية في الطبيعة الانسانية علمية أم لا ، هو امر يتعلق بما إذا كانت النظرية تدعي الاحاطة بجوانب الحياة جميعها أم لا . فإذا كانت النظرية تدعي مثل هذه الاحاطة ، فهي ليست نظرية علمية (والعكس ليس صحيحاً طبعاً ، فقد تكون للنظرية مزاعم محدودة وتبقى سقط المتاع) . ان نظرية ثنائية البعد كالنظرية التي طورت هنا ، لاتحقق بالطبع جميع ما يرغب الفرد في تحقيقه ، إلا أنها تحقق كما سنرى ، اشياء قليلة لكنها هامة جداً في هذا المجال ، وربما تحسن المسار المناسب وتعمل فيه على نحو افضل . اننا لانلوم نيوتن لان نظريته في الجاذبية لاتفسر حقائق الكهرباء ، فأية نظرية معينة تغطي جزءاً صغيراً فقط من ارض واسعة جداً . وتستطيع النظرية ، شريطة كونها على اتساق مع الحقائق المعروفة ، التنبؤ على نحو متسق بالحقائق غير المعروفة ، وأن توحي بمعالجات للبيئة يتضح في نهاية المطاف أنها مفيدة في ضبطها . وهكذا يمكننا القول بأن النظرية قد حققت جميع ما يتوقع منها ، وأنها اتاحت فرصة الازدهار إلى أن يحل محلها نظرية افضل واصدق واكثر شمولاً . بيد أن التمني وحده لا يزودنا بمثل هذه النظرية الأفضل ، بل ينبغي العمل من أجلها . لقد ترتب على جميع النظريات العلمية أن تتقدم عبر مراحل ، حيث كانت انجازاتها متواضعة جداً . فقد كان على علم الكيمياء في أيامه المبكرة أن يرضى بالخيميائيين

(قدامى المشتغلين بالكيمياء — المترجم) الذين اقاموا مزاعم ضخمة لفنّهم . وبالطريقة ذاتها ، كان على علماء الفلك أن يقاتلوا للتخلص من مزاعم المنجميّن المنتفخة . ان المحللين النفسيين بالنسبة لعلماء النفس ، مثلهم مثل الخيميائيين والمنجمين بالنسبة لعلماء الكيمياء وعلماء الفلك . لذلك يجب على كل علم أن يجتاز محنته عبر زلزلة مرعدة .

ينطوي هذا الرأي على أهميّة بالغة ، فهل من تبرير له ؟ لقد ناقشت الدليل على ذلك الاعتقاد مراراً بحيث اتردد في تكريس مكان كبير له هنا خوفاً من اثارة الملل لدى القارىء الذي ربما يكون قد اطلع على واحد أو آخر من مجموعة كتبي التي صدرت عن دار « بيليكان » (Pelican) للنشر ، او القارىء الذي انغمس على نحو اكثر جدية في كتاباتي . ويمكن مع ذلك اقحام خلاصة مختصرة لانتقادات الفرويدية الرئيسية من اجل اولئك الذين لايألفون ذلك الدليل ، أما من هم على دراية به ، فيمكنهم تخطّي الصفحات القليلة التالية . دعنا بادىء ذي بدء أن نشير إلى أن التحليل النفسي قد ادخل اصلا كطريقة لمعالجة الاضطرابات العصبيّة ، وكنظرية لتفسير سببيّة هذه الاضطرابات . لقد خضعت نظرية التحليل النفسي لتغيرات حادة عديدة ، غير انني سأفترض بأنها معروفة على نحو جيد جداً بحيث لاتستلزم اعادة الافصاح عنها ثانية إلا بخطوط عريضة مختصرة جداً . يرى المحلل النفسي ان الاعراض العصابيّة ليست إلا علائم يمكن ملاحظتها لعقد ضمنيّة اساسية كتبت في اللاشعور على نحو جيد ، بيد أنها من القوة بحيث لاتبقى مكبوتة على نحو تام . يعود تاريخ هذا العقد إلى سنوات الطفولة المبكرة ، وترتبط بعقدة اوديب ، تلك العقدة التي تعتبر منشأ العقد

وأصلها . ويقوم العلاج بالتحليل النفسي على اكتشاف الخبرة الطفليّة الاصليّة التي وضعت اساس العصاب اللاحق .

استمر استخدام هذا النمط من العلاج حوالي ستّين سنة ، كما أن آلافاً عديدة من الاطباء النفسيين والمحللين النفسيين مازالوا يمارسونه بشكل خاص في جميع اقطار العالم المتمدنة . يحق للفرد أن يتصور بعد هذه الفترة الزمنيّة بأكملها ، أن معلومات محددة قد تراكمت حول فاعلية العلاج بالطريقة التي مورس بها . ومن الهام أن نفيد بهذا الصدد أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث . لقد كان المحللون النفسيون تواقين باستمرار إلى حجب ضعفهم بحجج واهية بالقدر الذي يكون فيه دليل نجاحهم أو بالاحرى دليل نجاح علاجهم موضع عناية أو اهتمام . وهذا يتناقض على نحو حاد نوعاً ما مع الانطباع الذي يقدمه المحللون النفسيون بشكل واع أم غير واع ، بأن طريقتهم في العلاج هي الطريقة الوحيدة القادرة على اعطاء نتائج ايجابية دائمة في مجال العلاج النفسي . ان ما يقوم به المحللون النفسيون عادة ، هو نشر حالات فردية ثابتة تقريباً يغدو المريض فيها بشكل افضل ، ويبرهنون انطلاقاً من هذه الحالات الفردية التوضيحيّة على حالة عامة . يمكن وضع هذا البرهان من حيث الشكل بطريقة يعرض فيها كمثال كلاسيكي عن مغالطة منطقية مفادها « بعقبه إذن بسببه » (Post hoc ergo propter hoc) فحقيقة كون المريض « جون دو » الذي يعاني من مخاوف مرضيّة قد غدا احسن حالا بعد اربع سنوات من بدء العلاج النفسي ، ليست دليلا على أن « جون دو » قد اصبح كذلك بسبب هذا التحليل النفسي ، وهذا يدعوني إلى التفكير ضمناً في عدم اضاعة بعض الاسطر في مناقشة هذه الحالة ،

لأن تلك الحجة منافية للعقل . فما من طريقة علاج واحدة ، بدءاً من الصلاة وحتى تعريض العصابيين لحمامات باردة ، ومن التنويم المغناطيسي وحتى اقتلاع اسنانهم لازالة البؤرات العفنة ، لم تقم ادعاءات شبيهة بادعاءات المحللين النفسيين ، ولم تنشر روايات صاخبة طويلة عن « الاشفية » التي انجزتها . من الواضح أن تقدير الادعاءات العلاجيّة في هذا المجال ، هو امر معقد وصعب ويتطلب درجة معينة من الدراسة والدراية .

ان الصعوبة التي تنشأ في هذا الصدد والاكثر وضوحاً ، هي ما تسمى احياناً بمكشلة « التناقض التلقائي لحدة المرض » . اذ من المعروف جيداً أن الاضطرابات العصابيّة تأخذ غالباً دون علاج منهجي من أي نوع كان ، وهذا امر صادق فعلا بالنسبة لمعظم الحالات . كما تأخذ هذه الاضطرابات بالزوال تماماً ايضاً بعد عدة انماط علاج محددة ، والتي ليس لها أي تأثير على الاطلاق من وجهة نظر المحللين النفسيين وتعتبر الدراسة الشهيرة التي قام بها « دنكر » (Dinker) مثالا جيداً على نحو خاص في هذا الصدد . لقد درس دنكر حالة خمسمائة شخص مصابين بعصاب شديد ويتقاضون معاشات عجز كلي بسبب عصابهم لم يفشل هؤلاء المرضى في تلقي أي نوع من علاج التحليل النفسي فحسب ، بل كانوا ايضاً مدفوعين إلى حد بعيد للاحتفاظ بمرضهم بسبب المعاش التقاعدي الذي يتقاضونه . ومع ذلك ، فقد تم شفاء حوالي اثنين من كل ثلاثة شفاء كلياً خلال سنتين ، مع انهم لم يتلقوا أي علاج آخر عدا تناول حبوب مهدئة عاديّة واجراء احاديث مشجعة مع اطبائهم العاميّن . وبعد خمس سنوات بلغت نسبة المعافين منهم ٩٠٪ .

وهناك دراسات اخرى عديدة توصلت إلى استنتاجات مشابهة ، حيث تبيّن أن الاضطرابات العصابيّة عموماً هي من النوع الذي يزول ذاتياً ومن غير المرجح أن تستمر أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات مهما كانت حادة حتى في حال تركها دون معالجة أو في حالة قيام اشخاص غير متخصصين في الطب النفسي أو التحليل النفسي بعلاجها .

يجب على التحليل النفسي أن يفعل افضل من ذلك بشكل واضح إذا أراد ان يبرهن على فاعليّته . فما لم يسترد المتعالجون — اي المرضى العصابيون — بالتحليل النفسي صحتهم على نحو اسرع . أو لم يكونوا أكثر عدداً من اولئك الذين لم يعالجوا به ، فمن الواضح عندئذ أنه يجب رفض ادعاءات التحليل النفسي بالقدر نفسه من الاهتمام الذي تلقاه القوى الشفائية لهذا التحليل . وفي الواقع ، يمكن للفرد أن يتوقع مظهراً ايجابياً للتحليل النفسي على الرغم من ان طريقة العلاج بالتحليل النفسي لم تكن فعالة في واقع الأمر ، وذلك للأسباب التالية : يقوم المحللون النفسيون عموماً بمعالجة انماط المرضى الأفضل حالاً والأكثر ذكاء فقط ، كما يذهبون إلى ابعد من ذلك ، حيث ينزعون إلى اختيار مرضاهم على نطاق ضيق جداً بدلالة ارجحيّة استفادتهم من المعالجة . وبناء على هذه الاسس ، سوف يتبدى لدى مرضى التحليل النفسي معدل شفاء افضل من معدل شفاء المجموعات الاكبر من المرضى غير الخاضعين لعملية الانتقاء والذين يكوّنون اساس الخط القاعدي للشفاء التلقائي . وفي الواقع الفعلي ، توحي المعلومات على نحو قوي جداً بأن شفاء المرضى الذين عولجوا بالتحليل النفسي هو اطول زمناً واقل مدى من شفاء المرضى الذين تركوا دون علاج ، هذا إذا كان

للتحليل النفسي اثر ما . لقد تم الوصول إلى هذا الاستنتاج باستخراج معدل الاشفية التي يدّعيها محللون نفسيون ومؤسسات تحليل نفسي متنوعة ذات العلاقة بمرضاهم . تؤخذ هذه الادعاءات بقيمتها الظاهرية ، ومع ذلك يبقى هناك خطر دائم مفاده أن كل محلل نفسي سوف يكون متحيزاً إلى جانب نجاحاته الخاصة ، الأمر الذي يجعله يتقدم بوجهة نظر تفاؤلية لا يبررها فحص مستقل للمرضى .

من الطبيعي أن هذه المقارنة الخبرية ناقصة من وجهات نظر مختلفة ، اذ يصعب التأكد من أن الاشخاص في المجموعات المتباينة يعانون من اضطرابات خطيرة متماثلة فعلا ، كما يصعب التأكد من أن محكات « الشفاء » و « الابلال » التي يستخدمها اناس مختلفون هي محكات متماثلة حقيقة . هذا ويمكن ايراد الكثير فيما يتعلق بهاتين المسألتين ، ولكن مهما كنا راغبين في تحبيذ وجهة نظر التحليل النفسي ، ومهما كان افتراضنا راغباً في توسيع مدى الاحتمالات ، فلا يمكن بأية حال تفسير البيانات الرقميّة على نحو تعطي فيه أي تأييد لادعاءات التحليل النفسي مهما كانت . لقد ايدت هذا الرأي دراسات عديدة ضبطت تجريبياً بشكل افضل ، حيث تم تقسيم المرضى إلى مجموعات متنوعة خضع افرادها بالتوالي إلى انواع مختلفة من العلاج ، أو أنهم لم يخضعوا للعلاج اطلاقاً . تؤيد نتائج هذه الدراسات نتائج البحوث القائلة بعدم وجود اثر واضح للتحليل النفسي سواء قورن بأنواع علاج اخرى أو بعدم العلاج على الاطلاق . لذلك ، اكرر القول ، بأن التحليل النفسي لم يلق تأييداً تجريبياً . قد يعتقد الفرد ان استخدام التحليل النفسي مع الاطفال ربما يكون أكثر ايجابية ، باعتبار أن الاطفال اكثر قابليّة للتأثر ويمكن شفاؤهم على نحو اكثر سهولة . وعلى الرغم من ذلك ،

تبدي المراجعة المركزة لما كتب في هذا المجال ايضاً صورة مماثلة تقريباً في كل تفصيلاتها للصورة التي وجدت عند الراشدين ، إذ لايوجد دليل على أن استخدام التحليل النفسي مع الاطفال يؤدي إلى أي نوع من الأثر في الاعراض العصابيّة لهؤلاء الأطفال .

نشرت عام ١٩٥٢ مقالة قصيرة بيّنت فيها الدليل ووصفت ما اعتقدت بأنه الاستنتاج الممكن الوحيد الذي يمكن الوصول إليه . وهذا الاستنتاج حسب ما اذكر ، هو أن فرضيّة الصفر لم تدحض ، أي أن المحللين النفسيين قد فشلوا في البرهنة على أن طرق علاجهم قد ادت إلى أية آثار تحسينيّة في الأفراد الذين يعانون من اضطرابات عصابيّة . لقد احدثت هذه المقالة المختصرة الواقعية غير المؤذية وابلا كاملا من الردود والحجج والانتقادات والتفنيدات والمناقشات . ومع ذلك ، لم تحدث المقالة تنويهاً واحداً لتجربة أو محاولة اكلينيكية اظهرت وجود اثر ايجابي بالنسبة للعلاج القائم على التحليل النفسي . وفي الواقع ، لقد اصبح المحللون النفسيون الاكثر رسميّة والافضل خبرة في السنوات الحديثة ، اكثر حذراً في اقامة اية ادعاءات حول الفاعلية العلاجيّة للتحليل النفسي . ولنأخذ « جلوفر » (glover) كمثال واحد بهذا الصدد ، حيث رفض بوضوح في آخر كتاب له مثل هذه الادعاءات . كما اعلن رئيس لجنة التحقق من الوقائع التابعة لجمعية التحليل النفسي الاميركية على نحو صريح أن جمعيّته لاتملك دليلا ايجابياً على تلك الفاعليّة ، ولم تكوّن أي نوع من ادعاءات الفائدة العلاجيّة . وتوصل « شميدبيرغ » (Schmiedeberg) والعديد من ممارسي التحليل النفسي الآخرين إلى استنتاج شابه مطبوع ومعروض . اما الاستمرار

في اقامة ادعاءات لايؤيدها الدليل العلمي بأية طريقة كانت ، فقد ترك للقطيع الكبير من المؤمنين المخلصين الذين لاتتوافر لديهم معرفة مباشرة بممارسات التحليل النفسي ، والذين يجهلون الوجود الحقيقي للبحوث العلمية التجريبيّة المتوافرة .

قد يسأل القارىء لماذا يكيل الناس الذين خضعوا للعلاج النفسي والذين يدعون الشفاء بسببه المديح له بشكل واسع على الرغم من عقمه الظاهر ؟ اعتقد ان الاجابة تكمن في التجربة التي افاد بها عالم النفس الامريكي سكنر ، حيث ترك مجموعة من الحمام منفردة في قفصها لمدة اثنتي عشرة ساعة ، غير انه اعدّ ملقماً آلياً يزود الحيوانات الجائعة بعدد قليل من حبات القمح حسب فواصل زمنية معينة . وعندما عاد سكنر في الصباح التالي وجد الحيوانات وهي تسلك باسلوب شاذ ، حيث كان يقوم بعضها بالقفز صعوداً ونزولا على ساق واحدة ، أو بالدوران مرفوع الجناح ، في حين كانت حيوانات أخرى تمدد الرقبة نحو الاعلى قدر الامكان . ما الذي حدث لهذه الحيوانات ؟ لقد تصادف أن كانت الحيوانات اثناء اكتشافاتها للمكان الموجودة فيه تقوم بأداء تلك الحركات الخاصة في الوقت الذي كان الملقم يحرر فيه بعض حبات القمح . تخيلت الحمامة ، وهي غير ضليعة بحجة « بعقبه اذن بسببه » ، أن الحركة السابقة لتقديم حبة القمح قد ادت إلى الحصول على هذه الحبّة فعلا ، لذلك بدأت فوراً بتكرار الحركة نفسها مرة تلو اخرى . وعندما تم اخيراً اسقاط بعض حبات القمح دون استخدام الملقم الآلي ، اصبحت الحمامة أكثر اقتناعاً على نحو راسخ بالعواقب السببيّة ، على الرغم من أنها قد

ادت الحركة طيلة اثنتي عشرة ساعة كان الملقم اثناءها يوزع حبات القمح حسب فواصل زمنية غير منتظمة . إذا تركنا جانباً مصطلحات التجسيميّة ووضعنا المسألة بلغة أكثر احتراماً بقليل ، يمكننا القول بأنه قد تم اشراط الحمامة على نحو تقوم فيه بأداء استجابة معينة بغية تلقّي اثابة معينة . ما من شيء غامض في الدراسة التي عنونها سكنر بـ « دراسة في نموّ الخرافة » ، ويمكن أن نربطها على نحو مباشر بنمو الاعتقاد بفاعلية العلاج بالتحليل النفسي عند المرضى وعند المحللين النفسيين انفسهم .

يغدو العصابيون بشكل افضل بغض النظر عن العلاج ، ويشكل هذا التحسّن تعزيزاً ، وهو مكافىء لتلقي حبة القمح من جانب الحمامة . إن اعمال المحلل النفسي لاعلاقة لها بالشفاء ، وهي شبيهة في هذا المجال بسلوك الحمامة في الوضع التجريبي . كما أن السلوك ليس ذريعة لانتاج التعزيز ، بل يرتبط السلوك والتعزيز كلاهما بالحمامة عبر عمليات الاشراط . لهذا تتطور الخرافة عند كل من الحمامة والمريض عن طريق الربط بين حادثة واخرى . ويصدق الشيء نفسه بشكل كبير على المعالج نفسه ، والتعزيز بالنسبة للمعالج هو التحسّن الذي يدلي به المريض . ان هذا التحسّن مستقل عن اعمال المعالج ، بيد أن الاستجابة الشرطية تتأسس لأن ذلك التحسّن يتلو هذه الاعمال . وما من دليل موثق يناقض هذه الفرضيّة ، بل على العكس ، هناك الكثير من الادلة الموثقة المؤيدة لها .

يقال غالباً بأن التحليل النفسي هو اكثر من مجرد تقنية علاجية ، وان الفشل في البرهنة على فاعليته العلاجيّة لايؤدي بالضرورة إلى اضعاف

صدق مذهب التحليل النفسي في جوانب اخرى . (والعكس صحيح ايضاً ، اذ يمكن القول بأنه حتى لو تبيّن أن التحليل النفسي هو طريقة علاج ناجحة ، فإن هذا لايبرهن بالضرورة على صدق مذهب التحليل النفسي) . قد يكون ذلك القول صادقاً إلى درجة ما ، بيد انني اعتقد أنه يجب قبوله بتحفظات شديدة فقط . فبادىء ذي بدء ، قام مذهب التحليل النفسي بأكمله بناء على معلومات تم الحصول عليها أثناء معالجة مرضى عصابيين ، وخلال محاولة احداث تحسّن في اعراضهم . ان التسليم بالفشل التام لهدف التحليل النفسي الاولي ، واعتباره رغم ذلك مذهباً صحيحاً وقيّماً من الوجهة العلميّة ، يبدو أنه مصادفة لايتوقع حدوثها . (انك تعرف الاشياء بنتائجها !) . لكن ليس هذا هو كل ما في الأمر طبعاً . فإذا كانت نظرية التحليل النفسي صحيحة ، لكان يجب أن يكون التخفيف التلقائي لحدة المرض وطرق المعالجة المتنوعة غير التحليليّة غير فعالة ، كما يجب أن تجعل المريض في حالة اسوأ بدلا من جعله في حالة افضل . وبذلك يتوافر لدينا استنتاج محدد تماماً مشتق من الفرضيّة التي تدحضها الحقائق بشكل كليّ فعلا . وإذا ابقينا ، كحد ادنى ، على امكانية الصدق النظري لتلك الاجزاء من علم النفس التحليلي رغم ظهور عدم جدوى طرقه العلاجيّة، فسنكون بحاجة ملحّة إلى دليل قوي حقاً قبل قبول مثل هذا الاستنتاج . لقد انجزت طبعاً اعمال تجريبيّة كثيرة حاول اصحابها تأكيد صحة اجزاء بنية التحليل النفسي أو دحضها ، وليس هذا بالمقام المناسب لاستعراض تلك الاعمال الكثيرة جداً ، وانما يجب الاكتفاء بالقول عموماً بأن نتائج هذه الاعمال كانت ضارة جداً بالنسبة لادعاءات التحليل النفسي . ويجب عليّ ازاء هذا

القول وضع تمييز هام . ان معظم الناس العاديين يسيئون فهم المذهب الفرويدي بشكل تام ، لذلك يخطئون فهم الحقائق التي تعتبر حيادية تماماً في واقعها ، ويرون فيها دليلا توكيدياً على صحة ذلك المذهب . لقد استخدم فرويد حقائق معيّنة معروفة جيداً باسلوب غريب نوعاً ما . ربما تكون الحقائق ذاتها صحيحة ، بيد أن التأكد من صحتها لايعني أن استخدامه لها كان امراً صحيحاً . وكمثال على هذا الاستخدام دعني اتناول مفهوم « الرمزية » .

ان حقائق الامر تتسق على نحو واضح مع فكرة مفادها أننا نستخدم الرموز على نحو متكرر في احاديثنا وكتاباتنا وربما في احلامنا ايضاً ، وكانت هذه الحقائق معروفة منذ آلاف السنين ، وقد يرغب القارىء في تذكر الحلم التوراتي للبقرات السبع الهزيلة والبقرات السبع السمينة! تشير كتابات المدافعين المحدثين عن حركة التحليل النفسي إلى فرويد وكأنه هو الذي اكتشف مفهوم الرمزية ، وكذلك مفهوم الجنس وعدداً كبيراً من العوامل الأخرى الهامة ! في حين أن اسهام فرويد الحقيقي هو شيء مختلف تماماً . لقد اقترح فرويد طرقاً لاكتشاف المعاني الغامضة للغة الاحترام الرمزية . واني لاعرف أي دليل يشير إلى أن لهذه الاسهامات اساساً واقعياً ، بينما اعرف اسباباً عديدة تبرر لماذا يجب اعتبارها بعيدة الاحتمال على نحو مرتفع .

دعنا نأخذ في حسباننا مسألة واحدة فقط أو مسألتين . ففي المقام الاول ، ينحو المحللون النفسيون المختلفون في معظم الاحيان إلى تفسير الحلم الواحد نفسه تفسيرات مختلفة كلياً ، وغالباً ما تكون هذه التفسيرات متناقضة . لذلك ، إذا كان احد التفسيرات صحيحاً ، لوجب

أن تكون التفسيرات الأخرى جميعها خاطئة . وعلى الرغم من ذلك ، فإننا لانملك أية وسيلة تمكننا من تقرير أي من التفسيرات هو التفسير الصحيح ، ولا من امكانية معرفة أن جميع التفسيرات خاطئة فعلا ولاعلاقة لها بالواقع . يرى المحللون النفسيون عادة أن البرهان على صحة تفسير الحلم يمكن أن يتبدى في قبول المريض للتفسير ، أو في التحسّن الذي يطرأ على حالته بعد التفسير . ان حججاً من هذا القبيل ليست منطقية على الاطلاق بحيث لاتستحق رداً مستفيضاً ، « فقبول » « فقبول » المريض لتفسير المحلل النفسي لايمكن اعتباره دليلا علمياً إلا بصعوبة بالغة ، فالمريض نفسه ، وكما رأينا فيما تقدم ، يميل إلى التحسن في جميع الاحوال سواء بتفسير الحلم أو بدون تفسيره ، وبالتالي لاعلاقة للتحسّن بصدق النظرية او كذبها .

يمكن القول اجمالا بأن هناك قصوراً واضحاً بالنسبة لفرويد يتجلّى في فهم التمييز بين الواقعة وتفسير هذه الواقعة . ان تمكّن فرويد الفائق من اللغة ومهارته في عرض حالته بمظهرها الأفضل ، يجعلان ذلك القصور اقل وضوحاً مما هو عليه . لكن الويل يصيب القارىء الذي يحاول فصل الوقائع عن تفسيراتها لاكتشاف ما إذا كان في مكنة هذه الوقائع ان تحدث أية علاقة بينّة مع تلك التفسيرات أم لا ! سيجد القارىء أن مهمته مستحيلة تقريباً بسبب الطريقة الحاذقة التي يستخدمها فرويد في اخفاء الحقائق الهامة وصقلها ، والطريقة البارعة التي يؤلف بها سبباً تفسيرياً لواقعة يجب أن تكون **قد حدثت** ، في حين يستطيع الفرد اكتشاف أن هذه الواقعة لم تحدث اطلاقاً . وكمثال بارز على ذلك يطلب من القارىء الرجوع إلى كتابات فرويد الاصليّة واعادة قراءة

مقالته « تحليل خوف مرضي عند صبي في الخامسة » التي تناول فيها الحالة الشهيرة لهانز الصغير . لقد احرزت هذه المقالة اهمية تاريخية كبيرة ، وتلقت ثناء عالمياً من جانب علماء النفس التحليلي كتدشين للتحليلات الطفلية جميعها . دعنا نلقي نظرة على هانز الصغير الذي طوّر خوفاً من الاحصنة بعد أن شاهد حصاناً كان يجرّ عربة في الشارع وهو يسقط على مرأى منه . ما يجدر ملاحظته هنا ، هو أن فرويد لم يعقد إلا مقابلة قصيرة واحدة مع الصغير هانز ، أما باقي المعلومات جميعها فقد زوده بها والد هانز الصغير الذي كان ، حسب ما علمنا ، تابعاً متحمساً لفرويد . لقد كان الوالد ، كما سوف يتضح لأي شخص يقرأ التفسير جميعه ، يلقّن الصغير هانز ما يريده أن يقول باستمرار ويتابع عملية التلقين حتى يعطي الصغير هانز (وهو في جميع الاحوال طفل في الخامسة من عمره فقط) نوعاً من الموافقة . وحتّى عندما لم تؤد هذه الطريقة إلى النتائج المرجوّة ، لم يتردد الوالد في القول بأن هانز قد عنى عكس ما قاله بالضبط ، وقد تم اتخاذ ذلك كحقيقة قائمة في حد ذاتها . يبدو أن فرويد قد ادرك هذا الامر إلى حد ما ، حيث يقول في هذا الصدد : « صحيح أنه كان يجب اخبار هانز اثناء عملية التحليل بأشياء كثيرة لم يستطع الافصاح عنها بنفسه ، وتعريضه لأفكار لم يظهر دلائل على امتلاكه لها ، كما كان يجب توجيه انتباهه في الاتجاه الذي يتوقع والده فيه الحصول على شيء ما . ان ذلك يقلل من القيمة الاثباتية للتحليل ، لكن الاجراء هو نفسه في كل حالة . فالبحث العلمي غير المتحيّز ليس بيت القصيد بالنسبة لتحليل نفسي ، بل بيت القصيد

هو الأجراء العلاجي » . لقد اتبع فرويد نفسه الاجراء ذاته الذي اتّبعه الوالد مع هانز تماماً ، حيث اخبر فرويد الصبي اثناء مقابلته اياه « بأنه — أي هانز — كان خائفاً من والده لأنه هو نفسه قد ربّى رغبات عدائية وغيورة ضده » . لم يكن الصبي واستبطاناته واقواله وافكاره في الصورة على الاطلاق فعلا ، وما نتوصل إليه من نتائج هو دائماً ما ينبغي له التفكير فيه أو الشعور به حسب ايحاء والده أو فرويد له ، وذلك اعتماداً على فرضيّتهما الخاصة . وسواء استطاع الطفل اخيراً أن يوافق أم لايوافق ، فستفسّر النتيجة بأنها اثبات للنظرية . ما من شخص يحترم الوقائع على نحو متميّز احترام العالم لها ، يمكنه أن يجد أي شيء في هذا الأثر للتحليل النفسي ، فيما عدا محاولة مباشرة لجعل شهادة الطفل منسجمة مع قصور نظرية غير اصيلة اعتمدت على نحو مسبق . وبهذا الاسلوب من التحليل النفسي ، يصعب تصور عدم قدرة أي شيء قاله الطفل أو فعله على اختراق تأييد النظرية . وبالاضافة إلى كل ذلك ، هناك حالات تناقض ساطعة في التفسير . فقد كان الصغير هانز يخاف من الاشياء السوداء الموجودة على افواه الاحصنة والاشياء الموجودة أمام اعينهم . ادعى فرويد أن اساس خوف هانز هو الشوارب والنظارات ، وقد « انتقل هذا الخوف من ابيه إلى الاحصنة مباشرة » . بينما كان الطفل في حقيقة الأمر يفكر في الكمامة والغمامة اللتين يرتديهما الحصان الذي سقط امامه في الشارع . ومرة اخرى فسّر فرويد عنصر الخوف المرضي لعصاب هانز « كوسيلة تمكّنه من البقاء في البيت مع أمه المحبوبة » . ومع ذلك ، كان الخوف المرضي من الحصان والخوف المرضي العام من الخلاء موجودين كلاهما عند الصغير هانز حتى عندما غادر المنزل مع والدته !

هناك طبعاً تفسير بسيط جداً لحالة الصغير هانز وخوفه المرضي ، لقد كان خوف هانز استجابة خوف شرطية اكتسبها اثناء الحادثة التي كان فيها الحصان ساقطاً . والامر لايتعدى ما جاء في تجارب بافلوف عندما اصبح تقديم الجرس وحده اخيراً ، قادراً على انتاج اللعاب نتيجة اقترانه مرات عديدة مع اللعاب الناتج عن الطعام . وهكذا ، فإن اقتران الحصان بوضع منتج للخوف ، قد احدث عند هانز ارتباط شرطياً مستمراً . وبخاصة أنه كان قد تعرّض لخبرتين مخيفتين مع الاحصنة . ان هذا التفسير اقتصادي إلى حد بعيد ، وقائم بناء على ميكانيزمات التعلم المؤسسة على نحو جيد في التجارب المخبرية ، ولا يتطلب هذا التفسير استخدام مفهوم الكبت او حتى قلب شهادة هانز الصغير كما يفعل تفسير فرويد الخاص . ويبدو على الرغم من ذلك أن معظم الناس يفضلون قصة فرويد ، وقد يعود ذلك إلى جاذبية هذه القصة ، تلك الجاذبية التي تتصف بها احدى قصص شهر زاد . وبالمقارنة مع ابداع قصصي من هذا النوع ، يبدو العلم الاصبل الشاعري تقريباً ، مملا وبسيط وغير مثير . ان حقيقة كون هذه النظريات البسيطة المملة غير المثيرة تؤدي إلى طرق علاج ناجعة (كما سوف نرى فيما بعد) ، في حين لاتؤدي قصص فرويد الجنيّة إلى مثل هذه الطرق ، يبدو ان هذه الحقيقة لاتؤثر في العديد من الناس . فسحر فرويد « الحكواتي » قد اقنع اناساً عديدين بمبادىء نشرها فرويد « المنظر » . ان الحاجة للتدليل على أن هذا استنتاج لايتفق مع مقدماته ، هو امر في غاية الصعوبة ، ولكن هل القيام بهذا العمل الشاق كفيل باقناع الفنانين بزيف رسالة فنان زميل ؟ .

دعنا نعود الآن إلى المحاولة الموعودة لربط الشخصيّة ، كما تم تعريفها ووصفها ، بحوادثها السابقة ، أي بجوانب المزاج البيولوجية الفطرية . سوف لاأناقش هنا مطولا مسألة الفروق الفردية في الشخصيّة فقد راجعت الدليل على ذلك بشكل مفصل في كتابي « الاساس البيولوجي الشخصيّة » . ان نتائج العشرات العديدة من البحوث ، وبخاصة ما تناول منها دراسة التوائم المتماثلة والاخوية التي نشأت معاً او نشأت بمعزل عن بعضها ، قد أجمعت تماماً على أن الوراثة تلعب دوراً هاماً ومركزياً في جعل كل منا يحتل موقعه الخاص على بعدي الانبساط — الانطواء ، والانفعال — الاتزان . ان قيمة اسهام الوراثة في هذين البعدين الثنائي النمط ، هي من وجهة نظر عددية ، مماثلة تقريباً للقيمة التي تسهم فيها الوراثة في الذكاء والبالغة ٧٥ ٪، أي أن الفروق البيئية مسؤولة عن ٢٥٪ من تباين الافراد الكلي من حيث مواقعهم على بعدي الانبساط — الانطواء والانفعال — الاتزان او من حيث درجات ذكائهم . من الطبيعي أنه يجب تحديد هذا التعميم بأيامنا الراهنة ونمط ثقافتنا الخاصة ، كما ينبغي فهمه كمتوسط ينطبق على المجتمع السكاني (الاحصائي) بأكمله . فمقدار نسبة مساهمة الفروق الوراثية والفروق البيئية في تباين شخصيات الأفراد (او ذكائهم) المذكور اعلاه ، قد لاينطبق على أي فرد معين . وان تقديرات اسهام النمط الوراثي في النمط الظاهري تخضع على نحو ثابت باستمرار إلى هذه التحديدات . فالتفكير في الوراثة على نحو مجرد وبمعزل عن نمط بيئة معيّن ، هو امر لامعنى له على الاطلاق . ولكن مع التسليم بهذه التحديدات والأخذ بها

لايبقى مجال الشك في أن الوراثة تلعب الآن في هذا الصدد دوراً هاماً جداً في جعلنا على ما نحن عليه . لاتنطوي هذه الحقيقة على أية فظاظة او اهمال للمؤثرات البيئيّة . ولقد تم تأكيد هذه الموثرات على نحو زائد خلال السنوات الخمسين الماضية ، بحيث يبدو الآن أن تخفيفاً بسيطاً فقط لهذا التأكيد . هو ادر معقول وعادل . اما من جانبي أنا ، فلا أنوي جعل هذا التخفيف يذهب بعيداً في الاتجاه المضاد ، فاهمال المحددات البيئيّة هو عمل احمق وغير علمي ، مثله في ذلك مثل اهمال المحددات الوراثيّة .

وبعد ، ما البنى الموجودة في جهازنا العصبي والمؤسسة للفروق الفردية التي نلاحظها بين الأفراد من حيث الانبساط والاتزان ؟ اكرر القول مرة اخرى هنا ، انني سأذكر باختصار فقط . تلك النظريات التي تم تطويرها في كتاب « الاساس البيولوجي للشخصيّة » . يبدو أن بعد الانفعالية — الاتزان مرتبط على نحو سرمدي بالجهاز العصبي الذاتي الذي ينظم عمليات التعبير عن الانفعالات ، والذي يخضع هو بدوره إلى التنظيم والضبط من جانب (المخ الحشوي) . ومن الحقائق المعروفة جيداً المأخوذة من الدراسات التي تناولت الانسان والحيوان على حد سواء ، هي أن الفروق في هذه البنى وفي وظائفها محددة بالوراثة إلى حد بعيد . وقد بيّنت التجارب التي تناولت الحيوانات أننا نستطيع في الواقع أن نستولد فئراناً على نحو انتقائي بحيث تكون ذات مستوى منخفض أو مرتفع بالنسبة للانفعاليّة . ويبدو أن هناك شكا ضئيلا في قدرتنا على القيام بالشيء نفسه حيال الكائنات الانسانية مالم يكن هناك

اعتراضات اخلاقية بصدد ذلك ان في مكنتنا تحديد ما هو موروث من الفروق الفردية في قوة الاستثارة الانفعاليّة وديمومة هذه الاستثارة ، وذلك باستخدام انماط اثارة معينة تأخذ شكلا وراثياً ، أو من خلال التعلم وعمليات الاشراط المؤدية إلى انتاج رجاع ذاتية . ان شخصا يمتاز بمستوى مرتفع من « الانفعالية » ، ليس شخصا عصابيا بالضرورة طبعاً ، بل لديه استعداد مسبق معين للعصاب . وعلى الشاكلة نفسها ، ان شخصا يمتاز بعظم قصف ، ليس عظما مكسوراً ، غير أنه اكثر احتمالا لكسر ساقه او ذراعه من شخص يمتاز بعظم غليظ قوي ، شريطة أن يواجه كلاهما المخاطر البيئية ذاتها . لذلك ، يشير مصطلح « العصابيّة » إلى استعداد مسبق ولا يتضمّن انهياراً عصابياً حقيقياً .

يبدو أن التمييز الفيزيو وجي بين الانبساطيين والانطوائيين مرتبط بخاصية للقشرة الدماغية يطلق عليها عادة مصطلح « الاثارة » (Arousal) . استخدم هذا المصطلح في البدء عندما اكتشف أن الموجات الدماغية، كما تبدو على جهاز تخطيط موجات الدماغ (EEG)، تكون أكثر تزامناً عندما يكون الشخص في حالة نعاس . في حين تتميز الموجات الدماغية بعدم التزامن في حالات اليقظة العقلية . وسريعاً ما اكتشف من خلال البحث التجريبي أن الناس يمتازون عموماً بموجات الفا (موجات تتراوح بين ٨ و ١٣ سايكل — دورة — في الثانية) في حالة اليقظة العقليّة ، وهي موجات سريعة نسبياً (أي تتصف بتواتر مرتفع) وذات سعة منخفضة . اما في حالة الخمول العقلي ، فيمتاز الناس بموجات دماغية بطيئة (اي تتصف بتواتر

منخفض) ذات سعة مرتفعة . يمكن بالطبع قياس اليقظة او الاثارة بوسائل اخرى غير جهاز تخطيط موجات الدماغ (EEG) ، ولكن ربما يظل هذا الجهاز هو الاداة المباشرة الأكثر فائدة لقياس هذه الخاصيّة للقشرة الدماغيّة . والآن ، واتفاقاً مع النظرية التي طرحتها مقدماً ، ارى أن الانبساطيين يمتازون بإثارة ضعيفة ، بينما يمتاز الانطوائيون بإثارة مرتفعة ، اما الذين يمتازون بنزعات انبساطية وانطوائية معاً ، فمن الطبيعي أن يكونوا في موقع متوسط على هذا المقياس ، مقياس الانبساط — الانطواء .

ان فرضية من هذا القبيل ، تفسح المجال طبعاً لاختبارها على نحو مباشر ، ففي وضع متماثل غير استثاري ، ينبغي للانبساطيين أن يسلكوا حيال جهاز تخطيط موجات الدماغ (EEG) كما يسلك الاشخاص الناعسون ، أي يجب ان يصدروا موجات الفا ذات السعة المرتفعة ، في حين ينبغي للانطوائيين أن يسلكوا كالاشخاص اليقظين ، أي يجب أن يصدروا موجات الفا السريعة ذات سعة منخفضة . ويبدو أن هذا الامر صحيح فعلا ، فالعديد من البحوث قد وجدت فروقاً واضحة تماماً في السلوك مؤيدة لهذا الاتجاه . يبدو أن هذه النتيجة (بالاشتراك مع نتائج دراسات اخرى ربما كانت اقل اقناعاً ، عينت بالامكانيات المستثارة بجهاز الـ (EEG) * وبتمييز الانبساطيين من

* يسجل جهاز الـ (EEG) كما لاحظنا الموجات الدماغية من فروة الرأس . ويمكن انتاج هذه الموجات بطريقة مصطنعة عن طريق تقديم مثير مفاجىء مثل صوت فرقعة قوي . تدعى الاستجابة لمثل هذه المثيرات بـ « الامكانية المستثارة » . يصعب تسجيل هذه الاستجابة وقياسها لأنها ليست اقوى كثيراً جداً من « الضجيج » المحيط بالخلايا العصبية المستثارة في أية حال من الاحوال . كما يجب تحديد متوسط قوتها في =

الانطوائيين) تزودنا بالاداة الرابطة المطلوبة للربط بين الجانب البيولوجي والشخصيّة . ان البنى العصبيّة الفيزيولوجية الذاتية مثل المخ الحشوي والتكوين الشبكي والمحددة وظيفتها في الاستجابة للاثارة البيئية بالوراثة إلى حد بعيد ، تتسبب هذه البنى في احداث الرجاع الذاتية الاقوى او الاضعف ، وفي احداث الاثارة الاكبر او الاقل . وتحدد هذه الرجاع الانفعالية والاثارية ، طبقاً لقوتها ، نمط السلوك المعتاد للفرد — ان هذا النمط من السلوك المعتاد هو ما ندعوه بـ « الشخصيّة » — ويقاس بشكل تفصيلي على بعد الانطواء — الانبساط ، او بعد العصابية الاتزان .

ان عوامل الشخصيّة هذه مستقلة عن بعضها في معظم الاوقات بيد ان استقلالها ليس مستمراً في جميع الاحوال ، فنحن لسنا في حالة انفعال دائمة ، وربما كان ذلك من حسن حظنا . ان حالات الخوف الشللي او حالات الغضب الشديد ، هي حالات نادرة نسبياً في اوقات السلم على اقل تقدير ، وحتى الانفعالات الاكثر اعتدالاً نوعاً ما ، ربما لاتشغل أكثر من ٥٪ من وقتنا . يمتاز المخ الحشوي بالقدرة على تنبيه القشرة الدماغية سواء بشكل مباشر ام من خلال التكوين الشبكي .

= عدد كبير من الظروف المنفصلة قبل أن تصبح قابلة للملاحظة على نحو مناسب . لقد بين « ارتل » (Ertl) أن « الامكانية المستثارة » تتباين لدى مقارنة الاشخاص ذوي معدلات الذكاء المرتفعة بالاشخاص ذوي معدلات الذكاء المنخفضة ، كما أن هنا لائل عديدة على ان الانبساطيين والانطوائيين يمكن أن يتباينوا من حيث تلك الاستجابة (على الرغم من عدم استخدام المقياس نفسه الذي ترتبط بمعدل الذكاء) . وعلى نحو اكثر دقة ، يمتاز الانطوائيون بكمون اقصر (اي يستجيبون على نحو اكثر سرعة) وبسعة اكبر (اي يستجيبون على نحو اكثر قوة) وبخاصة للمثيرات الضعيفة .

لذلك ، عندما يكون شخص في حالة استثارة انفعالية مرتفعة ، لايتمكن أن يكون في حالة « اثارة » (Arausal) منخفضة في الآن نفسه . وعلى اية حال ، يبدو ذلك واضحاً بشكل حدسي وتؤيده دراسات فيزيولوجية مفصلة . ولما كانت ابعاد الشخصيّة مستقلة عن بعضها معظم الوقت ، فلا يمكن الاستمرار في اعتبارها كذلك — اي مستقلة — في ظروف الاستثارة الانفعالية القوية . لذلك تعتبر حالات الاستثارة الانفعالية المرتفعة قاعدة تعيسة بالنسبة للناس الذين يمتازون بمستوى عصابية مرتفع ومستوى اتزان منخفض ، وينزعون للعيش في عالم يتصف بتأزم ثابت ، وقلق ابدي ، وانفعال متكرر . لايعاني هؤلاء الناس من الاستثارة الثابتة للمخ الحشوي فحسب ، بل يصبحون ايضاً وعلى نحو نموذجي في حالة « اثارة » مرتفعة نتيجة هذه الاستثارة . كما ينهار لدى هؤلاء استقلال الانبساط (اي الاثارة المرتفعة) والانفعالية (اي الرجاع الحشوية القوية) ، ويصبحون يائسين بشكل مزمن — أي ذوي مستوى مرتفع من حيث الاستثارة والانفعال معاً — .

ان اعتبار التجارب النفسية وآثارها ونتائجها مستقلة عن الحالة الانفعالية او الاثارة القشرية (الدماغية) للأفراد الذين يخضعون لهذه التجارب بناء على اسس مسبقة ، يبدو امراً بعيد الاحتمال ، وقد تبيّن في الواقع أنه غير صحيح على الاطلاق . لقد درج الاعتقاد بأن طمأنة افراد الدراسة بطريقة معينة ، واستثارة اهتماماتهم بموضوع التجربة ، تؤديان إلى ايجاد حالة متماثلة تمتاز بقلق منخفض واثارة مرتفعة ، وتعتبر هذه الحالة عامة بالنسبة لأفراد الدراسة جميعهم ، الامر الذي يؤدي إلى ازالة تلك العوامل — الحالة الانفعالية والاثارة

القشرية — وعدم النظر إليها كمتغيرات تؤثر في نتائج التجربة . ولكن من الواضح أن المسألة ليست على هذا النحو ، فحتى في القياس التجريبي البسيط المعني بتسجيل الموجات الدماغية لشخص في حالة استرخاء ، يتوافر دليل على وجود تباين كبير من حيث « الاثارة » ؛ ويمكن، علاوة على ذلك ، التنبؤ بهذا التباين من خلال النظرية التي اقترحتها . اذ من المتوقع أن يسلك الافراد الانبساطيون والانطوائيون ، والافراد الانفعاليون والمتزنون على نحو مختلف تماماً في التجارب النفسيّة . وما لم تؤخذ مثل هذه الفروق في الحسبان ، تغدو التجربة بمجملها عديمة القيمة تماماً . لقد وجدت نتائج كهذه في الواقع في اغلب الاحوال ، بيد أن التنبؤ بما قد يحدث على نحو دقيق ، يستلزم نوعاً من الفهم الشامل للنظرية النفسيّة المؤسِّسة "لظواهر موضوع البحث . وسأتناول مثالا واحداً فقط لتوضيح ماتنطوي عليه هذه الآراء من مضامين .

افترض انني اريدمنك التنبؤ بما إذا كان الانبساطيون أم الانطوائيون سوف يتذكرون بشكل افضل سلسلة من المقاطع المتزاوجة العديمة المعنى ، مثل المقاطع التـالـيـة :

SEL - PON ; VIL - MUF ; SIP - WOL يتم تكرار قائمة مؤلفة من سبعة مقاطع متزاوجة من هذا النوع مرات عديدة حتى يمكن اداؤها ذاكرياً بشكل تام ، أي حتى يتمكن فرد الدراسة من كتابة المقاطع الاربعة عشرة جميعها بشكل صحيح دون تعزيز اي من المقاطع المثيرية السبعة او أي من المقاطع الاستجابية السبعة . (يسمى المقطع الأول من المقاطع المتزاوجة بـ « المقطع المثير » ويسمى المقطع

الآخر المقترن به : « المقطع الاستجابة » — المترجم —) . يتم بعد ذلك تشكيل مجموعات مكونة من افراد انبساطيين وافراد انطوائيين على التوالي .

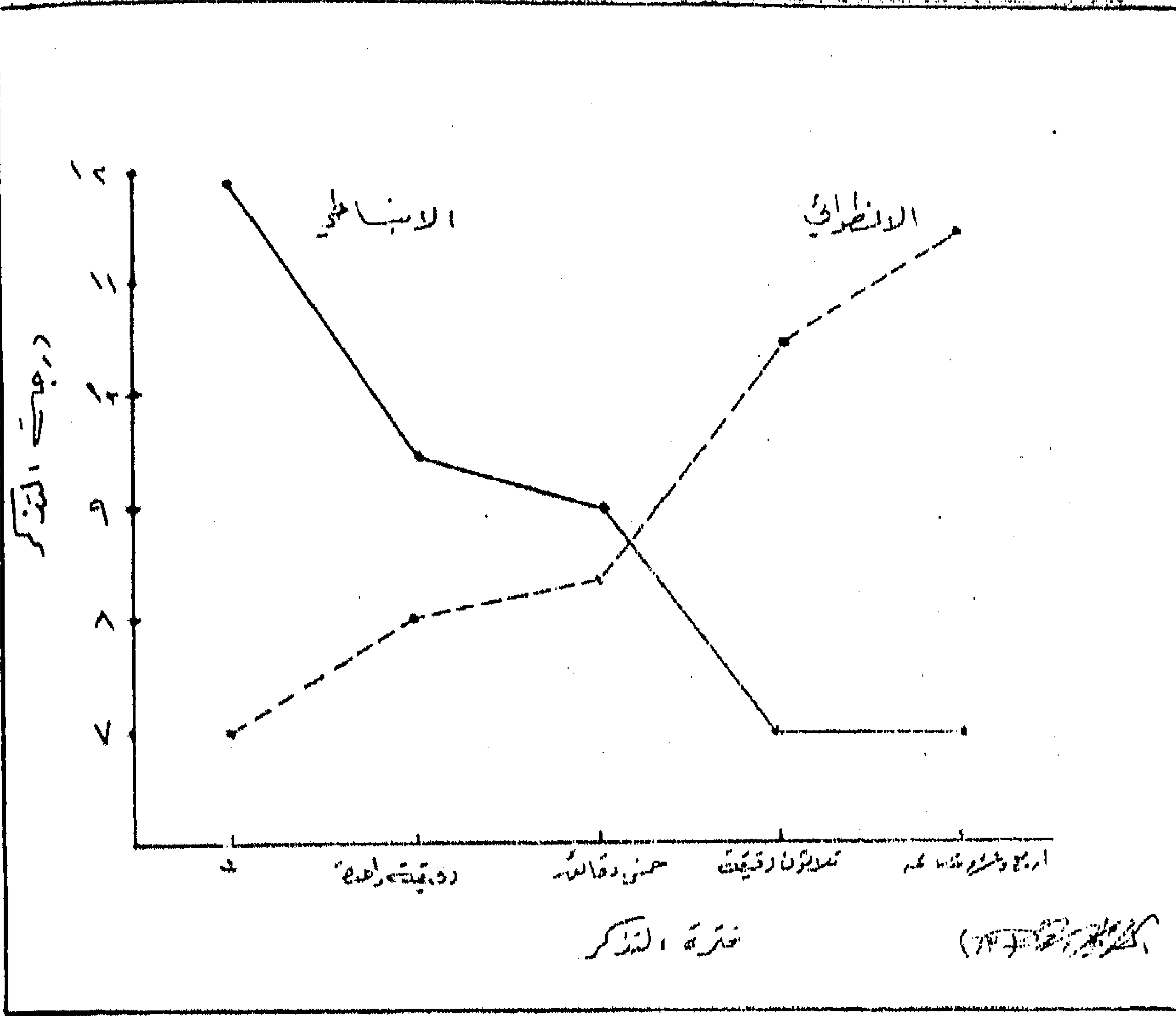
تخضع مجموعة من هؤلاء الأفراد لاختبار تذكر بعد المعالجة مباشرة تقريباً ، وتخضع مجموعة اخرى للاختبار بعد دقيقة واحدة ، وتخضع مجموعة ثالثة للاختبار بعد خمس دقائق ، وتخضع مجموعة رابعة للاختبار بعد ثلاثين دقيقة ، في حين تخضع المجموعة الاخيرة للاختبار بعد اربع وعشرين ساعة من انتهاء المعالجة . يجب أن يؤخذ في الحسبان هنا منع افراد مجموعات الدراسة من القيام بعملية التسميع (اي تكرار لفظ المقاطع) ، وذلك من خلال تكليفهم بمهام اخرى يمارسونها اثناء فترات الانتظار (عدا افراد المجموعة التي اختبرت بعد اربع وعشرين ساعة طبعاً) . والآن ، اي المجموعتين سوف تتذكر المقاطع على نحو افضل ، مجموعة الانطوائيين أم مجموعة الانبساطيين ؟

قد يقول الفرد للوهلة الأولى طبعاً ، أن مجموعة الانطوائيين افضل تذكراً من مجموعة الانبساطيين ، لأن الانطوائيين يمتازون بدرجة مرتفعة من « الاثارة » وينبغي للاثارة القشرية (الدماغية) او اليقظة أن تسهل عمليّة التذكر . ان هذا القول صحيح بيد أنه ناقص . ما الذي يجري في الواقع عندما نتعلم شيئاً ما ، مثل تعلم المقاطع العديمة المعنى او تعلم شعر شكسبير ؟ يوحي الدليل التجريبي بوجود نوعين من الذاكرة لدينا هما الذاكرة القصيرة المدى والذاكرة الطويلة المدى .

تدخل المواد الجديدة اولا في الذاكرة القصيرة المدى والتي يمكن تصورها وكأنها مؤلفة من دارات ترددية في الدماغ . وسرعان ما تزول هذه الدارات إذا لم تتحول إلى آثار كيميائية ، وربما يكون هذا التحول نتيجة تركيب بروتيني معين ينطوي على احد الاحماض النووية . يسمى التحول إلى الذاكرة الطويلة المدى بتقوية اثر الذاكرة . وهناك دليل يوحي بأن ديمومة التقوية وقوتها هما وظيفة من بين وظائف اخرى عديدة لدرجة الاثارة القشرية (الدماغية) المتوافرة في وقت معين . وحتى هذه المرحلة من النقاش ، ما زال الفرد يرى ان من المرجح أن يكون الانطوائيون افضل تذكراً من الانبساطيين ، ولكن رغم ذلك ، فما زال هناك تعقيد اضافي آخر . ان عملية تقوية اثر الذاكرة تتداخل مع الانتاج الذاكري ، وربما يعود ذلك إلى أن مجموعات العصيبونات (الخلايا العصبية) او التجميعات الخاوية هي نفسها التي تستخدم في عملية التقوية وفي الانتاج الذاكري ، وأنها لاتتمكن من اداء إلا احدى هاتين الوظيفتين فقط في الوقت الواحد . لذلك عندما تكون عملية التقوية في حالة معالجة ، سوف لاتكون الذاكرة متوافرة للقيام بعملية التذكر . وهذا يعني أن الانبساطيين (وهم ذوو اثارة ضعيفة وتقوية قليلة) سوف يتذكرون بعد التعلم بوقت قصير على نحو افضل من الانطوائيين (وهم ذوو اثارة قوية وتقوية طويلة الأجل) الذين ستبقى عصبوناتهم — اي خلاياهم العصبية — مشغولة بعملية التقوية ، لذلك لن يكونوا في حالة تمكنهم من انتاج المادة المتعلمة واعدادها للتذكر — ومن المتوقع على نحو معاكس أن يكون تذكر الانبساطيين (وهم ذوو تقوية ضعيفة وتذكر ضئيل)

اضعف من تذكر الانطوائيين بعد مضي فترة زمنية طويلة على التعلم ، ومن المتوقع الآن ، أن الانطوائيين الذين يمتازون بتقوية قوية تزودهم بأثر ذاكري قوي ، سوف يتذكرون على نحو جيد بشكل خاص . لذلك إذا قمنا بإختبار مجموعات مختلفة من الانطوائيين والانبساطيين بعد فترات راحة مختلفة فسنتوقع أن تكون درجاتهم (في التذكر) متقاطعة ، حيث سيكون الانبساطيون متفوقين جداً في البدء ، بينما سيكون الانطوائيون متفوقين جداً في النهاية ، مع وجود درجة توازن في الوسط . ويبيّن الشكل رقم (٣) نتائج هذه التجربة التي تشير إلى أن مقدار تذكر الانبساطيين يبلغ ضعفي مقدار تذكر الانطوائيين في حالة عدم وجود فترة راحة بين التعلم والتذكر . وبعد خمس دقائق من التعلم يكون مقدار تذكر المجموعتين هو نفسه تقريباً . اما بعد فترة (٢٤) ساعة فيكون مقدار تذكر الانطوائيين ضعفي مقدار تذكر الانبساطيين .

تعتبر هذه التجربة منورة بأكثر من طريقة واحدة . فكر اولا في النتيجة فيما لو تبنّينا التقنية التجريبيّة التي تهمل متغيرات الشخصيّة . ان ايجاد متوسط درجات التذكر لأفراد الدراسة جميعهم (الانطوائيون والانبساطيون) سوف ينتج خطأً مستقيماً بحيث يبدو كما لو أن فترة التذكر لم تؤثر في التذكر على الاطلاق . من الواضح أن استنتاجاً من هذا القبيل هو استنتاج سخيف ، وشبيه إلى حد ما بالقاعدة البحريّة القديمة التي تقول : طالما يحب بعض البحارين تحلية الشاي بقطعتين من السكر ، في حين لايحب البعض الآخر تحلية الشاي على الاطلاق ، لذلك سوف يحصل كل شخص على قطعة سكر واحدة ! يجب عليك عدم



الشكل رقم (٣)

ايجاد المتوسط لمجموعتين غير متماثلتين من المعطيات ، وبذلك تتحقق قاعدة المعرفة العلميّة الأولى . ولسوء الحظ ، يقوم علماء النفس التجريبيون بانتهاك هذه القاعدة باستمرار رغبة منهم في دفن اخطائهم في « مصطلح الخطأ » الاحصائي المضخم على نحو مناف للمنطق . ان الأفراد المختلفين يسلكون على نحو مختلف حتى في افضل الاوضاع التجريبيّة ضبطاً . وينبغي لنا مجرد الاعتراف بهذه الحقيقة ، واعترافنا بها يعني الاعتراف بأهمية الشخصيّة وبتعيين موضع مركزي لها في البحوث النفسيّة كافة .

فكر في مظهر آخر لهذه التجربة . لقد درس علماء النفس على نحو مستفيض مسألة تحسّن الاداء اثناء فترة الراحة تحت عنوان « التذكر » . وكانت نتائج الدراسات الوفيرة التي تناولت التذكر اللفظي متباينة ، حيث وجد بعض الباحثين دليلا على مثل هذا التحسّن ، في حين لم يجد باحثون آخرون مثل هذا الدليل ، الامر الذي ادى إلى ما يعرف بظاهرة « تراه ولاتراه » ، وقد ضعف الاهتمام بهذه الظاهرة على نحو كبير حيث لم تنشر دراسات حولها منذ سنوات عديدة . ان الشكل الذي تقدمنا به (الشكل رقم ٣) يجعل سبب هذه التناقضات واضحاً . فالانطوائيون يظهرون مثالا جيداً على التذكر ، حيث تتضاعف تقريباً درجة تذكرهم بعد فترة (٢٤) ساعة ، في حين يظهر الانبساطيون بدلا من ذلك ، مثالا جيداً عن النسيان ، حيث تنخفض درجة تذكرهم إلى النصف تقريباً بعد (٢٤) ساعة . ان درجات التذكر سوف لا تتغير على الاطلاق فيما لو اخذت درجات المجموعتين معاً . ومن غير المستغرب أن يغدو امر تثبيت التذكر صعباً جداً ، لأن النتائج تعتمد كلياً على بنية شخصيّة افراد مجموعتك الدراسية ، فإذا كان معظم افراد هذه المجموعة من الانطوائيين فسيحدث التثبيت ، اما إذا كان معظم هؤلاء من الانبساطيين فلن يحدث ذلك .

ينزع علماء النفس التجريبيون الراغبون في استبعاد متغيرات الشخصيّة من دراساتهم إلى تأكيد اجرءات علماء الفيزياء المتمثلة حسب تصريحهم في العمل وفق معادلة الاقتران البسيطة التالية أ = (ب) س التي رأيناها في مكان سابق من هذا الفصل . لذلك يجب أن تكون « الوظيفيّة » هي القاعدة في علم النفس ايضاً ، ولكن من

الطبيعي أن ينطوي هذا التعميم على افراط فادح في تبسيط ما يقوم به الفيزيائيون ، مما يؤدي في حقيقة الأمر إلى سوء تمثيل الحقائق او تشويهها . خذ مثالا على ذلك « علم التبريد » ، وهو دراسة الحرارات المنخفضة جداً . من المعروف جيداً أن الحرارات ذات الدرجات القليلة المطلقة (ك) تؤدي إلى فرط الموصليّة ، اي تؤدي إلى حالة لم يعد يتمتع فيها المعدن او الخليط المعدني المبرّد للغاية بأية مقاومة لمرور التيار الكهربائي عبره . ولكن هل نستطيع القول بأن فرط الموصليّة هي وظيفة للحرارة ؟ من المؤكد اننا لانستطيع فعل ذلك . فبعض المعادن تظهر فرط الموصليّة في حين لاتظهرها معادن اخرى . ما الذي يميز كل من هاتين المجموعتين من المعادن ؟ نصلح المعادلة السابقة بالنسبة للزئبق والرصاص والقصدير والانديوم والتاليوم والغاليوم ، وهي جميعها معادن ذات خصائص فيزيائية متشابهة ، مثل درجات الذوبان المنخفضة والليونة ، ولكن على الرغم من ذلك ، لم تكن تلك الخصائص ذات علاقة بفرط الموصليّة ، فقد اكتشف « ميسنر » (Messner) بعد فترة من الزمن وجود ظاهرة فرط الموصليّة في معادن صلبة ذات درجات ذوبان عالية ، مثل التنتالوم والنيوبيوم والتيتلينوم والثوريوم . ثم اضيفت بعد ذلك معادن اخرى مثل الالمنيوم والكادميوم والزنك والازميوم والرثنيوم . غير أن بعض المعادن لم تظهر فرط الموصليّة ، بعضها احادية التكافؤ مثل الذهب والصوديوم وقليل منها ثنائية التكافؤ ، مثل المغنسيوم والكالسيوم . كما تبيّن أن هناك معادن اخرى غير موصلة ، مثل الحديد والكوبالت والنيكل والفلزات الاخرى النادرة . يمتاز هذه المعادن جميعها بحقول مغناطيسية

داخليّة عالية يرجح ان تؤدي إلى قمع فرط الموصليّة . فهل طبيعة الذرة ذاتها هي المسؤولة عن ظاهرة فرط الموصليّة ؟ من الواضح أن الاجابة بالنفي . فلا الذهب (AU) ولا البزموت (Bi) مفرطاً الموصلية لكن التركيب المعدني الداخلي المؤلف منهما (AU2Bi) هو كذلك ، اي أنه مفرط الموصليّة . ويبدو أنه يجب البحث عن سبب فرط الموصليّة في غاز الالكترونات الحرّة بدلا من طبيعة الذرة . وعلاوة على ذلك ، ان خليط المعادن ، وفي الواقع ان اي شكل من اشكال النقص البلوري ، ينزع إلى التأثير في فرط الموصليّة على نحو معاكس . وكما يقول «فليكس بلوتس » (Felix Block) « يمكن اثبات خطأ كل نظرية في فرط الموصليّة » . لذلك ، وفيما يتعلق بالفيزيائي تعتبر فكرة معالجة جميع العناصر على نحو متماثل لتحقيق هدف معادلته الوظيفيّة ، فكرة لامعنى لها . ان جدول العناصر وخصائصها المعروفة جيداً تحلّ محلّ ابعاد الشخصيّة في علم النفس . فما من فيزيائي سوف يقوم بإيجاد نتائج متوسطة لعناصر واخلاط معدنية مختلفة ، وسيرى الفكرة في حد ذاتها فكرة خرقاء . لماذا لايتيح علماء النفس الطريقة ذاتها إلى المعرفة ، ويعالجون الاشياء ذات الخصائص المختلفة على نحو منفصل ؟ .

لقد كنا قادرين ، عبر مفهوم الشخصيّة ، على متابعة الطريق من الجانب الفيزيولوجي إلى الجانب التجريبي ، وستؤدي هذه الطريق بطبيعة الحال إلى الجانب الاجتماعي . ان تمتع الانطوائي بامكانية تعلم اعلى على النحو الذي تم عرضه ، يمكّننا من التوقع بشكل واضح بأن هذه الامكانية تؤثر في نجاحه في المدرسة وفي الجامعة ، وهناك في الواقع

دليل قوي على أن الانطواء مرتبط على نحو ايجابي بالتحصيل المدرسي فيما بعد المدرسة الابتدائية . من المؤكد تقريباً أن الانطواء ليس هو السبب الوحيد المؤدي لهذه النتيجة ، ولكن من المرجح جداً أن يكون واحداً من مجموعة كاملة من الاسباب المختلفة التي سنناقش بعضها فيما بعد . دعنا نلاحظ شيئاً واحداً آخر فقط يمكن تفسيره بدلالة فرضيتنا . إن العقاقير المنبّهة ، مثل الكافيين والنيكوتين ، تزيد الاثارة القشرية (الدماغية) وتزيد بالتالي عملية التقوية . لذلك من غير المستغرب أن يلجأ الطلاب إلى التدخين وشرب القهوة عندما يدرسون ! ومن غير المستغرب أن يكون الانبساطيون اكثر تدخيناً واكثر شرباً للقهوة انهم يواجهون حاجة اكبر للاثارة .

ربما تكون هناك سلسلة اخرى من المناقشة هامة بشكل خاص ، ولكن بما أنني قد تناولتها بشيء من التفصيل قبل الآن ، لذلك سأقتصر على مجرد ذكرها هنا . لقد اكتشف بافلوف بنفسه ان الاشراط المنسوب إليه يعتمد على الاثارة القشرية ، وقد اكدت فيما بعد اعمال اخرى اكثر تطوراً صحة هذه الفرضيّة . ومن هنا كان تنبؤي بأن الانطوائيين سيكونون افضل اشراطاً من الانبساطيين . وهناك في الواقع دليل قوي على ان الانطوائيين يشكلون استجابات شرطية على نحو اكثر سرعة وقوة من الانبساطيين . ويصدق ذلك بشكل خاص ، عندما تكون الظروف مضادة لتشكيل الاستجابات الشرطية . اي عندما تكون المثيرات ضعيفة والفترة الزمنية الفاصلة بينها قصيرة نسبياً (كأن تكون هذه الفترة ٣ . و . ثانية) . وقد يكون الوضع معكوساً عندما تكون المثيرات قوية جداً والفترات الزمنيّة الفاصلة بينها اطول قليلاً . ان

الاثارة القوية الناتجة من المثيرات والمتحدة مع الدرجة المرتفعة للاثارة المتوافرة لدى الانطوائي ، تدفع الشخص المعني إلى ما وراء الدرجة القصوى للاثارة . وهذه الحقيقة هي في الواقع اكتشاف عام هام لعلم النفس التجريبي . ان العلاقة بين الاثارة والأداء ليست علاقة خطيّة ، بل تأخذ الشكل المقاوب للحرف (U) . فعندما يكون مستوى الاثارة منخفضاً ، يتحسّن الاداء لدى زيادة هذا المستوى ، غير ان هذا التحسّن يستمر حتى نقطة معينة فقط . اما مستوى الاثارة الذي يتجاوز هذا الحد الأقصى ، فيؤدي إلى اداء غير منتظم ، لذلك يكون اداء الشخص اقل جودة كلما ازداد مستوى الاثارة ارتفاعاً . لقد اسس بافلوف هذه الافكار عندما تحدث عن « قانون القوة »—اي يزداد الأداء بازدياد الاثارة — و « الكف الوقائي » ، اي ان القشرة الدماغيّة تقي نفسها من فرط الاثارة بالانغلاق جزئياً عندما تصبح الاستثارة شديدة للغاية .

لقد امتاز هذا القانون العام المعروف بقانون (يركز — دودسون) بعد أن اكتشفه في البدء عالما نفس امريكيان في السنوات المبكرة من هذا القرن بخاصيّة اضافية هي : ان الدرجة القصوى للاثارة هي اخفض بالنسبة للمهام المعقدة والصعبة ، واعلى بالنسبة للمهام البسيطة والسهلة . ربما تكون هذه الخاصيّة واضحة على نحو حدسي ، فقدرتك على حل معادلات رياضيّة صعبة ، هي اكثر سهولة للتمزق من قدرتك على الجري بسرعة او قدرتك على الضرب بقوة .

ومهما كان الأمر ، فقد جادلت بأن سهولة الاشراط التي تميّز الانطوائي تجعله اكثر عرضة للاضطرابات العصابيّة التي يمكن فهمها كرجاع انفعالية شرطية . وعلى نحو مشابه ، ان فشل الانبساطي في

توليد استجابات شرطية سريعة وقوية ، يجعل مسألة تطوير « ضمير » المدية مسألة اكثر صعوبة — يعرّف « الضمير » هنا بدلالة نظرية سيكيولوجية تقول ببساطة بأن الضمير هو مجموع رجاع القلق الشرطية التي يكوّنها الفرد حيال ما يقوم به من أعمال تتصف بـ « الخطأ » او « السوء » اثناء الطفولة او المراهقة . لقد ناقشت هذه الأفكار بشيء من التفصيل في كتابي « الجريمة والشخصيّة » وسوف لااتوسع في مناقشتها هنا ، وسنعود إلى النظرية العامة المتعلقة بهذا المجال في الفصل الثاني من هذا الكتاب والمعنون بـ « الجنس والشخصيّة » . وعلى اية حال ، ان الدليل قوي تماماً على أن الانطوائيين ذوي الانفعالية المرتفعة ، يتمتعون باستعداد مسبق لأن يكونوا عصابيين . بينما يتمتع الانبساطيون ذوو الانفعالية المرتفعة باستعداد مسبق لأن يكونوا مجرمين . وقد تكون الدراسات التي اجراها « السير سيرل بيرت » (Sir Cyril Burt) وتناول فيها (٧٦٣) طفلا قدرهم معلموهم على بعدي الانبساط والانفعالية ، مثالا جيداً في هذا السياق . لقد تبيّن بعد ٣٥ سنة أن ١٥٪ من هؤلاء الاطفال قد اصبحوا مذنبين اعتياديين ، في حين اصبح ١٨ ٪ منهم عصابيين . وتبيّن ان ٦٣ ٪ من الذين اصبحوا مذنبين اعتياديين يتمتعون بدرجة مرتفعة من الانفعالية ، وأن ٥٤ ٪ منهم يتمتعون بمستوى انبساط مرتفع ، في حين لم يتمتع منهم بالانطواء إلا ٣٪ فقط . اما بالنسبة للافراد الذين اصبحوا عصابيين ، فقد تبيّن أن ٥٩٪ فهم يتمتعون بمستوى انفعالية مرتفع ، و٤٤٪ منهم يتمتعون بمستوى انطواء مرتفع ،في حين لم يتمع بالانبساط إلا ١٪ منهم فقط ، وذلك وفق التقديرات المستخدمة في تلك الدراسات .وبعد ، تتوافر هنا سلسلة اخرى تصل الجانب الفيزيو وجي والجانب التجريبي من الشكل رقم

(١) بالجانب الاجتماعي ، وذلك من خلال تدخل متغيرات الشخصيّة .

ويمكن بالاضافة لذلك ، ايجاد حلقة وصل ثالثة عبر المستوى المفضل للاستثارة الحسيّة . هناك قانون عام في علم النفس مفاده أن مستوى الاستثارة الاكثر تفضيلا هو مستوى متوسط يقع بين حرمان حسي (اي استثارة ضعيفة جداً) واستثارة قوية جداً تؤدي إلى الألم . ان النقطة الاخيرة واضحة ، فالاضواء الساطعة ، والضجيج المرتفع بشكل متطرف ، والضغوط القوية جداً ، تؤول جميعها في النهاية إلى مثيرات مؤلمة ، لذلك يتم تجنّبها . اما الحرمان الحسي فيشكل ميدان تجريب اكثر حداثة نوعاً ما . ويعود ذلك بشكل كبير إلى دراسة ما يمكن أن يحدث لرواد الفضاء المنفصلين عن العديد من مصادر الاستثارة العادية . ويمكن وصف تجربة سلب الحساسية على النحو البسيط التالي : يحجز فرد التجربة في غرفة مظلمة عازلة للصوت ، ويرتدي حشوات مبطنة في يديه وقدميه بحيث يتعذر عليه الشعور بأي شيء ، أو يمكن بطريقة اخرى غمر الفرد تحت ماء حرارته مماثلة لحرارة الجلد ، على أن يمارس عملية التنفس عبر انبوب ، الامر الذي يحول دون قدرته على الشعور بأي شيء مهما كان . سريعاً ما تغدو هذه الشروط امراً لايطاق ، فغياب الاستثارة ليس اكثر قابلية للتحمل من الاستثارة القوية على نحو مفرط . ومن هنا ينشأ الرعب من السجن الانفرادي .

كيف ترتبط مستوى الاستثارة بالشخصيّة ؟ ترتبط العتبات الحسية (اي مستوى الشعور بالاستثارات الحسيّة الناتجة من مثيرات خارجية — المترجم) بالاثارة القشرية ، فعندما تكون تحت ظروف الاثارة المرتفعة ، تتمكن من سماع الاصوات الخفيضة ، ورؤية

الاضواء الخفيفة ، والشعور باللمسات الرقيقة . وذلك على نحو اسهل مما لو كنت في حالة اثارة منخفضة . لذلك ، من المتوقع أن يتمتع الانطوائيين بعتبات حسيّة ذات مستوى اخفض من مستوى العتبات التي يتمتع بها الانبساطيون . ونستطيع وفقاً لذلك ، أن نتوقع بأن الانطوائيين هم اكثر تحملا للحرمان الحسّي ، وأن الانبساطيين هم اكثر تحملا للألم — ان الاستثارة الخفيفة التي توفرها بيئة مقيدة ، تتجاوز عند الانطوائيين العتبة الحسية المنخفضة لاعضاء الحسّ لديهم ، في حين تقع هذه الاستثارة ذاتها دون مستوى العتبة الحسيّة للانبساطيين ، لذلك لايشعرون بشيء . وهكذا إذا تجاوزت الاستثارة الحسيّة القوية عتبة الانطوائي بشكل كبير ، فسيشعر بالألم . اما الانبساطي المتمتع بقوة اكبر ، فلا تتجاوز هذه الاستثارة عتبته إلا بشكل قليل ، لذلك لايشعر بالألم . ولقد تأكدت في الواقع صحة هذه الاستنتاجات تماماً مرات عديدة ، الامر الذي يؤدي إلى تأييد تلك السلسلة الخاصة بين الجانب الفيزيولوجي والجانب الاجتماعي عبر تدخل متغيرات الشخصيّة .

يمكننا أن نتقدم خطوة ابعد من ذلك ، ونحاول بأنه طالما تقع نقطة الاستثارة القصوى باتجاه المثيرات الحسيّة الاقوى بالنسبة للانبساطي ، وباتجاه المثيرات الحسيّة الاضعف بالنسبة للانطوائي . وطالما كان السلوك موجهاً على نحو سوي لتأسيس توازن يقع في نقطة الاتزان القصوى او في القرب منها ، لذلك سوف يتميز الانبساطيون بما يدعى بـ « الجوع الاستثاري » اي سيبحث هؤلاء عن الاستثارة الحسية القوية ويتمتعون بها ، في حين سيقوم الانطوائيون بتجنب هذه الاستثارة وتفضيل المثيرات الضعيفة عليها . لقد تم في تجربة توضيحيّة اختبار مجموعة افراد انطوائيين وانبساطيين على نحو منفرد ، كانوا قد عزلوا

في غرفة مظلمة وطلب منهم أن يضغطوا على مفتاح مقابل نابض . قدّر في البدء متوسط قوة الضغط عند هؤلاء الافراد ، ثم تمت « اثابتهم » من اجل الضغوط القوية ، ذلك باستخدام مقطوعات موسيقية صاخبة ، واضواء ملوّنة ساطعة تنير المكان بحيث تستمر هذه المثيرات لمدة ثلاث ثوان . وعندما يحافظ الافراد على مستوى ضغط قوي ، فسيتواصل تقديم الموسيقى والاضواء ، اما إذا لم يحافظوا على هذا المستوى ، فسيتوقف تقديمها . اشارت نتائج التجربة ، وكما هو متوقع ، إلى أن الانبساطيين بدأوا بالضغط على نحو اشدّ فأشدّ وذلك للتمتع بالاثارة الحسيّة القوية ، في حين ضغط الانطوائيون على نحو اقل فأقل شدة ، وذلك لتجنب تلك الاثارة القوية ! وبذلك يتضح أنه حتى فكرة « التعزيز » عند سكنر مرتبطة بالشخصيّة . ان الشهد بالنسبة لشخص ما ، هو سمّ بالنسبة لشخص آخر . تتصل هذه التجربة على نحو وثيق بإمكانية الاجرام عند الفرد الانبساطي الذي يبحث عن « الاضواء الساطعة والموسيقى الصاخبة » في المدينة . فالانبساطي لايتميع بمستوى اغراء اقوى فحسب ، بل وكما رأينا ، ان قدرته على مقاومة الاغراء التي يزوده بها « ضميره » هي اضعف ايضاً . لذلك من غير المستغرب ان ينحرف الانبساطي ، بينما الانطوائي لاينحرف .

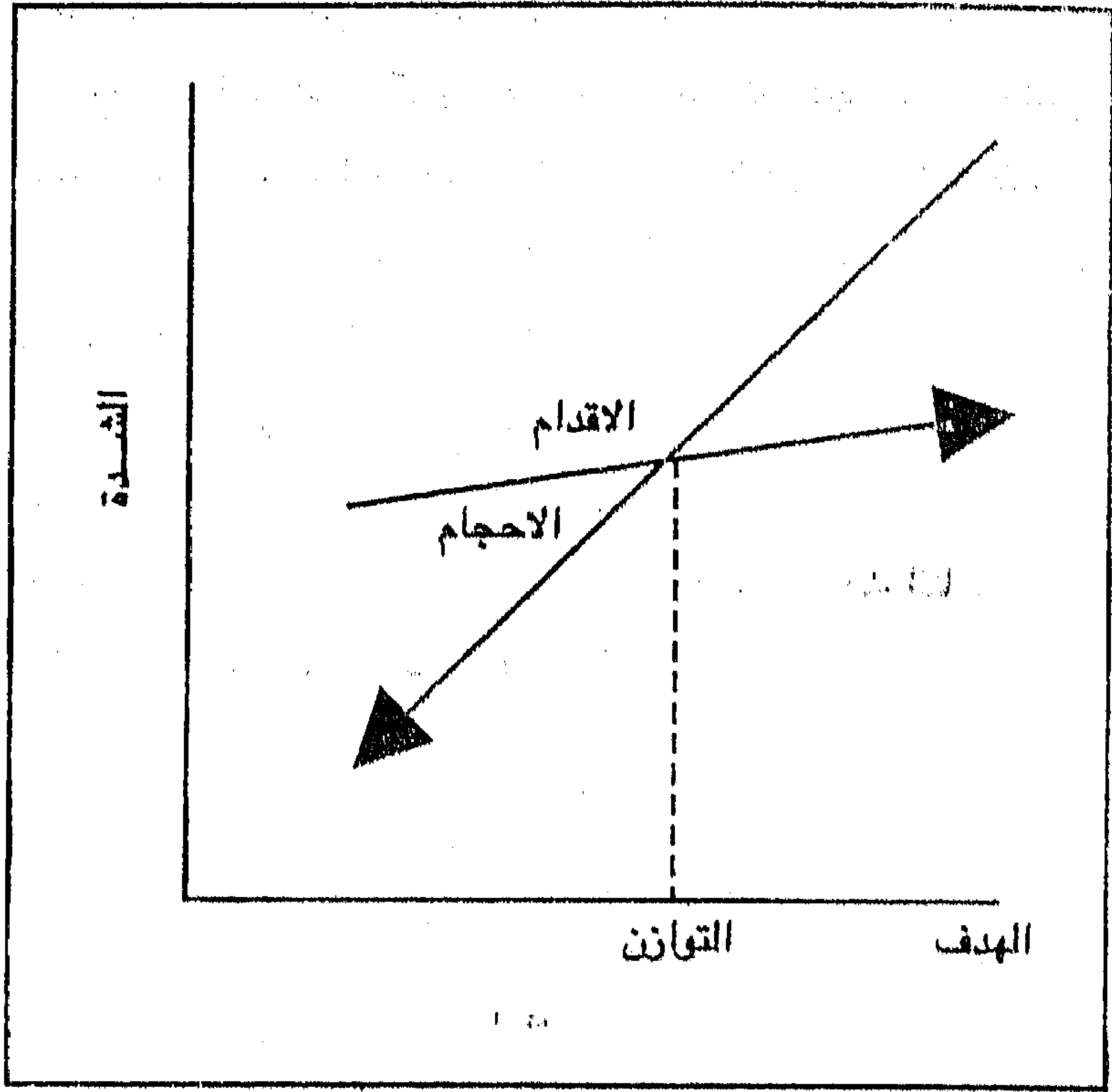
دعنا نفكر في سلسلة اخيرة بين الجانبين المتضمنيّن في تمثيلنا البياني (الشكل رقم ١) . يلقب « وندت » (Wenbt) الشخص الانبساطي بلقب « متقلب » ، والدليل العلمي يؤيده في هذه النقطة بشكل مؤكد . فالانبساطيون اكثر تكراراً من حيث تغيير اعمالهم ، واماكن سكناهم ، واقل اتصافاً « بالاخلاص الدائم » ، وانهم بالاضافة إلى ذلك ، وكما سنرى في الفصل التالي ، يغيرون شركاءهم الجنسيين

على نحو اكثر تواتراً (ويمارسون الطلاق بيسر وسهولة) . لماذا يكون الانبساطي اكثر تقلباً ؟ ربما يكمن الجواب في نوع السلوك الذي تمت دراسة تجريبياً تحت عنوان « السلوك التناوبي » . وكمثال على هذا السلوك دع فأراً طليقاً في قاع متاهة ذات شكل الحرف « T » ، وضع قطع طعام في ذراعي المتاهة . لن يتمكن الفأر بهذه الطريقة من رؤية الطعام عندما يصل قمة ساق المتاهة ، وعليه أن يذهب اما باتجاه اليمين او باتجاه اليسار . افترض أنه ذهب باتجاه اليمين ووجد طعامه واكله ، ثم وضع مرة اخرى في نقطة البداية ، فهل سيذهب باتجاه اليمين أم باتجاه اليسار ؟ قد تعتقد بأنه سوف يذهب ثانية باتجاه اليمين طالما كان قد اثيب نتيجة ذهابه في هذا الاتجاه ، بيد أن الأمر ليس كذلك ، إذ من المرجح ان يذهب في الاتجاه الآخر . واذا استخدمنا مصطلحات انسانية ، امكننا القول بأن الفأر كان مدفوعاً بـ « حب الاستطلاع » لاكتشاف ما الموجود في ذراع المتاهة الآخر الذي لم يكتشفه بعد ، غير أن استخدام مصطلحات تجسيميّة من هذا القبيل لاتساعدنا كثيراً في هذا المجال . هناك دليل قوي على أن أية خبرة ادراكية (حسيّة) او حركية تحدث شكلا من اشكال الكف الرجعي ، اي تحدث نزعة تعمل ضد ذلك النمط من السلوك الذي كان موضوع تكرار فوري . يضعف هذا الكف نزعة الذهاب باتجاه اليمين ، وهو اقوى من التعزيز الذي سيجذب الفأر نحو هذا الاتجاه ، لذلك يذهب الفأر باتجاه اليسار . ان هذه الحقيقة هي جوهر السلوك التناوبي ، وسببه المفترض هو نوع من الكف الرجعي الذي يمكن دراسته في اوضاع اخرى عديدة وقياسه على نحو مناسب .

يشكل الكف حسب النظرية العامة الوجه المضاد للاثارة ، لذلك نتوقع أن يبدي الانطوائيون كفاً ادنى من الكف الذي يبديه الانبساطيون . وهناك دليل قوي على هذه الصيغة ، إذ يمكن معالجة الكف تجريبياً لتقوية درجته الاساسيّة المقدرة . فالعقاقير المنبّهة مثل « الامفيتامين » ترفع درجة الاثارة وتقلل بالتالي درجة الكف . اما العقاقير المخفضة للنشاط او الحيوية ، مثل الكحول ، فتمتاز بفاعلية مضادة . وكما يتوقع الفرد ، يزداد السلوك التناوبي بالعقاقير المخفضة للنشاط ويقل بالعقاقير المنبهة . ويمكننا الآن فهم الضغط الواضح الحقيقي الذي يتبدى لدى الانبساطيين من اجل الجدّة والتغير والتناوب ، لأن الاثارة الضعيفة المتوافرة لديهم لاتتمكن من مقاومة نمو الكف الرجعي . لذلك تغدو الاشياء المنتظمة والعادية والمألوفة اشياء بغيضة عند الانبساطيين ، ويستمرون في البحث عن المثيرات الجديدة ، كما البحث عن المثيرات القوية . يميل الفنانون ، وهم انبساطيون عموماً ، إلى اظهار هذه النزعة بأشكالها المتطرفة . وقد اصبحت هذه النزعة جزءاً من الاسطورة البوهيمية فعلا . لذلك يمكننا الآن أن نفسر تماماً لماذا يكون الانبساطيون اكثر تقلباً من الانطوائيين ، بينما اقتنع ونلدت بوصف الإنبساطي كشخص « متقلب » . وبعد ، ربما كان للفأر دور يلعبه في علم النفس الانساني !

قد يبدو ايضاً أن لسلوك الصراع علاقة وثيقة بالشخصيّة . يبحث علماء النفس موضوع الصراع النفسي عادة بدلالة الاقدام — الاحجام . وبتعبير آخر ، ان موضوعاً ما يمتاز بخصائص معيّنة تجعلنا راغبين في الاقتراب منه ، بيد أنه يمتاز بخصائص اخرى تجعلنا نبتعد عنه . والمثال

الواضح على ذلك ، هو المرأة ذات الجاذبية الجنسيّة القوية بالنسبة للرجل المتزوج . يواجه مثل هذا الرجل اسباباً قاطعة على نحو متساو تدفعه إلى الاقدام كما الاحجام . ما الذي سيحدث في مثل هذا الوضع ؟ من الطبيعي أن يتوقف الأمر ، جزئياً على الأقل ، على القوى الشخصيّة لهذين الدافعين (دافع الاقدام ودافع الاحجام) ، بيد أنه يتوقف في جزء منه أيضاً على مسألة قوة تغيّر الدافعين لدى اقتراب الشخص من هدفه . لقد تناول « نيل ميللر » (Neal Miller) دراسة هذه المشكلة على نحو مستفيض جداً ، وقاس قوة الاقدام والاحجام عند فئران ترتدي قمصاناً صغيرة ترتبط بخيط يمكن جرّه مقابل نابض . وبذلك تمكن ميللر من قياس قوة الجر واتجاهه . لقد اعتبر الاتجاه (اي الجر نحو الهدف او بعيداً عنه) مؤشراً للاقدام او الاحجام ، في حين اعتبرت قوة الجر مقياس شدة الدافعيّة . وقد بيّنت نتائج دراسات ميللر أن قوة دافعية الاقدام وقوة دافعية الاحجام كلاهما ، تزدادان كلما وجد الفأر نفسه أكثر قرباً من الهدف. ومع ذلك فقد كانت درجة ممال التجنب اكثر انحداراً كما هو موضح في الشكل رقم (٤) . طبقاً لذلك ، إذا وضعنا فأراً جائعاً في احد طرفي ممر مستقيم طويل ، ووضعنا بعض الطعام في نهاية الطرف الآخر للممر ، فسيكون الفأر اكثر دافعية على نحو تقدمي كلما غدا اكثر قرباً من الطعام . وإذا وضعنا اداة تولد صدمة في نهاية الممر الموجود الطعام فيها ، فسيكون اكثر خوفاً على نحو تقدمي ، كلما اقترب من الهدف ، إذا جازلنا استخدام اللغة التجسيميّة . يشكل الجمع بين الطعام والصدمة صراعاً اقدامياً ـــ احجامياً نموذجياً . وكما هو مبيّن في الشكل رقم (٤) ، ستكون النزعة



الاقدامية اقوى عندما يكون الفأر بعيداً عن الهدف ، غير أن تفوق هذه النزعة سوف يتناقص تدريجياً كلما تقدم الفأر من الهدف إلى أن يصل اخيراً إلى نقطة تبعد مسافة معينة من الهدف يقف عندها — تقع هذه النقطة عند تقاطع الخطين تقريباً . سيؤدي ازدياد جوع الفأر إلى رفع ممال الاقدام إلى درجة ربما تجعل نقطة التقاطع فيما وراء الهدف وهذا يعني أنه سيصل فعلا إلى الطعام ويتناوله رغم تعرّضه الصدمة . كما يمكن زيادة شدة الصدمة ، بحيث قد يرتفع في هذه الحالة ممال الاحجام عند الفأر إلى درجة تجعله يتوقف تماماً عند مدخل

الممر دون أن يتحرك باتجاه الهدف على الاطلاق . لقد كان هذا النموذج عرضة لعدد كبير جداً من البحوث التجريبية ، وتبيّن أنه يقدم وصفاً رائعاً لسلوك صراع الاقدام – الاحجام . هناك طبعاً انواع اخرى من الصراع ، مثل صراع الاقدام – الاقدام (تريد ان تشتري ثوباً وقبعة ، لكنك لاتملك من النقود إلا ما يكفي لشراء احدهما فقط) او صراع الاحجام – الاحجام (لاتريد أن تكتب واجبك المدرسي ، كما أنك لاترغب أن تكون عرضة للعقاب ، غير أن عدم قيامك بأحدهما سيؤدي إلى حصولك على الآخر حتماً) . بيد اننا لانهدف إلى الدخول في مثل هذه التعقيدات في نقاشنا هذا .

من الطبيعي أن تبتدىء الآن أهمية هذين الممالين بالنسبة لهدفنا الحالي المتمثل في قدرتنا على التنبؤ بأن الانبساطيين سيمتازون بمجال اقدامي مرتفع و / أو اكثر انحداراً من الممال الاقدامي الذي يمتاز به يمتاز به الانطوائيون . فالانطوائيون سوف يمتازون بممال احجامي مرتفع و / او اكثر انحداراً من الممال الاحجامي للانبساطيين . لذلك يتصف سلوك الانبساطيين عموماً بعدم التحفظ ، والبحث عن السرور والعدوانية ، والفعالية ، في حين يتصف سلوك الانطوائيين عموماً بالتحفظ ، وتجنب الأذى ، والخضوع ، والسلبيّة . ان كون الانفعالية معززاً او مضخماً (بمقتضى وظيفتها الدافعية) سوف تجعل هذه النزعات جميعها اكثر قوة ووضوحاً . وكمثال على ذلك ، فكر في التجربة التي تناولت فيها دراسة سلوك الفئران المجرءين والعصابيين . لقد وضعنا في هذه التجربة قاعدة لمجموعة فئراننا ، بحيث تمتنع عن الأكل لمدة ثلاث ثوان بعد سقوط الطعام إلى المعلف . وكان يعاقب

الفأر الذي ينتهك هذه القاعدة بصدمة كهربائية (معتدلة) تصيب قدميه الاماميتين . وعند انقضاء فترة الثلاث ثواني يسمح للفئران بأن تتناول طعامها بسلام . استخدمنا في هذه التجربة مجموعتين من الفئران تتمتع فئران احداهما بمستوى مرتفع من الانفعالية ، في حين كانت فئران المجموعة الاخرى غير انفعالية . لقد تم استيراد هذه الفئران عبر اجيال عديدة خصيصاً من اجل هذه التجربة . وكان من المتوقع أن تبدي الفئران الانبساطية نزعات « اجرامية » ، وذلك من خلال تناولها الطعام اثناء فترة الخطر رغم تعرضها الصدمة الكهربائية ، بينما ستكون الفئران الانطوائية خائفة جداً من الصدمة بحيث لن تقدم على تناول الطعام اطلاقاً حتى في الفترات الآمنة التي لاتتعرض فيها للصدمة لو تناولت طعامها . تتفق هذه النزعات مع ممال الاقدام المرتفع في الحالة الأولى (حالة الفئران الانبساطية) ، ومع ممال الاحجام المرتفع في الحالة الثانية (حالة الفئران الانطوائية) . اما الفئران التي تقع في مركز متوسط بين النهايتين المتطرفتين للانبساط والانطواء ، فستكون قادرة على السلوك باسلوب سوي متكامل ، اي تنتظر انقضاء الثواني الثلاث التي يحظر فيها تناول الطعام ، ثم تباشر تناول طعامها بسلام . ان تضخيم مستوى الانفعالية سيجعل هذا السلوك التكاملي اكثر صعوبة مهما كان الممال مرتفعاً ، لذلك تنخفض نسبة الفئران التي توازن بين الاقدام والاحجام . اتضح بنتيجة التجربة أن الفئران الانفعالية قد سلكت باسلوب اجرامي سيكوباتي ، او باسلوب عصابي جزع ، في حين سلكت الفئران غير الانفعالية على نحو نموذجي متكاملة وملائمة وظيفياً . هل التشابهات بين سلوك الفئران والسلوك الانساني التي

تنطوي عليها هذه التجربة هي اكثر من مجرد قياس تمثيلي ؟ ان الزمن وحده هو الكفيل بالاجابة ، ولكن من المؤكد أن امكانية اقامة تتبؤات بسلوك الفأر انطلاقاً من التأمل في الشخصيّة الانسانية ، هي تحول حاد نوعاً ما عن العرف العادي للقيام بالعكس . يبيّن الفصل التالي تطبيق هذه المبادىء على السلوك الجنسي الانساني ، مما قد يوحي بأن جواباً ايجابياً عن ذلك السؤال ربما يكون غير مخطىء بشكل كلي .

وبعد ، لم يعد هناك ما نقوله حول هذا الوصف المختصر جداً لبعض الصلات التي يمكن أن تقيمها نظرية في الشخصيّة بين جانبي علم النفس المتعارضين ، اذ يبدو أن هناك ارتباطات المقاييس الكهرو فيزيولوجية ، مثل جهاز قياس موجات الدماغ الكهربائية (EEG) من جهة ، والنشاطات الاجتماعية ، مثل الافعال الاجراميّة او الانهيارات العصبيّة من جهة اخرى . ولايمكن لهذه الارتباطات أن تكون مفهومة إلا من خلال توسط البناءات الافتراضيّة (او المتغيرات المتدخلة) ، مثل بعد الانبساط — الانطواء ، او بعد الانفعالية — الاتزان . من الطبيعي أن لايوحي ذلك بأن هذه المتغيرات المتدخلة للشخصيّة هي المتغيرات الوحيدة . فمما لاريب فيه أن هناك متغيرات اخرى عديدة سيكشف البحث العلمي الرصين عنها في الوقت المناسب . ولكن يجب انشاء البداية في مكان ما ، وإن هذين البعدين للشخصيّة هامان دون ادنى شك ، وهما على صلة وثيقة بالكثير مما تم انجازه في علم النفس التجريبي وعلم النفس الاجتماعي .

واخيراً ، يمكن ايجاز جميع ما قيل هنا بنقطة بسيطة جداً . تتصف مادة بعض موضوعات البحث العلمي بامكانية قابلية القسمة

على نحو لانهائي ، او هي كذلك تقريباً . فعالم الفيزياء يستطيع تجزئة عناصره بشكل لانهائي حتى الوصول إلى الذرة (وتستطيع الآن طبعاً تجزئة الذرة ذاتها) . اما علم الحياة (البيولوجيا) ، فلا يمتاز بهذا الوضع السعيد ، ومن المؤكد أن عالم النفس غير قادر على تجزئة موضوعات دراسته ، سواء كان بصدد دراسة الناس ، او حتى بصدد دراسة الفئران التي يجري تجاربه عليها . وحتى سليمان الحكيم لم يكن يفكر جدياً بتقسيم الطفل الرضيع إلى نصفين في حكمه الشهير بين المرأتين اللتين ادعت كل منهما بأنها والدة الطفل ! يدرس علم وظائف الاعضاء (الفيزيولوجيا) اجهزة فرعية ، مثل قوس الانعكاس ، ولكن عندما نبحث في السلوك ، يصار باستمرار إلى تعديل القوانين الفيزيولوجية رغم اهميتها القصوى وصلتها الوثيقة بالسلوك ، لأن ما تشير إليه من كينونات مطمور في سياق متغيرات اخرى . يعزل قوس الانعكاس في الاجراء الفيزيولوجي إلى الحد الذي يمكن فيه انجاز مثل هذا العزل . ولكن عمل قوس الانعكاس في عضوية تقوم بوظائفها يكون محدداً جزئياً بالاثارة القشرية للعضوية ، وبتنشيط جهازها الذاتي ، وبمتغيرات اخرى عديدة تجعل استنتاج قواعد عالم الفيزيولوجيا من عضوية حيّة سليمة امراً ذا قيمة مشكوك فيها جداً . ان هذا لايعني أن عمل الفيزيولوجيين لاقيمة له ، بل هو في منأى عن ذلك تماماً . فما يقوم به الفيزيولوجيون هو اساسي على نحو مطلق من اجل فهم مناسب لوظيفة العضوية ، بيد أنه غير كاف ، اذ ينبغي للأقسام والجزئيات أن تكون متكاملة ، ولانستطيع التحدث عن السلوك إلا عند حدوث مثل هذا التكامل . والأكثر من ذلك ، هو أن قوانين التكامل ليست متضمّنة

في القوانين الضابطة للأجهزة الفرعية المتنوعة التي يدرسها الفيزيوولجي ويجب على عالم النفس اكتشافها على نحو منفصل . لذلك ، مهما كان عمل الفيزيولوجي هاماً واساسياً ، فإن علم النفس يتطلب مفهوم العضوية السليمة . ان مفهوم « السلوك » يقع فيما وراء التحليل التجزيئي ويفترض مفاهيم مثل مفهوم « الشخصية » .

يحاول علماء النفس التجريبيون غالباً تجنب القيود المفروضة على علم النفس من خلال تلك الحقيقة التقييديّة التي لامفر منها . انهم يهدفون إلى اكتشاف قوانين التعلم او التذكر او الادراك ، ولكن دون اهتمام بالعضوية التي تتعلم او تتذكر او تدرك . ويحاولون القيام بذلك عن طريق ضبط البيئة قدر الامكان ، ولكن من الطبيعي أن مثل هذا الضبط هو جزئي فقط حتى في احسن الاحوال . ان ايّة تجربة تتناول الاشخاص والفئران لابد وأن تأتي بالشخص او الفأر إلى المختبر ، ولايمكنك ضبط او حذف هذا العامل المعوّق ، فالشخص او الفأر موضوع التجربة يدخل المختبر التجريبي بقشرة دماغية تعمل حسب مستوى اثارة محدد على نحو مسبق ، وبجهاز عصبي ذاتي فعال او بليد او عادي على نحو واضح ، وبدماغ قادر او ضعيف او متوسط ولقد رأينا كيف تعمل الذاكرة عند الانبساطيين والانطوائيين على نحو مختلف تماماً ، ويمكنك التخلص من هذه الفروق عن طريق ايجاد المتوسطات . ولقد رأينا كذلك كيف تختلف الفئران العصابيّة والاجراميّة في رجاعها لتجربتنا المخبرية ، حيث تبيّن أنه حتى مع هذه العضويات البسيطة يتضح اثر متغيرات الشخصيّة إلى حد كبير جداً . يبدو أنه ينبغي لسبيل المعرفة أن يستسلم ويقبل باستحالة استئصال جميع الفروق

الفرديّة التي تتدخل في ادائنا « التام » على المهام التجريبيّة في المختبر . وعوضاً عن معالجة مثل هذه العوامل كخطأ « احصائي » ، يجب أن نقبل بها كحقيقة واقعة ، ونقوم بدراستها كمتغيرات قائمة بذاتها . وبهذه الطريقة يمكننا أن نأمل في معرفة شيء عن الشخصيّة ، وبالفوز على نحو عرضي بدرجة من الضبط التجريبي نمارسه على ذلك الشيء الحرون المدعو بـ « الطبيعة الانسانية » . تبدو هذه الرسالة واضحة جداً ، ومعقولة جداً ، ومع ذلك فهي اكثر تبجيلا في مجال النقص من مجال الالتزام او التقيد بها .

وعلى الرغم من أن علماء النفس الاجتماعي يبدون ايضاً ولاء ظاهرياً لفعالية البحث العلمي للشخصيّة ، إلا أنهم لايضمنون الشخصيّة في تصميمات بحوثهم في معظم الاحيان . ولقد وجهت الانتباه إلى نزعة علماء النفس الواضحة لطرح اسئلة عامة تفترض اجاباتها ضمناً وجود فكرة عالمية حول « طبيعة بشرية » موحّدة غير متنوعة ، بدلا من المادة غير المتجانسة والمتنوعة إلى حد كبير التي نراها في سوق تجاري مركزي . ولنأخذ على سبيل المثال ما قام به « كنسي » (Kensy) والذي سوف نحلله على نحو اكثر تفصيلا في الفصل التالي . لقد كان كنسي معنياً بـ « قيم السكان » ، مثل تحديد نسبة الرجال والنساء الذين مارسوا العمليّة الجنسيّة قبل الزواج ، او الذين مارسوا الاتصالات الجنسيّة المثليّة ، او الذين انغمسوا في انحرافات جنسيّة . قد يكون لهذا العمل بعض الأهمية ، ولكن من المؤكد أنه يتجنب ببساطة السؤال السببي الهام التالي : ما الذي يؤدي ببعض الناس إلى اكتساب خبرات جنسيّة قبل زواجية ، في حين يؤدي بالبعض الآخر إلى تجنب مثل هذا

السلوك ؟ من الذي ينغمس في الانحرافات الجنسيّة ومن الذي لاينغمس فيها ؟ ما متغيرات الشخصيّة المؤديّة إلى انماط السلوك الجنسي التي قام كنسي والعديد من اتباعه بدراستها على نحو جاد جداً ؟ ان حقيقة كون جميع الناس غير متشابهين فيما بينهم ، تجعل « قيم السكان » الاحصائية المحض ، ذات أهمية محدودة جداً . ما نقوم به هو مجرد ايجاد متوسط وحدات غير متشابهة ، وما نحصل عليه من اجابات ، هو ذو قيمة علميّة محدودة . فأكثر ما يمكن ان يقوم به علماء النفس الاجتماعي وعلماء الاجتماع هو تصنيف افراد مجتمعاتهم الدراسية وفق العمر والجنس . ان اسباب التصنيف هذه مفيدة طبعاً ، غير أنها لاتقلل عادة من مقدار خطأ التباين بالقدر الذي يمكن أن يقلّله استخدام مقياس معقول لمتغيرات الشخصيّة .

من الخطأ أن نفكر بأن حركة السير بين دراسة الشخصيّة وعلم النفس التجريبي هي ذات اتجاه واحد ، فالأمر ليس على هذه الشاكلة . فإذا كان علم النفس التجريبي بحاجة لأخذ متغيرات الشخصيّة في الحسبان ، لذلك وعلى نحو مماثل ، ستكون نظرية الشخصيّة مستحيلة بأي معنى واقعي دون مفاهيم علم النفس التجريبي ، وعلم وظائف الاعضاء (الفيزيولوجيا) وعلم الاعصاب (النيورولوجيا) وحتى علم التشريح والوراثة والكيمياء البيولوجيّة . ان التجريبيين هم الذين ادخلوا مفاهيم مثل مفهوم « الاثارة القشرية » ولايمكن القيام بتنبؤات معقولة في مجال التذكر ان لم نأخذ في الحسبان بعض النظريات كتلك النظريات المتعلّقة بتقوية الأثر الذاكري والذاكرة القصيرة المدى ، والذاكرة البعيدة المدى ، وتداخل التقوية بالانتاج الذاكري .

وبتعبير آخر ، أنني لااقترح بأي معنى من المعاني بأن نظرية الشخصيّة هي متفوقة على علم النفس التجريبي او مستقلة عنه . وانما اقترح أن عمل هذين المجالين معاً على نحو وثيق ، وسعيهما الحثيث إلى تأسيس علم موحد متكامل ، هو وحده الكفيل بتوفير الأمل لهما في أن ينهجا وفق حججهما . وعلى نحو مماثل ، لاأمل لعلم النفس الاجتماعي في أن يصبح علماً حقيقياً ، ويساهم بالتالي في تطوير علم النفس العام . إلا باعتماده على المعرفة التراكمية التي تتمخض عن دراسته الشخصيّة والدراسات التجريبيّة . ليست حركة السير هنا ذات اتجاه واحد ايضاً . فمن الواضح أن الناس لايعيشون في عزلة ، ولمفهوم الشخصيّة معنى ضعيف خارج نطاق سياقه الاجتماعي . والضعف في هذا المجال يجب أن يعني على نحو واضح ضعفاً مماثلا في معرفتنا لهذا المفهوم البيواجتماعي الا وهو مفهوم الشخصيّة . وإن اي تقدم في اي من هذه المجالات يعني تقدماً في المجالات الأخرى جميعها . يفترض علماء النفس بسهولة كبيرة جداً أنه كاف بالنسبة لكل عالم أن يعمل على معالجة مشكلاته الصغيرة منفرداً في غرفته الخاصة ، ومنتجاً بعض التقدم البسيط ان قيام عالم النفس بمهامه العلمية على هذا النحو ، يمكّنه من افتقاد رؤية الهدف الأكبر ، واغفال المتغيرات الرئيسيّة التي تؤثر في عمله ويجب قياسها او ضبطها ، بحيث سيبدو حينئذ « تقدمة » الصغير جداً ضعيفاً نوعاً ما ، بالمقارنة مع مطالب روح علمية حقيقيّة . إن علم النفس هو دراسة سلوك الاشخاص ، او أنه لاشيء على الاطلاق ، وتشكل الشخصيّة الاصل الحقيقي لموضوعه . يجب علينا أن نوحّد بين المنحى التجريبي التدريجي الدقيق لأولئك العلماء الذين يمارسون

اعمالهم على الفئران ، ومنحى « السرير » الذي يستخدمه اولئك العلماء الذين يعملون في نطاق الاهتمامات الاجتماعية ويعالجون قضايا اجتماعيّة . وإذا ربطنا هذين المجالين من خلال مفاهيم جديدة لنظرية في الشخصيّة ، حينئذ يمكننا القول بأن علم النفس هو في « سبيله الصحيح فعلاً » .

* * *

الفصل الثاني

تكنولوجيا عالم النفس السلوكي
في الطب النفسي والتربية

ثمة فروق عديدة بين الفيزياء وعلم النفس ، ولكن ما من شيء صدمني على نحو اكثر قوة ، عندما تخليت عن اهتمامي بالفيزياء وتحولت إلى دراسة علم النفس ، كما صدمني افتقار العديد من علماء النفس إلى التيقن مما إذا كانت نظرياتهم صالحة فعلا أم لا . ينبغي للفيزيائيين والمهندسين ، حسب خبرتي ، أن يشعروا بالقلق نوعاً ما إذا استمرت الجسور التي بنوها بالسقوط ، او استمرت السفن التي شيدوها في التحول إلى اشلاء في عرض البحر . انك لاتستمر في عملك لأية فترة من الوقت إذا تبين ان الدبابات التي تصنعها هي غير قادرة على الحركة ، او إذا كانت المجموعات التلفزيونية التي تصممها لاتنتج إلا صورة مشوهة جداً . ثمة نظام تغذية راجعة داخلي التكوين يخبرك عادة عما إذا كان الشيء الذي تقوم او قمت به هو صالح فعلا . وفي معظم الحالات ، يشكل النجاح او الفشل الدليل الواضح جداً في

هذا المجال . فالسدّ الذي ينهار ويقتل مئات القرويين المقيمين تحت جدرانه التي يزعم بأنها منيعة ، لايستثير القليل من اللامبالاة فقط لدى اولئك الذين قاموا بتشييده . ومصمم الطائرة التي تتحطم عند هبوطها سوف لن يضحك ويضرب كفاً بكف قائلا : «آه . . . حسن . . . ، لنعد إلى لوحة الرسم مرة اخرى» إلا في افلام ارنو الكرتونية الشهيرة . اما في الحياة الواقعية ، فسيكون محظوظاً فيما لو استطاع الاحتفاظ حتى بلوحة الرسم ! يقيم علماء النفس عادة ادعاءات بعيدة الأثر حول قدراتهم على شفاء العصابيين ، او تحسين الممارسات التربوية ، او المساعدة في اعمال الصناعة . يقبل كثير من الناس بهذه الادعاءات ، ويشك فيها آخرون ، لكن الأمر الغريب هو أن علماء النفس انفسهم يبدون اهتماماً ضعيفاً بإقامة دليل فعلي على أن ما يؤيدونه هو صالح فعلا ! وتتبدى هذه السمة الغريبة على نحو اكثر وضوحاً عند الاطباء النفسيين والمحللين النفسيين ، فحماسهم لطرق علاج جديدة ، لاتعادل على الاطلاق رغبتهم في اثبات الفاعليّة الواقعيّة لهذه الطرق .

كان عليّ ان اتعلم هذا الدرس بطريقة صعبة ، وذلك عندما القت المصادفة بي دون مشيئة مني اثناء الحرب ، في الميدان العام للطب النفسي وعلم النفس الاكلنيكي . لقد تبيّن لي آنذاك أن الاطباء النفسيين كانوا يستخدمون مجموعة متنوعة من الطرق المختلفة في معالجة الانواع انفسها من المرضى . وكانوا جميعهم يثقون بفاعلية الطرق الخاصة التي اعتادوا استخدامها . حاولت اكتشاف المبدأ الاساسي الذي اعتمدوه في اختيار اساليبهم الخاصة ، آملا أن يكون هذا الاساس مرجعاً لتجارب او محاولات اكلنيكيّة مقنعة ، غير

انني لم اتلقّ اجابات مفهومة . دفعني ذلك الأمر إلى الرجوع للكتب المدرسيّة والدوريات العلميّة . اذ من المؤكد انني سأجد فيها جواباً عن سؤالي . واكتشفت في الواقع أن هناك اهتماماً ضعيفاً بما يسمى عادة بـ « مشكلة النتيجة » . لقد تجادل الكتاب على نحو لامتناه حول ما جرى اثناء جلسات المعالجة ، او ما ينبغي أن يجري ، او ما يمكن أن يجري ، وبحثوا ما يبدو مغامرات نفسية ضئيلة ، ربما كانت نفوس مرضاهم ضحية لها أم لا . كما تجادلوا حول رغوبية تقوية « الهي » واضعاف « الأنا الاعلى » او العكس بالعكس . يمكنك أن تجد بصعوبة بعض الشيء حول النسب المئوية للحالات التي تم شفاؤها ، ولكن ما من اثر لدراسات اكلنييكية مصممة على نحو مناسب لمقارنة نتيجة علاج بطريقة علاج اخرى . توصلت اخيراً إلى مجموعة ضئيلة من المقالات والتقارير المتعلقة بنسب النجاح والفشل ، نشرها معالجون نفسيون ذوو مذاهب مختلفة . نزعت هذه الاوراق والتقارير إلى التباين على نحو شديد ، ولكنها اشارت عموماً إلى اثنين من كل ثلاثة مرضى عصابيين يصبحون افضل بعد سنتين من العلاج . تبدو هذه النتيجة جيدة تماماً ، ولكن ينبغي مقارنتها بمعدل « الشفاء التلقائي » ، اي معدل المرضى العصابيين الذين استعادوا صحتهم دون التعرض لأي نوع من العلاج الطبي النفسي . لقد تبيّن أن معدل هؤلاء هو اثنان من ثلاثة ايضاً خلال فترة زمنيّة مقدارها سنتان . وبتعبير آخر ، لم يتوافر في تلك الكتابات جميعها دليل واقعي على أن العلاج الطبي النفسي قد سرّع عملية الشفاء على ايّ نحو قد ادى بشكل واضح إلى نقل العصابيين باتجاه الطرف النهائي « السوي » لمتصل بعد العصابيّة ، حيث كان هؤلاء غير مستجيبين تقريباً للاجراءات العلاجيّة المتخذه من اجلهم .

واعتقاداً مني بأن هذه الوقائع ستكون موضع اهتمام زملائي ، فقد اتيت على ذكرها اثناء محاضرة قدمتها في الاجتماع السنوي العام للجمعيّة النفسية البريطانية في اكسفورد منذ حوالي عشرين سنة خلت . وعندما اتيت إلى نهاية محاضرتي تقدم استاذ شهير في الطب النفسي من بين المقاعد بالسرعة القصوى ملوحاً بيديه وصارخاً : « خائن . . . . خائن . . . . ! » . ولولا شفاعة بعض الاصدقاء المقنعين وتدخلهم في الوقت المناسب ، لما توقف عن مهاجمتي جسدياً .

نشرت بعد ذلك مقالة قصيرة حول هذه النتائج . لقد قبل المحرر نشرها ولكن وفق شرط مفاده أنه ينبغي تقديم المقالة إلى اربعة اطباء نفسيين شهيرين . وأن يسمح لهؤلاء بالرد على المسائل التي جاءت في تلك المقالة (وافقت على هذا الشرط طبعاً ، غير أن المقالة نشرت اخيراً مستقلة بذاتها ، فقد كان من الواضح أنه ما من طبيب نفسي استطاع أن يأخذ على عاتقه مسألة تأييد العلاج النفسي) . بيد أن السدّ قد انهار خلال السنوات القليلة التالية ، وظهرت عشرات من المقالات الغاضبة والمتعارضة احياناً ،وهي تدعي عدم صحة نتائجي ، وتشكك عموماً في صدق الاستنتاجات التي توصلت إليها . والامر الغريب بما فيه الكفاية ، هو أن أياً من هذه الردود لم يجب عن المسائل التي قد طرحتها بل اجابت بدلا من ذلك عن حجة لم اطرحها من قبل اطلاقاً .ان المسألة التي طرحتها هذه الردود مرة تلو اخرى تشير إلى أن « الدراسات التي راجعها ايزنك كانت مصممة على نحو سيء ، ونفذت على نحو سيء ، ولم تقدم دليلا على أن العلاج النفسي غير ناجع » . ان هذه المسألة هامة ايضاً ، فنوعية الاعمال التي تم اقتباسها (والتي كانت

جميعها اعمالا وثيقة الصلة بما تم نشره) كانت رديئة جداً بالفعل . وإذا كان على اي شخص يعمل في قسمي — قسم علم النفس — أن يقوم بتنفيذ عمل غير متقن وغير محكم وغير مضبوط تجريبياً ، كتلك الاعمال ، فلن يمكث طويلا في هذا القسم . وهذا يعني أن ليس في استطاعتك أن تجادل انطلاقاً من النتائج بأنها تدحض فاعلية العلاج النفسي ، وأن الاستنتاجات السلبيّة العامة من هذا النوع هي غير مقبولة في أية حال . ولكنني ناقشت شيئاً مختلفاً تماماً ، وما قمت به بالتحديد هو أن النتائج قد فشلت في البرهنة على فاعلية العلاج النفسي وهذا الاستنتاج ليس موضوع جدل في الواقع . فإذا كانت البيانات هزيلة إلى درجة لاتستطيع معها البرهنة على اي شيء ، فهي هزيلة ايضاً إلى درجة لاتستطيع معها البرهنة على فاعلية العلاج النفسي . وطالما لم تتوافر بيانات أخرى آنذاك ، فلا بد أن يكون استنتاجي صحيحاً . وإذا كان للبيانات أية فائدة ، فمن الواضح أنها تفشل في تبيان أية فاعلية خاصة لطرق العلاج المستخدمة . وببساطة ليس ثمة بيانات تبرهن على فاعلية العلاج النفسي ، وهذه الحقيقة تبقى حقيقة رغم الحجج واللغات والصيحات جميعها . هناك طريقة واحدة فقط ، يمكنها أن تبيّن بأنني كنت مخطئاً ، وهذه الطريقة بسيطة جداً . ان كل ما ينبغي للاطباء النفسيين والمعالجين النفسيين عمله ، هو أن يستشهدوا بدراسة واحدة استخدمت فيها مجموعات ضابطة مناسبة ، وطريقة مناسبة لقياس النتيجة تبيّن نجاعة العلاج النفسي ، والمطلوب لايزيد على ذلك ولايقل . لم يقم اي من نقادي بعمل ذلك ، ويجب عليّ تبعاً لذلك ، أن استنتج عدم وجود دراسة من هذا القبيل في الواقع : والاستنتاج

القائل بعدم وجود دليل على فاعلية العلاج النفسي ، سيبقى صامداً إلى ان تتوافر مثل تلك الدراسة .

لقد قام بعض الباحثين الامريكيين حديثاً باختبار هذا الاستنتاج وبيّنوا ان هناك دليلا على أن بعض المعالجين النفسيين يساعدون مرضاهم فعلا ويسرّعون شفاءهم ، كما أن هناك معالجين نفسيين آخرين لهم أثر مضاد ، إي أن مرضاهم نزعوا نحو الاسوأ بدلا من الأفضل . يلغي أثر كل من هذين النوعين من المعالجين اثر النوع الآخر ، وبذلك يغدو الأثر الكلي لهما صفراً . يقوم اولئك الباحثون كذلك بوصف خصائص شخصيّة المعالج الناجح . انه يتميّز بالمشاركة الوجدانية والحماسة والاخلاص . لقد عرفت هذه « الاساليب العلاجية » طبعاً وقيست بدرجة دقيقة (من الملاحظ أن المعالج غير الناجح يبدو بدلالة خصائص المحلل النفسي التقليدي الارثوذكسي ، فهو لايتأثر بمشاعر الآخرين ، وتأويلي محض ، ومنعزل) . ثمة دليل يؤيد هذه النظرية ، وربما يقبلها الفرد كنظرية معقولة على نحو مشروط . وعلى أية حال يبدو أن هذه النظرية لاتناقض التعميم المستنتج من دراساتي . لقد كنت معنياً بفاعلية الطريقة ، وتشير تلك النتائج إلى فاعلية الناس . ان ما قيل هو أنه بصرف النظر عن الطريقة المستخدمة في العلاج ، فإن بعض الناس (المتحمسين والمهتمين واللطفاء) قادرون على افادة المرضى العقليين من خلال مناقشة اضطراباتهم معهم ، وهذا ما هيأت نفسي للاعتقاد به تماماً . ما كنت اشك فيه هو الادعاء مقدماً بفاعلية نظريات معينة اعتماداً على الطرق المستخدمة فيها . وبتعبير آخر ، انني اشك في ان اي فرد تدرب على استخدام مفاهيم التحليل النفسي وطرقه

سيكون قادراً على شفاء المرضى بمعدل اسرع من أي شخص آخر تدرب على مفاهيم وطرق اخرى، بسبب تفوق طريقة التحليل النفسي وحقيقته الجوهرية . فإذا كان الشخص وليس الطريقة هو المهم، فما من تأثير للاعتراض حينئذ .

ان الافتقار إلى الاهتمام بالنتائج كشف نفسه في تعليقات كثيرة على مقالتي . لقد اقترح العديد من علماء النفس الشهيرين ، وبعبارات شتى ، ان الانتباه لم يوجّه لهذه الحقائق ، وأن هذا الحال سوف يستمر على ما هو عليه . وهذا في الواقع ما قرر معظم الاطباء النفسيين عمله . لقد بدأت الحقيقة بالتسرب تدريجياً فقط ، فالعديد من الطلاب الشباب في هذه الايام يسلمون تقريباً بأن العلاج النفسي غير مفيد تماماً . تصورت نفسي دائماً وأنا في هذا الخضم ، مثل ذلك الصبي الصغير في حكاية « ملابس الامبراطور الجديدة » . لقد حدث أن صرخت : « ولكن انظر . . . انه لم يرتد أية ملابس ! » . يصعب في هذه الأيام احياناً التحقق من أن كل شخص قد فكر في وقت واحد تقريباً بأن الامبراطور قد امتلك فعلا معظم الملابس الزاهية . وفي المجال العلمي على أية حال ، ان القديم المشكوك في صحته لايزول بمجرد تبيان خطأ إدعاءاته ، بل يجب اولا ايجاد شيء جديد افضل يحل محلّه . لقد اقترحت أن ما تدعى بالاعراض العصابيّة ، ليست كما تبدو إلا رجاعاً انفعالية شرطية لأوضاع واشياء تنتج الخوف ، وتعمم على اوضاع واشياء اخرى مشابهة ، فمن الممكن حينئذ أن نستفيد من مخزن المعرفة الواسع المتعلق باكتساب تلك الاستجابات الشرطية واطفائها ، اي الاستفادة من نظرية التعلم الحديثة في اقامة نظام علاج

افضل واكثر فائدة ، بل واكثر فاعليّة قبل اي شيء آخر . دعوت هذا النظام بـ « العلاج السلوكي » مقابل « العلاج النفسي » ، لكي اوجه الانتباه إلى الفروق الرئيسية بينهما . يعنى العلاج السلوكي بما يمكن ملاحظته ، ويحاول تغيير سلوك الشخص . يتضمن مصطلح « العلاج السلوكي » جوانب السلوك القابلة للقياس كالانفعال (الخوف والقلق ، والغضب . . . . الخ) . لايعير العلاج السلوكي انتباهاً الكينونات التأملية ، مثل عقد اوديب ، او حسد القضيب ، او الانا الاعلى . كما أنه لايحاول تفسير الاحلام طبقاً لإنجيل فرويد او إنجيل يونغ (وهما إنجيلان مختلفان جداً بالتأكيد) . يعنى العلاج السلوكي بصورة رئيسيّة بنتيجة العلاج ، ويجعل من السؤال « هل اصبح المريض على نحو افضل ؟ » الموضوع الرئيسي لبحوثه . لقد شهّر المنحى السلوكي بالمحللين النفسيين الذين كانوا اكثر اهتماماً بالصراعات النفسية الداخلية الافتراضية بين كينونات افتراضيّة بشكل مساو ، والشبيه بشياطين القرون الوسطى التي تحارب روح المريض ، ولكنه استرعى بدلا من ذلك اهتمام الاطباء الذين يرغبون في رؤية مرضاهم وهم يتماثلون الشفاء .

لايقوم تعديل السلوك على مبدأ او طريقة واحدة . لذلك اقترحت طرق كثيرة من اجل تغيير السلوك. انالطريقتين الأكثر استخداماً وانتشاراً في هذا المجال ، هما طريقة «سلب الحساسية » (Desensitiyotion) وطريقة العلاج المنفّر » (Aversion theropy) . لقد اشتقت هاتان الطريقتان بشكل اساسي من مبادىء الاشراط الكلاسيكي (البافلوفي). وثمة طرق اخرى ، سنتناولها للتو ، اشتقت من مبادىء سكنر في الاشراط

الاجرائي ، وهي مبادىء احدث من مبادىء بافلوف . ان الاجراءات المسماة بـ « التبديدات او التنظيمات الرمزية » (Tohen economies) هي النتيجة الأكثر قابلية للتطبيق والتي يمكن استخدامها في تأريخ هذه النظريات . يشمل مصطلح « العلاج السلوكي » جميع هذه التطورات إلى جانب تطورات اخرى كثيرة (مثل استخدام اجراءات « النمذجة » Modelling procedures) . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : هل هذه الاجراءات ناجعة ؟ وهل يؤدي العلاج السلوكي إلى شفاء حالات اكثر وبشكل اسرع من العلاج النفسي ؟ .

ربما يكون طرح السؤال على هذا النحو غير قابل للاجابة ، اذ يجب علينا تحديد نمط المريض موضوع المعالجة ، واعراضه ، ومدة اضطرابه وخطورته . كما يجب علينا أن نحدد الطبيعة والابعاد الدقيقة لما نعتبره « شفاء » ، وان نحدد الطبيعة الدقيقة للطرق التي ينبغي استخدامها تحت عنوان « العلاج السلوكي » و « العلاج النفسي » ، وأن نحدد كذلك مستوى التدريب والخبرة التي ينبغي للمعالج أن يتمتع بهما . واخيراً ، ينبغي لنا أن نأخذ مجموعة معالجين من كل اتجاه لنتمكن من تقويم مدى مساهمة كل من المعالج والطريقة في التباين . لقد اتخذت خطوات محدودة للاجابة عن بعض الاسئلة المتضمّنة في هذه القائمة من المتغيرات . سوف اتقدم ببعض الاجابات التمهيدية غير النهائية اعتماداً على ما كتب في هذا المجال خلال السنوات العشر الأخيرة .

ان تلخيص الدراسات ذات العلاقة الوثيقة بالمشكلة موضوع بحثنا ، يفرض علينا أن نضع في حسباننا طريقتين للنظر في هذه المشكلة

يعنى الباحث الاكاديمي في توسيع نطاق قوانين عامة معيّنة حول الاشراط ، وبتوسيع نطاق العادات ، بحيث تمتد هذه القوانين والعادات من اصولها في المختبر لتشمل العيادة والسجن . اما المعالج فيعنى في خير المريض وتحسّنه . يؤثر هذا الفرق في العديد من جوانب المشكلة نمط البرهان المطلوب ودقته ، ونمط الفرد موضوع التجربة او المريض موضوع الدراسة ، وطبيعة المقياس الذي يستخدمه الباحث لمعرفة التغير في السلوك . ان تمييز هذا الفرق في تناول المشكلة هو امر هام ، لأن العديد من الحجج غير الحاسمة واللاعلاقية قد نشأت عنه . وتوضح هذه الحجج ببساطة أن علماء النفس المعنيين بالبحث العلمي وعلماء النفس الاكلنيكيين لايشتركون في الاهتمامات والاهداف ذاتها بالضرورة .

يمكن ملاحظة انماط عصابيّة معيّنة لدى اشخاص اسوياء تماماً . فالسواء والعصاب يشكلان في الواقع متصلا واحداً . وتوفر بعض هذه الاعراض ، مثل المخاوف المرضيّة البسيطة ، اداة واضحة على نحو ممتاز لقياس آثار العلاج . ان المخاوف من الافاعي او العناكب او او التخاطب الاجتماعي او التعرض للاختبارات او الاماكن المغلقة او المفتوحة او المرتفعات ، يمكن أن تقاس بدقة كبيرة من خلال وضع الفرد المعني في وضع يجب عليه فيه أن يقترب من افعى او أن يصعد سلماً . يمكن ملاحظة سلوك هذا الفرد وقياسه على نحو دقيق ، كما يمكن رؤيته ثابتاً ومستقراً جداً عبر الزمن . يمكن تطبيق مقاييس الخوف النفسية ، كما يمكن أن ترتبط بالسلوك وبتقديرات الخوف الذاتية ، الأمر الذي يمكننا من توفير مقياس دقيق لقياس السلوك قبل العلاج

وبعده ، ويتيح لنا فرصة قياس آثار العلاج ، ومقارنة الاجراءات العلاجيّة المختلفة . لقد استخدمت هذه الطريقة في اثني عشر مشروعاً علمياً مخبرياً منذ عام ١٩٦١ ، كما وفر هذه المشاريع فترة متابعة بلغ متوسط مدتها ثمانية او تسعة اشهر .

لقد كانت طريقة « جوزيف وولب » (Joseph wolpe) في الحساسية هي نمط العلاج السلوكي المستخدم في جميع هذه الحالات . تقوم هذه الطريقة على التقديم التدريجي للموضوع المخيف حين يكون المريض في حالة استرخاء ، حيث يصار إلى تقديم هذا الموضوع في « هرميات » ، إذ يأخذ في البدء شكلا لايستثير كثيراً من الخوف ، ثم يأخذ فيما بعد شكلا اكثر مباشرة او اكثر قسوة . اختبرت المجموعات الضابطة اما دون علاج ، او بعد استرخاء بسيط ، او بعد « الانفجار » من الموضوع المخيف ، او بعد الايحاء والتنويم المغناطيسي ، او بعد بعد تناول الادوية المهدئة ، او بعد العلاج الاستبصاري . اشارت جميع الحالات موضوع الدراسة ، إلى أن المجموعات التي خضعت لاجراءات العلاج السلوكي ، قد اظهرت تغيراً سلوكياً اكبر من التغير الذي اظهرته المجموعات التجريبيّة ، وذلك في اتجاه التقليل من سلوك الخوف .

ثمة فائدة اخرى لهذا الاجراء تتمثل في تمكيننا من دراسة الجوانب الاكثر أهمية للطريقة المستخدمة . ويمكن في هذا المجال اقتباس دراسات الدكتور « رانشمان » (Rachanan) التي اجراها عام (١٩٦٥) وتناول فيها اثر العلاج بالاسترخاء دون استخدام تدريجي للهرميات ، وبالهرميات دون استخدام الاسترخاء ، وبالجمع بين الهرميات

والاسترخاء معاً . وجد رانشمان ان افضل نتائج العلاج قد تمخضت عن اسلوب الجمع بين الهرميات والاسترخاء . ومن الدراسات ذات الصلة الوثيقة بموضوعنا هذا ، هي دراسات « لانج » (Lang) التي اجراها عام (١٩٦٩) وقارن فيها اثر علاج سلب الحساسية عند قيام شخص معالج بتطبيقه ، واثر العلاج نفسه لدى تطبيقه باستخدام الكومبيوتر . لم يجد لانج فرقاً في اثر هذا العلاج سواء طبقّه شخص معالج ام جهاز كومبيوتر . يمكننا أن نستنتج من هذه الدراسات جميعها ودون ادنى ريب ، ان لاجراءات سلب الحساسية آثاراً اكثر وضوحاً من اية اجراءات علاجية اخرى تستخدم في التقليل من المخاوف المرضيّة الناجمة عن اشياء او اوضاع معيّنة ، اذ يبدو أن كلا من جزأي اجراء سلب الحساسية (الاسترخاء والهرميات) ضروري ، وأن الطرق اللاشخصيّة (اي تطبيق البرنامج العلاجي باستخدام الكومبيوتر) صالحة صلاح الطرق الشخصيّة (اي تطبيق البرنامج العلاجي من جانب شخص معالج) ، الامر الذي يناقض الافتراض القائل بأن آثار « التحويل » (Transference) هي آثار هامة .

يعترض الاطباء النفسيون غالباً على تجارب من هذا القبيل مدعين بأن المخاوف المرضيّة احادية الاعراض هي نادرة ، وأن افراد هذه التجارب ليسوا عصابيين من النوع الذي يحال إلى عياداتهم ، وأن صلة هذه الاولة بعملهم اليومي هي امر مشكوك فيه . يجب ايراد الدليل على هذه الصلة طبعاً ، ولكن يجب أن نضيف ايضاً أن فرويد واتباعه قد اتخذوا من الاخطاء البسيطة في الاداء ، او الخطأ الثانوي في التهجئة ، دليلا على وجود عقد راسخة ، وفسّرت المخاوف المرضيّة من الافاعي

بشكل خاص على نحو يتفق مع الخطوط الرمزية التي تربط هذه المخاوف بنظام فرويد النظري بشكل محكم . ولهذا السبب بالذات ، اختار لانج وزملاؤه المخاوف المرضيّة من الافاعي كموضوعات لتجاربهم الملك لايستطيع المحللون النفسيون اختيار احد الامرين ثم ثانيهما تأييداً لحجتهم ، فإما أن تكون هذه المخاوف نموذجاً لاضطرابات عصابية اكثر شدة ، وفي هذه الحالة نستطيع تعميم تلك النتائج بشيء من الثقة ، او أن تكون نظرياتهم الاصابيّة خاطئة . ومما لاشك فيه ، ان فرويد لم يتنبأ بأن الطرق التي يستخدمها المعالجون السلوكيون سوف ينجح في شفاء هذه الاضطرابات بشكل ناجع حتى لو كانت اضطرابات ثانوية . وطبقاً لمجموعة افتراضاته ، لايمكن انجاز عملية استئصال دائم (اي دون انتكاس او اعراض بديليّة) لهذه المخاوف دون « استبصار » . وحقيقة أن هذه النتائج تدحض هذه الفكرة الفرويدية بشكل حاسم ، ينبغي أن لاتذهب ادراج الرياح ، فهي تثير الجدل ضد نظرية التحليل النفسي بمجملها .

كما أن الحقيقة القائلة بأن هذه التجارب قد استخدمت مرضى ذوي مخاوف مرضيّة احادية الاعراض ، قد أدّت إلى نشوء افتراض خاطىء (استخدم احياناً كانتقاد للعلاج السلوكي) مفاده أن تلك الطرق لاتعالج إلا مخاوف مرضيّة احادية الاعراض فقط . سنرى أن هذا الافتراض ليس صحيحاً ، وأن السبب في التركيز على هذا النمط من المرضى هو لمجرد الملاءمة التجريبيّة ، وامكانية القياس الدقيق لحالة المريض الاوليّة والنهائية . لقد ركز « ماندل » على حبوب البازلاء المتجعدة والناعمة ، ولكن لم يتأت عن تجاربه أن قوانين الوراثة التي

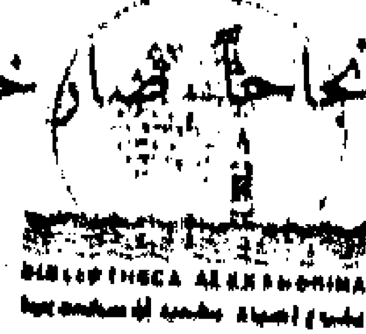
اكتشفها لاتنطبق إلا على حبوب البازلاء الناعمة والمتجعدة فقط . يفشل الاطباء النفسيون غالباً في تقدير قيمة تواغر « قاعدة اختبار » مناسبة لبحث الاستنتاجات التي تتمخض عن نظريات شخص ما بشكل كمّي دقيق . لقد جعل العلاج السلوكي هذا المنحى عملياً للمرة الاولى في ميدان العلاج النفسي . وإن هذا الاصرار على معالجة مشكلات في المخبر ، حيث كان يتعذر معالجتها على هذا النحو في السابق ، ربما هو الاسهام الرئيسي للعلاج السلوكي في الطب النفسي .

من الطبيعي أن تقديم الدليل على فاعلية العلاج السلوكي ، هو اقل سهولة بكثير عندما يكون المرضى موضوعات له ، وبخاصة أن خجلا واضحاً تبدى لدى المحللين النفسيين عندما رفضوا الاشتراك في دراسات تجريبيّة تقارن آثار انماط العلاج المختلفة . وعلى أية حال ، فقد تم الآن تنفيذ عدد من هذه الدراسات ، اجريت جميعها في معهد الطب النفسي بمستشفى مودسلي ، واصبح في استطاعتنا على اقل تقدير تكوين نظرات خاطفة سريعة بصدد النتائج المحتملة لمثل تلك المقارنات .

لقد عالج جون كوبر واسحاق ماركس وميخائيل جيلدر في الدراسة التي اجروها (١١٠) مرضى باستخدام نمط العلاج السلوكي المتمثل بإجراءات سلب الحساسية . كما تابعوا حالة كل مريض حوالي (١٢) شهراً ، واستخدموا مجموعات ضابطة متنوعة لأغراض المقارنة (كانت حالات افراد هذه المجموعات مشابهة لحالات افراد الدراسة إلا أنهم عولجوا بطرق مختلفة ، حيث تراوحت هذه الطرق بين دخول بسيط للمستشفى ، ومعالجات متنوعة مختلفة ، مثل العلاج بالايحاء والتنويم المغناطيسي ، والعلاج النفسي الاستبصاري) . كانت بعض هذه

المجموعات من نوع الدراسات الاسترداديه ، حيث اعتمدت تقارير الحالة في محاولة إجراء التماثل بين افراد المجموعات الضابطة وافراد المجموعات التجريبيّة . بينت النتائج أن افراد المجموعة التجريبيّة الذين يعانون من مخاوف مرضيّة منفردة ، كانوا افضل استجابة للعلاج بشكل حقيقي من افراد مجموعة المعالجة الضابطة ، وأن الذين يعانون من اضطرابات خوفيّة معقدة (مثل المخاوف المرضيّة من الاماكن المفتوحة) ، كانوا ايضاً افضل استجابة إلى حد ما ، بيد أن الفرق لم يكن ذا دلالة حقيقية . ان المصابين بالعصاب القهري ، ومجموعة من العصابيين المتنوعين ، لم يستجيبوا لاجراءات سلب الحساسية بشكل افضل من افراد مجموعة المعالجة الضابطة (ولكنهم لم يكونوا اسوأ ايضاً) . عند النظر في هذه النتائج ، ينبغي لنا أن نضع في الحسبان أن العلاج السلوكي موضوع البحث ، هو عمل قام به علماء نفس يجرّبون طرقاً جديدة وضعوها بأنفسهم ، وان هذه الطرق هي جهود رائدة باشرها عاملون غير متدربين .

والامر ابعد من ذلك ، فقد كان العلاج السلوكي هو الملاذ الاخير بالنسبة للمرضى الذّين اختيروا لتطبيق اجراءات هذا العلاج عليهم ، حيث تعرضوا لطرق العلاج الاخرى جميعها وفشلت في شفائهم بشكل واضح ، ويستحيل اجراء مقارنة من حيث هذا المظهر . فحقيقة تفوق العلاج السلوكي بشكل حقيقي في معظم الحالات ، وعدم دونيته في أية حالة ، رغم جميع تلك المصاعب ، يجب أن تعتبر نجاحاً باهراً لاجراءات هذا النوع من العلاج .



كما اظهرت دراسات صممت بحيث تضم مجموعة ضابطة ، ان العلاج السلوكي يتفوق بشكل حقيقي في علاج المرضى الخارجيين (الذين يترددون على المستشفيات بهدف العلاج دون الاقامة فيها) الذين يعانون من مخاوف مرضيّة بؤريّة او مخاوف مرضيّة من الأماكن المفتوحة . والعلاج السلوكي لايؤدي إلى تحسن المخاوف المرضيّة فقط إذ أفاد ماركس وجيلدر في هذا الصدد : « أن تخفيف المخاوف المرضيّة يؤدي إلى تحسّن آخر في انماط التكيف مع العمل واوقات الفراغ ، تلك الانماط التي عوقت سابقاً بسبب هذه المخاوف » . لقد فشلت اجراءات سلب الحساسية في جعل حالات مرضى مصابين بخوف مرضي شديد من الاماكن المفتوحة افضل من حالات مرضى المجموعة الضابطة ، غير أن هذه الاجراءات لم تجعل حالاتهم اكثر سوءاً ايضاً . وتبيّن أن قيمة او فاعلية سلب الحساسية متناسبة عكسياً مع كمية القلق الشديد المصاحب لحالات الخوف . فكلما كانت كمية هذا القلق اكبر كان العلاج اقل نجاحاً بالمقارنة مع مجموعة المعالجة الضابطة .

ثمة دراستان حديثتان غير منشورتين اجراهما طالبة دكتوراة في قسمي وباشراف « س . راتشمان » (S. Rachman) . استخدم « جيم هامفري » (Jim Humphery) في اولى هاتين الدراستين الطريقة العشوائية المتتالية في توزيع اطفال يعانون من اضطرابات عصابية إلى ثلاث مجموعات ، عولج افراد الاولى منها بالعلاج السلوكي ، وعولج افراد الثانية بالعلاج النفسي ، في حين لم يتلق افراد المجموعة الثالثة اي نوع من العلاج وهي المجموعة الضابطة . تمت متابعة حالات هؤلاء الاطفال لمدة عشرة اشهر وقام بالحكم على مدى

تحسّن هذه الحالات طبيبان نفسيان منفصلان دون معرفتهما بنوعية العلاج الذي تلقاه افراد هذه المجموعات الثلاث . بيّنت النتائج أن الوقت المستغرق في العلاج الساوكي يقل كثيراً عن الوقت المستغرق في العلاج النفسي ، حيث بلغ متوسط هذا الوقت (١٨) اسبوعاً بالنسبة للعلاج السلوكي ، بينما بلغ (٣١) اسبوعاً في العلاج النفسي . كما تبيّن أن نجاح العلاج السلوكي في تحسين الحالة الطبيّة النفسيّة للطفل كان افضل بشكل حقيقي رغم الوقت الاقصر الذي استغرق هذا النوع من العلاج . ولسوء الحظ فقد كان اطفال مجموعة العلاج الساوكي يتمتعون بحالات مرضيّة اكثر خطورة من اطفال مجموعة العلاج النفسي ، على الرغم من اجراءات التعيين للعشوائي المستخدمة في الدراسة . ان هذا الفرق الحقيقي من الوجهة الاحصائية ، يؤدي جزئياً إلى اضعاف نتائج المقارنات .

اما الدراسة الثانية فقد اجرتها « باتريشا جيلان » (Patricia gillan) وتناولت فيها مرضى راشدين . لقد كانت هذه الدراسة شبيهة بالدراسة الاولى غير انها اكثر اتساعاً ، حيث كان مرضاهم جميعهم خارجيين ويعانون من انواع قلق خوافي خطير ومعقد . لم يكن بين هؤلاء المرضى حالات احادية الاعراض ، وفي الواقع ، كان العديد منهم يواجه صعوبات في المجيء إلى المستشفى من اجل العلاج . لذلك شكلت جيلان اربع مجموعات تتكون كل منها من ثمانية مرضى اعتماداً على العشوائية الجزئية والتماثل الجزئي . عولج افراد المجموعة الأولى باجراءات سلب الحساسية والاسترخاء ، وعولج افراد المجموعة الثانية باستخدام الهرميات ولكن دون استرخاء

وعولج افراد المجموعة الثالثة بالاسترخاء مع اعطائهم علاج كاذب ولكن دون تلقي هرميات ، اما أفراد المجموعة الرابعة فقد عالجهم طبيب نفسي باستخدام العلاج النفسي الديناميكي . قام المعالج المعني بعلاج افراد كل مجموعة بتقدير حالات مرضاه ، كما قدر حالاتهم طبيب نفسي مستقل غير ملتزم بأي منحى علاجي ، وكوّن حكمه على نحو « اعمى » ، اي دون أن يحيط علماً بنوع العلاج المستخدم . استخدمت مقاييس فيزيولوجية لقياس كمية الخوف التي ينتجها الشيء او الوضع المخيف ، وذلك لدى الانتهاء من العلاج مباشرة ، وبعد فترة متابعة بلغت ثلاثة اشهر .

أيدت نتائج هذه الدراسة فاعلية العلاج السلوكي بشكل واضح ، اذ تبيّن أن الجمع بين الاسترخاء والهرميات هو اكثر اشكال العلاج نجاحاً ، وان استخدام الهرميات دون استرخاء هو اقل فاعلية إلى حد ما ولكن دون دلالة جوهرية . اما استخدام العلاج النفسي والاسترخاء دون هرميات فهو ادنى نجاحاً بشكل حقيقي . توحي هاتان الدراستان اللتان عالجتا عينات عشوائية من اطفال وراشدين عصابيين يعانون من اضطرابات خطيرة ، أن الاعمال التي تسفر عنها تجارب مخبرية يمكن تكرارها على مرضى الطب النفسي ، وأنه يمكننا تسويغ توسيع ما نستنتجه من مجال ليشمل مجالا آخر ، وهذا تقدم هام .

ان النجاح المرتفع نسبياً لطريقة استخدام الهرميات ، حتى دون استرخاء ، ينسجم بشكل جيد مع فرضيّة اخرى طرحتها من قبل في سبيل تبيان أن العلاج النفسي يكون فعالا (مع انه اقل فاعلية من العلاج السلوكي) لأنه يدمج ضمن اجراءاته بعض مبادىء سلب الحساسية ،

فالمناخ التساهلي (الاسترخاء) يؤدي إلى تخفيض شدة القلق . لذلك فإن البحث حول تقديم المشكلات على يدي طبيب نفسي متمرس يركز بشكل طبيعي على مشكلات تنحو باتجاه الطرف الادنى للهرميّة . لأن هذه المشكلات تثير انواعاً من القلق تحت ظروف يمكن التساهل حيالها كما يجب أن يكون ذلك البحث متبوعاً فيما بعد ببحوث تتناول مشكلات تعمل على رفع مستوى الهرميّة .

لذلك ، قد يقترب العلاج النفسي عموماً ، ولو بشكل غير فعال إلى حد ما ، من اجراءات البناء والعمل الهرمي المتضمن فيه ، والشبيه نوعاً ما بطريقة جيلان الثانية (استخدام الهرميات دون استرخاء) . تؤيد نتائج دراسات تروكس وكاركوف المذكورة سابقاً ، هذه الفكرة إذ تبيّن أن بعض المعالجين النفسيين قد ساعدوا مرضاهم بشكل ثابت في حين تبيّن أن معالجين نفسيين آخرين لم يفشلوا في مساعدة مرضاهم على نحو ثابت فحسب ، بل عوقوا شفاءهم على نحو فعال . ان الامر الهام هنا ، والذي تنطوي عليه نتائج دراسات هذين الباحثين ، هو وصفهما لـ « الخصائص الشخصيّة » و « الاساليب العلاجية » لأفراد هاتين المجموعتين المتناقضتين من المعالجين . لقد وجدا كما تذكر ، أن المعالجين الناجحين يتميزون بخصائص المشاركة الوجدانية ، والدفء والحماس ، والاصالة ، والصدق . في حين يتميّز المعالجون الذين يؤذون مرضاهم فعلا ، بخصائص مناقضة لتلك الخصائص على نحو خاص . يتفق ذلك إلى حد كبير جداً مع نظريتي في العلاج النفسي الناجح المتجسد في مبادىء عالم النفس السلوكي . فالمشاركة الوجدانية والحماس والدفء والاصالة والصدق ، تولد جميعها مناخاً استرخائياً

مريحاً يمكن من خلاله تطوير الهرميات المسؤولة عن العلاج الناجح إلى حد كبير . اما السلوك البارد والتتبعي والتأويلي من جانب المعالج ، فيؤدي إلى اثر مضاد ، اي يمنع الاسترخاء ويزيد القلق . لهذا ، وبناء على هذه النظرية ، يتوافر الاسترخاء عادة في مقابلات مع معالجين « طيبين » ولايتولد على نحو صنعي بالتدريب ، رغم أن مثل هذا التدريب قد يكون ضرورياً مع بعض المرضى .

ربما تكون متابعة هذه النظرية على نحو اعمق قليلا امراً جديراً بالاهتمام . فعملية ازالة الاشراط (Deconditioning) الافتراضيّة او « محو العادات » المتضمّنة في العلاج السلوكي ، تنطوي على تشكيل استجابات شرطية جديدة سواء في العلاج السلوكي او العلاج النفسي . ويمكن المرء أن يتنبأ بأن الأفراد الذين يشكلون استجابات شرطية على نحو اسهل واسرع ، سوف يستجيبون للعلاج على نحو أفضل من اولئك الافراد الذين يشكلون استجابات شرطية على نحو اضعف وابطأ . ولقد بين مارتين (I.Martin) في مختبراتنا حديثاً ان الأفراد الذين يكتسبون استجابات طرف العين الشرطية على نحو سريع في المختبر ، هم اكثر احتمالا للاستجابة بشكل جيد لكل من العلاج السلوكي والعلاج النفسي تؤيد هذه النتيجة نظريتي بشكل قوي ، كما أنها توحي باستخدام هذا الاختبار (سرعة اكتساب استجابة طرف العين الشرطية) على نحو اكثر انتشاراً كأداة تنبؤية . وحسب اطلاعي ،ما من اختبار اسقاطي ، او اي اختبار آخر استخدم على نحو واسع . قد نجح نجاح ذلك الاختبار في التنبؤ بنجاح العلاج .

لقد ركزت حديثي على طرق سلب الحساسية لسبب بسيط ، وهو أن التجارب التي تستخدم مجموعات ضابطة غير موجودة تقريباً خارج نطاق تجارب سلب الحساسية . ولكن ثمة استثناءات منفردة ، كالبحث الذي قام به « تومبسون » (I.G.thompson) و «راثود » (N.H.Rathad) وتناولا فيه بحث اثر العلاج المنفر (١) (Aversion theropy) في حالات الادمان على تعاطي الهيروين .

استخدم الباحثان زرقات من مادة السيكولين تؤدي إلى شلل عضلي وخوف من الاختناق كاستجابة غير شرطيّة . كما طورا اجراءاً اشراطياً تتم فيه عملية زرق ذاتي بالهيروين مباشرة قبل الشلل المكون للمثير الشرطي . كانت هذه الطريقة فعالة إلى حد بعيد جداً بالمقارنة مع مجموعة ضابطة غير مقبولة على نحو كاف تماماً . سوغت خطورة اثر استخدام السيكولين بالمآل الضعيف لشفاء المدمنين على تعاطي الهيروين — من المرجح أن يلقى مدمنو الهيروين غير الخاضعين للعلاج

---

(١) يتم في العلاج المنفر قرن نمط سلوكي غير مرغوب فيه (مثل التدخين او تناول المشروبات الروحية حتى الثمالة ، او الجنسية المثلية ، او الرغبة في ارتداء ملابس الجنس الآخر ، او ادمان المخدرات ... الخ) بمثير مؤلم كالصدمة الكهربائية . وقد يأخذ هذا النمط السلوكي شكلا واقعياً ، مثل شرب الكحول في المختبر ، او شكلا تخيلياً يتصوره المريض ، او شكل عرض بالصور او الافلام . والمهم في هذا الاجراء هو أنه يجب أن يكون النمط السلوكي غير المرغوب فيه متبوعاً بتعزيز سلبي (مثل صدمة كهربائية او اي مثير مؤلم آخر) . ولقد افاد بلوتارك (Plutark) بأول تطبيق للعلاج المنفر ، حين روى حالة « ديمو ستينز » الذي كان يعاني من لازمة ارتجاف الكتف . لقد وضع سيف حاد فوق كتف ديمو ستينز ، بحيث يؤدي السيف إلى وخز الجلد عند ارتفاع الكتف بسبب الارتجاف . لقد ادى تكرار هذا الاجراء مرات قليلة فقط إلى شفاء تام من تلك اللازمة !

حتفهم بعد خمسين سنوات... تحتاج هذه الدراسة طبعاً إلى تكرار التأكد من صحة نتائجها . ولكن ينبغي التفكير في هذه الدراسة طبعاً إلى تكرار للتأكد من صحة نتائجها . ولكن ينبغي التفكير في هذه النتائج ومدتها في ضوء الانعدام المعروف جيداً لأثر انماط العلاج الأخرى . لقد بينت تلك النتائج أن ثمانية من كل عشرة مرضى لم يتعاطوا الهيروين بعد العلاج . وقد تم التأكد من ذلك باجراء تحليلات بولية متكررة لهؤلاء المرضى دون انذارهم بشكل مسبق .

يشير الدكتور « رانشمان » (Drs. Rachman) و « جون تيزدال » (John teasdale) في كتابهما « العلاجات المنفردة واضطرابات السلوك » (Aversion theropies and Behaviour Disorders) إلى أن معدل الانخفاض التلقائي لحدة المرض ، ومعدل نجاح طرق العلاج الأخرى ، هما معروفان على نحو مقبول في معظم الاضطرابات التي استخدمت فيها اجراءات العلاج المنفر (مثل الادمان الكحولي ، او الجنسية المثليّة ، او الرغبة في ارتداء ملابس الجنس الآخر ، او ادمان المخدرات . . . الخ) . وأن هذين المعدلين منخفضان إلى حد بعيد بحيث يعتبر اي عدد كبير من « الاشفية » — رغم أنها تحتاج إلى جرعات علاجيّة تعزيزية — هو من النوع الايجابي جداً ، علماً بأن البرهان المناسب القائم على استخدام مجموعة ضابطة ، يجب أن يبقى طبعاً « مثال » المعالج نفسه . يبيّن راتشمان وتيزدال أنه يمكن استخدام اجراءات العلاج المنفر على نحو فعال للغاية ، شريطة عدم استخدام قوانين الاجراءات المخبرية المؤسسة من اجل الاشراط ومحو

العادة على نحو عائم في عملية العلاج ... اي بالطريقة التي يستخدمها غالباً اطباء نفسيون ليسوا على اطلاع واسع في هذا الميدان ، وتواقين إلى تطبيق طرق استوعبوا معقوليتها على نحو غير تام فقط .

ان اصدار حكم في الوقت الراهن يجب أن يكون مؤقتاً او غير نهائي . ولكن الهام هنا ملاحظة أن الدراسات التي استخدمت مجموعات ضابطة جميعها ، سواء بحثت في « مرضى » متناظرين ، او حالات طب نفسي واقعية ، تبيّن أن العلاج السلوكي افضل فاعلية من العلاج النفسي او أية طريقة علاج اخرى ، وذلك في كل حالة تقريباً . كما أن العلاج السلوكي لم يكن اسوأ في اية حالة من الحالات على الاطلاق . وعندما تضع في حسبانك أن المعالجين السلوكيين موضوع بحثنا هم عادة من العاملين في ميدان علم النفس ، ويتمتعون بخبرة ضعيفة وتدريب ضئيل في طرق العلاج (بما فيهم طلبة الدكتوراة الذين يدرسون ساعات قليلة في العلاج) ، اوهم اي اناس آخرين يجربون طرقاً جديدة لم يثبت جدواها بعد ، عندئذ يمكنك أن تشعر ، كما اشعر أنا ، أن تلك النتائج ايجابية بشكل مدهش فعلا ، ويستبعد تصديقها تقريباً ، كما أنه لايوجد نظير لها في تاريخ الطب النفسي . ربما تجد خطأً في تفصيلات دراسات فردية ، وقد تعلق اصدار الحكم على دراسات اخرى ، ولكن يصعب جداً أن تنظر إلى الدليل ككل (وهو ما ينبغي للعالم القيام به طبعاً !) دون الخروج باستنتاج مفاده أن العلاج السلوكي لم يبرهن على فاعليته فحسب . بل هو طريقة العلاج الوحيدة التي يمكن ادعاء فاعليتها . ويبدو لي أن هذا الاستنتاج هو الوحيد المؤسس على نحو راسخ . اننا لانعرف بعد ما انماط المرضى الذي يكون العلاج

السلوكي هو الافضل فاعلية بالنسبة لهم (رغم اننا ذكرنا بعض الدلائل حول ذلك) ، ولانعرف اي من النظريات العديدة المتعلقة بطريقة عمل سلب الحساسية هي الصحيحة (رغم أن الدليل على ذلك قد بدأ في الظهور) ، ولانعرف كيف نتنبأ بنجاح العلاج او فشله (رغم أن دراسة اشراط طرف العين قد اسست قاعدة راسخة للبحث في هذا الميدان . قد يبدو عدد « مالانعرفه » كبيراً . ولكن في ضوء حداثة طرق العلاج السلوكي ، يمكننا تهنئة انفسنا لنجاحه وقيمته العيادية والعلمية التي تأسست على نحو راسخ .

لقد تحدثنا كثيراً حول سلب الحساسية والعلاج المنفر ، ولكن ما الوضع بالنسبة لطرائق سكنر ؟ في حين كان وولب معنياً بازالة انواع القلق الشرطيّة والانفعالات الخوفية الأخرى (كما في سلب الحساسية) او في حين يسعى العلاج المنفر إلى ربط انواع القلق الشرطية بأشكال معيّنة من التصرفات المستهجنة ، فإن سكنر لم يكن يهدف إلى معالجة اشكال الانفعال على الاطلاق ، بل اوجد نتيجة التزامه بقانون التعزيز (يفيد هذا القانون بأن الافعال المتبوعة مباشرة بالتعزيز الايجابي او الاثابة ، سوف تتكرر في المستقبل) نظاماً معنياً لتشكيل السلوك . ولقد كان هذا النظام فعالا جداً في علاج انماط معينة من المرضى الذهانيين و « الاطفال الاجترارين » (اي الاطفال الذي يسترسلون في التوحّد على نحو مفرط يفصلهم عن العالم الواقعي المحيط به ويجعلهم عاجزين في الاستجابة لمثيرات بيئتهم المتنوعة ـ المترجم ـ) . ربما يساعدنا تقديم مثال بسيط على توضيح الصورة . لنفرض انك تقوم بتدريب كلبك على القدوم إليك عندما تناديه ، ولكنه لايفعل ذلك .

وعندما يتقدم منك اخيراً تقوم بمعاقبته . ان هذه الطريقة غير مجدية ، وهي طريقة رجع باطلة ، لأن الكلب سيشكل الارتباط التالي ببساطة « تقدم من سيدك — تتلقى ضرباً » ، وسيكون مجيئه نحوك اقل احتمالا في المرة التالية . ان قيام المدرب برجع من هذا النوع ، قد يخلصه من نفاذ صبره ، غير أنه لايساعده في تدريب الكلب . فكر الآن في وضع ام منهمكة في اعداد طعام العشاء ، ويريد ابنها الصغير أن تشاركه اللعب ، غير انها لم تعره اي انتباه ، الامر الذي يجعله اخيراً سيء السلوك ، حيث يصرخ ، ويكسر زجاج النوافذ ، ويجلب انتباه امه بطرق اخرى . في هذه المرحلة ، توجه امه انتباهها له سواء بتوبيخه او الصراخ في وجهه او اية طريقة اخرى تراها . تعتقد الأم في هذه الحالة أن التوبيخ سوف يجعله اقل ميلا إلى تكرار افعاله غير المرغوب فيها . بيد أن الأمر ليس على هذا النحو . فتسلسل الاحداث بالنسبة للصبي الصغير هو كما يلي : « العب بطريقة لطيفة هادئة — املك ان توجه اليك اي انتباه » . يتلو هذه الحادثة حادثة اخرى هي : « كن سيء السلوك — تأتي امك إليك وتوجه انتباهها نحوك » . وعندما يرغب الصبي الصغير في الحصول على انتباه امه في مرة لاحقة ، فمن المرجح أن يكون اسوأ سلوكاً . ان تصرفات امه تدربه ببساطة على العصيان وسوء السلوك . ينبغي للام وفق تعليمات سكنر أن تنتبه لابنها الصغير وتمتدحه وتلعب معه عندما يسلك على نحو جيد ، وأن لاتعره انتباهها عندما يكون سيء السلوك . قد يقع تحقيق هذا الوضع خارج نطاق متناول الطبيعة البشرية ، ولكن إذا رغبنا في ضبط سلوك اطفالنا ، فهذا ما ينبغي لنا عمله .

والآن طبق هذا الوضع على مجموعة مرضى يقيمون في مستشفى . انهم يريدون جذب الانتباه اليهم ايضاً ، ويحاولون في سبيل تحقيق ذلك أن يسلكوا على نحو شاذ باستخدام اساوب يعرفون أنه سيجعل الممرضة النفسية تأتي اليهم جرياً ، او بالتحدث عن اعراض يعرفون أن الممرضات قد تدربن على اثابتها بتوجيه اهتمامهن إلى المريض وتزويده بآذان صاغية . ان طرق التفاعل التقليدية التي تتعلمها الطالبات الممرضات في الطب النفسي ، تؤدي إلى تعزيز ساوك المرضى الشاذ غير المرغوب فيه . اما سكنر فيقترح العكس تماماً . ويرى وفقاً للنظام الذي يقترحه انه يجب تدريب الممرضات على التفاعل مع المرضى ما داموا يسلكون بطريقة معقولة ، ويتحدثون عن الموضوعات اليومية بشكل بريء . وفي اللحظة التي يبدأ فيها المريض بالتحدث عن اعراضه ، او بممارسة سلوك شاذ ، ينبغي للممرضة أن تتركه وتتوجه إلى مريض آخر . وبهذه الطريقة يتم تعزيز الساوك المعقول المناسب ، بينما لايعزز الساوك « الذهاني » غير المعقول ، ويأخذ بالزوال تدريجياً . ولكن هل يزول هذا الساوك حقاً ؟ لقد افاد كثير من البحث العلمي أن الجواب بالايجاب حيث تبدو طريقة سكنر فعالة . ومن الجدير بالاهتمام هنا . أن الممرضات يجدن صعوبة كبيرة في التكيف مع هذا النظام الجديد ، طالما تدربن طيلة حياتهن على ايدي اطباء نفسيين يتبنون اتجاه العلاج النفسي الذي يفرض عليهم الاصغاء إلى مشكلات المرضى ، وتأويل قصصهم واحاديثهم الغريبة ، وملاحظة افعالهم الشاذة . لهذا ، لايستطعن التحول بسرعة إلى خط الهجوم المضاد تماماً . ان اولئك الممرضات معنيات إلى حد بعيد بالحوادث النفسيّة الداخلية « العقليّة » المزعومة :

والتي تسهم على نحو زائف في عقول مرضاهن ، لكنهن غير معنيات على الاطلاق بالأثر الذي قد يحدثه انتباههن في سلوك المرضى . إنهن يجعلن المرضى اسوأ حالا فعلا عند تعزيز انواع الاستجابات الخاطئة تماماً كما شجعت الام السلوك الخاطىء لدى ابنها الصغير . وغالباً ما يكنّ الممرضات « مصابحات مثاليات حمقاوات » . ليس المقصود هنا توجيه انتقاد طبعاً ، فالعالم سيغدو مكاناً افضل اذا اراد كل واحد فيه أن يفعل خيراً للكائنات الانسانية الاخرى الأقل سعادة . ولكن لكي يفعل الفرد خيراً ، يجب عليه أن يعرف تماماً ما هي عواقب افعاله . ان افتراض توافر هذه المعرفة والانطلاق في العمل على نحو سعيد دون اختبار الآثار الفعاليّة المحتملة لهذا العمل ، كما في تلك الحال ، يجعل الاشياء اسوأ بدلا من جعلها افضل.ليست نوايا الممرضات (او الأمهات) هي المقصودة بالانتقاد ، بل المقصود هو نتائج افعالهن فقط . قد تكون المعرفة الضئيلة شيئاً خطيراً حقاً . فالطبيعة البشرية ليست من البساطة بمكان بحيث نستطيع الافتراض دون برهان بأن ما نراه عملا مناسباً هو شيء صحيح بالضرورة .

لقد انجز سكنر تفصيلات « تشكيل » السلوك من خلال تجاربه على الفئران والحمام ، حيث كان يقوم في البدء بتحديد السلوك الذي يرغب في انتاجه بشكل دقيق ، ثم يقدم المعزز « الطعام » كلما تحرك الحيوان في الاتجاه الصحيح ولو بشكل تقريبي . وهكذا ينشىء تدريجياً ذخيرة الحيوان السلوكيّة حيث يصبح الفأر او « الحمامة » قادراً على الرقص ولعب تنس الطاولة ، او أداء مجموعة افعال طويلة معقدة .

سوف تحتج بشكل مفزع صارخاً : « ولكن من المؤكد أن الناس ليسوا فئراناً او حمامات » . لا ، ليس الناس فئراناً او حمامات ، ولكن الا يمكن أن يكون هناك جوانب من طبيعة الناس وسلوكهم ، شبيهة على نحو كاف بتلك الجوانب من طبيعة الفئران والحمامات وسلوكهم ، بحيث تجعل من الطرق ذاتها أمراً يستحق التجريب ؟ ان تلك مسألة تجريبيّة ، ولايمكن حلّها على نحو بسيط بحجة نظرية (رغم أن الكثير من الناس قد حاولوا عمل ذلك تماماً) ، بل ينبغي أن تخضع للدراسة التجريبيّة . خذ شخصاً فصامياً منسحباً وصامتاً بشكل مطلق ، كيف يمكنك جعله يتكلم بعد سنوات عديدة الصمت التام ، وبعد أن تخلّى عن علاجه اي عدد من الاطباء النفسيين او المعالجين النفسيين ؟ في واحدة من تجاربنا ، قامت احدى المجربات مستخدمة اساوب سكنر بالتأكد اولا من الشيء الذي يشكل تعزيزاً ايجابياً بالنسبة للشخص الفصامي موضوع الاهتمام ، وتبيّن لها أنه يحبّ الحلوى . ثم راقبت سلوك المريض على نحو مركّز ، وكانت تزوده بقطعة حلوى كلما حرّك فمه على نحو شبيه بتحريكه عند الكلام ، حتى عندما تكون حركة فمه مبهمة . وتدريجياً تتطلب الامر أن تكون حركات فمه اكثر شبهاً بالكلام ، حيث لم يعد يحصل على الحلوى اخيراً إلا إذا انتج صوتاً بالشكل فعلي . في هذه المرحلة من العلاج ارتفع مستوى المتطلبات ثانية إلى أن بلغت مستوى انتاج اصوات كلامية فعلية . واخيراً بدأ المريض نطق كلمات ، ثم اشباه جمل ، واصبح اخيراً ينطق جملا تامة . ينطوي ادب العلاج السلوكي على امثلة عديدة من هذا القبيل . ان هذه الطريقة فعالة دون اي شك مع كل من الذهانيين الراشدين

حتى في الحالات الأكثر يأساً وازماناً ، ومع الاطفال الاجترارين ، حتى في الحالات التي اتضح فيها عدم جدوى طرق العلاج الاخرى جميعها . لم نقترح أن هذه الحالات تشكل اشفية ، فثمة خلل كبير آخر في المريض بصرف النظر عن فشله في التكلم او في اداء اي سلوك بسلوكات استراتيجية ، اي بالسلوكات المؤدية إلى احالة المريض إلى المستشفى باعتباره ذهانياً وشخصاً غير قادر على التكيف مع بيئة حياته اليومية ببساطة . ان التخلص من السلوك المزعج في هذه الحالات قد يزيد من اثر العلاج بحيث يصل بالمريض إلى مستوى الشفاء ويمكنه من العودة إلى بيئته اليوميّة العادية . وعلى أية حال . ان رجاع هؤلاء المرضى (وكذلك رجاع الناس الاسوياء عندما يتعرضون لممارسات « التشكيل » في المختبر) شبيهة على نحو مدهش برجاع تلك الفئران والحمامات . ان هذا التشابه حقيقة قائمة ، بيد أن ما نستخلصه من استنتاجات حول هذا التشابه هو امر مختلف طبعاً . فما من شيء تم تأكيده بهذا الصدد يوحي بأن الطبيعة الانسانية « ما هي إلا » طبيعة « فأرية » ذات حجم كبير ، وإن أية عبارة من هذا القبيل اعتبرها بلا معنى . ان جميع ما اقصده هو أن الطرق التي تم تطويرها في المختبر باستخدام الحيوان ، يمكن تجريبها بشكل مفيد ووقاية مناسبة على المرضى العقليين ، وذلك بدافع امل تحسين حالة هؤلاء المرضى عندما يفشل اي شيء آخر في انجاز هذا التحسّن . ويبدو أن رفض هذا الأمر بدافع التعصب ، هو امر غير انساني . اننا نحكم على افرادنا الفصاميين واطفالنا الاجترارين بطول العذاب ، لمجرد اننا لانرغب في تذكيرنا بسلسلة اصولنا الحيوانية العامة ! وبعد ، ما الشيء الذي

نتمتع به ويجعلنا مغرورين ؟ ان الفئران والحمام لاتعان الحروب ولاتمارس الاغتصاب ، ولاتهدد بوضع نهاية للحياة على الارض من خلال التلوث او التفجيرات الذرية . ربما ينبغي لنا أن نتعلم من هذه الحيوانات بطرق اكثر من الطريقة المقترحة هنا .

ان « تشكيل » السلوك وفق هذا الاسلوب هو عمل طويل وصعب ويجب أن تؤخذ امكانية نجاعة تطبيقه في الحسبان ، فقد يكون من غير الممكن استخدام هذا الاسلوب الفعال للغاية مع مجموعات كليّة . وقد تم التأكد من ذلك فعلا ، اذ تبيّن أن طريقة « النظام الاقتصادي الرمزي » (Token economy) هي احدى اكثر الاساليب الكلية لتكنولوجيا عالم النفس اثارة للاهتمام وتبشيراً بالنجاح . ففي السنوات الحديثة ، استخدمت هذه الطريقة مع مجموعتين من المجرمين والفصاميين المزمنين ، ونصف فيما يلي الاجراءات المتبعة في تطبيقها . اشتهر أفراد هاتين المجموعتين بمقاومة اي شكل من اشكال تعديل السلوك ونجاح تلك الاجراءات مع افراد من هذا القبيل يبشر تماماً باستخدامها على نحو واسع ، ويبعث الامل في عدم بقاء الذهانيين المزمنين والمحكومين إلى الابد في الوضع الذي كانوا فه لمدة طويلة جداً ـ اي أن يبقوا رهن الحجز دون توافر الامل في اعادة تأهيلهم واصلاحهم . ومن المحزن أن نلاحظ أن تلك الطريقة تستخدم على نحو اكثر اتساعاً وبراعة في الولايات المتحدة الاميركية ، في حين لم تستخدم في بريطانيا على الاطلاق . والامر ليس محزناً لأن حاجاتنا إلى هذه الطريقة هي على اقل تقدير كحاجات الامريكيين لها فحسب ، بل هو محزن ايضاً (وهذا عكس الانطباع الذي تولده غالباً الكتابات غير التاريخيّة

لعلماء النفس السلوكيين القياديين) لأن عالم النفس البريطاني « الكسندر ماكونوشي » (Alex ander Maconochie) هو الذي مهّد لهذه الطريقة اصلا وبين قيمتها وامكانية تطبيقها عملياً . لقد كانت حياة ماكونوشي موضوع سيرة حياتية ساحرة كتبها « جون فنست باري » (John Vinsent Barry) القاضي في محكمة فيكتوريا العليا باستراليا . يراجع باري في هذه السيرة وبشكل مفصل اصل وفعالية « لانظام علامات انضباط في السجن » لماكونوشي . يمكن في هذا المجال ايراد وصف مختصر فقط لهذا الرجل الفذ ، ومثله في ذلك مثل الرواد الحقيقيين جميعهم ، إذ لم يتم الاعتراف بعبقريته ابان حياته ، بل اخذت ذكراه تنال حقها من العدل والانصاف تدريجياً فقط .

قدم ماكونشي إلى منطقة « فان ديمن » ليعمل سكرتيراً لدى صديقه « السير جون فرانكلين » عندما اصبح فرانكلين نائب الحاكم عام (١٨٣٧) . لقد طلبت جمعيّة انسانية انكليزية من ماكونوشي دراسة نظام السجن (واساليب معاملة المحكومين) ، مما أدى به إلى ادانة هذا النظام بشكل قوي ، لما يتصف به من لاانسانية ووحشيّة قاسية ، ولما نعرفه الآن بانعدام المشاعر والانهزام الذاتي . كما قام ايضاً بصياغة مقترحات بعيدة المدى من اجل اصلاحه . وكان الطرد من الخدمة هو الثواب الذي تلقاه لقاء مقترحاته تلك . ان المؤسسة ، كما هو الامر الآن ، لاتستحسن النقد مهما كان مسوغاً . ولكن في عام (١٨٤٠) عيّن ماكونوشي مديراً ا « نورفولك ايلاند » ، وهي احدى اكثر مستوطنات المحكومين جميعها وحشية وتحطيماً للروح

المعنوية . ولفهم الفلسفة التي تحكم هذه المستوطنات ، وتحكم السجون بشكل عام ، ربما يستطيع الفرد الاستشهاد بالجملة الشهيرة التي قالها « ريفرند سيدني سميث » عندما صرح عام (١٨٢٢) بأنه ينبغي للسجن أن يكون « مكان عقاب يرتد منه الناس بالرعب — مكان معاناة حقيقيّة مؤلم للذاكرة . . . مخيف للتصور . . . مكان حزن وعويل . . . حيث ينبغي دخوله برعب والخروج منه بانطباع عميق مؤثر عن الشر الذي يستثير تحذيراً وعظة دائمين الآخرين . . . » . لقد كانت وجهة نظر ماكونوشي مضادة تماماً ، حيث يقول : « ارى أن زمن قضاء مدة الحكم القضائي بالعقوبة ، هو الاصل الحقيقي تقريباً لجميع الفساد الاخلاقي المتفشي في السجن . فالانسان الذي يقضي في السجن مدة العقوبة المحكوم بها ، لايفكر إلا في كيفيّة الاحتيال على هذه المدة وقتل الوقت . انه يتهرب من العمل لأنه لايمتلك اهتماماً به من اي نوع كان ، وليس لديه الرغبة في ارضاء الشرطة المسؤولين عنه لأنهم لايستطيعون التعامل معه على نحو مثالي . انهم لايستطيعون تعزيز تحريره بأية طريقة كانت . . . والآن . . . ينبغي علاج هذه الشرور بادخال نظام الاحكام القضائية التشغيليّة » . وبتعبير آخر ، يغاير ماكونوشي فكرة اعادة التأهيل بفكرة الانتقام ، وهو لايشكل في هذا المنحى إلا احد العديدين الذين اثارت انسانيتهم الطريقة الوحشية اللاانسانية التي يعالج المجتمع بها اولئك التعساء الذين خالفوا دون اي خطأ كبير من جانبهم الخاص قواعد ليست ذات صلة وثيقة بأي مفهوم حديث لـ « العدالة » . بيد أن ماكونوشي ذهب إلى ابعد مما ذهب إليه اي من المصلحين في قرنه . ولقد اورد « شلدون جلوك »

بعض تجديدات ماكونوشي في تقديمه لكتاب باري . يقول جاوك في مقدمته « لقد بشر ماكونوشي بالافكار الحديثة للحكم القضائي غير المجدي ، حيث اعدّ السجون للعودة إلى المجتمع عن طريق المراحل التقدميّة للانضباط والانضباط الذاتي ، واستخدم تأثير الجماعة لانتاج اثر طيب في العملية الاصلاحية ، واسهم في الافكار الحديثة لتصنيف السجناء ، وادرك ميزه مشاركة نزلاء السجن في ادارة المؤسسات الجزائية ، وفهم قيمة تبيان الاهتمام الشخصي بمشكلات المذنب الفرد وسمح بالاتصال المباشر بين السجين ومدير السجن بدلا من الاتصال عبر الوسطاء . . . لقد اسس ماكونوشي برنامجاً مدرسياً ذا « مستويات فعالية » ، واستخدم نظام المعامين السجناء ، وسمح للسجناء بزراعة حدائق صغيرة لحسابهم الخاص وبيع محصولها ، وذهب إلى جعل السجن نظاماً شبيهاً بالحياة العادية الحرة في محاولة منه للتغلب على معضلة جعل الكائنات الانسانية كائنات « اجتماعية » من خلال منشأة اجتماعية غير سوية كالسجن . وباختصار ، يرى ماكونوشي أن الوظيفة الحقيقيّة للسجن تتمثل في كونه « مستشفى اخلاقي » . وكتب ماكونوشي نفسه في هذا الصدد : « الرذيلة مرض وعلم جزائي يستحق جراحة اخلاقية ، ويجب أن تكون الادوات المستخدمة مؤلمة غالباً ، ولكن ينبغي أن يكون الخير هدفها دائماً ، اي التحرير السريع للمريض » . لقيت هذه الفكرة شيوعاً اكبر ، وصيغة متناقضة على يد من صوئيل باتلر » في « ايروهون » ، حيث تم ارسال المجرمين إلى المستشفيات وعوقب المرضى جسمياً في السجن . غير أن اصل هذه الفكرة كان في العقل الخصب لألكسندر ماكونوشي .

اقترح ماكونوشي لتنفيذ هذه الغاية ، أن تحل الاحكام بالعمل محل الاحكام بالسجن ، فبدلا من الحكم على المذنب بالسجن لفترة زمنية محددة ، يجب أن يسجن حتى يتمكن من اداء كمية عمل محددة يصعب طبعاً تقرير مواصفات هذا العمل وتحديده ، غير أن ماكونوشي يقترح أنه ينبغي امر السجين بالحصول على عدد ثابت من « علامات المديح » نتيجة قيامه بالعمل وبأشكال اخرى من التصرفات الجيدة ، بحيث لاتنتهي فترة سجنه إلا عندما يفعل ذلك . سوف يعاني المذنب في بداية دخوله السجن فترة قصيرة من الاعتقال والحرمان ، ثم يتلو هذه الفترة قريباً مرحلة ثانية يستطيع السجين اثناءها جني امتيازات وملجأ وطعام بأجره عن عماه وتصرفه الحسن . هذا ويمكن اجراء عمليات شرائية بحساب قيمة البضائع بـ « العلامات » ، وتعويضها بعلامات يكتسبها السجين . ويقول باري بهذا الصدد : « ان اداء المهام المخصصة للسجين تمكنه من اكتساب نقاط يوميّة من العلامات كأن يحصل على عشر علامات لقاء قيامه بهذه المهام ، غير أنه يستطيع الحصول على علامات يومية اضافية إذا عاش على نحو اقتصادي ، وادى جهداً ثابتاً زائداً عن المهام المخصصة له ، وابدى سلوكاً وتصرفاً مثالياً . كما يجب أن لاتعاقب الاساءات الانضباطية بالاساليب المألوفة للسجن والمتمثلة في العنف او الحرمان او العمل القهري ، بل بغرامات تتمثل في حرمان السجين من العلامات والامتيازات » .

وبعد برهة وجيزة ، يسمح للسجناء بالالتحاق مع سجناء آخرين والانهماك في اداء مشاريع مشتركة . وعندما يبدي احد الاعضاء تصرفاً سيئاً ، يعاقبه افراد المجموعة جميعهم بحرمانه من العلامات . « وكلما

تقدم السجين عبر هذا النظام ، ينبغي تخفيف التقييدات المفروضة عليه ، كما يجب أن تكون الفترة الاخيرة من احتجازه شبيهة قدر الامكان بالشروط المحتمل مواجهتها لدى تحريره . فالهدف الواضح من هذه المرحلة ، هو اعداد السجين لنوع من التحرر يهدف النظام بمجمله إلى تمكينه منه وانجازه بجهوده الخاصة . ان المبدأ الاساسي لهذا النظام هو : لاشيء بلا مقابل ، فكل شيء يجب أن يكون كسباً . اذ يجب على السجين أن يتجنب اثناء فترة اعتقاله اي شيء يؤدي إلى تخفيض مرتبته ، او يحرمه من صفة (الكائن الاجتماعي) . اما العقوبات الوحشيّة مثل تقييد الساقين بالاصفاد ، والتكبيل بالسلاسل والصلب ، وسد الفم ، والجلد بالسياط ، فيجب عدم استخدامها ليست هذه الافكار اصيلة بشكل كلي ، فقد اقترح ريتشارد واتلي ، ورئيس اساقفة دوبلن ، وجيمس باكهاوس ، وجورج ووكر ، نظاماً كمياً لاسترجاع الامتيازات كبديل عن استخدام العقاب . اما ماكونوشي فقد كان اول من وضع تلك الافكار على نحو قابل للاستخدام وحاول تطبيقها في تجربة واقعية .

هل كانت التجربة ناجحة ؟ دعنا قبل محاولة الاجابة عن هذا السؤال أن نشير إلى بعض الاسباب التي تبين لماذا يمكن أن تكون تلك التجربة غير ناجحة . (١) كان جميع السجناء موضوع الاهتمام مجرمين من النوع الذي لايجدي معهم اصلاح .فهم حثالة مجتمع السجن بكامله ولاتمكن تخيل جماعة اسوأ منهم لاستخدام افرادها في تجريب فعالية اي نظام جديد . وإذا اختار اعداء ماكونوشي العديدون مجموعة معينة من السجناء بعناية فائقة للبرهنة على عدم قابليتهم للتحسن ، فستكون هذه المجموعة بالذات هي المختارة . (٢) لقد تعرض هؤلاء السجناء

ولايمكن تخيل جماعة اسوأ منهم لاستخدام افرادها في تجريب فعالية اي نظام جديد . وإذا اختار اعداء ماكونوشي العديدون مجموعة معينة من السجناء بعناية فائقة للبرهنة على عدم قابليتهم للتحسّن ، فستكون هذه المجموعة بالذات هي المختارة . (٢) لقد تعرض هؤلاء السجناء أياً كانت حالتهم الاصليّة ، إلى درجة من الوحشية ترفض تصديقها ببساطة في ايامنا هذه . وللحصول على فكرة خاطفة عن الحياة التي عاشها هؤلاء الناس المساكين ، يجب قراءة الوصف الذي كتبه باري حول الشروط القاسية التي عاشوا في ظلها ، والعقاب الهمجي الذي تعرضوا له . (٣) كانت السلطات التي يتمتع بها ماكونوشي اكثر محدودية مماكان يعتقد بكثير ، بحيث لم يكن قادراً على التأكيد لمحكوميته بأنه سيطلق سراحهم عندما يجمعون نصيبهم من العلامات . كما اعتبر اكثر من نصف المحكومين جميعهم غير اسوياء رسمياً رغم النظام المخفف الذي ادخله . (٤) لم يتلق ماكونوشي مساعدة كبيرة من جانب وزارة الداخلية ، بل تلقى بدلا من ذلك تأنيبات رسميّة وتعويقاً مستمراً . واخيراً تم صرفه من الخدمة قبل وقت طويل من التمكن على تبيان قيمة خططه . لقد كان عليه أن يعمل ضد رؤسائه وليس معهم ؛ ولم يتلق اطلاقاً الدعم الذي يرى نفسه أهلا له . (٥) لقد كان مرؤوسوه المناط بهم تنفيذ خططه شرطة سجن محافظين ، وغير متعاطفين مع وجهات نظره ، كما كانوا مكرسين لأفكار « العقاب الفوري » ؛ ولم يدركوا المحكومين ككائنات انسانية كما ادركهم هو ، وكان دعمهم له فاتراً في احسن الاحوال . (٦) كان المستعمرون الاستراليون في الجيش ضد اساليبه « الرخوة » وطالبوا على نحو مستمر

باستدعائه وصرفه من الخدمة ، وكان ينبغي لمساجينه كسب عيشهم بين هؤلاء الناس ، وذلك لدى قضاء مدد احكامهم حصولهم على قدر من العلامات يكفي لجعلهم احراراً . ان العداء المرير لماكونوشي وجه مثله ايضاً للمساجين الذين يرعاهم ، فقد عمل الاستعماريون ما في وسعهم لافشال تجربته ، بدلا من مساعدة هؤلاء المساجين على إعادة تأهيل انفسهم . (٧) قد كانت الشروط الطبيعية (الفيزيائية) في نورفولك ايلاند بدائية إلى درجة يصعب معها جداً على ماكونوشي ادخال الكثير من افكاره ، فقد كانت الاتصالات مع انكلترا ضعيفة وبطيئة للغاية ، كما أن وزارة الداخلية لم تلبّ مطالبة بحماس كبير . إن هذه العوامل لاتشكل إلا عدداً قليلا من الصعوبات التي واجهها ماكونوشي ، لذلك من الواضح أن مهمته لم تكن من النوع السهل .

يجب على الفرد لدى قيامه بتكوين تقويم مناسب لنجاح او فشل تجربة ماكونوشي أن يفكر في تحيّز اولئك الذين افادوا بها . ان الكراهية التي يكنها كبار المسؤولين والحكام وامثالهم له ، هي امر ينبغي تصديقه . لقد جعل هؤلاء مهمة ماكونوشي مستحيلة ، ثم ألقوا اللوم على عاتقه لأنه لم ينجح في تحويل الشياطين إلى ملائكة خلال سنتين او ثلاث سنوات . لقد فرضوا اكثر طرق العلاج وحشيّة على المحكومين ، ثم ابدوا دهشتهم لعدم قدرة النمر على تغيير رقطة بين عشيّة وضحاها . ولتقديم وصف كامل للوضع ، يجب العودة إلى باري للملاحظة روايات قليلة ادلى بها شاهد عيان يكن بعض عداء لماكونوشي إلا أنه ليس لدوداً إلى حد بعيد . لنبدأ بالتقويم الذي يدلي

به ماكونوشي ذاته ، انه يقول : « لقد وجدت الجزيرة — نورفولك آيلاند — جحيماً هائجاً وحشياً . . . . وتركتها مجتمعاً محلياً مسالماً حسن التنظيم . . . . لقد ساد اكبر قدر ممكن من الأمن التام بين الاشخاص والممتلكات على حد سواء . . . وكان رجال الأمن والنساء والاطفال يجوبون انحاء الجزيرة دون خوف . . . » . ويضيف باري قائلا : « « يؤيد الدليل الثابت ما أدلى به ماكونوشي » . وكتب « نايلور » (Naylor) الذي كان قسّيس الكنيسة الانكليزية اثناء ادارة ماكونوشي لنورفولك ايلاند ما يلي : « انني مقتنع باخلاص تماماً . . وبرعاية الله وبركته ، أن نظام (العلامات) ، او بالاحرى عملية الاصلاح الذاتي عموماً ، هو من افضل الوسائل الاخرى ويفوقها جميعها ، هذا إن لم يكن وسيلة التوحيد الوحيدة للاهتمامات المتعارضة الخاصة بالمجرم والعدالة » . ويطنب باري في هذه العبارات في رسالة له قائلا : « عند التفكير في تجربة نورفولك ايلاند ، لاعني القول بعدم ارتكاب بعض الاخطاء . . . بل اعني أن خيراً غير محدود قد تم انجازه . . . وانه ما من ادارة كادارة ماكونوشي قد حققت مثل هذا الخير الكثير قبله او بعده . . . واستطيع أن ابرهن أنه ما من فترة اتسمت الجزيرة فيها بضآلة الجريمة والمشاعر الحسنة . . . مثل الفترة التي اقام هو فيها . . . وانني تواق إلى الرهان بكل ما أملك على التأكيد بأنه لو توافر لماكونوشي ملعباً عادلا ولعبة عادلة . . . لكانت قضيتّه قد تأسست على نحو انتصاري . واعتقد انه لم يكن مقبولا على نحو جيد عموماً في جزيرة نورفولك ايلاند ، وبخاصة من جانب مناوئيه انني اعرف ماهية الصعوبات التي لاتقهر الملقاة في دربه ، واتعجب

لكنه استطاع انجاز اي شيء ، بدلا من أن اتعجب لكونه لم يستطع أن يفعل اكثر مما فعل . وينبغي لي أن اضيف بأني اقابل سجيناً لم يؤيد ايماني الراسخ في النزعات التحسينيّة للجهود التي اداها » .

والآن ، ماذا عن تصرف السجناء بعدما غادروا السجن ؟ يخاطب سجين سابق ماكونوشي قائلا : « لقد كان تصرف رجال جزيرتيك عموماً مثالياً إلى حد بعيد ، واظهروا حتى اليوم أن نظام الاصلاح اكثر فاعلية في اي شخص من الرجال من اي نظام آخر تعرضوا له قبلك او بعدك . وباستثناء حالات نادرة ، فقد كان جميعهم يعملون على نحو جيد ، كما كان بعضهم يسلكون بطريقة محترمة في العمل ، ويتقدمون بعيداً في اتجاه الازدهار . لقد كان هؤلاء مفخرة لما يحملونه من لقب مشترك ، وهو لقب رجال الكابتن ماكونوشي » . اقد ايد اسقف هوبارت الكاثوليكي الروماني ، والمطلع بشكل جيد على احوال نورفولك آيلاند ، هذه العبارات بشكل مطاق . يصعب تجنب الاستنتاج الذي يمكن الخروج به من هذه الشهادات ومثيلاتها . فالتجربة كانت ناجحة جداً رغم الصعوبات البالغة التي واجهتها والتصديم الحقيقي على افشالها . لقد تحسّن سلوك المحكومين داخل السجن وفي الحياة الخارجية على نحو جيد تجاوز اي شيء معروف في ذلك الحين . وفي غياب امكانية اجراء المقارنات الكميّة ، يصعب الذهاب إلى أبعد من هذا الاستنتاج . ولكن يبدو أنه استنتاج راسخ تماماً . والتعليق الهام حول الطبيعة البشرية ، هو أنه حتى هذه اللحظة ، اي بعد (١٢٠) سنة من تجربة ماكونوشي ، لاتتوافر تجارب رسميّة تتناول البحث في هذه الادعاءات . فنحن مازلنا نجادل بشكل لامنناه حول اصلاح السجون

ولكننا نرفض تأسيس اثر طريقة انسانية وفعالة من حيث الظاهر ، لاعادة تأهيل المجرمين خارج نطاق الشك . اذ يصعب التأكد احياناً من أن هذا النوع من الاصلاح ، هو ما نكافح من اجله فعلا .

استدعي ماكونوشي عام (١٨٤٤) ، وتبيّن من خلال التقارير الرسميّة المشوهة وغير الصادقة اطلاقاً ، أن تجربته قد اعتبرت فشلا بين رجال السلطة ، حتى بالنسبة لمثل هذه الوثائق . لقد اتيحت له فرصة اخرى (وربما من الأفضل أن نقول أنها نصف فرصة) عندما عيّن حاكماً لسجن برمنجهام ، غير أن هذه الوظيفة لم تخوله ايضاً السلطات الضرورية التي تمكنه من ادخال اساليبه بشكلها المناسب . وسرعان ما طرد من منصبه ثانية بسبب العداوة العنيدة التي يكنّها له جميع مبغضي التجديد القدامى المتمتعين بضراوة وعقول ضيقة الافق لقد كتب انتاجاً وفيراً معروفاً على نطاق واسع بين المنادين باصلاح السجون ، ومات عام (١٨٦٠) وهو في الثالثة والسبعين من عمره ، أي بعد عشرين سنة من بداية تجربته في نو.فولك ايلاند . كان ماكونوشي رجلا عظيماً وقائد فكر تجاوز قرنه ، وهو شبيه بمعظم الانبياء ، حيث لاكرامة لنبيّ في وطنه . اننا نتذكره الآن فقط ونولي اساليبه فرصة جديدة للعيش لكونها ترتبط بالنظريات النفسية الحديثة ، وبخاصة نظريات سكنر . وهذه التجديدات الحديثة هي ما يجب أن نعود إليه فيما يلي .

لقد طور ماكونوشي المبدأ الرئيسي الذي أسست عليه اجراءات « الاقتصاديات الرمزية » الحديثة . ولكن من الجدير بالاهتمام أن

نعيد صياغة هذه الاجراءات بلغة اقل قدماً إلى حد ما . ان المبدأ الأول هو استبعاد العقاب ، وبخاصة بالقدر الذي يكون فيه قائماً على ايقاع الألم . لقد بين البحث العلمي الحديث أن مثل هذا العقاب ليس غير فعال بالضرورة ، بل يؤدي إلى كتب نمط الاستجابات غير المرغوب فيها وليس إلى ازالتها . وعندما يزول الخطر المحدق للعقاب ، يعود النشاط المكبوت إلى الظهور ثانية وتفشل عملية الاصلاح . واكثر من هذا ، أن للعقاب عواقب غير قابلة للتنبؤ ،إذ يصعب غالباً التنبؤ بما ستكون عليه هذه العواقب حتى في المدى المنظور . واضافة إلى ذلك هناك دليل على أن العقاب يجعل الفرد الذي يتعرض له متوحشاً ويؤدي إلى سلوك عدواني . خذ على سبيل المثال فأرين وضعهما في صندوق . سوف لايعبأ احدهما بالآخر على نحو شديد ، وسيعيشان معاً على نحو مسالم . ولكن إذا كهربت ارضية الصندوق بحيث تصيبهما صدمة كهربائية ، فسوف يلتفت احدهما للآخر ويهاجمه . ويمنعك بايقاع الألم آن تجعل من الفأر المسالم بهيمة شريرة عدوانية . لايبدو من غير المحتمل (ثمة دليل احصائي يؤيد هذه النظرة) انك تستطيع القيام بالشيء ذاته مع الكائنات الانسانية . واكرر ثانية هنا ، ان الكائنات الانسانية .ليست فئراناً ، بل انهم يشتركون معهم في خاصيّة بيولوجية عامة ، ويبدو من الحماقة اجراء مخاطرة من هذا القبيل على الانسان ، لأن هذا الاجراء هو غير انساني ايضاً .

يشير المبدأ الثاني إلى ضرورة استخدام التعزيز الايجابي حيثما امكن ذلك . ان مصطلح « التعزيز الايجابي » ليس مماثلا لمصطلح « الثواب » ، ولكنني سأستمر في استخدامه رغم عدم ايفائه بالغرض

المنشود على النحو المناسب . ان الثواب هو شيء مرغوب فيه يستخدم للمكافأة نتيجة اداء سلوك حسن في مرحلة ما من الزمن لاترتبط على نحو وثيق بزمن حدوث الفعل « السلوك » موضوع الاهتمام . اما التعزيز الايجابي فهو عملية تطبيق لشيء معروف بعمله كمعزز على الشخص (اي الشيء الذي تبيّن سابقاً أنه يحضّ هذا الشخص على العمل) الذي عزز بهذا الشيء ، حيث تتم هذه العملية بعد حدوث السلوك الذي عزز من اجله مباشرة . وهكذا يستطيع الشخص (او بالاحرى جهازه العصبي) تمييز الحوادث التعزيزية الشرطية المحتملة التي ينطوي عليها الوضع ، ، والتي تأخذ الشكل التسلسلي التالي ؛ : سلوك ← تعزيز . تتمثل الخاصيّة الأساسية للتعزيز في الاقتران الزمني بين اداء السلوك وتقديم المعزز . والثواب الممنوح في وقت آخر ، ولايتم ادراكه كحادثة مشرطة بالسلوك موضوع الاهتمام : لايشكل تعزيزاً ايجابياً . وان هذا الربط بين التعزيز والحادث التعزيزي الشرطي المحتمل هو الذي يشكل جوهر اسلوب الاقتصاد الرمزي .

والمبدأ الثالث الذي ينطوي عليه هذا الاسلوب هو ضرورة تحديد السلوك موضوع الاهتمام على نحو واضح ، حيث ينبغي عدم وضعه ، كما هو شائع غالباً ، بمصطلحات غير دقيقة مثل « السلوك الحسن » او « الطاعة » او « التهذيب » . يذهب علماء النفس السلوكيون غالباً إلى مايبدو اسهاباً مضحكاً في تحديدهم للسلوكات الي يرغبون في تقويتها . ومع ذلك إن مثل هذا التفصيل ضروري على نحو مطلق إذا كان يجب تجنب التشويش في التطبيق والغموض في التعزيز . ليست هذه الدرجة من التحديد ضرورية فقط لأنه ينبغي لأي شخص معني

بالبرنامج أن يطبق التعزيز وفق قواعد متماثلة وفي ظروف متماثلة ، وانما هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من قياس التغيرات التي تطرأ على السلوك الملاحظ . ان اي شخصين قد يختلفان على نحو شديد حول ما إذا كان صبي قد طور عادة النظافة وحول مدى هذا التطور . في حين لامكان لمثل هذا الخلاف عندما تحدد ما إذا كان الصبي قد وضع او لم يضع قطعة الصابون في مكانها المناسب على المغسلة ، او ما إذا كان قد غسل يديه قبل تناول العشاء ام لم يغسلهما . ان لهذا التحديد الدقيق ميزة اضافية ، فهو يجعلنا نعرف ما نتحدث عنه . لقد اعتدنا كثيراً مناقشة اشياء مثل « الامانة » او « الكتابات الاباحيّة » او « النظافة » نظرياً ، ولم ندرك كيف يفهم الناس المختلفون هذه المصطلحات بطرق مختلفة . وعندما نضطر لأن نكون دقيقين ، يجب أن نبدأ بتحديد جوانب الاتفاق والاختلاف ، حتى لو كان قارىء تقرير من هذا القبيل لايتفق مع الوصف التحليلي لمصطلح تجريدي معيّن . انه يعرف على اقل تقدير ما كان في عقول الكتاب ، ويستطيع اعادة اجراء تجربتهم إذا رغب في ذلك .

لقد تم التلميح إلى المبدأ الرابع قبل الآن ، وهو أنه ينبغي تسجيل حدوث السلوك موضوع الاهتمام قبل بدء التجربة (وهذا يعني أنه يجب عليك أن تعرف تماماً ما يجري في الوضع — اي ما يفعله الناس دون تدخل — قبل أن تحاول تعديل السلوك) . ولايمكن تقويم آثار معالجتك التجريبيّة إلا في ضوء هذه الخلفيّة من المعرفة . ويفضل أن تتوافر لديك مجموعة اخرى يسلك افرادها باسلوب مماثل لافراد مجموعتك التجريبيّة ، ولكن دون تعريضهم للاستفادة من العلاج

المستخدم في التجربة . وغالباً ما ترغب طبعاً في ازالة العلاج بعد انتهاء التجربة للوقوف على مدى قدرة المتغيرات التي قد تنتجها التجربة على الاستمرار . ان القياس اساسي لتقدم العلم ، والتغيرات الكيفيّة يمكن ملاحظتها غالباً بالعين المجردة ، كما في تجربة ماكونوشي . ولكن قد تكون هذه التغييرات موضع جدال وخلاف — وحقيقة لم يدّع « الرسميّون » الخبثاء فعلا أن تجربة ماكونوشي قد آلت إلى فشل مطبق . ان القياس الذي يطبق على نحو مناسب ، ويفسّر على نحو ذي معنى ، هو الوحيد الذي يمكننا من مقارنة ادعاءات النظريات المنافسة وتطبيقاتها في اية طريقة دقيقة . لذلك يعتبر التزود بمثل هذه البيانات الاساسية جزءاً جوهرياً من الموقف النظري لعالم النفس الساوكي . ومن خلال ارتباط عالم النفس السلوكي بهذا الشرط ، فهو يختلف على نحو عميق جداً عن معظم افراد المجموعات الاخرى المعنيين بهذه المجالات ، بدءاً من علماء الجريمة وحتى المحللين النفسيين ، ومن المربين وحتى المحامين .

ويشير المبدأ الخامس إلى الاثابات المقدمة بشكل فعلي ، وإلى تكرار تقديمها . يعتبر مدى تكرار التعزيز قانوناً تعليمياً اساسياً ، وهو اكثر اهمية بكثير من حجم المعزز . وان تعلمك سيكون افضل لو تمت اثابتك مليون مرّة بجنيه واحد في كل مرة ، عما لو تمت اثابتك مرة واحدة بمليون جنيه ! لذلك ينبغي للاثابات أن تكون صغيرة من حيث الحجم وكثير من حيث التكرار . لاتعزز الفرد بالسماح له بمشاهدة التلفزيون لمدة اسبوع ، بل بمشاهدته لمدة نصف ساعة فقط . وما لم تلجأ إلى هذا الاسلوب ، فسينفذ مالديك من معززات . ان

شعار التعزيز هو : قدم كثيراً من المعززات شريطة أن تكون قليلة المقدار . يمكنك بهذه الطريقة تجنب تدخل الانفعالات القوية في اجراءاتك . فاذا فشل شخص في الحصول على السماح له بمشاهدة التلفزيون لمدة نصف ساعة ، فلن يهتم كثيراً لذلك . ولكن إذا خسر مشاهدة التلفزيون لمدة اسبوع كامل ، فسيكون شديد الاضطراب ، ويتدخل (او ربما يتدخل) هذا الانفعال القوي في عملية الاشراط . يتميز الافراد الذين نتعامل معهم — سواء كانوا ذهانيين ام مجرمين — بحقيقة مفادها أنه لايتوافر لديهم ادراك مناسب للسلوك الشرطي المحتمل حدوثه ، اي لايدركون التسلسل : التصرف الصحيح — الاثابة . فكلما مارسوا هذا التسلسل على نحو اكثر تكراراً ، كانوا اكثر احتمالا لتعامه ولتعديل سلوكهم وفقاً له .

ثمة مبادىء عديدة اخرى طبعاً ، ولكن من الواضح أنه حتى تلك المبادىء التي تقدم ذكرها ، قد تم تبسيطها بشكل متعمد لجعلها مفهومة ان كتاب «الاقتصاد الرمزي» (the token Economy) الذي وضعه « ايلون » (I. Ayllon) و « أزرن » (AJrin) يقدم معالجة كلية مكتوبة جيداً للميدان بمجمله ، كما يتضمن وصفاً رائعاً لتطبيق هذه الطرق — اي اجراءات العلاج السلوكي وتعديل السلوك — على مرضى ذهانيين عولجوا في المستشفيات . يستحق هذا الكتاب القراءة من جانب الانسان العادي المهتم ، فلقد نجح المؤلفان بشكل رائع في مسعاهما الهادف إلى جعل اجراءات العلاج السلوكي واضحة بالنسبة للعديد من اولئك الناس الذين قد يكونون معنيين بذلك النمط

من تعديل السلوك ، غير انهم ليسوا علماء نفس متدربين . ولكن غالباً ما يكون احد الأمثلة من الأهمية بمكان بحيث يغطي عدداً كبيراً من النظريات ، ويجعل مما تنطوي عليه احدى الطرق الجديدة امراً واضحاً . سأتناول مثالا من هذا القبيل من خلال العمل غير المنشور الذي قام به « مونتروس وولف » (Montrose Wolf) وزملاؤه في كانساس ، وتناولوا فيه علاج احداث جانحين . يستطيع الصبيان موضوع العلاج الحصول على نقاط (علامات) مقابل قيامهم بسلوك مناسب ، كما يخسرون نقاطاً مقابل قيامهم بسلوك غير مناسب . ويمكن مقايضة النقاط ببعض الامتيازات ، مثل استخدام الدراجات الهوائية او الادوات ، او ممارسة الالعاب ، او مشاهدة التلفزيون ، او الحصول على اجازات ، او تناول وجبات خفيفة ، او حرية الذهاب إلى المدينة ، او زيارة الأهل . لقد تم ترتيب نظام النقاط بحيث يحصل الحدث على جميع الامتيازات دون أن يؤدي اية اعمال اضافيّة ، إذا كان يقوم بأداء مهام معيّنة يتوقع منه انجازها ولم يخسر اكثر من الحد الادنى المسموح به من النقاط كغرامات نتيجة تقاعسه في انجاز تلك المهام . يحتاج كل صبي إلى حوالي (١٠٠٠) نقطة في اليوم لكي يعيش على نحو مريح . يتم اكتساب النقاط من خلال الانهماك في اداء سلوكات اجتماعيّة وذاتية واكاديميّة معيّنة ، وتدون نقاط الربح والخسارة في نهاية كل يوم ويسجل على صحيفة علامات اسبوعية . تراوحت اعمار الصبيان بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة ، واتسم تاريخ حياتهم بالعدوان والسرقة والتشرد والفشل المدرسي . كما انحدروا من اسر دنيئة الدخل وحافلة بتاريخ من السلوك الاجرامي .

لقد تمت رعاية هؤلاء الصبيان على شكل مجموعات تتألف كل منها من حوالي خمسة افراد يعيشون في مناخ تتوافر فيه خصائص « النمط العائلي ، والمجتمع المحلي ، والتسهيلات العلاجية » . وكانوا جميعهم مدانين من قبل محكمة الاحداث الاقليميّة . ادار البرنامج العلاجي « آباء الاصلاحيّة » الذين قاموا بتطبيق الاجراءات التعزيزية الاصلاحية وقياس آثارها .

ان روتين الحياة اليومية للصبيان في الاصلاحيّة ، شبيه بالروتين اليومي للعديد من الاسر . انهم يستيقظون في حوالي الساعة السابعة ، ويستحمون ويرتدون ملابسهم وينظفون غرف نومهم وحماماتهم وعليهم بعد تناول وجبة الافطار واجبات تنظيف المطبخ وترتيبه . يذهبون بعد ذلك إلى المدرسة لتلقي دروسهم ثم يعودون لأداء واجباتهم المدرسية . ثمة فترة نشاط حر بعد تناول وجبة العشاء واداء المهام المنزلية العادية ، وهم احرار في استغلال هذه الفترة بالطريقة التي يشاؤون ، ولكن ضمن حدود « نقاطهم » . قد يتساءل الوالدون الذين وجدوا صعوبة في جعل اطفالهم غير المنحرفين وذوي النشأة الحسنة يحافظون على نظافة وترتيب انفسهم وعرفهم ، ويساعدون في اعمال المطبخ اليومية ، عن كيفية انجاز هذه المعجزة . تأمل في معنى مصطلح « النظافة » . يوفر التعريف الدقيق لـ « الغرفة النظيفة » امكانية وجود مقياس موثوق يزود الصبيان بتعليمات واضحة حول محكات النظافة . لقد تم تحديد قائمة من التعليمات والمحكات كيف ينبغي تنظيم اثاث الغرفة ، وترتيب خزانة الملابس ، وتجهيز الاسرّة . يستحيل انكار أن بعض التعريفات تبدو شبيهة بالتدريب اليدوي في الجيش . وعلى

سبيل المثال ، عرّف التجعد بعدم الامتثال لتعليمات مدّ الغراس ، بحيث يتجاوز ارتفاع الجعدة او عرضها انشاً واحداً ويتجاوز طولها (١٢) إنشاً . ان ٩٩٪ من الملاحظين يتفقون بصدد قياس النظافة لدى تحديدها بهذه الطريقة . يتضمن الحادث التعزيزي الشرطي ربح نقاط ينالها الحدث على كل مهمة ينجزها عندما يكون مجموع نقاطه الكلي ٨٠٪ فما فوق ، كما يخسر نقاطاً على كل مهمة لايتم انجازها عندما يكون هذا المجموع اقل من ٨٠٪ . اوقف نظام « النقاط » في اوقات متباينة من فترة المعالجة ، وجربت طرق بديلة عوضاً عنه مثل اصدار التعليمات او التهديدات او الأوامر ، وتبيّن أن جميع هذه الطرق قد ادت إلى انخفاض ملحوظ في فعالية سلوك التنظيف . ولدى اعادة ادخال نظام « النقاط » ، اتضح أن السلوك المرغوب فيه يعود إلى وضعه السابق على نحو فوري تقريباً . واخيراً ، تم تخفيض عدد الأيام التي يطبق التعزيز فيها إلى يوم واحد كل اسبوعين ونصف ، ولم يؤد هذا التخفيض إلى تقليل اثر فاعلية التعزيز . لقد انجزت عملية التخفيض هذه عن طريق الزيادة التدريجيّة للفجوة التي تفصل بين الأيام التي تطبق فيها الحوادث التعزيزية .

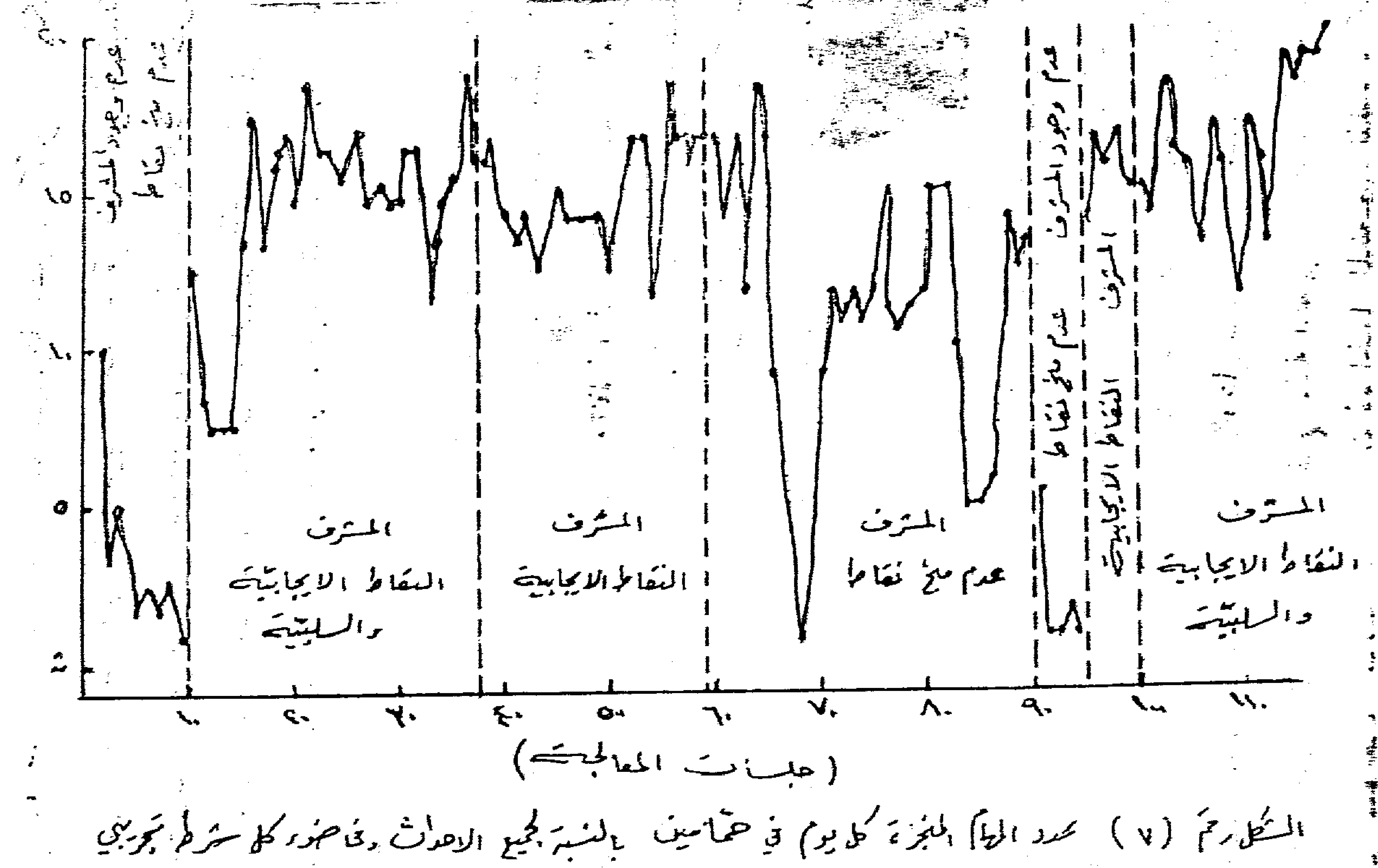
ثمة تجارب اخرى جرت في هذا المجال لبحث آثار الشروط التجريبيّة المختلفة لفعالية حوادث التعزيز الشرطية . تأمل على سبيل المثال في ادخال شرط « المشرفين » .

« لقد كان من الممكن ترتيب الحوادث التعزيزية الشرطية بالنسبة لسلوك العدوان اللفظي وسلوك تنظيف غرفة النوم على نحو ترتبط بشكل مباشر بكل صبي على حدة . ولكن ثمة سلوكات يصعب معالجتها

على اساس فردي ، وهي سلوكات العناية بالذات . جرّبنا في البدء ترتيب حوادث تعزيزية شرطية لمجموعة الصبيان ككل ، ولكن تبيّن أن ترتيبات الحوادث التعزيزية الجماعية اقل فعالية من الترتيبات الأخرى. واتضح لنا ان الترتيب التعزيزي الشرطي الشديد الفعالية ينطوي على جعل صبي واحد مسؤولا عن سلوك الصبيان الآخرين في المجموعة بتخويله صلاحية منح النقاط وحذفها . وبهذه الطريقة تأسس « نظام اشراف فعال جداً » .

« كان المشرف واحداً من الصبيان ، واشترى امتياز الاشراف ومنح النقاط لأقرانه . تكونت واجباته من مراقبة تنفيذ قائمة مهام معينة كل يوم ، مثل الاستحمام وتنظيف غرف النوم والفناء والقبو . وكانت لديه صلاحية منح النقاط وحذفها اعتماداً على نوعية العمل المنجز . وبالمقابل يربح المشرف او يخسر نقاطاً وفقاً لما إذا كانت المهام قد انجزت أم لا ، وكوظيفة لنوعية العمل حيثما أمكن تحديد هذه النوعية » .

« يبيّن الشكل رقم (٦) فعالية « نظام الاشراف » النسبيّة مع حوادثها التعزيزية الشرطية وحادثة التعزيز الشرطي (الجماعي) في الحفاظ على سلوك تنظيف الحمام . لقد اسست محكات واضحة ، كما في حالة غرف النوم وهذه الدراسات الأخرى جميعها ، لكل مهمة تتعلق بنظافة الحمام وترتيبه . وعلى سبيل المثال ، يجب أن لاتترك اشياء فوق المغسلة ، ويجب وضع قطعة الصابون في القعر المخصّص لها ، ويجب وضع فرشاة الاسنان في الحامل المخصص لذلك ، كما



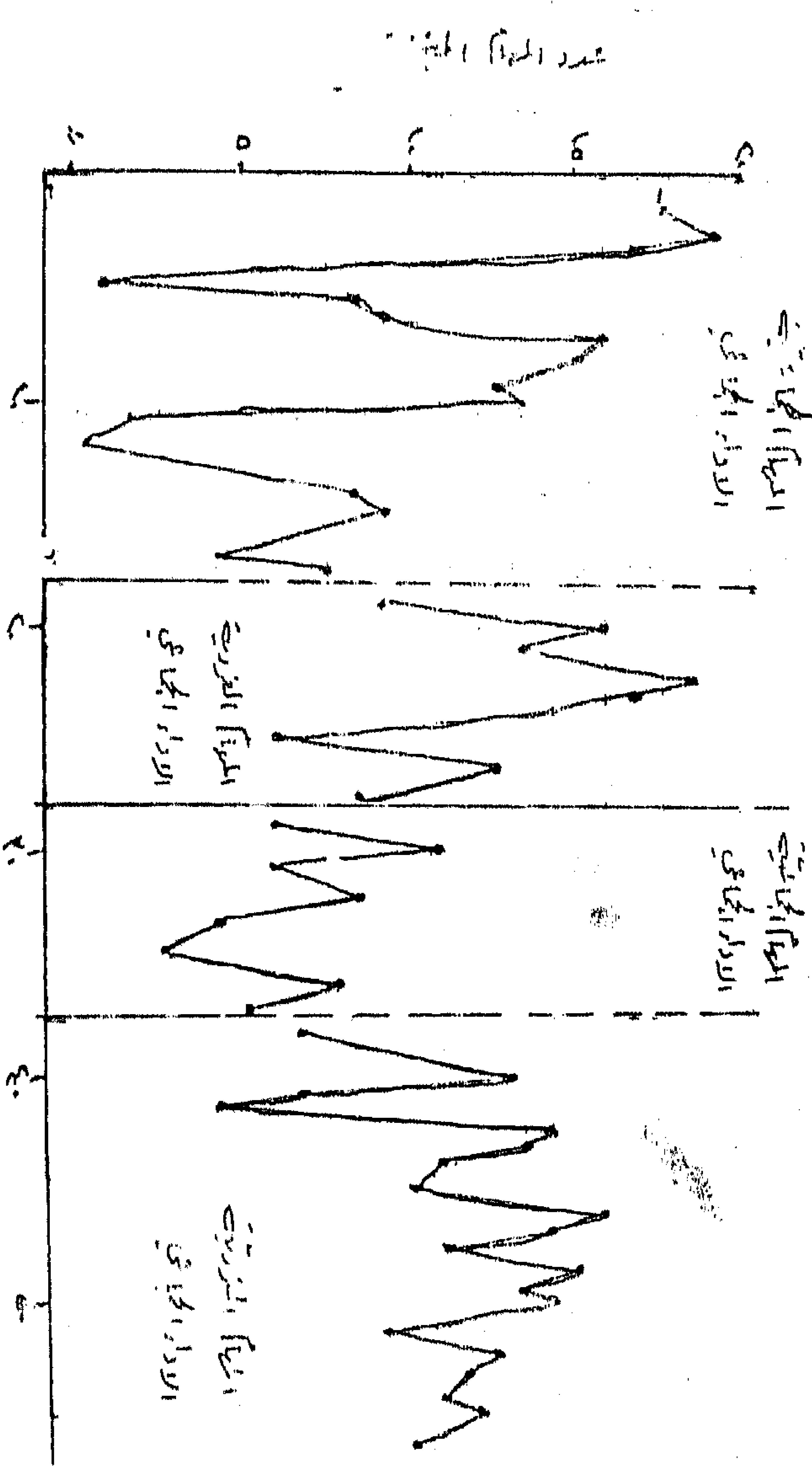
الشكل رقم (٧) عدد المهام المنجزة كل يوم في حماسين بالنسبة لجميع الاحداث وفي حضور كل شرط تجريبي

يجب وضع الاشياء الأخرى جميعها في خزانة الادوية . لقد بلغ معدل ثبات قياس هذا السلوك بين ملاحظين اثنين ٩٧٪ » .

« يمكننا أن نرى كما هو مبيّن في الشكل ، وفي ضوء شرط (الخط القاعدي) ، أن الصبيان قد انجزوا عدداً ضئيلا جداً من المهام عندما تلقوا تعليمات فقط لتنظيف الحمامات . وعندما ادخل شرط « المشرف » للمرة الأولى ، استغرق حدوث المستوى المقبول لنظافة الحمام حوالي اسبوعين . توقف فيما بعد شرط المشرف عن الاستمرار ومنحت نقاط حوادث التعزيز الشرطية للمجموعة بكاملها . ويمكنك مشاهدة أن قيم النقاط المتباينة التي تم تطبيقها لم تنتج مستوى النظافة الذي انجزه نظام الاشراف . وعندما اعيد ادخال شرط (المشرف) تحسّن سلوك التنظيف ثانية . وتدهور هذا السلوك عند استخدام شرط حادثة التعزيز الشرطي (الجماعي) . ولدى اعادة شرط (المشرف) إلى وضعه السابق ، ازدادت نظافة الحمامات ثانية بشكل حقيقي » .

« يصف الشكل التالي ــ شكل رقم ٧ ــ تحليلنا لوظيفة المرشد في منح النقاط وحذفها بالنسبة لسلوك تنظيف الحمام لدى اقرانه . وتمثل الخطوط البيانية متوسط الدرجات بالنسبة لنقاط البيانات السبع الأخيرة في ضوء كل شرط تجريبي على حدة » .

« يبيّن شرط (الخط القاعدي) الأول معدل اداء السلوك عندما تكون حوادث التعزيز الشرطية لنظام (عدم وجود المشرف) و (عدم وجود المشرف) و (عدم منح النقاط) غير نافذة المفعول . وضع بعد ذلك شرط (المشرف (موضع التنفيذ ، حيث يملك المشرف سلطة



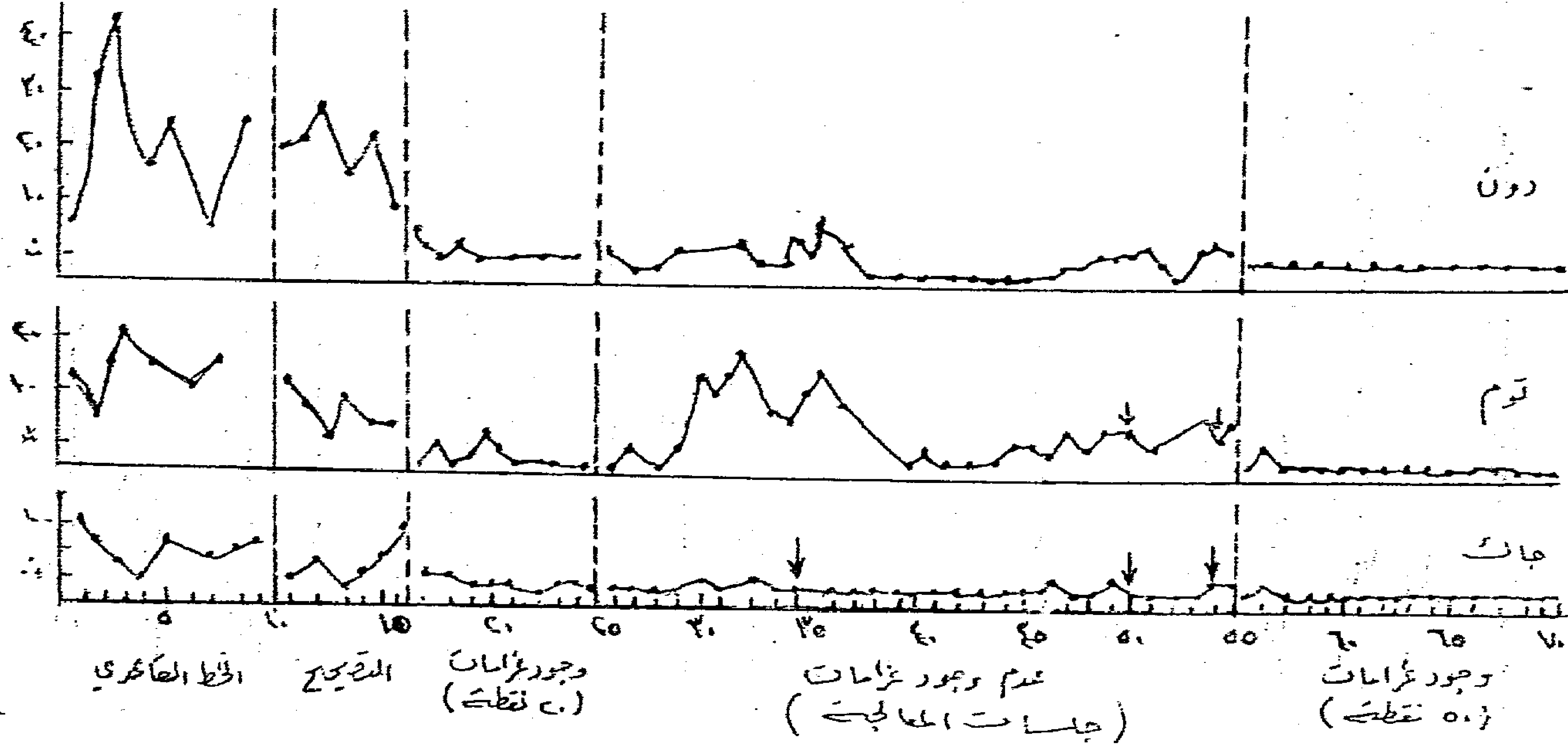
منح النقاط وحذفها من اقرانه ، وتبيّن آنذاك أن هناك ارتفاعاً دراماتيكياً في معدل اداء سلوك النظافة . ان ٤٥٪ من نتائج النقاط التي طبقها المشرف كانت ايجابية ، في حين بلغت السلبية منها ٥٥٪ . لقد كنا نشعر بأن سلطة حذف النقاط يجب أن تكون حاسمة بالنسبة لفعالية النظام المستخدم ، لذلك لجأنا إلى ايقاف قدرة المشرف على حذف النقاط في الشرط التجريبي اللاحق . ويمكنك ملاحظة عدم وجود انخفاض تقريباً في فعالية نظام المشرف عندما سمح للمشرف بمنح النقاط فقط » .

« في الشرط التجريبي الرابع ، لم يكن في قدرة المشرف منح النقاط وحذفها . ويمكنك ملاحظة أن لهذا الاجراء التجريبي اثراً واضحاً في معدل اداء سلوك تنظيف الحمام ، إذ انخفض هذا المعدل بشكل حقيقي ، ولكن لم يصل انخفاضه إلى دون المستوى الذي بلغه لدى ادخال الشرط التجريبي اللاحق المتمثل في (عدم وجود المشرف) و (عدم منح النقاط) . وعندما ادخل نظام الاشراف ثانية مع صلاحية منح النقاط فقط دون صلاحية حذفها ، تم الحصول على مستوى مرتفع من النظافة . واثناء فترة التجريب النهائية ، حيث خوّل المشرف صلاحية منح النقاط وحذفها معاً ، ارتفع معدل اداء سلوك النظافة ثانية ، ووصل المستوى الذي بلغه في الفترة التجريبيّة السابقة التي كان يعطي المشرف اثناءها نقاطاً ايجابية وسلبيّة ! » .

ان امكانيات بحث آثار الحوادث التعزيزية الشرطية هي لانهائية ، ومن الصعب التنبؤ بالنتائج . فمن الممكن على سبيل المثال تحديد اداء

المجموعة كاملة في تنظيف الحمام ومنح النقاط للمجموعة نتيجة لأدائهم ، ولكن يمكننا تغيير طريقة تحديد المهام ، حيث يمكن تعيين مهام للمجموعة بأكملها ، او تعيين مهام محددة لصبية محددين . هل القارىء معني بالتنبؤ بمعرفة اي الاجرائين اكثر فعالية ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال مبنية في الشكل رقم (٨) ، اد من الواضح أن تعيين المهام الجماعية اقل فعالية من تعيين المهام الفردية .

لقد كان الباحثون معنيين في دراستهم لفعالية هذه النظم المختلفة بأربعة محكات هي : (١) ينبغي للنظام أن يكون فعالا في انتاج السلوك موضوع الاهتمام . (٢) وينبغي له أن يكون مفضلا من جانب الصبيان . (٣) وينبغي أن يكون عملياً ويسهل على « آباء المؤسسة » مراقبته والاشراف عليه . (٤) وينبغي لهذا النظام أن يكون تربوياً من خلال تزويد الصبيان بالخبرات المفيدة لهم في المستقبل . يبدو أنه ما من نظام يحقق هذه المحكات جميعها . وعلى سبيل المثال لم يحبذ الصبيان مسألة تعيين المشرف او مسألة الدخول في مزاودة من اجل الحصول على هذا المنصب — منصب المشرف — ، رغم أن « نظام المشرف » جيد من حيث بعض الجوانب الأخرى . وحلت المشكلة اخيراً بدعوة الصبيان إلى انتخاب المشرف بأنفسهم . لقد جعل هذا الاجراء الأخير — انتخاب المشرف — نظام المشرف مقبولا من جانب الصبيان دون التسبب في فقدان فعاليته في تعزيز السلوك المرغوب فيه . من الواضح اننا في حاجة إلى اجراء الكثير من هذه الدراسات التفصيليّة في العديد من الظروف المختلفة ، ومع العديد من انماط الجماعات المختلفة ، وذلك قبل أن تغدو التعميمات البعيدة المدى ممكنة . ولكن



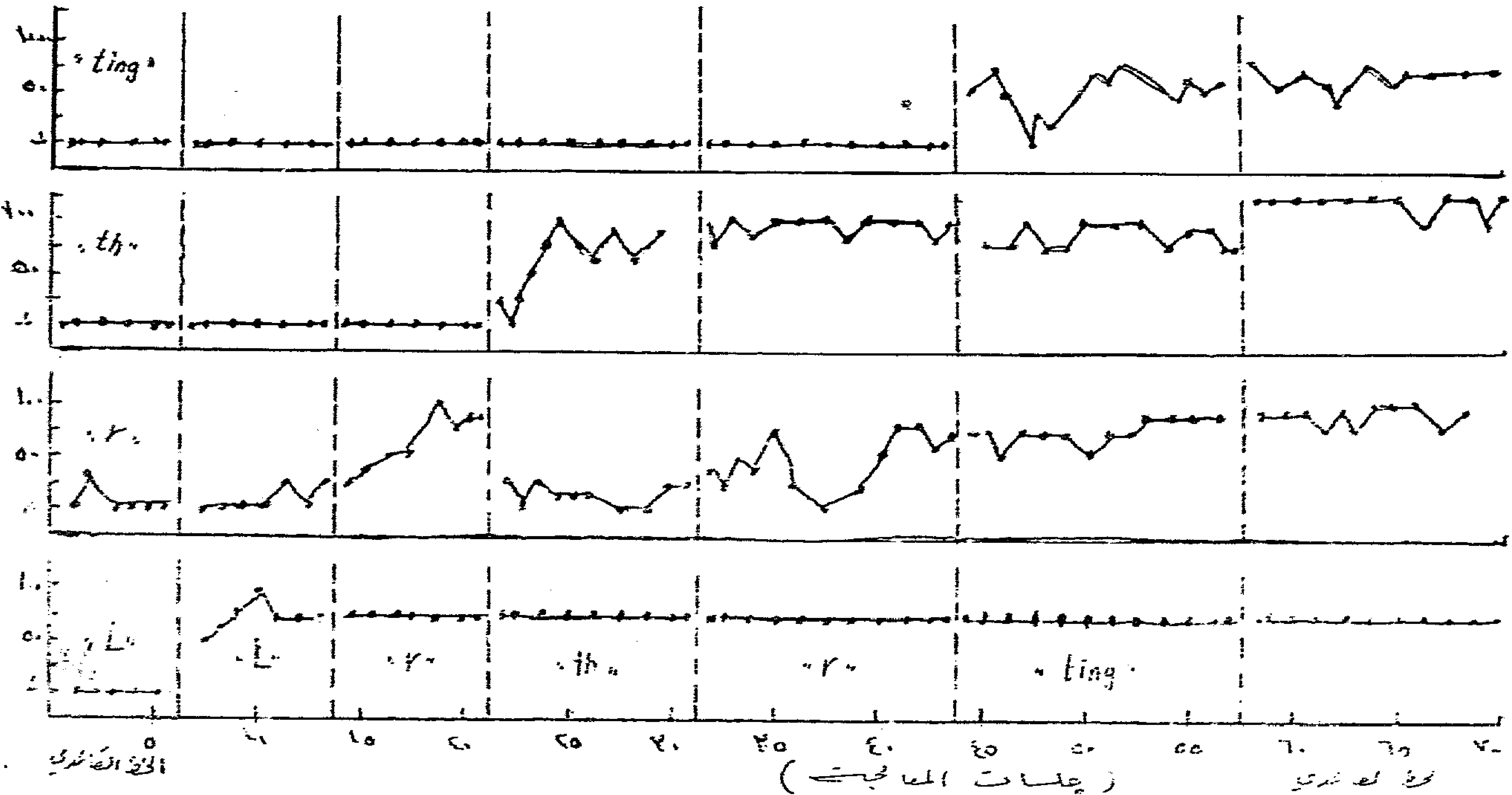
الشكل رقم (٩) عدد العبارات العدوانية في كل جلسة مدتها ثلاث ساعات عندما حدث في صور كل شرط تجريبي. تشير الأسهم إلى التهديدات بإعادة فرض شرط الغرامات لوضعه السابق

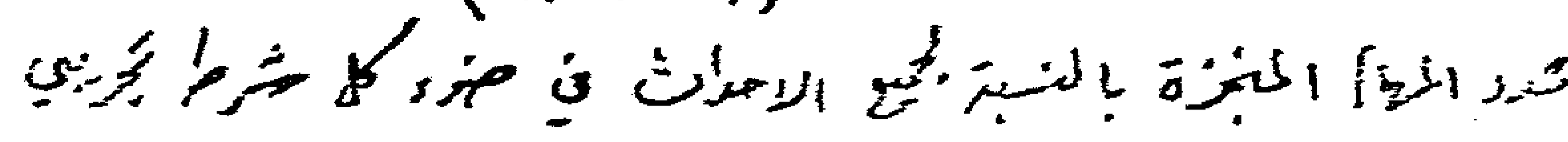
ما هو بيّن الآن ، هو أنه يمكن جعل هذه الطرق ناجحة بفعالية مدهشة دون مقاومة من جانب الذين يعملون تحت شروط تلك « الحوادث التعزيزية الشرطيّة » .

والقول بأن السلوكات البدائية ، مثل سلوك تنظيف الحمام ، هي السلوكات الوحيدة التي يمكن معالجتها بهذا الاسلوب (اسلوب النقاط) هو قول غير صحيح ايضاً . فقد استخدم الصبيان العديد من العبارات العدوانية عند تعيينهم في مجموعاتهم . ولكن عندما تعرضوا لدفع « الغرامات » بدلالة النقاط ، انخفض استخدامهم لهذه العبارات على نحو متطرف ، كما هو مبيّن في الشكل رقم (٩) ، حيث يشير هذا الشكل إلى سلوك (العبارات العدوانية) ثلاثة افراد من الاحداث موضوع الدراسة . اما الشكل رقم (١٠) فيشير إلى مشكلة مختلفة تماماً . لقد كان احد الاحداث يعاني صعوبات في النطق على نحو مناسب وتعرضت اربع من صعوباته تتضمن لفظ الاصوات (ting) و « Th » و « R » و « L » لاجراء « الغرامات » . فكانت النتيجة ارتفاعاً ملحوظاً في الالفاظ الصحيحة . يتضح من ذلك أن تلك الطرق تغطي مجالا واسعاً من السلوك ! .

ان اكثر تطبيقات هذه التكنولوجيا المعيّنة تأثيراً ، هو استخدام اجراءات « الاقتصاديات الرمزية » في المستشفيات العقلية . ولقد اتينا قبل قليل على ذكر كتاب ايلون وأزرين الذي تضمن وصفاً لبعض هذه التطبيقات . تولى هذان الباحثان امر رعاية بعض المرضى المصابين بذهان مزمن ، والذين تم التخلّي عن علاجهم لكونهم حالات يائسة

الشكل رقم (١٠) النسبة المئوية للألفاظ الواضحة الصحيحة لدى حدث باستخدام اربعة اصناف مختلفة من المكافآت حيث تم علاج كل صنف منها على التوالي





الشكل رقم (٦)

عدد المهام المنجزة بالنسبة لجميع الاحداث في ضوء كل شرط تجريبي

وفق جميع الاهداف والنتائج ، كما صدرت بحقهم احكام قضائية بالحجر والوصاية . لقد عاش هؤلاء حياة بلهاء ، وكانوا غير قادرين غالباً على خدمة انفسهم بأي شيء . جادل ايلون وأزرين على نحو مناقض تماماً لوجهات نظر الطب النفسي التقليدية ، واعتبر أن معظم خصائص سلوك هؤلاء المرضى لم تكن نتيجة عملية « مرضيّة » ، بل هي ناجمة عن اجراءات علاج الطب النفسي ذاتها . فجداول التعزيز المستخدمة في هذا النوع من العلاج ، قد اكدت لدى المرضى صفة السلبيّة والتذمر والسلوك غير السوي ، كما اكدت اشكالا اخرى من التصرفات غير المرغوب فيها ، وذلك بتعزيز هذه التصرفات عبر توجيه الاهتمام الزائد إلى المرضى الذين يسلكون وفق هذه الاساليب ومن جهة اخرى ، تم تثبيط النشاط والاستقلال والسلوك السوي عموماً ، لأن هذه الانماط السلوكية لم تؤد إلى أي نوع من الاستجابات الايجابيّة التعزيزية . لذلك ، رأى ايلون وأزرين أنه بعكس هذه العمليّة ، وباستخدام اجراءات التعزيز الايجابي في تعزيز السلوك التكيفي المناسب ، يستطيعان اظهار « سويّة » المرضى الكامنة . وحاولا تنفيذ هذه الاجراءات بتأسيس نظام « اقتصاد رمزي » شبيه إلى حد ما بالنظام الموصوف سابقاً ، والاندماج في اداء اعمال مفيدة في مطابخ المستشفيات واماكن الغسيل والكي . . . الخ . وكذلك استخدام بعض المهارات البسيطة (مثل قيام المريض بتناول طعامه بنفسه والاعتناء بنظافة ملابسه وجسمه) . لقد شكل الباحثان اسلوبهما العلاجي العام ونتائجه على النحو التالي : ملاحظة انماط الاعراض المتطرفة التي تتبدى لدى بعض مرضى المستشفى العقلي ، حيث يقولان بهذا الصدد

« ان احد اساليب التعامل مع المرضى ، هو تطبيق علاج خاص على هذه الاعراض . وكان التأكيد على الجوانب الايجابية لسلوك المريض ، هو الفلسفة العامة التي انبثقت عن جهودنا . بذلنا كل محاولة في سبيل جعل البيئة الكلية قادرة على تمكين المرضى من تشكيل انماط من السلوك الوظيفي البناء ، تاركين مشكلة ازالة حذف الاغراض المتطرفة إلى وقت لاحق . وتبيّن على نحو مذهل أنه حالما تكون الاجراءات المتبعّة فعالة من حيث تأسيس السلوك الوظيفي ، فإن العديد من السلوكات العرضيّة المتطرفة تزول وتتعذر دراستها . ليس في مقدور الفرد هنا إلا التأمل فقط ، ولكن يبدو أن السلوكات العرضيّة ذات الطبيعة التمزيقية الشديدة ، قد انخفضت او زالت لأنها لاتستطيع أن توجد جنباً إلى جنب مع السلوكات الوظيفيّة . لقد تبيّن في بعض الحالات ، أنه لايمكن علاج بعض الاعراض السلوكية ، مثل السلوك العدواني والسرقة (وهو سلوك عرضي دائم) ، إلا بعد تأسيس سلوكات وظيفيّة . تمثل الاجراء العام لدى معالجة احدى المريضات بتزويدها بفرص اضافية للانهماك في سلوك بناء والحصول على امتيازات اضافيّة عندما تبدي قصارى حريتها . يستحيل انجاز مثل هذا الاجراء طبعاً ما لم تكن المريضة منهمكة على نحو فعال في هذه النشاطات الوظيفيّة ، مستفيدة من الامتيازات العديدة المتوافرة . ويمكن تلخيص الفلسفة العامة للاجراء المتبع هنا ، بأنها عملية ازالة جوانب السلوك السلبيّة من خلال التأكيد على جوانبه الايجابية » .

وصفت الصعوبات التي واجهها الباحثان والنجاحات التي انجزاها على شكل تمثيلات بيانية في الكتاب المذكور ، وسنكون خارج

نطاق بحثنا إلى حد بعيد إذا تناولنا هذه الصعوبات والنجاحات بالتفصيل ولكن احد الامور البادية للعيان والاكثر اثارة وتبشيراً بالنجاح ، هو ما نشأ عن اجراءات العلاج السلوكي في مجال البؤس الانساني المحبط والمثير للشفقة والألم . من الواضح أن شيئاً هاماً قد حدث عندما ترى أن الناس الذين عاشوا حياة بلهاء لفترة طويلة ، وكانوا في حاجة إلى دعم وعون دائمين في كل شيء فعلوه ، قد اصبحوا على نحو مفاجيء فعالين معتمدين على انفسهم ، بل وقادرين على مغادرة المستشفى وممارسة حياة مستقلة خارجها . اننا نعرف على نحو جيد جداً ما المصير العادي الذي ينتظر مرضى الطب النفسي المحكومين بالحجز والوصاية ، لذلك ليس هناك ادنى شك في ان برنامج « الاقتصاد الرمزي » هو المسؤول عن التغيرات التي طرأت على هؤلاء المرضى . وان امكانيات توسيع نطاق تطبيق هذا النمط من العلاج على المزيد من هذا النوع من المرضى (الذين يشغلون في الواقع حوالي نصف اسرّة المستشفيات جميعها في بريطانيا العظمى !) قد اصبحت جذابة على نحو بالغ . سوف لن اسهب في الحديث عن الاعتبارات الانسانية المتعلقة بتطبيق تكنلوجيا العلاج السلوكي ، فقد يكون معظم القراء قادرين على تخيل الفرق الذي يمكن أن يحدثه علاج من هذا القبيل عند المرضى المتأثرين به . ولكن دعني اذكر فقط النتائج الاقتصادية المترتبة على جعل عدد كبير من هؤلاء المرضى قادرين على الاعتماد على انفسهم بشكل فعال ، داخل المستشفى او خارجها . يتمنى الفرد أن يتخيل (شريطة أن يكون يافعاً وبريئاً على نحو كاف) أن اداريي المستشفى ، وموظفي قسم الصحة ، والآخرين المعنيين بهذه المشكلات

وهم يقومون على الفور بتأسيس تجارب عديدة محكمة الضبط ، لتحديد إلى أي مدى يمكن استخدام هذه الطرق في هذا القطر — بريطانيا — وكيف يمكن استخدامها في تخفيف العبء الضخم الذي يلقيه مرضى من ذلك النوع على كاهل الخدمة الصحيّة الوطنيّة .

ان الأفراد الاكبر سناً والأكثر تجربة ، هم اكثر واقعية وقادرون على التنبؤ بالوضع الحقيقي للمشكلات . فنشر هذا الكتاب والعديد من المقالات العلميّة الأخرى التي تناولت هذا الموضوع ، لم يحدث استجابة أكبر من الاستجابة التي يحدثها القاء حجر في مستنقع آمن من اليأس والقنوط . وكما هي الحال دائماً ، ما من احد يعير انتباهه وما من احد يريد أن يعرف ، وما من احد معني بذلك . ولا من استجابة للامكانيات المثيرة التي يمكننا من مساعدة اناس مضطربين على نحو شديد وتعساء بشكل عميق . ولااستجابة للامكانيات الهامة التي تمكننا من توفير ملايين الجنيهات التي يمكن استخدامها على نحو اكثر فائدة في ميادين اخرى للصحة النفسيّة والجسمية . فالاداريون يتنقلون في دوائرهم المحتومة ، والمحللون النفسيون يتشبثون بنظرياتهم القديمة غير المفيدة ، والمرضى يستمرون في المعاناة ، ومن تترتب عليه الضريبة يستمر بالدفع . لقد كان امرسون مخطئاً على نحو واضح عندما قال بأن جميع ما يترتب عليك عمله هو تصميم مصيدة افضل ، وسيشق الناس سبيلهم إليك — ان الاهتمامات الراسخة لأصحاب مصانع مصائد الفئران وبائعيها سوف تضمن لهم الامور التالية على نحو فعال . (أ) ما من احد سوف يعرف عن اختراعك الجديد . (ب) وأية تفسيرات ستكون متحيزة او غير مفهومة . (ج) ولن يتخذ اي عمل

مهما كانت المصيدة الجديدة واعدة . (د) وسيكون الجمهور على يقين من أن المصائد الموجودة هي اكثر المصائد التي يمكن تخيلها كمالا . تقول بأننا نريد شفاء الناس المرضى عقلياً ، ولكن يصعب تخيل صدق هذا القول فعلا . من المؤكد أن اهتمامنا الأول ليس الحفاظ على الفجوى المطمئن لطرقنا ، فما من اختراع يجب أن يعاني من التدخل بما هو قائم دائماً او بما سوف يقوم . ان تكنولوجيا عالم النفس السلوكي بعيدة جداً عن الكمال ، ومن الطبيعي أنها في حاجة إلى بحث علمي اعمق يضيف برهاناً وتحسناً جديراً بالاهتمام . بيد أن الدليل المؤيد لها هو على درجة من القوة بحيث تستحق شيئاً أفضل من الاهمال الكلي الذي ترتب على مصيرها مواجهته .

من الطبيعي ان استخدام تلك الاساليب ، مثل اسلوب « الاقتصاد الرمزي » ، ليس محدداً بالذهانيين والمتحرفين فقط . فإذا كان التعزيز هو المبدأ العام الذي تدعيه نظريات التعلم حقاً ، فعندها سيكون مفيداً ولا مفر من استخدامه فعلا في الشؤون الانسانية جميعها . لقد انجزت تطبيقات عديدة ، ونشرت نتائج واعدة ، بيد أنني سأقتصر هنا على ذكر احد هذه التطبيقات على ما يمكن دعوته بالمشكلات الانسانية « السويّة » . كان الزواج هو ميدان هذا التطبيق ، وبتعبير اكثر دقة ، تناول التطبيق الزواجات التي بلغت مرحلة الانهيار . أسس التطبيق على افتراضين بعيدي المدى إلى حد ما . يشير الافتراض الأول إلى أن « نمط التفاعل الصحيح الذي يجري بين الزوجين في اية فترة من الزمن ، هو الأكثر اثابة من الابدال المتوافرة جميعها » . لذلك سنعنى بأعمال « ستورت » (R.B. Stuart) في هذا الميدان . يشير

ستورت إلى هذا الافتراض قائلا : « عندما يفشل زوج بشكل مستمر في ترك اصدقائه لقضاء الوقت مع زوجته ، فيمكن الاستنتاج حينئذ بأن اصدقاءه يزودونه بإثابات اكبر نسبياً مما تزوده به زوجته من اثابات » . اما الافتراض الثاني فيشير إلى أن « معظم الراشدين المتزوجين يتوقعون التمتع بعلاقات متبادلة مع ازواجهم » . حددت هذه العلاقات المتبادلة بحيث تعني أن لكل طرف من اطرافها حقوقاً وعليه واجبات وهذا ينطوي بدوره على تضمين سلوكي مفاده أن على كل طرف في هذا التفاعل أن يوزع التعزيز الاجتماعي بمعدل منصف . » حيثما يقوم احد الشريكين في التفاعل بإثابة الشريك الآخر من جانب واحد فإنما يفعل ذلك وهو على ثقة بأنه سيعوض بالثمن المناسب في المستقبل » . وعلى سبيل المثال ، إذا وافق الزوج على استضافة والدي زوجته في اجازة نهاية الاسبوع ، فهو يفعل ذلك متوقعاً أن ترافقه زوجته مستقبلا في قضاء اجازة نهاية الاسبوع في رحلة لصيد السمك » . وطبقاً لوجهة نظر ستورت « تتطور هذه التبادلية نتيجة تاريخ تعزيز ايجابي وثمة دليل تجريبي على ان الناس اكثر انجذاباً نحو الآخرين ، واكثر تعزيزاً لهم ، إذا كان هؤلاء الآخرون قد قاموا بتعزيزهم على نحو مسبق » . ولدى تقويم الزواجات المضطربة في ضوء فرضية التجاذب التعز زي هذه يتبين أن كل زوج يعزز الزوج الآخر بمعدل منخفض . لذلك ، يكون كل منهما غير منجذب نسبياً نحو الآخر ولا يلقى التعزيز من جانبه . يؤدي هذا الرأي إلى افتراض مفاده « لكي يصار إلى تعديل تفاعل زواجي غير ناجح ، من الضروري تطوير قدرة كل زوج على تحقيق الاثابات للزوج الآخر» . وهكذا . يتوافر لدينا قانون لتطوير زواجات سعيدة، واسلوب لتحسين زواجات غير سعيدة .

وعندما تؤدي لعبة التعزيز المتبادل إلى مستوى منخفض جداً من الاثابة ، فمن المرجح أن يتطور الاكراه او الانسحاب . « يسعى احد الزوجين في حالة الأكراه إلى الحصول على التعزيز الايجابي من الآخر عوضاً عن التعزيز السلبي » — وربما عوضاً عن توقف التعزيز السلبي . وعلى سبيل المثال ، انظر في حالة زوج يريد من زوجته أن تظهر حياله عاطفة اكبر وطاعة جنسية اكثر ، ولكن دون تزويدها بالنعزيز الذي سيؤدي إلى انتاج الاستجابة المرغوب فيها . من المرجح أن يستجيب الزوج عندئذ لرفضها بأن يغدو اعتسافياً ، فيتهم زوجته بأي شيء ، بدءاً بالبرود الجنسي وانتهاء بالخيانة . وسيصبح ايقاف هذه الدافعية المؤذية ، مشروطاً بتلقيه للعاطفة المطلوبة . ان هذا السلوك هو اسلوب اخرق وغير قابل للنجاح على الاطلاق . ويمكن ملاحظته مراراً في عملية السير نحو شفير الهاوية في الزواجات غير السعيدة . وهكذا امر الانسحاب ايضاً ، اذ يؤدي في معظم الحالات إلى اكتشاف مصادر التعزيز الاخرى ، من شرب الكحول وحتى معاشرة الخلالات ، ومن تعاطي المخدرات وحتى معاشرة العشاق . يطلب كل زوج في الزواج غير السعيد تعزيزاً من الآخر ، بيد أنه غير راغب هو في تقديمه للآخر . والمطلوب هنا ، هو الادراك بأنه يجب على كل شخص وقبل توقع احتمال أن يسلك الزوج باسلوب مرض — أن يتحلّى هو نفسه بسلوك تعزيزي ، وبذلك يكتسب بعض اشكال الضبط على قدرة قيام الآخر بتقديم التعزيزات . ان الزوجين كلاهما غير قادرين على اتخاذ الخطوة الاولى أثناء الورطات الانفعالية الواضحة . وهنا تكمن مهمة عالم النفس المتمثلة في وضع حد لهذه الورطات المستحكمة وفطم

شركاء الزواج عن سلوكهم الطفلي . يوصى ستورت لانجاز هذا الهدف بتوضيح الوضع ، وادخال اجراءات الاقتصاد الرمزي ، حيث يصار إلى تقديم الاقتصاديات الرمزية لتعزيز السلوك وتعويضها بأنماط اخرى من السلوك التعزيزي . وفيما يلي الطريقة المؤدية إلى نجاح هذه الاجراءات .

يضع كل شخص ثلاثة انماط من السلوك يتمنى أن تتبدى لدى الشخص الآخر على نحو اكثر تكراراً . ومن الطبيعي أنه ينبغي أن تكون هذه الانماط السلوكية محددة بشيء من الدقة . فقول الرجل بأنه يريد من زوجته أن تكون اكثر « انوثة » لايفيد كثيراً ، طالما ظل هذا المصطلح غامضاً وغير محدد — من المسلم به ان احدى الصعوبات في هذا الصدد ، هي ان ما نعتبره الزوجة « انوثة » ، لايتفق مع ما يعتبره الزوج كذلك ؛ يعترض الناس في معظم الاحيان قائلين بأنه ينبغي لأزواجهم أن يعرفوا ما يريدون . اي لايجب اخبارهم بما هو مطلوب منهم . لكن الأزواج ليسوا مستبصرين ، وهم عادة اناس غير حساسين بعض الشيء حيال مشكلاتهم الخاصة ، وربما كانوا في حاجة فعلا إلى اعلامهم بما يترتب عليهم ، يتم بعد ذلك ادراج قائمة تتضمن انماط السلوك الثلاثة التي يترتب على كل زوج اداؤها ، ويطلب منهما معاً تسجيل عدد مرات تكرار ادائه لهذه الانماط السلوكيّة . وعندما يصار إلى تأسيس خط قاعدي لهذا السلوك « قبل العلاجي » ، يستطيع كل زوج الحصول على الاقتصاديات الرمزية من الآخر نتيجة اداء السلوك المرغوب فيه ، وتعوض هذه الاقتصاديات وفق نظام أعدّ على نحو مسبق من اجل تعزيز اداء الزوج الآخر لسلوك آخر مرغوب

على نحو مسبق من أجل تعزيز اداء الزوج الآخر لسلوك آخر مرغوب فيه . ان القاعدة فجّة إلى حد ما طبعاً ، بحيث يمكن أن تبدو على النحو التالي : « يمكنك التحدث معي إذا اتيت إلى المنزل لمدة ساعة على الأقل وسأدعك تمارس الحب معي في هذه الليلة » . قد تبدو العمليّة بمجملها سخيفة بالنسبة للملاحظ ، بيد أن الملاحظين هم عادة اناس فصيحون ذوو ذكاء مرتفع ، ولايستطيعون ادراك العوائق اللفظيّة التي تحول دون تمكين الناس العاجزين عن الافصاح اللفظي من التواصل مع بعضهم.ان قوائم كتلك التي تم وصفها تؤثر على نحو ما في تسهيل التواصل واداء السلوكات المرغوب فيها ، وتحدث تعزيزات ايجابية متبادلة ، مهما كانت الوسيلة التي احدثتها صنعيّة .

لم نستشهد بهذا المثال لتبيان اسلوب ناجع في منع انهيار الزواجات ولكن ثمة دليل بسيط على الفعالية لايمكننا من القول اكثر من أنه في حالات قليلة منفصلة ، وربما شاذة ، بدا هذا الاسلوب فعالا في الزواجات التي بلغت مرحلة الانهيار . كما اننا لاندعي بأن جميع الأفكار المؤسسة له هي اصيلة . فالعبارة القائلة « عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك » ليست امراً جديداً . وانما هي بالاحرى ترجمة لهذه العواطف الاخلاقية الغامضة إلى نوع من البرنامج التكنولوجي من اجل عمل يجعل منحى عالم النفس السلوكي هاماً إلى حد بعيد . والنقطة الاخرى الجديرة بالاهتمام في هذا المجال هي مضاهاة تكنولوجيا عالم النفس السلوكي بالنوع اللفظي العادي المحض للنصح الذي يقدمه مرشدو الزواج . ان تجربة عيادية تهدف إلى تحديد فعالية هذين الاسلوبين ستكون على درجة كبيرة من الأهميّة . من غير المرجح طبعاً أن يكون

اي من هذين الاساوبين فعالا في نزاعات الزواج جميعها . ومن المحتمل أن تكون نسبة ضئيلة فقط من الحالات ، هي التي يمكن الرجوع إليها في هذا الصدد . وعلى أية حال ، إذا كان في مكنة الزوجين التفكير وفق هذه التوجهات قبل وصول زواجهما شفير الهاوية ، فإن امكانيات توافر الدلائل على نهاية سعيدة ، يمكن أن تكون اكثر اشراقاً .

ثمة ميدان واحد غدت فيه تكنولوجيا عالم النفس السلوكي معروفة على نحو اكثر اتساعاً إلى حد ما ، حيث تم فيه انجاز بداية البحث العلمي المطلوب ، والذي عن طريقه فقط ، يمكن جعل هذه التكنولوجيا مستخدمة بشكل واسع . يعنى هذا الميدان بما يدعى بالآلات التعليميّة او التعليم المبرمج » . وقد يؤدي بحث مختصر في هذا التطور الجديد إلى انهاء الفصل الراهن بشكل مناسب .

يشير سكنر ، عالم النفس الاميركي الشهير إلى أنه « من النادر ما كان اي مجال من مجالات النشاط الانساني اكثر مقاومة للتحليل العلمي والتغير التكنولوجي من مجال التعليم . . . فالاساليب التي يفترض في المعلم استخدامها في نقل المعرفة إلى غرفة مليئة بالتلاميذ نادراً ما تغيرت اطلاقاً » . وبالفعل ، هناك عدد من المقالات المقنعة تشير إلى وجود انحطاط في فعالية التعليم خلال العقود الثلاثة او الاربعة الماضية » . وثمة شك ضئيل في كون سكنر على صواب ، إذا ما تحدثنا بشكل عام . فمن المسلم به أن هناك بعض التغييرات الثانوية التي طرأت على تلك الاساليب . ولقد لجأت بعض المدارس إلى استخدام

سبورات خضراء بدلا من السبورات السوداء التقليدية ، وربما كان استخدام هذه المدارس انصف ساعة تلفزيونية بين الفينة والاخرى في مساعدة تدريس تلاميذها ، هو الأمر الأكثر مجازفة . لم تجد حتى هذه التقدمات البطيئة موطىء قدم في الجامعات ، حيث ما زال التدريس فيها يعتمد حصراً على المحاضرات وحلقات البحث والدروس الخصوصية الفرضيّة و « الدراسة الشخصيّة » من الكتب المقررة . ان الطالب الجامعي المنقول على نحو خارق من عام (١٦٠٠) إلى جامعاتنا الحديثة ، سيشعر بأنه على اطلاع تام بالمعرفة ، في حين يشعو الطالب الذي شارك في حوارات سقراط بأثينا أن معيار التعليم قد انحط على نحو كبير .

هناك طبعاً العديد من الاشياء الخاطئة في النظام التربوي الذي نعمل به ، والذي يمكن تحسينه دون اية ثورة جذرية . اننا نختار المدرسين الجامعيين دون اي رجوع إلى قدراتهم التعليميّة ، ودون تزويدهم بأي تدريب على التدريس الذي يعتبر رغم كل شيء مهنة معقدة عالية المهارة . اقد صدرت شكاوى حديثة عن طلاب جامعتين من الجامعات المحلية الشهيرة وانكلترا ، ضد المعيار المنخفض لالقاء المحاضرات . ووجدت هذه الشكاوى صدى في العديد من الجامعات الأخرى ، وتبيّن دون ريب كبير أن المعدل المتوسط منخفض على نحو يبعث على الاسى . ولكن لو كان محاضرونا جميعهم اكفاء ، وتلقوا تدريباً مناسباً في اساليب التدريس ، فهل سيؤثر ذلك بشكل كبير جداً في قابلية تطبيق العبارة القديمة القائلة « حقائق تنتقل من مذكرة المعلم إلى مذكرة الطالب دون أن تمرّ عبر عقل

- ثمة مشكلة اخرى يمكن حلها ايضاً — من حيث النظرية على الأقل بيد أنها تفيد في جميع جهودنا من حيث التطبيق — وهي طبعاً مشكلة النقص في المعلمين . فهل يمكن لأي نظام تربوي أن يعمل على نحو فعال في مدرسة قد يجب على المعلم فيها أن يصغي في أية لحظة من وقت الدرس لاطفال يتراوح عددهم بين ثلاثين وخمسين طفلا ، او في جامعة يلقي الاستاذ فيها محاضرة على مجموعة مكونة من الف طالب ، سرعان ما يمضون خارجين فقط لكي يحل محلهم الف طالب آخر يتلقون المحاضرة ذاتها ثانية ؟ ان العلاج الواضح لمسألة تدريب المزيد من المعلمين والاساتذة سوف يصطدم بصعوبات التحويل (لكي تجذب مزيداً من الناس إلى مهنة ما ، عليك أن ترفع رواتبهم) ، وصعوبات توزيع القدرات النادرة (اذا انخرط اشخاص ذوو ذكاء مرتفع في مهنة التعليم ، فسنخسرهم في مجالات اخرى ربما تكون على القدر ذاته من الأهميّة) .

تلك هما المشكلتان المحدقتان بنظامنا التربوي ، فما نقوم به ، لانقوم به على نحو جيد ، وانما نمارسه في ظل ظروف لامجال فيها لأية امكانية لأدائه على نحو حسن . بل واكثر من ذلك ، ان المحكات المناسبة لما يعنيه مصطلح « الأداء الحسن » بشكل واقعي ، ليست متوافرة لنا ، كما لاتتوافر لدينا معلومات علميّة حول كيف يمكننا الشروع في تحسين الامور . لقد ذكرت امكانية « تدريب » المعلمين الجامعيين على فن التعليم ، ولكن قد يكون المرء متفائلا جداً بحيث يتصور أن في مكنة اي فرد معرفة ما يجب تعليمه فعلا . من المؤكد أن ثمة جوانب سلبيّة معيّنة واضحة . فبعض الناس يتمتمون ويتكلمون

على نحو غير مسموع ، بحيث لايستطيع احد الاستماع اليهم . ولدى بعض الناس عيوب جسميّة لاتمكنهم من التعليم . لقد قاسيت انا نفسي في احدى المرات ولعام دراسي كامل من استاذ لتعليم اللغة اللاتينية . كان هذا الاستاذ مصاباً بشق خلقي في سقف حلقة جعل فهم اية كلمة ينطق بها امراً مستحيلاً ، وكانت المحاضرات اجبارية طبعاً ! ولاينجز بعض المعلمين مهامهم المدرسية ، وما يتفوهون به ليس مفهوماً . تشكل هذه الامور جميعها امراضاً واضحة تماماً ولكن هل نعرف فعلا الاجابات حتى عن تلك الأسئلة الأكثر بدائية عندما يتطلب الأمر نصحاً اكثر ايجابية ؟ لقد غدت الاجابة عن هذا السؤال على أقل تقدير امراً معروفاً ، وهي بالنفي طبعاً .

قد يؤدي البحث العامي في بعض هذه المشكلات إلى تحسين الوضع ، ولكن من المشكوك فيه ما إذا كان في استطاعة البحث العلمي اصلاح الوضع على نحو شديد . ان المطلوب ، كما يجادل العديد من علماء النفس ، حصام تام مع التقليد ، اي ثورة مناسبة في الميثودلوجيا التعليميّة . ونوقش علاوة على ذلك ، ان الاختراق الاساسي للتقليد قد تم انجازه فعلا ، وأن جميع ما يعترض سبيل التقدم الآن ، هو سوء الفهم المتشكل هروباً ، والرأسية العاطفيّة الخاطئة ، ومجموعة الاتجاهات التقليدية العادية . فما هي الحقائق إذن ؟

وكما يحدث غالباً ، فقد بدأت الثورة بصوت ضعيف جداً نادراً ما يسبب موجة صغيرة من الاهتمام ، وذلك عندما صمم سيدني بريسي في منتصف العشرينات من هذا القرن بشائر الآلاتنا

التعليميّة الاتوماتيكية الحديثة . نشأت هذه الآلات من عمل بريسي في مجال التقنيات الموضوعية لحساب الدرجات ، والتي تشكل جانباً كبيراً من حركة الامتحانات الاميركية واختبارات الذكاء . ان الاختبارات المقاليّة وانواع الاختبارات التقليدية الأخرى ، تغدو غير فعالة وتستغرق وقتاً كبيراً إذا كان يجب اختبار الآلاف بل الملايين من الناس — ناهيك عن أن تصحيح هذه الاختبارات غير موثوق إلى حد بعيد . فلقد تبيّن في كثير من الاحيان أنه عندما يقوم مصححون منفصلون بتصحيح مجموعة اوراق الامتحانات ذاتها ، تكون علامات هؤلاء المصححين متباينة على نحو واسع جداً ، بحيث يحدد نجاح الطلاب او فشلهم على نحو متواتر تماماً بالشخص المصحح اكثر من تحديده بمعرفتهم او قدرتهم الواقعيّة . ربما يتذكر القراء تلك الحالة الحديثة حين قامت احدى المدارس المقدامة بتعريض اطفالهم لامتحانين مختلفين ، ولكن على افتراض انهما متكافئان ، وادارتهما سلطتان مختلفتان . اتضح انه لايوجد تطابق تقريباً بين حالات النجاح والفشل في هذين الامتحانين ، كما لم يكن هناك تطابق من حيث الاعداد الواقعية لحالات النجاح والفشل . وعلى الرغم من أن لامتحانات النمط الموضوعي صعوباتها ومعوقاتها الخاصة بها ، إلا أنها موثوقة تماماً على اقل تقدير . وإذا بنيت على نحو مناسب فستكون اكثر صدقاً من اختبارات النمط المقالي ، وبخاصة عندما تكون المجالات موضوع الاختبار هي المعرفة وليست القدرة على كتابة المقالات .

يطرح اختبار النمط الاميركي النموذجي سؤالا مزوداً بعدة اجابات واحدة منها صحيحة فقط. ويجب على الطالب ان يحدد أياً

من الاجابات هي الاجابة الصحيحة . ونورد فيما يلي وعلى سبيل المثال فقرة نموذجية لاختبار من هذا النمط :

– اول من ابتكر الآلات التعليميّة هو :

أ – سكنر .

ب – فرويد .

ج – بريسي .

د – ايزنك .

(ضع خطاً تحت الجواب الصحيح)

اضاف بريسي إلى عمله عنصراً حول هذه الآلات إلى آلات تعليميّة ، حيث استفاد من مبدأ سيكولوجي هام جداً مفاده أن معرفة النتائج هي مظهر جوهري في التعليم . ولقد برهنت التجارب ، كتجارب ثورندايك ، صحة هذا المبدأ مراراً . عرض ثورندايك على افراد تجاربه خطاً ذا طول معيّن ، وطلب منهم اعادة رسم هذا الخط مئات المرات اعتماداً على الذاكرة . بيّن ثورندايك أن قدرة الأفراد على اعادة رسم الخط بالطول ذاته لم تتحسّن ، ولكن عندما زودهم بمعلومات بعد اية محاولة تبيّن ما إذا كان الخط المرسوم اطول بكثير من الخط الاصلي ، او اقصر منه بكثير ، او مكافىء له تماماً ، فقد تعلموا على نحو سريع جداً . ان احد المظاهر الاساسية للامتحانات جميعها ، سواء كانت من النمط المقالي ام النمط الموضوعي هو الفشل في ايصال اية تغذية راجعة فورية للطالب . قد يعرف الطالب طبعاً بعد ايام او اسابيع او حتّى شهور ، بأنه قد نجح او فشل

في الامتحان ، غير أنه لايملك سبيل ربط هذه المعرفة بالفقرات الفردية التي اجاب عنها بشكل صحيح او خاطىء . الذلك لاتسهم الاختبارات المطبقة بالطريقة العادية في تحسين عملية التعليم . لقد غير بريسي هذه الطريقة باستخدام آلة يماثل حجمها حجم آلة كاتبة صغيرة تقريباً ، تقوم بعرض سؤال مشابه للسؤال الآنف الذكر عبر نافذة صغيرة فيها . يجب على الطالب بعد قراءة السؤال أن يضغط على واحد من اربعة مفاتيح مطابقة لمواضع الاجابات الاربع — فإذا ضغط المفتاح الصحيح ، تتحرك لفافة المادة الموجودة خلف النافذة وتزود الطالب بالسؤال التالي . أما إذا ضغط على المفتاح الخاطىء ، فسيبقى السؤال ماثلا امامه حتى يتمكن من الضغط على المفتاح الصحيح وبهذه الطريقة ، لم يختبر الطالب معرفته فحسب ، بل يكتسب معرفة جديدة . اهتم نفر قليل من الناس بالامكانيات الملازمة لهذه الآلة ، وقاموا بمقارنة كفاءتها التعليم الصفي العادي . لقد بينت المقارنة ان النتائج التي تم انجازها باستخدام الآلة ، كانت متفوقة على النتائج المنجزة بالتعليم الصفي العادي .

ومع ذلك ، ولأسباب لايمكن أن تكون إلا موضوعات للتأمل ، لم تنتشر اعمال بريسي فيما بعض الدراسات المنفصلة هنا وهناك . وبقي الوضع على حاله حتى اواخر الخمسينات ، حيث بدأ آنذاك بالتغير .

ربما حدث التغير لسببين . ففي المقام الأول ، لم يعمل بريسي على ايجاد مجموعة نظريات مناسبة مفحوصة في المختبر على نحو دقيق بحيث يمكن استخدامها في بناء برنامج لآلالته ، وتعمل على توجيه

عمله إلى مجموعات علماء النفس للنظريين والتجريبيين على نحو جدير بالاحترام . وفي المقام الثاني ، لم يتمتع بريسي بنمط الشخصيّة الصليبيّة الوطيدة العزم ، والتي تبيّن في كثير من الاحيان أنها ضرورية لدفع التطورات الحديثة في عالم بغيض غير شكاك ، وعدائي مرتاب على نحو كامن . لقد كان سكنر هو الشخص الذي ترتب عليه ان يفعل ذلك كله . لقد قاد سكنر ، انطلاقاً من مركزه المتميز في جامعة هارفارد ، حملة ناجحة جداً لجعل الآلات التعليميّة مصطلحاً مألوفاً في الدوائر التربوية بأميريكا .

ان فهم ما قام به سكنر ، يحتاج إلى فهم شخصيته واتجاهه العام حيال الحياة ، يعتقد سكنر بشكل قوي جداً بأن علم النفس يمسك مفتاح اي تقدم وتحسن في نوعية الحياة الانسانية . ويمضي ابعد من ذلك ، حيث يعتقد أن جميع التغيرات تحدث عبر عملية الاشراط (سنعود إلى هذه العملية بعد قليل) ، والمطلوب هو ايجاد القوانين الاساسية للاشراط وتطبيقاتها العمليّة على الشؤون الانسانية . لقد ذهب سكنر إلى حد التنبؤ بنوع من اليوتوبيا الاشراطية في رواتيه « وولدن الثانية » . سوف يستثير هذا العنوان عواطف غريبة في قلوب اولئك الذين هم على إلفة بوولدن الاصليّة لثوريو ! إن كتاب « وولدن الثانية » جدير بالقراءة ، لأنه تمثيل شعبي مبسط لحقائق ونظريات معينة في علم النفس الحديث ، ويشمل البحث في الشؤون والمشكلات العمليّة .

استفاد سكنر من الحصيلة المعرفية التي اكتسبها خلال ثلاثين سنة من العمل التجريبي العلمي على الحيوان ، وشرع في تحدي اختبار

الآلات التعليميّة ، اي بتطبيق اجراءات « التشكيل » (Skaping) على التعلم الانساني : صاغ سكنر في البدء هدف الآلة التعليميّة بقدرتها على « التعليم بشكل سريع كلي نشط لجزء كبير مما نعلمه الآن على نحو بطيء غير تام ، وبجهد ضائع من جانب الطالب والمعلم على حد سواء » . ولانجاز هذا الهدف ، انحرف سكنر بطرق هامة عديدة عن مخطط بريسي الاصلي ، وتتمثل هذه الطرق في :

اولا ، يوجه سكنر اهتماماً ضئيلا لمعرفة النتائج ، اعتقاداً منه بأن هذه المعرفة لاتغدو هامة إلا بفضل التعزيز الذي ينتجه الحل الصحيح عند الطالب . وبتعبير آخر ، يفترض سكنر أن الاشارة التي تخبر الطالب بأنه على صواب ، هي مكافئة بطريقة ما لحبوب القمح التي تحث الحمامة على اداء الاستجابة . يصعب اثبات هذا الافتراض ، إلا أنه يشكل اساس منحى سكنر .

ثانياً ، ان التأكيد على « طبع » المعرفة في عقل الفرد عبر التعزيز يجعل عملية تقديم التعزيز على نحو متكرر امراً مرغوباً فيه . وتبعاً لذلك ، يؤكد سكنر على بناء برامج تعلم تتقدم بخطوات صغيرة ترافقها أسئلة يتمكن الطالب المتوسط من النجاح في الاجابة عنها باستمرار تقريباً . ان مثالنا البسيط عن الذي مهّد سبيل ابتكار الآلات التعليميّة ، سوف يظهر أنه تم انجاز هذا الاجراء ، ففي الوقت الذي يصل القارىء فيه إلى هذه الفقرة ، يكون قد تلقى معلومات كافية للاجابة عنها بشكل صحيح .

ثالثاً ، يعتقد سكنر أنه ينبغي تجنب تقديم الاجوبة الخاطئة مهما

كلف الأمر ، وهذا يؤدي إلى الاستنتاج السابق ذاته ، « ان قدر على تذكر الوقائع الخاطئة مشهورة — نتذكرها لأننا قرأناها في مكان ما — ، فكل جواب خاطىء في اختبار الاختيار من متعدد يزيد احتمال قيام الطالب في وقت ما بالتقاط الجواب الخاطىء من ذاكرته غير الكاملة عوضاً عن الجواب الصحيح » . يناقض هذا الاعتقاد تأكيد سكنر على التعزيز — فلماذا ينبغي للطالب أن يكون قادراً على تذكر شيء لم يتم تعزيزه ؟ ومع ذلك ، ان الاتساق المنطقي لم يقلق سكنر كثيراً . ومن المؤكد أن البرامج التي قام ببنائها تؤكد الخطوات الصغيرة ، والاداء الناجح المنتظم على كل فقرة تقريباً .

يعارض سكنر اسئلة الاختيار من متعدد ، ويفضل « ضرورة قيام الطالب بتكوين استجابته بدلا من اختيارها من بين مجموعة بدائل . يكمن احد اسباب هذا التفضيل في اننا نريد من الطالب يتذكر لاأن يميز ويتعرف فقط — ولجعل الاستجابة تبدو صحيحة ايضاً » . وهذه نقطة اختلاف سكنر الرابعة عن بريسي .

وطبقاً لما تقدم ، قام سكنر واتباعه ببناء وتجريب آلات تعليميّة تختلف عن الآلات التي استخدمت سابقاً . تقوم آلة سكنر التعليميّة بعرض سؤال ، ويكتب الطالب اجابته في الفراغ المناسب المخصص لذلك ، ثم يسحب عتلة تعرض الجواب الصحيح وتخفي في الوقت نفسه استجابته المكتوبة تحت لوحة من السيلولويد بحيث لايستطيع العودة إليها وتغييرها . وبعد قيام الطالب بمقارنة الاجابتين ومعرفة أنه على صواب ، يواصل التقدم إلى السؤال التالي ، ويكتب جوابه في الفراغ . . . وهكذا . لقد بنى سكنر ايضاً آلات تعليميّة اكثر

تطوراً وتمتاز بمرحلتين ، حيث يكتب الطالب فيها استجابته ، ثم لايقوم بالكشف عن الاجابة الصحيحة ، بل بالكشف عن معلومات اضافية تمكنه عند الضرورة من تصحيح اجابته قبل الكشف عن الجواب الصحيح .

لقد استخدم سكنر هذه الآلات التعليميّة فعلا في تعليمه لمادة علم النفس في جامعة هارفارد ، ويعتقد أن الطلاب « يحبون الآلة » ويقولون بأنهم « تعلموا منها اكثر مما تعلموه بالطرق المألوفة ، في وقت اقل وجهد اقل » . ثمة دليل حسن متوافر في الدراسات المنشورة يشير إلى أن هذه النتائج عامة تماماً . فالطلاب والاطفال على حد سواء ، قد اصبحوا مفتونين بالآلات التعليميّة ويحبذون استخدامها ويجدون العمل معها اسهل من حضور المحاضرات او قراءة الكتب ، كما يتعلمون بها اكثر مما يتعلمون بأية طريقة اخرى في فترات زمن متساوية .

لقد شرع الكثير من الباحثين الآخرين بتناول هذا الموضوع في السنوات الاخيرة ، ولكن لم يتبع جميعهم سكنر في تحليله النظري او اساليب برمجته العمليّة . هناك ما يسمى على سبيل المثال باسلوب « التفريع » ، حيث تكون الخطوات فيه من سؤال لآخر اكبر نوعاً ما ، الامر الذي يؤدي إلى حدوث مزيد من الاخطاء . ووفقاً لهذا الاسلوب ، يتفرع البرنامج كلما كانت الاجابة عن السؤال خاطئة بحيث يعود الشخص المؤدي للاجابة الخاطئة إلى سلسلة من الخطوات التي سوف تمكنه في نهاية المطاف من اداء الجواب الصحيح . وعندئذ

فقط يمكنه معاودة بالاتصال بالبرنامج الرئيسي والاستمرار في التقدم إلى السؤال التالي . يتمتع هذا النمط من البرامج بميزة تمكن الطلاب الأذكياء جداً من السير في التعلم قدماً بخطوات كبيرة ، مستفيدين من قدراتهم ، وبعيدين عن الملل الناتج من الخطوات الصغيرة جداً و والاسئلة المتكررة . اما الذين ليسوا على هذه الدرجة من الذكاء ، فيمكنهم اعادة ما تقدم من خطوات باختصار حيثما كانوا مخطئين كما يمكن اعداد برامج لهم تناسب مستوى فهمهم على نحو خاص . ان تفضيل نوع من هذه البرامج ، يتوقف عادة على درجة التباين في الذكاء والمعرفة السابقة . . . الخ . الموجودة بين طلاب المجموعة المستفيدين من البرنامج . فإذا كان هؤلاء الطلاب متجانسين إلى حد بعيد ، فقد لاتكون هناك حاجة إلى البرامج التفريعيّة ، اما إذا كانوا غير متجانسين إلى حد كبير فستكون هذه البرامج ضرورة تقريباً . وما يجدر ملاحظته هنا وفقاً لوجهة نظر سكنر ، ان البرامج التفريعيّة سوف لاتعمل بشكل ناجح جداً ، لأن الاجوبة الخاطئة تتواتر فيها كثيراً ، غير أن الدليل لايوحي بأن هذا الامر يتدخل في التعلم بشكل كبير .

يخلص سكنر إلى أن « الآلات التعليميّة كالتي استخدمناها في جامعة هارفارد ، يمكن برمجتها لتعليم جميع الموضوعات كلياً او جزئياً ، والتي يتم تعليمها في المدارس الابتدائية والثانوية ، وكذلك تعليم الكثير مما يصار إلى تعليمه في الكليّة » . اعتقد أن الدليل يؤيد ادعاء سكنر ، كما يوحي بأنه مصيب في تفكيره بأن آلاته التعليميّة ستنفذ مهمة التعليم بشكل اكثر فاعلية ، وفي وقت اقصر مما يرغب فيه المعلمون الانسانيون حقاً .

دعني اضيف فوراً أن قيمة أية مقارنات تم انجازها ، هي محددة على نحو شديد ، وثمة اسباب عديدة لذلك . فمن الواضح في المقام الأول ، أن هناك معلمين جيدين ومعلمين سيئين ، كما أن هناك برامج جيّدة واخرى سيئة . ويصعب جداً في أية دراسة معيّنة معرفة ما إذا كان البرنامج موضوع المقارنة جيداً في نوعية جودة برامج اخرى ، وكذلك ما إذا كان المعلم موضوع المقارنة جيداً في اداثه التعليمي جودة معلمين آخرين . وفي الواقع ، يستطيع أن يقول الفرد تقريباً بأن الاجابة عن هذا السؤال غير متوافرة حالياً . ولكن جميع ما يمكننا قوله في هذا النسياق ، هو أن المعلم المتوسط ، لايؤدي عادة في ظل الشروط الراهنة ، ما تؤديه آلة تستخدم برنامجاً متوسط التفوق . قد لايعود ذلك بالضرورة إلى أي تفوق متأصل في البرنامج بل يمكن أن يعود إلى الاهتمام اوالدافع الناجم عن ادخال لعبة جديدة إلى المدرسة ، والسماح للاطفال باللعب بها . وبتعبير آخر ، ربما كنا نبحث هنا في نسخة معدلة لأثر « هاوثورن » الشهير . سوف تتذكر في هذا المجال أن علماء النفس الصناعي وجدوا أن التحسّن التدريجي في شروط العمل قد ادى إلى زيادة كبيرة في المخرجات نسبت في البدء إلى التغير في الشروط . ولكن تبيّن بعدئذ أن التحسن قد استمر في التقدم رغم أن شروط العمل قد تغيرت نحو الأسوأ هذه المرّة . وساد الاعتقاد عموماً بأن التحسّن راجع إلى تغير في اتجاه العمال ناجم بشكل كبير عن الاهتمام الشخصي الذي أبداه الباحثون حيالهم ! ربما يكون شيء من هذا القبيل فعالا على نحو جيد جداً حسب ما افادت به تجارب عديدة . ولكن تبيّن في حالات اخرى أن الآلات

التعليميّة قد استخدمت لفترة طويلة من الوقت بحيث تجعل ذلك التفسير (تفسير فعالية الآلة باتجاهات الطلاب نحوها) امراً غير مقبول .

لماذا إذن تعمل الآلة التعليمية على نحو افضل من المعلم ؟ ربما يكمن الجواب – وعلى نحو تناقضي كاف – في أن الآلة التعليميّة تنجز عملية التعليم بطريقة اقل شبهاً بالآلة . فالمعلم الذي يواجه صفاً مكوناً من خمسين تلميذاً ، او الاستاذ الذي يواجه صفاً قد يبلغ عدد طلابه مئات عدّة ، لاتتوافر لديه فرصة تلقي أية تغذية راجعة من اعضاء الصف الفرادى . قد يفهم الطلاب ما يقوله المعلم وقد لايفهمون ولن يتمكن من معرفة ذلك إلا في الامتحانات النهائية التي يعقدها . قد يوجه المعلم احياناً سؤالا إلى طفل او طالب معين ، وستزود الاجابة بدرجة من التغذية الراجعة وجزء ضئيل من التعزيز إذا كانت صحيحة . ولكن نادراً جداً ما يحدث ذلك بالنسبة لأي طفل او طالب معين ، الامر الذي قد يؤدي إلى اهمال الأهداف العمليّة جميعها .

اما في حالة الآلة التعليميّة ، فثمة اتصال « شخصي » مباشر . ان الآلة تجعل الطالب في حالة نشاط دائم ، ففي لحظة يتلقى المعلومات وفي اخرى يجيب عن الاسئلة ، ويفحص مدى دقة جوابه ، وينطلق عائداً إلى خط فرعي في البرنامج عندما ينم جوابه عن افتقار إلى الفهم ولايتقدم في تعلمه عموماً حتى يهضم المعلومات المطلوبة جميعها بشكل عام . يمكن في بعض البرامج الحديثة أن تدع (١٠،٠٠٠) فرد يتعلمون عن طريق استخدام الآلة بطريقة لا تمكن اثنين منهم من الاجابة عن الاسئلة ذاتها ! وبتعبير آخر ، تتوافر في هذه البرامج

درجة من القدرة على تفريد التعليم لمواجهة حاجات الطلاب ، الامر الذي لايمكن انجازه إلا إذا توافر معلم انساني واحد لكل طالب على حدة ، وحتى في حالة توافر معلم لكل طالب ، فمن المشكوك فيه ما إذا كان في قدرة اي كائن انساني أن يحافظ على هذا التفاعل المستمر طوال أية فترة من الوقت ، او أن يسير في انجاز التعليم بسلسلة خطوات مخططة على نحو علمي ، ومفحوصة بعناية في العديد من آلاف ساعات البرنامج .

ثمة في الواقع مظهر رائع آخر لتفاعل الانسان — الآلة . فتسجيل الاجوبة الصحيحة والخاطئة والاحتفاظ بها حتى انتهاء التعليم ، يمكننا من تحليل هذه الاجوبة احصائياً ، والكشف عن تلك المراحل التي تكون فيها الاسئلة صعبة جداً ، او تكون فيها فترة الاجابة غير صحيحة ، او يكون فيها المعنى مبهماً . حينئذ يمكن تحسين البرامج واعادة كتابتها إلى أن تتكيف مع حاجات مجموعة معينة من الطلاب وبطريقة ربما لايستطيع انجازها معلم بشري .

يدعي سكنر أن الآلات التعليميّة تزودنا بوسيلة لحل العديد من مشكلاتنا التربوية بطريقة ثورية تماماً . وارى بشيء من التحفظ ، أن سكنر على حق فيما يدعيه من حيث الجوهر . فقد لاتتفق مع سكنر في تفصيلات معينة من برامجه او حتى في اجزاء رئيسيّة من نظريته ، بيد أن ذلك غير هام على الاطلاق ، لأن هذه الامور ، شأنها شأن التقدمات العلميّة جميعها ، هي معالجة ذاتية . والبحث العلمي يتقدم بخطى كبيرة في الولايات المتحدة الآن (وفي بريطانيا إلى حد ما) ، وستكون الاجابات عن معظم المشكلات الحقيقيّة في المتناول دون

ريب خلال السنوات العشر القادمة تقريباً . والآن ما الحجج القائمة التي يمكن اثارتها ضد هذه التطورات الحديثة ؟

يرى معارضون عديدون أنه لايمكن تعليم جميع الموضوعات بالآلات التعليميّة ، ومن المؤكد أنه اعتراض صحيح في الوقت الراهن ، ولكنه ليس على صلة وثيقة كبيرة بالموضوع . فما يمكن تعلمه او عدم تعلمه على نحو مناسب بالآلات التعليميّة ، هو مسألة تقررها نتائج البحث العلمي . وقد شرعت التجارب الراهنة في تعليم موضوعات مثل « ادراك الايقاع » والاستدلال الاستقرائي . . .الخ . وسنعرف سريعاً ما إذا كان يمكن استخدام الآلات التعليميّة في تعليم هذه الموضوعات وغيرها . ولكن في جميع الاحوال ، ان واقعة كون الآلات التعليميّة عاجزة عن تعليم بعض الموضوعات ، لايدحض الادعاء بقدرتها على تعليم موضوعات اخرى ، او الاستنتاج بأنه بأنه ينبغي أن تعلمها .

وثمة شكوى اخرى مفادها أن هذه الطرق الحديثة سوف تحل محل المعلم الامر الذي سيؤدي إلى كارثة بطريقة غير محادة . ان هذه الحجة غير صحيحة ايضاً . فالدعوة إلى استخدام الآلات التعليميّة لايوحي بأنه يجب على المعلمين والاساتذة المنهمكين في التربية ، ان يتخلوا عن التعليم نهائياً وتسليمه للآلة ، بل توحي فقط بأنه يجب عليهم استخدام الآلة التعليميّة لتحريرهم من انماط معينة من المهام الروتينيّة المقننة المضجرة في ذاتها ، والتي يمكن اداؤها على نحو افضل بالآلة التعليميّة . يوجد في بعض الموضوعات — وربما ليس في جميعها —

قدر كبير من المعلومات الواقعيّة التي ينبغي التمكن منها قبل أن يغدوا اي اتصال هام او مثير بين المعلم والطالب امراً ممكناً . انني متأكد تقريباً وفي قرارة نفسي ، ان ما يستطيع طلابي اكتسابه من حلقة البحث التي نناقش فيها اتجاهات اصحاب نظريات التعلم المختلفين ، او طرق قياس الشخصيّة التي تستخدمها مدارس علم النفس المختلفة ، هو اكثر مما يستطيعون اكتسابه من اي برنامج للآلة التعليميّة .ومع ذلك ، وإنني اكثر يقيناً ، بأن هذا التفاعل لن يكون ممكناً إلا بعد اكتساب الطلاب لقدر كبير من المعلومات الواقعية ، والتي يستطيعون اكتسابها من الآلة التعليميّة على نحو افضل بكثير من اكتسابها مني . ليست هذه العبارة مدفوعة بالتواضع العلمي ، بل هي مجرد واقع قائم بناء على مقدار كبير من البحث العلمي .

تتصل تلك الشكوى بانتقاد آخر طالما تم التعبير عنه . ومفاده أن في مكنة المعلم الجيد استثارة حماس الطالب وتنوير وجهة نظره بشكل يتجاوز اية وقائع يمكن تعليمها . سأكون آخر شخص ينكر ذلك ، بيد انني اعتقد ثانية ، أنه يمكن مساعدة المعلم المميز بالقدرة على حث طلابه ، إذا تولت الآلة التعليميّة العمل الشاق المتمثل في ايصال المعلومات الاولية ، تاركة له حرّية الاسهام في نشاطات تعليميّة اكثر أهميّة .

اما مسألة التكاليف المالية ، فهي انتقاد اكثر معقولية ؛ ولكنني اعتقد هنا ايضاً أن هذا الانتقاد ليس مقنعاً جداً . ومن المسلم به أن بعض الآلات التعليمية باهظة التكاليف . ولكن لايصح هذا عادة

إلا لأن انتاج هذه الآلات غير واسع النطاق . أن تبسيط الآلات التعليمية وانتاجها على نطاق واسع يجعلان الاستخدام العالمي لها في المدارس والجامعات امراً ممكناً . كما سيؤدي ذلك إلى تخفيض سعرها على نحو حاد ، بحيث يصل إلى مستوى تعوض فيه الكلفة بالتوفير في الرواتب ، والتحسن في المعرفة والكفاءات الناجم عن ادخال مثل هذه الآلات . يستحيل في الوقت الراهن تماماً وضع خطة تفصيلية لميزانية من هذا النوع ، كما اشك إلى حد كبير في أنه يجب على الكلفة أن تتكشف عن اي عامل حاسم بأية طريقة كانت .

وفي حين اعتقد أن لهذه الانتقادات والاعتراضات قيمة طفيفة جداً ، فانني اعتقد أن ثمة تعليقات قليلة ربما تكون جديرة بالمناقشة والاهتمام . تتمثل النقطة الاولى من هذه التعليقات في أن المدافعين عن استخدام الآلات التعليمية قد اهملوا متغيراً هاماً جداً . لقد بحثت الدراسات العلمية جميعها في المتوسطات ، ولم يكن هناك جهد مكرس للكشف عن الفروق الفردية الهامة او ذات الشأن . فمن المعروف على نحو معقول أن الاشخاص الانطوائيين يفضلون الدراسة والقراءة الخاصة ، في حين يفضل الاشخاص الانبساطيون المحاضرات وحلقات البحث . ومن الممكن أن يخرج كل نمط من هؤلاء الأشخاص بمعلومات اكثر من النشاط المفضل لديهم . ويبدو من غير المرجح أن تستفيد انماط الشخصية جميعها من الآلة التعليمية او من انماط البرامج المتماثلة بشكل متساو . كما يبدو أن البحث وفق هذه التوجهات ، هو في غاية الاهمية . ولسوء الحظ ، لايتوافر الكثير مما يمكن قوله

بهذا الصدد ، إذ أن أحداً لم يقم بأي بحث في هذه المشكلة ، وحتى في مبادىء سكنر الخاصة ، توقع الفرد أن يجد بعض الاهتمام بهذه المسائل . لقد تبيّن على سبيل المثال ، ان الانطوائيين يستفيدون من المديح ، بينما يستفيد الانبساطيون من اللوم ، فهل يجب مثلا أن تكون هذه الحقيقة على صلة وثيقة باستخدام البرامج « التفريعيّة » بشكل مؤكد ؟ وفي الواقع ، اننا نعرف الآن فعلا أن الانطوائيين يستفيدون من الآلات التعليميّة اكثر مما يستفيده الانبساطيون . ان هذا النمط من المعرفة هام ، بيد أنه مغاير لتفكير سكنر .

ثمة نقاط اخرى مشابهة يمكن ايرادها بصدد انتقاد برامج البحث العلمي المتوافرة . ولكن اذا تذكرنا أن عمر البحث العلمي الجاد في هذا الميدان هو حوالي عشر سنوات فقط ، فإنني ارى أن السؤال عن الكمال هو مطلب معقول . واودّ بدلا من متابعة السير في هذا الاتجاه اي طرح الانتقادات والتعليقات — القيام باستخلاص ما يتراءى لي بأنه النتيجة الاكثر اهمية لهذا البحث بمجمله . اعتقد انه من الممكن المجادلة بأن الوجود الفيزيائي للآلات التعليميّة ، هو على اقل تقدير نتيجة هامة لأعمال بريسي وسكنر . فما اظهره هذان الباحثان ، هو اهمية المنحى التجريبي الواقعي في مشكلات التعلم والتعليم ، وأهمية قيمة استخدام جميع ما تتمخض عنه نظرية التعلم من مبادىء او قوانين في هذا المجال . ان رجل الشارع والعالم التربوي لم يدركا دائماً ما يمكن أن يسهم به المنحى العلمي في مجالات كمجالات التربية التي يمثلها اللاعلماء عادة . والعمل الذي اتينا على وضعه هنا ، قد اجبر هؤلاء على النظر للمرة الأولى إلى بعض امثلة المنحى العلمي على اقل

تقادير . ومما لاشك فيه ، ان مثل هذه الأمثلة ليست تامة ، غير أنها تدعو على نحو كاف إلى استثارة الاهتمام وتتطلب بحثاً علمياً أعمق.

قد يؤدي هذا البحث إلى اتجاهات غير متوقعة . فما نتعلمه حول طرق برمجة الآلات التعليميّة . قد يساعدنا على « برمجة » المعلمين ، إذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح . وبتعبير آخر ، ان ما نتعلمه حول اكثر طرق التعلم فعالية ، يمتاز بقابلية تطبيق عامة ، ويمكن أن يزودنا بالمعرفة التي نحتاجها لتعليم المعلمين اساليب التعليم .

ان التقدمات التي وصفتها في المجال التربوي ، مماثلة في العديد من الجوانب للتقدمات التي انجزها العلاج السلوكي في مجال الطب النفسي . فلقد ادى تطبيق التقنيات والاساليب التجريبيّة الحديثة في كل من المجالين إلى تقدم معرفي يكشف عن امكانيات مثيرة بالنسبة للمستقبل . وإذا كان لهذه الامكانيات أن تتحقق ، فمن المهم ان يكون رجل الشارع على فهم تام بما يحدث ، كما ينبغي أن يكون على علم دائم بالتقدم . ان ما تقدم هو تقرير مؤقت فقط ، وليس لديّ ادنى شك بأنه خلال سنوات قليلة قادمة ، سيكون فهمنا اكثر اكتمالا ، وعندها يمكن كتابة تقرير اكثر دقة وتحديداً .

ليست الآلات التعليميّة وبرمجة المواد التربوية ، هي الاسهامات الوحيدة التي انجزتها السلوكية في التربية طبعاً . فبعض اساليب « التشكيل » وبعض مبادىء الاقتصاد الرمزي ، قد استخدمت بنجاح كبير في غرفة الصف من اجل اهداف اخرى ، مثل الحفاظ على الانضباط . إن العديد من المعلمين ، وهم شبيهون في ذلك بممرضات الطب النفسي والآباء المعنيين الآخرين بالانضباط ، يرتكبون على نحو نموذجي

خطأ اساسياً في تطبيق التعزيز ، اذ يطبقونه في الوقت غير المناسب وعلى نمط السلوك غير المناسب . وغالباً ما يتمخض هذا الاجزاء عن اثر مضاد تماماً للأثر الذي يرغبون في احداثه . ولنأخذ في هذا السياق مثالا نموذجياً عن ذلك . يعمل « جوني » الصغير على نحو هادىء وحسن ، بيد أن المعلمة لاتوجه إليه اي انتباه وهو على هذه الحال : يصبح جوني الصغير بعدئذ سيء السلوك ويبدأ باحداث الجلبة والفوضى هنا تتوجه المعلمة بانتباهها إليه ، فتقترب منه وتتحدث إليه — وتعزز بالتالي سلوكه السيء ، لأن التفاعل الانساني في حد ذاته هو نوع من النشاط المعزز جداً لمعظم الأطفال ! إن واقعة قيام المعلمة بتوبيخ الصغير ليست ذات شأن كبير هنا ، فالأمر شبيه إلى حد ما بعادة بعض جرائد الأحد التي تنشر قصصاً اباحية تحت ستار عرض بعض الفساد — والفساد الوحيد موضوع السؤال هنا ، هو عادة صدور الجريدة ذاتها ! وبطريقة مشابهة ، إن الفيلم الذي يعرض حياة مذهلة يؤديها قاطع طريق سفاح ، من غير المرجح أن يهذب روح المشاهد الاخلاقية بجعل هذا السفاح عرضة لعقاب شديد جداً في الدقيقتين الاخيرتين من الفيلم . ان التفاعل مع المعلمة ، هو الذي يعمل كمعزز ، وينقل الطفل من السأم الذي هو فيه ، وما تقوله يدخل في اذن ويخرج من الأخرى . من المفضل جداً أن تقوم المعلمة بإغفال معظم انواع السلوك السيء الثانوية ، ومعاقبة الانواع الأكثر خطورة باستخدام بعض اشكال العقاب المترافقة بحد ادنى من التفاعل. ولكن مازال تعزيز السلوك الجيد هو الافضل ، وذلك بتوجيه الاهتمام إلى هذا السلوك والتحدث إلى الطفل ومديحه لدى قيامه به . وتبعاً لنتائج بعض البحوث العلمية

الحديثة ، تبيّن أن ادخال بعض اشكال الاقتصاد الرمزي ، حيث ينال الاطفال نقاطاً او علامات او حلوى نتيجة السلوك الحسن ، ويخسرونها نتيجة السلوك السيء ، هو افضل تلك الاجراءات جميعها .

يجب دائماً تحديد السلوك موضوع الاهتمام على نحو دقيق جداً ، وتخطيط مقياس مدرج للاثابات ، ومن ثم تأخذ الآثار بالانطلاق على نحو مفاجىء تماماً بعد فترة قصيرة من الوقت ! ولقد تبيّن أنه حتى الصفوف الفوضوية السيئة السلوك جداً تأخذ بالهدوء وتتحسن على نحو دراماتيكي . تحتاج اساليب التنفيذ الدقيق طبعاً إلى بحث علمي مسهب في كل حالة فقد لايستجيب الاطفال البريطانيون استجابة الاطفال الاميركيين ، كما قد تختلف صغار الاطفال عن كبارهم ، والصبيان عن البنات ، ولكن يبدو أن المبدأ فعال جداً وجدير بتعليه للمعلمين المستقبليين — فما يتعلمونه الآن حول ادارة الصف ليس بذي فائدة عملية كبيرة عادة . ومع ذلك ، ثمة بعض المخاطر في هذه الاساليب تتبدى على نحو غريب تماماً في الشكل الذي يذكرنا بالنكتة حول الفئران والتي استشهدنا بها في الفصل الأول حين يخاطب فأر فأراً آخر قائلا : انظر كيف تمكنت من اشراط عالم النفس فكلما اضغط على هذه الرافعة ، يأتي إلي ويطعمني ! قرر المجربون في احدى هذه الدراسات ادخال فترات ضبط ، اي فترات زمنية يعلّق فيها تقديم الاقتصاديات الرمزية ، بحيث لايتمكن الاطفال من الحصول على النقاط بوساطة اداء السلوك الحسن . لقد خططوا اجراءاتهم التجريبيّة بحيث تجري الجلسات الصباحيّة بما يتفق مع اجراءات

الاقتصاد الرمزي — اعطاء علامات او نقاط — ، وتجري جلسات بعد الظهر دون استخدام الاقتصاديات الرمزية — اي دون تقديم علامات او نقاط . بلغ عدد « الاستجابات السيئة » قبل التجربة حوالي خمسين استجابة في الساعة . وخفض ادخال الاقتصاديات الرمزية في الجلسات الصباحيّة ما بين خمس وعشر استجابات على الفور . ولكن عندما ادخل نظام اللااقتصاديات الرمزية في جلسات بعد الظهر فقد بلغ عدد « الاستجابات السيئة » مئة وعشرين استجابة ! وبتعبير آخر ، انزعج الاطفال لحرمانهم من فرصة الحصول على النقاط (وجميع الامتيازات التي يمكن الحصول عليها جراء السلوك الحسن) فلجأوا إلى تطبيق التعزيز السلبي على المجربين ، وذلك بممارستهم لسلوكات سيئة جداً في جلسات بعد الظهر ، الامر الذي حال دون التمكن من الاستمرار في التجربة ، وادى إلى إعادة ادخال نظام الاقتصاديات الرمزية في جلسات بعد الظهر ايضاً . من الطبيعي أن هذه المسألة الغريبة والصادقة ، تثير تساؤلا بصدد من هو عالم النفس الأفضل — المجرب ، ام الاطفال ! لن احاول الاجابة عن هذا السؤال هنا ، كما لن ادخل في نقاش مسألة أخرى ربما راودت اذهان العديد من القراء ، وهي اخلاقيات التلاعب السلوكي . بل سأترك هذه المسألة ، ومسألة « غسيل الدماغ » المرتبطة بها إلى فصل لاحق من هذا الكتاب .

* * *

الفصل الثالث

نشوء الجدارة المتوسطة

نشر ميشيل يونغ عام (١٩٥٨) روايته التراجي — كوميدية التاريخية الزائفة « نشوء الجدارة — ١٧٨٠ — ٢٠٣٣ : مقالة في التربية والمساواة » . لقد صاغ يونغ مقالته على نحو ذكي في قالب رواية ، لأن مثل هذا الشكل لا يجعل قراءة كتابه اكثر امكاناً فحسب ، بل يمكّنه ايضاً من تجنب الأسئلة المحرجة التي قد يطرحها علماء النفس والتربية حول العديد من آرائه وملاحظاته العابرة وقد تهرب بهذه الطريقة ايضاً من ضرورة اقتراح بدائل واقعية لأساليب الانتقاء في التربية ، والتي هاجمها على نحو عنيف جداً ، وبخاصة اسلوب الانتقاء القائم على استخدام اختبارات الذكاء . وارغب في هذا الفصل القصير ان اتفحص مشكلتين كبيرتين في التربية ، وربما غير قابلتين للحل ، وهما : مشكلة الانتقاء ومشكلة التنبؤ بالنجاح التربوي . كما اود الايحاء بأننا نلج الآن سبيلاً تراجعياً من المرجح أن يؤدي إلى عواقب لا يرغب فيها حقاً إلا نفر قليل من الناس . والقول بأن هذه العبارة هي

لزام عليّ ، يؤدي بي إلى الافصاح عما اعتبره شيئاً مرغوباً فيه . فعندما يتم الاتفاق على الغايات او تحديدها بشكل شامل على الأقل ، عندئذ فقط تغدو المناقشة حول الوسائل واقعية ، وتصبح المناظرة ذات معنى .

لقد صاغت « جين فلود » احدى امنيات السياسة التربوية التي اعتقد بأن معظم الناس يقرونها ، وذلك عندما نشدت سياسة « تضمن حق المواطن الراشد في التعلم حتى غاية قابلياته » . ان هذه الامنية مثال طوباوي طبعاً ، ولكن ينبغي للسياسة التربوية أن تقترب منه باستمرار . والامر ينص كما هو معهود على حقوق الفرد مقابل حقوق المجتمع . ان ادعاء المواطن عدل وغير قابل للتحويل ، ولكن لا يمكن احرازه كاملاً في الوقت الراهن . ولكن ينبغي ايضاً عدم نسيانه في خضم زحف المال والمباني والملكيات وازمات توازن المدفوعات والاضطرابات السياسية . وثمة امنية اخرى ناتجة من حاجات المجتمع . فنحن لا نستطيع الوجود دون تزويد مناسب بالمعلمين والاطباء ، والمهندسين والاقتصاديين ورجال الاعمال والرياضيين (من الرياضيات) والمحامين والفنيين والمؤرخين والموسيقيين .... الخ . ان قائمة الحاجات لا نهائية ، بيد أن كل مدخل يستلزم تربية وتدريباً طويلين ماهرين . ولا نستطيع أن نأمل في الوقت الراهن في تربية ما يكفي من الناس لسد حاجاتنا من كل هذه الفئات — ولا يشكل الاطباء ومعلموا الرياضيات إلا مثالاً واحداً بهذا الصدد . هناك صعوبات اقتصادية في هذا المجال ، مثل بناء مستشفيات تعليميّة كافية . وثمة تناقض بين حاجات المجتمع ومبدأنا الأول — يبدو أن قدراً غير قليل من الاطفال يشعرون بأن « قابلياتهم الطبيعيّة » تتضمن القدرة الرياضيّة !

عندما نأخذ في الحسبان هذه الحاجات الفردية والاجتماعية معاً ، يجب علينا أن نقارنهما بقدرة المجتمع على توظيف الوقت والمال الكافي في التربية — الاولية والثانوية والثالثية ، ان جاز استخدام هذه المصطلحات القبيحة البالية . من غير المرجح في حياتنا وحياة اطفالنا أن نبلغ مرحلة يتوافر فيها قدر كاف من التسهيلات التربويّة التي تمكننا من اشباع المطالب جميعها . وحتى في الولايات المتحدة الاميركية ، وهي اغنى بكثير من المملكة المتحدة ، ما زالت هذه المرحلة نقطة نائية طوباوية . وطالما كانت هذه الوقائع الصعبة قائمة ولا جدال فيها ، فثمة حاجة واضحة لمبدأ الانتقاء . ولما كانت الجامعات غير قادرة إلا على استيعاب نسبة ضئيلة من الطلاب ، مقابل ضغط العدد الاكبر من الذين يرغبون في الانتساب إليها ، او الذين يحتاج المجتمع إلى ادخالهم فيها ، فان شكلاً من اشكال الانتقاء لا مفر منه . ويصدق الشيء ذاته على التربية الثانوية ، اذ يستحيل أن يصل كل شخص إلى المستويات العليا — مستوى A — ، لذلك كان الانتقاء ضرورياً . اما مقدار المال الذي ينبغي توظيفه في التربية ، فهو قرار سياسي ، وليس من اهداف هذا الفصل مناقشة هذه النقطة . ان جميع ما هو مطلوب في هذا السياق ، هو الاعتراف بواقعة ارجحيّة عدم توافر المال اللازم لتحقيق الحاجات الشرعية جميعها ، أياً كان الحزب القائم بتوجيه دفعة المركب .

قد يأخذ مثل هذا الانتقاء احد اتجاهين . يمكن دعوة النوع الأول بالانتقاء الطبيعي ، او الانتقاء بالعقبات المتتالية ، حيث يمضي الطفل

في تربيته عبر مراحل متتابعة ، ويقاس نجاحه النسبي بنتائج الامتحانات ، ويتوقف انتقاله إلى المراحل المتأخرة على نجاحه في المراحل المبكرة . وعلى سبيل المثال ، لن يدخل هذا الطفل الجامعة ما لم ينجح في موضوعات عدة من مستوى « A » . قد يكون هذا النظام « الطبيعي » غير عالمي. فبالخروج على النظام الانتقائي من خلال الاخذ بالتعليم المجاني مثلاً ، يمكن تجنب بعض العقبات ولكن ليس جميعها . يبدو هذا النمط من الانتقاء طبيعياً بالنسبة لمعظم الناس ، ويمتاز على البديل الذي يستفيد من المقاييس الخاصة لمجموعة « القابليات الطبيعيّة » التي اشارت اليها جين فلود . تحدد هذه المقاييس عادة باختبارات الذكاء رغم ان التطبيق الواقعي للانتقاء بدلالة درجات اختبارات الذكاء وحدها ، لم يمارس في انكلترا اطلاقاً . وعلى سبيل المثال ، استخدام امتحان (+ II) اختبارات في اللغة الانكليزية والرياضيات اضافة إلى اختبارات الذكاء من اجل تحديد مكانة التلميذ . وهكذا اعطي الذكاء ثلث الوزن الكلي فقط في تحديد تعليمه المستقبلي . لماذا نضيف هذه العقبة « غير الطبيعيّة » إلى الآخرين ، ولماذا نعتبر تضمينها خطوة حاسمة في سبيل تحقيق « مثال » جين فلود ؟

ان الدليل على هذه العقبة بسيط جداً . ما من احد يشكك على نحو جدي في أن فرص الطفل في التغلب على العقبات تتوقف إلى حد كبير على نوعية التربية التي تعرّض لها . فكلما كان تعليمه افضل ، وكانت التسهيلات التربوية المتوافرة في مدرسته افضل ، كان اكثر احتمالاً لأداء امتحاناته بشكل جيد . ولكن من المعروف جيداً أن ثمة مدارس معيّنة افضل من غيرها ، الامر الذي يتيح للتلاميذ الملتحقين بالمدارس

الافضل فرصة الحصول على فائدة غير مستحقة تسمو على الفائدة التي يحصل عليها التلاميذ الملتحقون بالمدارس الأسوأ . ان هذه الفوائد هي لصالح الاطفال المدنيين مقابل الاطفال الريفيين ، وهي لصالح افراد الطبقة المتوسطة مقابل اطفال الطبقة العمالية . يصدق هذا الوضع حتى عندما نتفحص المدارس الحكومية . وقد يغدو هذا التفاوت اكبر عندما تتضمن دراستنا المسحيّة مدارس عامة من نوع أو آخر . من الممكن ان تكون مقاييس الذكاء (سوف نتحرى الدليل على ذلك بعد برهة وجيزة) اقل من التحصيل التربوي اعتماداً على الفوائد الدخيلة التي ينعم بها اطفال الطبقة المتوسطة . وإذا كان الأمر على هذا النحو ، يمكننا عندئذ استخدام تلك المقاييس لاصلاح التوازن ، والتأكيد بشكل اكبر على « القدرات الطبيعيّة » للأطفال ، بدلاً من التأكيد على تعلمهم المكتسب .

ان فكرة استخدام اختبارات الذكاء « كأداة للعدالة الاجتماعية » تدين بالكثير للسير جود فري توميسون . ويمكن تعلم الكثير من هذه الأداة إذا تفحصّنا نتائج استخدامها الاول بهذه الصفة في منتصف العشرينات ، عندما ادخلت جميعة نورثها مبرلاند اختباراً من هذا القبيل في امتحان المنح الدراسية المخصصة لانتقاء طلبة المدارس الثانوية البريطانية . كان السبب الرئيسي لاستخدام تلك الاداة ، هو محاولة اصلاح التوازن بين اطفال المدنية واطفال الريف . حصل عدد ضئيل للغاية من اطفال الريف على مقاعد دراسية في المدارس الثانوية . وفي ضوء جميع الاحتمالات ، يعود ذلك إلى التعليم الضعيف المتوافر في العديد من المدارس الريفيّة المنعزلة الخاضعة لنظام المعلم الوحيد ،

والمزودة بتجهيزات ضعيفة وكتب قليلة . فلو كان الاطفال الريفيون غير محرومين على هذا النحو . وكانت اختبارات الذكاء اقل اعتماداً على التأثيرات البيئية والمدرسية بشكل خاص فسيؤدي ادخال هذه الاختبارات عندئذ إلى زيادة عدد اطفال المدارس الريفية المقبولين في المدارس الثانوية ، والذين تم استثناؤهم بشكل مسبق على الرغم من توافر القدرة العقلية المرتفعة لديهم . لقد ادت نتائج التجربة إلى ارتفاع فوري مذهل في عدد الاطفال الريفيين المقبولين في المدارس الثانوية . لاحظ أن ذلك لا يوحي بأن اختبارات الذكاء هي مقاييس خالصة للقدرة المعرفية او قابلية التربية الفطرتين ، بل يوحي فقط بأنها اقل عرضة للمؤثرات البيئية . ولاحظ أن اختبارات الذكاء لا توحي بأنها ادوات قياس مثالية ، بل توحي فقط بأن استخدامها ينزع إلى اصلاح توازن افسدته القوى البيئية التي تؤثر فيها باساوب اكثر عمومية من الاسلوب التي تؤثر به في طرق القياس الأخرى الاكثر قصوراً والتي تم الاعتماد عليها في السابق . ولاحظ أن الأمر لا يوحي بأن نسبة الذكاء كما تقاس باختبارات الذكاء ، هي قدرة فطرية كلياً وثابتة تماماً ، فهذه الافكار لم تشكل جزءاً من نظريات اي عالم نفس حسن السمعة — لقد كانت نظريات سيرل بيرت اقل النظريات جميعها اعتقاداً بهذه الافكار وربما عمل اكثر من اي شخص آخر لتحسين الدراسة العلمية للذكاء ، وغالباً ما كان يقوم بدور الساذج في هذه المناقشات !

ان النقطة الاساسية التي تنطوي عليها مناقشتنا ، وتفيد بأن اختبارات الذكاء هي اقل اعتماداً على المؤثرات المدرسية من اختبارات

التحصيل التربوي هي نقطة حيوية ، وربما تكون مفيدة في تبيان البرهان عليها . ذكر في دراسة اجراها كل من هالسي وفلود في هارتفورد شاير . ألغت السلطات التربوية في هذا الاقليم استخدام اختبار الذكاء استجابة لما تعرّض له من تهجمات . قام هذان الباحثان بمقارنة التركيب الاجتماعي للمدارس الثانوية المحلية في العامين ١٩٥٢ و ١٩٥٤ ، اي قبل ايقاف استخدام اختبار الذكاء وبعده . وجد الباحثان ان تصنيف الاطفال وفق مهنة الوالدين في السنة الأخيرة هو اقل موثوقية ، وصنفا « جميع الحالات المشكوك فيها وغير القابلة للتصنيف » في في مجموعة الطبقة العمالية ، ومع ذلك ، انخفض عدد اطفال الطبقة العمالية المقبولين في المدارس الثانوية من ١٤,٩٪ إلى ١١,٥٪ ! وارتفعت في الوقت نفسه نسبة اطفال الآباء الحرفيين والاداريين من ٤٠٪ إلى ٦٤٪ ! تذكر أن هذه التغيرات حدثت في الوقت الذي يشكل فيه اختبار الذكاء ثلث اختبار الانتقاء فقط . ولكن إذا تم الانتقاء اعتماداً على اختبار الذكاء فقط (وهذا لا يوحي بالمرغوبية في ذلك) ، فسيكون عدد اطفال الطبقة العمالية المقبولين في المدارس الثانوية عندئذ اكثر من ١٤,٩٪ ، وسيكون عدد اطفال الآباء الحرفيين والاداريين أقل من ٤٠٪ . لذلك تبيّن هذه النتائج على نحو رائع القيمة المستمرّة ، لاختبارات الذكاء كأدوات للعدالة الاجتماعية .

ثمة باحثون آخرون امثال البروفسور فراسر (E.D.Fraser) والدكتور دوغلاس (J.Dauglas) قد قاموا بدراسة العلاقة بين المتغيرات البيئيّة وكل من اختبارات الذكاء واختبارات الاكتساب ، وجد هذان الباحثان كلاهما (على الرغم من أنه ينبغي للفرد في حالة

اختبارات الاكتساب أن يحسب النتائج من ارقام معطاة في سياق آخر) ان ارتباط المتغيرات البيئية باختبارات الاكتساب هو اعلى من ارتباط هذه المتغيرات باختبارات الذكاء، على الرغم من أن اختبارات الذكاء المستخدمة في الانتقاء المدرسي (وترى غالباً « اختبارات الاستدلال اللفظي ») تتضمن مادة اكثر ارتباطاً بالتربية مما قد يكون مرغوباً فيه على نحو مثالي ، كما انها اكثر ارتباطاً بالطبقة الاجتماعية من اختبارات الذكاء غير اللفظية . وعلى سبيل المثال ، وجد دانيلز (J.L.Daniels) فرقاً مقداره (١٨) درجة في نسبة الذكاء بين اطفال الطبقة العمالية واطفال الطبقة المتوسطة . ولدى تطبيق اختبار غير لفظي كان مقدار هذا الفرق (١١) درجة . وثمة بحوث اخرى عديدة مماثلة جرت في الولايات المتحدة الاميريكية ، واسفرت عن نتائج مشابهة مؤكدة العون الذي يمكن أن تقدمه اختبارات الذكاء في سبيل اصلاح التوازن التربوي لصالح طفل الطبقة العماليّة الذكي .

طالما كانت هذه هي الوقائع ، فقد يفترض الفرد بناء على اسس معقولة بأن علماء التربية اليساريين سيرحبون باستخدام نسبة الذكاء كأداة للانتقاء ، في حين يرفضها علماء التربية اليمينيون . وبعد ، ان الأثر الرئيسي لهذه الاداة هو تمكين عدد اكبر من اطفال الطبقة العمالية المحرومين والقادرين من التمتع بتربية اعلى وافضل مما قد يتمتعون به بأية طريقة اخرى ، وذلك على حساب اطفال الطبقة المتوسطة الاقل قدرة ، والذين يلقون الآن حظوة من خلال الفوائد البيئيّة التي ينعمون بها بسبب غنى والديهم . ومع ذلك ، لم تكن الامور متفقة مع ذلك الافتراض . فقد شنّ علماء التربية والسياسيون والكتاب اليساريون

هجوماً عنيفاً على اختبارات الذكاء ، وتناولوا بهجومهم الذي اخذ شكل قدح لاذع يخلو من المعرفة الواقعية والحجة المنطقية المفهوم الحقيقي لنسبة الذكاء وطرق قياسها . وعلى الرغم من أن ميشيل يونغ (Michael Vaung) كان اقل قسوة في نقده ، واكثر معرفة من زملائه ، إلا أنه انضمّ إلى الكورس ايضاً (وربما نفخ فيه الروح ايضاً) . يبدو أن يونغ كزملائه ، يكره الفكرة الجوهرية لوجود نخبة مقدر لها ومعدّة على نحو مسبق للقيادة الفكرية والاستمتاع بثمار التربية . يغدو هذا الاتجاه مقنولاً عندما يكون تكوين النخبة مقرراً بدلالة النباله اوالديه ، او بالافكار الرأسمالية الداعية إلى « شراء » افضل تربية متوافرة او ممكنة . ولكنه يغدو عديم المعنى عندما تكون المقدرة الحقيقيّة التي كرست التربية لها هي موضوع النقاسن ، وبالتحديد عندما يكون هذا الموضوع هو الخصائص القابلة للتعلم والتي يتمتع بها الاطفال انفسهم . وما من شك في ان هذه الخصائص موروثة إلى حد كبير . والحقيقة الجوهرية القائلة بأن استخدام ، اختبارات الذكاء في الانتقاء يزيد نسبة اطفال الطبقة العماليّة ، ويقلل نسبة اطفال الطبقة المتوسطة المختارين لتربية اكثر تقدماً ، ينبغي لها أن توضح هذه النقطة ، حتى لو كان الدليل التجريبي المتوافر ليس على قدر من القوة الساحقة التي ينبغي أن يكون عليها . إن لالغاء استخدام اختبارات الذكاء نتيجة واضحة ومحددة ، فهو يؤدي إلى تقليل احتمال حصول الاطفال الاذكياء المحرومين اجتماعياً على تربية تناسب قدراتهم الطبيعيّة ، في الوقت الذي يؤدي فيه هذا الالغاء إلى تلقي الاطفال الاغبياء المستفيدين اجتماعياً لتربية لا يستطيعون

ادراكها على نحو مناسب ، والتي قد تؤدي بهم إلى الظهور بمظهر الفاشلين او المطرودين . وربما يتعجبّ الفرد قائلاً ، هل هذا هو قصد الاشتراكيين المثاليين الذين يحاولون اقامة « قدس » جديدة على ارض انكلترا الخضراء السعيدة ؟

قد يجيب الاشخاص موضوع هذا الانتقاء بأن افكارهم مختلفة بعض الشيء . فهم يقولون : اذا كان البعض محرومين بالمقارنة مع آخرين ، فينبغي لنا عندئذ أن نغدق المال في اجراءات تربوية خاصة لمساعدة المحرومين ، سواء كانت نسب ذكائهم مرتفعة أم لا . ويقولون ، دعنا من القلق حيال مشكلة هذه التقديرات غير الصحيحة وغير المستقلة تماماً للفروق الفطرية المزعومة ، ولنعمل بدلاً من ذلك ، على اصلاح توازن الفائدة الاجتماعية على نحو تربوي ، وذلك بتقديم تربية خاصة إلى جميع الذين يأتون من أسر فقيرة او يذهبون إلى مدارس فقيرة ، او إلى الذين عانوا من حرمانات بطرق اخرى . يحدث هذا الشكل من التفكير في قلوب الذين اقترحوه اجلالاً اكثر مما يحدثه في رؤوسهم، وذلك لسببين ، يتمثل السبب الأول في أن اقتراحهم قد تم تجريبه وفشل . اما السبب الثاني فيتمثل في ان تقديم مساعدة خاصة للبعض ، يعني — في ضوء المصادر المحدودة المخصصة للتربية بمجملها — تربية ادنى للبعض الآخر . وسوف يسهب مقطع مختصر في شرح هذين الاعتراضين .

ليست فكرة « التربية التعويضيّة » فكرة حديثة ، فقد شاعت على نحو واسع في الولايات المتحدة الاميريكية ، وانشيء برنامج

حكومي واسع النطاق منذ سنوات قليلة خلت بهدف إلى وضع هذه الفكرة موضع التنفيذ . يشير جنسن (Jensen) بهذا الصدد في مقالة نشرها في « مجلة هارفارد التربوية » ولاقت اهتماماً كبيراً ، إلى أنه « تم تجريب التربية التعويضية وثبت فشلها » . ترتبط هذه المقالة بمجملها بالحجة التي اعرضها على نحو وثيق ، بيد انني سأقتصر على اقتطاف مقطع واحد منها فقط . يقول جنسن : « لقد طبقت التربية التعويضيّة على نطاق واسع ولسنوات عديدة في الكثير من المدن بالولايات المتحدة . بدأ تطبيق هذه التربية بحماس المربين الميمون وبآمالهم الكبيرة ، ولاقت دعماً لا نظير له من الموارد المالية الفيدرالية . كما لاقت تصديقاً نظرياً من العلماء الاجتماعيين الذين اعتنقوا الدعامة الرئيسية لمبادئها الاساسية والقائمة على فرضية الحرمان . وطبقاً لهذه النظرية ، يعود التخلف الاكاديمي إلى الحرمان والتمييز الاجتماعي الاقتصادي . لاقت فرضية من هذا القبيل قبولاً واسعاً غير ناقد في جو مجتمع ناضج معني بورطة جماعات الاقلية وبالمحرومين اقتصادياً . ان الهدف الرئيسي للتربية التعويضيّة — والمتمثل في علاج التخلف التربوي للاطفال المحرومين ، وتطبيق الفجوة التحصيليّة بين تلاميذ « الاقلية » وتلاميذ « الاكثرية » — لم يتحقق اطلاقاً في اي من برامج التربية التعويضيّة التي قوّمت حتى الآن » . لقد ايّد تقرير لجنة الولايات المتحدة حول الحقوق المدنية عام (١٩٦٧) هذا التقويم ، حيث ورد فيه : « لا يوحي تحليل اللجنة بأن التربية التعويضية غير قادرة على علاج آثار الفقر في التحصيل الاكاديمي لدى اطفال فرديين . لكن ثمة شك بسيط فيما إذا كانت البرامج المدرسية التي تنطوي على انفاق

من اجل اغناء ثقافي وتعليم افضل وتوفير خدمات تربوية مطلوبة اخرى ، قادرة على مساعدة الاطفال المحرومين . ومع ذلك ، ثمة حقيقة ما زالت راهنة ، وهي أن أياً من البرامج التعويضية لم يؤد كما يبدو إلى رفع تحصيل التلاميذ المشاركين فيها كمجموعة بشكل جوهري ، وذلك ضمن فترة قيام اللجنة بتقديم هذه البرامج » (ينبغي الرجوع إلى مقالة جنسن من اجل توثيق تفصيلي) .

ربما تكون النقطة الثانية التي نطرحها شديدة الوضوح ، بحيث لا تتطلب نقاشاً كثيراً . فمجموع الاموال الكلي المتوافر للتربية ، هو محدود ويقل عن المتطلبات الدنيا حتى بالنسبة لمعظم حاجات الاطفال الاساسية المشمولين بهذه التربية . واذا صرف اي جزء كبير من هذه الأموال على برامج التربية التعويضية ، فستقل الاموال المتوافرة لانماط التربية الأخرى جميعها . وإذا كانت احتمالات نجاح مثل هذه البرامج التربية التعويضيّة عالية ، فيمكن حينئذ اجراء نقاش معقول حول الأولويات . ولما كان الدليل الذي وفرته دراسات اميريكية واسعة النطاق ومحكمة الضبط وممّولة بسخاء ، هو دليل سلبي على نحو واضح كماتشير إليه الحال ، فإن التعصّب السياسي وحده المرجح للدليل الناقض بمجمله ، هو الذي يستطيع الاصرار على ضرورة انفاق مبالغ كبيرة من المال على ما يجب اعتباره في الوقت الواهن قضية خاسرة .

يقول جنسن أنه لو اخذت الوقائع حول وراثة الذكاء في الحسبان ، لبدت توقعات برامج « التربية التعويضية » اقل سطوعاً بكثير . ويقدم نقاشاً ممتازاً حول الدليل المتعلق بقابلية توريث الذكاء . وربما

من المفيد إن نضيف إلى تحليلات جنسن تقديرات اجراها حديثاً في انكلترا عالم الوراثة جينكيز (J.L.jenhs) وعالم النفس فولكر (D.W.Fulher) وتناولا فيها اثر العوامل الوراثية في الاداء على اختبارات الذكاء واختبارات الاكتساب . وجد هذان العالمان أن قابلية التوريث لنسبة الذكاء هي ٧٥٪ ، في حين وجدا أن قابلية التوريث لاختبارات الاكتساب التربوية هي اقل من ٣٠٪ . كما تبيّن لهما أن « البيئة الاسرية المشتركة غير هامة » في حالة قابلية توريث الذكاء ، وأن « البيئة الاسرية المشتركة هامة جداً ومؤكدة بأثر البيئات المترابطة » في حالة قابلية توريث الاكتساب التربوي . ويتفق هذا تماماً مع وجهات نظر جود فري توميسون وسيرل بيرت . وان اية محاولة تسعى إلى اسقاط قدرات الاطفال وقابلياتهم الفطرية من الحسبان في التخطيطات التربوية لامة ما ، هي نذير شؤم لا يبشر بالخير .

نادراً ما ندرك إلى اي مدى ضاعت هذه القدرات الفطرية فعلاً في ظل نظامنا التربوي . فعندما قيست نسب ذكاء الدكاترة و المحامين وعمال المناجم وعمال التنظيفات ، تبيّن أن اذكى عشرة في المئة من عمال المناجم والتنظيفات ، يحصلون على درجات اعلى من التي يحصل عليها اغبى عشرة بالمئة من الدكاترة والمحامين . وفي الواقع ، كانت نسبة ذكاء بعض عمال المناجم والتنظيفات مرتفعة ارتفاع نسبة ذكاء اي من الدكاترة والمحامين . ان درجات ذكاء اطفال هاتين المجموعتين من افراد الطبقة المتوسطة وافراد الطبقة العمالية ، هي اكثر تداخلاً من ذلك . ولكن ثمة حقيقة قائمة ، وهي أنه لدى اجراء المساواة باستخدام نسب الذكاء ، فسيتوافر لاطفال الطبقة المتوسطة فرصة تربية جيدة

افضل بكثير مما يتوافر لاطفال الطبقة العمالية . فالاذكياء من عمال المناجم والتنظيفات ، هم واطفالهم ضحية عدم العدالة الاجتماعية . اما المستفيدون فهم الاغبياء من الدكاترة والمحامين واطفالهم . لقد حسب متوسط ذكاء مجموعات من افراد الطبقة العمالية ، واخرى من افراد الطبقة المتوسطة ، وتبيّن أنه في الوقت الذي يكون فيه متوسط ذكاء مجموعات الطبقة العمالية ادنى بعض الشيء من متوسط ذكاء مجموعات الطبقة المتوسطة . فإن العدد الاجمالي للافراد ذوي الذكاء المرتفع هو متماثل في مجموعات الطبقتين — يعود ذلك إلى العدد الأكبر لافراد الطبقة العمالية في السكان . وإذا لم يتلق اطفال الطبقة العمالية الأذكياء تربية تتفق وحدود قدراتهم ، فالمجتمع هو الخاسر ، والاطفال انفسهم طبعاً هم الخاسرون ايضاً . ويبدو أن استخدام اختبارات الذكاء هو الجواب الأفضل وليس الأسوأ عن هذه المشكلة .

ثمة اعتراضات طبعاً على استخدام اختبارات الذكاء ، وبعض هذه الاعتراضات جديرة بالاهتمام . لقد تبيّن ان اختبارات الذكاء غير معصومة عن الخطأ ، وهي كذلك طبعاً . فالقياس العلمي جميعه عرضة للخطأ ، وينبغي الحكم على حجم الخطأ المتوقع من خلال علاقته بالخطأ المتضمن في عمليّة التحصيص والتقدم . وعلى الرغم من اننا نعتمد على نتائج الامتحانات إلى حد كبير ، إلا أنه تبيّن مرّة تلو اخرى ان الامتحانات غير موثوقة بشكل شديد ، وهي اقل مصداقية بكثير من اختبارات الذكاء . لقد بين هارتوج (Hartog) وروذز (Rhodes) في كتابهما « امتحان للامتحانات » (An Examitateon of E xaminateons) أن علامات الامتحان

تتغير على نحو ملحوظ حتى في حالة قيام الفاحص نفسه بتصحيح اوراق الامتحان ذاتها مرتين . ويغدو هذا التغير أكبر بكثير عندما يقوم مصححون مختلفون بتصحيح مجموعة الأوراق ذاتها . وعندما تقوم المجموعة نفسها من المرشحين بوضع امتحانين منفصلين يصححهما مقدرون مختلفون ، فالموثوقية تنخفض إلى حد بعيد . ان اختبارات الذكاء مبنيّة على نحو يبلغ ثباتها حدة الاقصى ، وهي تحقق فعلاً مستويات ثبات مرتفعة جداً ، بينما لا تبنى الامتحانات من اجل الثبات — ويبدو أن فكرة الثبات الحقيقيّة لا مكان لها في عقول الذين يضعون الامتحانات ويصححونها. ولدى التحقق من ثبات هذه الامتحانات يتضح باستمرار تقريباً أن ثباتها ضعيف . وهكذا يطلب منا الاعتماد على ادوات معروفة بعدم موثوقيتها (امتحانات المدارس) ورفض ادوات معروفة بموثوقيتها (اختبارات الذكاء) ، وذلك لسبب بسيط مفاده أن اختبارات الذكاء ليست بالغة الكمال تماماً . انه استنتاج غريب حقاً ! يترتب على الكائنات الانسانية أن تتخذ قرارات هامة عديدة في كل يوم بناء على معرفة او بينّة غير موثوقة تماماً . وينبغي للفرد أن يحاول جعل البينّة موثوقة قدر الامكان ، لا أن يرفض الوقائع ذات العلاقة لأنها ليست صحيحة على نحو كامل . والامر الهام هو اكتشاف ما إذا كانت هذه الوقائع تحسّن فعلاً صدق القرار وصحته . وثمة شك ضئيل في قدرة اختبارات الذكاء على اداء هذه الوظيفة ، حتى في حالتها الراهنة غير التامة .

ولكن أليست اختبارات الذكاء عرضة للتأثر بالتدريب ؟ نعم انها تتأثر بالتدريب . بيد أن ساعتين او ثلاث ساعات من التدريب السابق لتطبيق الاختبار النهائي ، سوف يمحو آثار التدريب جميعها ،

بحيث لا يؤدي اثر التدريب إلى اية مشكلة كبيرة في منظومة امتحان منظم على نحو مناسب والآن ماذا بالنسبة للاطفال بطيء التطور ؟ يبدو أن مثل هؤلاء الاطفال موجودون ، ولكن التنبؤ بالاطفال الذين سيكونون بطيء التطور ليس امراً مستحيلاً . ولقد اظهرت بعض الدراسات الحديثة إن النزعة إلى تأخر التطور مرتبطة بالشخصيّة (يبدو أن الانطوايثين ابطأ من حيث التطور) ، وانه يمكن قياس سمات الشخصيّة ذات العلاقة بهذه النزعة . ان قياس هذه السمات سوف يزيد على نحو افتراضي الدقة التنبؤية لاختبارات الذكاء ولكن الا تيغير الذكاء عبر الزمن ؟ نعم إنه يتغير ، ولكن على الرغم من أن تغيره يحدث غالباً في اعمار ما قبل العاشرة والحادية عشرة ، إلا أن التغيرات التي تتلو بداية التعليم الثانوي هي اقل بكثير ، ومع ذلك ، يمكن ملاحظتها على نحو جيد في الحالات الفردية . وعلى اية حال ، اظهر البحث العلمي أن هناك انماطاً معينة من الاختبارات والمشكلات تتنبأ بحاصل الذكاء النهائي على نحو افضل من الاختبارات العادية التي تكون أكثر اهتماماً بالوضع الراهن للفرد . وان نباء ادوات قياس تتنبأ بالذكاء المستقبلي على نحو افضل من الادوات المتوافرة حالياً ، يجب أن يكون امراً غير مستحيل . الم يبيّن البحث العلمي أنه ينبغي لنا التحدث عن قدرات خاصة مختلفة ، مثل القدرة اللفظية والعددية والادراكية ... الخ ، بدلاً من التحدث عن الذكاء العام ؟ نعم ... ثمة دليل على أن الأخذ بمخطط قدرات عقلية مختلفة هو اكثر فائدة من الاخذ بالذكاء العام الذي يشكل متوسط هذه القدرات تقريباً — ان مثل هذه الاختبارات لا تتوافر بكثرة إلا إذا رغبت السلطات التربوية

في استخدامها . الا تفشل الاختبارات المحددة (Convergent tests) مثلها في ذلك مثل اختبارات الذكاء التقليدية ، في قياس صفات هامة مثل الاصالة التي تقيسها الاختبارات المنطلقة (Devergent tests) على نحو افضل ؟ ربما كان اجراء البحث العلمي واستخدام مثل هذه الاختبارات إذا تبيّن انها مفيدة ، امراً مناطاً ايضاً بالسلطات التربوية إذ ما من مشكلة بهذا الصدد من حيث المبدأ . والامر المؤسف في هذا السياق هو (ا) لقد استمرت السلطات التربوية في استخدام نمط اختبار الذكاء المطور في العشرينات مع اجراء تغيير بسيط عليه ، ورفضت الانتباه إلى التطورات الحديثة الهامة في التحليل السيكولوجي للذكاء ، والتي جرت في السنوات الأخيرة . (ب) اظهرت السلطات التربوية احساساً ضئيلاً بمسؤولية ادخال الاشراف البحثي المناسب على فاعلية خططها التربوية ، والاستعداد للادخال التجريبي للتجديدات التربوية حفاظاً على حداثة هذه الخطط . وينطبق الأمر ذاته على قسم التربية الذي يجب أن يأخذ على عاتقه دوراً اكثر فاعلية في بحث الآثار الدقيقة لتغيير اساليب التصنيف وامكانيات التحسين التي تنبثق عن البحث الاكاديمي . تتمتع الاعتراضات الموجهة على نحو متكرر إلى اختبارات الذكاء ، مثل الاعتراضات المذكورة آنفاً ، بأساس واقعي ، غير أنها اعتراضات تافهة ولا يستعصي تذليلها بأية حال . ويمكن تقليل فحواها إلى حد كبير او ابطاله كلياً باستخدام اسلوب اكثر علمية في بناء الاختبار والتقويم وادخاله في النظام ، التربوي القديم .

ولكن ألم نتهرّب من الحاجة إلى التوزيع ، بحيث تخلصنا من مشكلة قياس الذكاء بمجملها عبر الغاء امتحان (+ II) والمدخل

العالمي (تقريباً) للمدارس الشاملة ؟ على الرغم من اتساع انتشار مثل هذا الاعتقاد ، إلا انه طبعاً اعتقاد غير واقعي على الاطلاق . فخط امتحان (+ II) ما زال قائماً ولكن على نحو خفي ، وبتوصية من مدير المدرسة الذي يمارس تأثيراً حاسماً في تصنيف الحالات المتوسطة . وما زال الاطفال يخضعون لهذا الامتحان ولكن دون علم منهم به ، وربما دون معرفتهم بالنتائج المترتبه عنه . من المؤكد أن التصنيف في دخول المدارس قد اخذ بالتناقص ، بيد أن التصنيف داخل المدارس لم يتناقص . ويطرح كتاب « التصنيف في التربية » (qrouping In Education) الذي حرره ياتز (A. Yates) تسعة اساليب منفصلة مستخدمة على نطاق واسع في تصنيف الطلاب داخل المدارس وهذه الاساليب هي :

(١) التدريج وفق علامات التحصيل .

(٢) انشاء صفوف خاصة .

(٣) المسارات المختلفة .

(٤) التدفق والخلفيّة .

(٥) التصنيف غير الرسمي

(٦) التصنيف اللاتجانسي المخطط .

(٧) التصنيف المرن المخطط .

(٨) التصنيف حسب قابلية التعليم (الرغاة في التعليم) .

(٩) التصنيف داخل الصف .

ويبنغي اضافة اسلوب آخر إلى هذه الاساليب التسعة ، وهو ما يمكن

تسميته بالشكل الخفي لتصنيف الدخول إلى المدرسة . وحتى بين المدارس الشاملة ، هناك مدارس جيدة واخرى سيئة تستخدم مثل المصطلحات للاشارة إلى نوعية المعلمين ، والتزود بالتسهيلات التعليميّة ، وخصائص الابنية المدرسية والمستوى المتوسط لمقدرة التلميذ ، وجوانب مماثلة ذات صلة بالمدارس والتعليم . وإذا كانت المدارس تقدم خدماتها للمنطقة المجاورة ذاتها ، فسينزع الاطفال الاكثر ذكاءً إلى تكوين « صفوة » المدرسة الأفضل — وبخاصة الاطفال الاذكى لآباء الطبقة المتوسطة الذين يدركون طبيعة التربية بمجملها . ثمة محاولات جرت في كثير من الاحيان لتجنب هذه النزعة ، وذلك بوضع حدود لعدد الاطفال الذين تستطيع كل مدرسة استيعابهم في ضوء درجات قدرة عقلية عامة متنوعة . بيد أن هذه المحاولات محكوم عليها بفشل جزئي على الأقل ، نتيجة التشتت الكبير لهذه الدرجات : افترض كمثال متطرف . اننا اجبرنا كل مدرسة على استيعاب ٥٠٪ من الاطفال الذين تقع درجات ذكائهم فوق المئة ، و٥٠٪ ممن تقع درجات ذكائهم دون المئة . يمكن للمدرسة الجيدة في مثل هذه الحالة أن تأخذ الاطفال الذين تكون درجات ذكائهم (١١٥) درجة ، تاركة الاطفال الذين تتراوح درجات ذكائهم بين (١٠٠ و ١١٥) درجة للمدرسة السيئة . كما يمكن لتلك المدرسة أن تأخذ الاطفال الذين تتراوح درجات ذكائهم بين (٩٠ و ١٠٠) درجة ، تاركة الاطفال الذين تقل درجات ذكائهم عن (٩٠) درجة للمدرسة السيئة . ان الامتثال للتوزيع المتساوي حسب درجات الذكاء ، سيتم تحقيقه في هذا المثال ، غير أن متوسط مستويات الذكاء في المدرستين سيكون مختلفاً تماماً .

ومهما كان وضع التوزيع في التربية ما قبل الجامعية ، فإن احداً لن يجادل بأن الحاجة إلى التوزيع تختفي عندما تصل إلى مستوى التربية الجامعية . فالانتقاء في هذا المستوى يفرض مشكلة خطيرة وصعبة جداً بالنسبة لمعلمي الجامعات جميعهم ، ومن المؤكد أنها مشكلة لم تجد سبيلاً إلى الحل . ليس ثمة لجوء هنا إلى اختبارات الذكاء تقريباً ، رغم ان الدليل يوحي بشكل قوي جداً ، بان الاستخدام المناسب لاختبارات مناسبة ، يمكن أن يقدم عوناً كبيراً في هذا السبيل . (انتبه إلى ضرورة تأكيد الاستخدام المناسب للاختبارات المناسبة الذي ورد في الجملة السابقة . فقد جرب بعض علماء النفس المتحمسين غير المحترفين استخدام اختبارات غير مناسبة ، وعلى نحو غير مناسب ، لا لشيء إلا لاكتشاف أن النتائج مخيّبة للآمال . ان ذلك لا يثير الدهشة ، فكما أن القدرة على قراءة درجة حرارة المريض باستخدام مقياس الحرارة لا تمكّن الانسان العادي من تشخيص داء المريض ، كذلك فإن القدرة على ادارة اختبارات جماعية روتينيّة لا تمنح الانسان حق تفسير النتائج ــ هذا بصرف النظر تماماً عن مسألة كيفية اختيار الاختبار الصحيح في المقام الأول !) . يمكن لاختبارات الذكاء أن تقدم العون لا في انتقاء الطلاب او رفضهم فحسب ، بل في توزيعهم . ايضاً . ان اختبارات القدرات الخاصة اللفظية والعددية والادراكية ، توحي باختيار مساقات دراسية افضل واكثر مناسبة مساقات يختارها غالباً طلاب يجهلون متطلبات هذه المساقات او يجهلون قدراتهم الخاصة . ومرة اخرى ، لا تدعي اختبارات الذكاء قدرتها على انجاز تنبؤات تامة ــ فالقدرة العقلية رغم كل شيء ، ما هي إلا احدى

المتطلبات السابقة العديدة اللازمة للنجاح الأكاديمي ، وإن الذكاء المرتفع في ذاته ليس كافياً من اجل تحصيل بارز . ولكن من المؤكد ان القدرة العقلية هي شيء ينبغي اخذه في الحسبان ، وان تقديرها مفيد حتى لو كان اقل كمالاً مما هو مرغوب فيه . تفتقر الجامعات البريطانية هنا ايضاً إلى المبادرة والجرأة اللازمة حتى لتنفيذ بحث علمي تمهيدي يكشف لها شيئاً ما حول امكانية تطبيق هذه الاساليب من حيث العلاقة بحاجاتها . ان المنحى الكلي لهذه الجامعات ، هو خليط من الاعتداد بالنفس والرضا الذاتي والذي يصعب تبريره بالنتائج المتوافرة .

ان الحجة القائلة بأن « الأكثر يعني الأسوأ » هي من الحجج التي يستشهد بها في هذا الصدد ، غير أن شعارات من هذا القبيل ليست ذات فائدة كبيرة في بحث مشكلة بالغة التعقيد . وهي خاصية لما يحث الفرد ، تشايعاً مع اللورد سنو ، إلى استدعاء منحى اللامعدود . فالتفكير في اي نموذج رياضي للانتقاء ، يقترح عدداً كبيراً جداً من الخصائص المتغيرة للمجتمع الاحصائي (الوسطاء) يجب وضعها في الحسبان لدى التفكير في اي تغير يطرأ على الاجراء الاحصائي ، مثل زيادة العدد الذي يجب انتقاؤه . يناقش فيرنوكس (W.D.Furneaux) بعض هذه الخصائص في كتابه « القلّة المختارة » (The Chosen Feu) ومنها : نسبة التلاميذ المختارين لتربية اضافية ، وعدد الابعاد التي يمكن في ضوئها تقسيم محك الانتقاء إلى اجزاء اصغر ، وارتباط هذه الابعاد بالنجاح النهائي ، وعدد الابعاد الاضافية التي ينبغي اخذها

في الحسبان ويصار إلى اسقاطها (مثل درجات الذكاء) ، وارتباط هذه الابعاد الاضافية بالنجاح النهائي ، ودرجة النجاح المعتمدة في توزيع التلاميذ المقبولين (او توزيعهم لأنفسهم) على انماط المساقات الدراسية المختلفة ، وارتباط انماط الاختبار المتنوعة بنجاح هذا التوزيع وصدق النجاح النهائي وثباته . يمكن اعتماداً على القيم العددية لهذه الوسطاء القول بأن « الأكثر يعني الأسوأ » أو « الاكثر يعني الافضل » او « الأكثر يعني الأكثر من الشيء ذاته » . اننا لانستطيع تأكيد اي من هذه الاقوال دون بحث دقيق ، وبخاصة عندما تتغير اساليب التعليم ، ولا تحافظ المعايير على ثباتها . ولكن ثمة احتمال قوي بأنه إذا اختير الأفراد « الأكثر » على نحو افضل من اختيار الأفراد الاقل ، فقد يعني « الأكثر » وبشكل جيد تماماً « الافضل » بدلاً من « الأسوأ » . ويصدق هذا الوضع بشكل خاص إذا اشتمل « الانتقاء » على « التوزيع على مساقات معينة من الدراسة » . ليس لديّ رغبة في أن اكون ايقانياً بصدد هذه المسألة ، فهي في حاجة إلى بحث علمي مصمم على نحو دقيق تماماً لتأسيس الوقائع الصادقة في هذا المجال .

ان قول ذلك لا يعني التغاضي عن فكرة « التسجيل الجامعي المفتوح » ، (القبول الجماعي لطلاب المدارس الثانوية المحليّة في الجامعات) والتي يطالب بها عدد كبير من الطلاب والقادة ، وبخاصة السود منهم ، في الولايات المتحدة . كما أن النقاش المقدم لا يحابي فكرة الحصص النسبية العرقية التي فحصت بدقة في الولايات المتحدة ايضاً . وطبقاً لهذه الفكرة ، ينبغي اجبار الجامعات على قبول نسبة من الزنوج مكافئة لعددهم في الامة الاميركية . ان هذه المقترحات

هي عنصرية بطبيعتها ، وتناقض مبادىء الديمقراطية ، بل وابعد من ذلك ، انها تناقض بصورة مؤكدة اعلان الاهداف المرغوب فيها للتربية والمذكور في المقطع الأول . لأن كل زنجي غبي ضعيف التحصيل يقبل في الجامعة في ظل دور كهذا ، سوف يجبر طالباً ابيض ذكياً جيد التعليم على عدم دخول الجامعة . وستعبّر عملية من هذا النوع في الواقع عن شعار « الاكثر يعني الأسوأ » إلى حد بعيد . ثمة حقيقة ما زالت راهنة ، وهي ان الزنوج ذوي الذكاء المماثل لذكاء البيض ، هم محرومون من الحصول على تعليم عال بسبب التسهيلات التربوية الاضعف جوهرياً ، والتي تسم الممارسات الاميريكية بالقدر الذي يكون فيه المواطنون الملونون موضوع اهتمام . يبدو أن استخدام درجات الذكاء يزودنا هنا ايضاً بحل ممكن لمشكلة عسيرة إلى حد بعيد .

لماذا يعتبر الانتقاء ضرورياً ؟ إن الاجابة واضحة على المستوى الجامعي . فالمجتمع لا يستطيع تحمل الانفاق اللازم على تعليم اكثر من اقلّية صغيرة في هذا المستوى وثمة عدد محدود فقط من الطلاب الممكنين المتمتعين بالقدرة اللازمة للاستفادة من المساقات الجامعية . ولكن الحاجة إلى الانتقاء على مستوى المدرسة الثانوية ، او حتى على مستوى المدرسة الابتدائية ، قد لا يكون على هذا النحو من الوضوح . ان الجواب المتوافر غالباً هنا ، هو أن الصفوف المتجانسة من حيث القدرة العقلية هي اسهل تعليماً ، وأن المجموعات ذوي القدرات المختلفة تستطيع أن تتقدم في التعلم حسب سرعتها الخاصة إذا صنفت

على نحو مناسب . يفترض غالباً أن هذه التبريرات صادقة ، لأن حقيقتها تبدو جليّة ، بيد أن البحث العلمي الذي تم بهذا الصدد لم يؤيد بشكل كلي التفوق المزعوم للصفوف المتجانسة . فكتاب ياتز حول « التصنيف في التربية » المذكور آنفاً ، وكتاب « التصنيف في المدارس الابتدائية » لمؤلفه مورجنسترون (Morgenstron) . يتناولان بعض ما كتب في هذا السياق دون الاشارة إلى أن جميع الأثر يعود إلى التصنيف حسب القدرة العقلية . ولكن من الخطأ اعارة اهتمام كبير لبحث لا يتمتع بنوعية عالية جداً ، ويجب الشك جداً في نتائجه ، لأن هناك صعوبات عديدة تعترض تنفيذ بحث علمي من هذا القبيل بصورة مناسبة . ان المعلمين الذين اعتادوا تعليم صف من نوع معين ، قد لا يكونون قادرين على الافادة من الفرص التي يمنحها توافر تلاميذ ذوي قدرة متشابهة . وربما يحتاجون إلى تدريب خاص على الاساليب التعليميّة المناسبة قبل أن يصبحوا قادرين على استثمار الوضع بالشكل الأفضل . والتجارب التي جرت في هذا الميدان ، تستغرق عادة وقتاً قصيراً جداً لا يمكّن الآثار الجليّة من ابراز ذاتها . كما أن مجموعات القدرة ليست متمايزة على نحو كاف في القدرات العقلية بحيث تمكّن الآثار الواضحة من الانبثاق — يوحي العمل ، الاميركي مع الاطفال الاذكياء على نحو غير عادي ، والخبرة الانكليزية في العمل مع اطفال من هذا النوع ، بأن التصنيف يؤدي إلى تقدم اسرع عند اختيار النهايات المتطرفة . ولكن حقيقة كون البحث العلمي لا يتمتع بنوعية فائقة جداً حتى الآن ، لا يعني وجوب اهمال نتائجه ، كما لا يعني افتراض صدق عكس استنتاجاته . ربما ينبغي

لنا أن نقبل بشكل شرطي على الأقل ، ولو بمواصفات معينة ، حقيقة مفادها أن نظاماً عاماً للتصنيف على اساس درجات الذكاء لا يؤدي إلى تحسين التحصيل بالضرورة - طالما لا يتوافر تدبير استعدادي خاص من اجل توفير علاج مناسب للأطفال الاذكى جميعهم .

ان هذا التدبير امر هام . الاطفال البريطانيون الأذكياء لا يفيدون بالضرورة من انفصالهم عن الاطفال الأقل ذكاءً ، طالما بقي النظام الكلي وفلسفة التعليم على حالهما ، وطالما لم يتم تدريب المعلمين واختيارهم خصيصاً بدلالة قدرتهم على التعامل مع الاطفال غير العاديين . قد يتطلب الاطفال الاذكياء اساليب تعليم مختلفة تؤكد الاستقلالية والمشاريع الفردية والذاتية الفردية وعوامل اخرى مشابهة . وعندما يكون جميع ما يقدم إليهم هو « الاكثر من كل شيء » فقد لا يستجيبون على نحو ايجابي اطلاقاً ، بل ربما يتمردون بدلاً من ذلك و « يضربون عن العمل » . وكما تقول لجنة الدراسات التربوية بهذا الصدد : « لأن الاهتمامات العقلية والتطلعات المستقبلية للطلاب المتفوقين مختلفة عن اهتمامات الطلاب الآخرين وتطلعاتهم ، ولأنهم قادرون على تعلم اشياء اكثر وبسرعة اكبر ، فإن الخبرات التربوية التي ينبغي للطلاب المتفوقين اكتسابها في المدرسة والكلية ، يجب أن لا تكون متماثلة مع الخبرات التي يتعرض لها الطلاب الآخرون . ينبغي أن يتعرض الطلاب المتفوقون والعاديون لبعض جوانب التربية ذاتها ، ولكن ينبغي كذلك أن يتعرض المتفوقون لجوانب تربوية اخرى مختلفة من حيث النوع والجودة ومستوى الاستبصار ، كما

ينبغي أن يتمتع كل معلم مدرسة ونظام مدرسي ومعهد للتعليم العالي بسياسات واجراءات منهجية من اجل تربية اطفالهم المتفوقين ، تشير هولنج وورث (L.Hollingw-orth) وهي خبيرة شهيرة في ميدان التفوق العقلي إلى « اننا نعرف من القياسات التي جرت لمدة تجاوزت ثلاث سنوات ، أن طفلاً يتمتع بحاصل ذكاء مقداره (١٤٠) درجة ، يستطيع التمكّن من جميع المهام العقليّة التي تقدمها المدرسة الابتدائية بوضعها الراهن بنصف الوقت المتاح له . لذلك يمكن الاستفادة من نصف الوقت الذي يقضيه في المدرسة في اداء نشاطات اخرى غير التي يتطلبها المنهاج » . وتمضي هولنج وورث إلى توجيه الانتباه لطرق « اضاعة الوقت » العديدة التي يفرضها الاطفال على انفسهم بسبب عدم قيام المعلمين بالافادة المناسبة من هذا الوقت . وفي الواقع ، يجب على المعلمين في كثير من الاحيان أن يلفقّوا « عملاً مشغلاً » للحفاظ على انشغال التلاميذ الأذكياء . ان القليل من هذه الحيل يمتاز بالاسلوب المناسب الذي لا يمكن بناؤه إلا اعتماداً على تبصر سيكولوجي في طبيعة الاطفال المتفوقين وحاجاتهم . لذلك ، من غير المستغرب أن يصنف كل من تشارلز داروف ، وجوناثان سويفت ، وجورج اليوت ، والسيد وولد سكوت ، ودانيال وبستر ، وشيلر ، وجوتيه ، وانيشتاين ، كفاشلين في مدارسهم . ان العملية المألوفة لتعليم اطفال القدرة العقلية المتوسطة الجودة ، لا تنهض بأعباء الطفل الذكي على نحو ممتاز .

ان كلاً من المؤيدين والمعارضين للتعليم اللانتقائي ، يجادلون بدلالة تصورات سيكولوجية وتربوية مسبقة لا يؤيدها الواقع على

نحو قوي . والبحث العلمي المطلوب بهذا الصدد لم يتم انجازه على الاطلاق تقريباً . وحيثما يتوافر دليل واقعي ما ، يكون مطوقاً عادة بمواصفات تجعل الاستنتاجات السياسية غير المعقدة امراً مستحيلاً" . قد تؤدي هذه الحقيقة إلى حد استنتاجين مختلفين . فالسياسيون ، يفترضون عادة أن تفصيلاتهم ووجهات نظرهم صحيحة بوضوح كبير ولا حاجة إلى البحث العلمي . وإذا لم يتوافر بحث يناقض بصورة حاسمة ما يريدون رؤيته مؤثراً بناء على اسس أخرى ، فسيشعرون بالتبرير التام لوجهات نظرهم ويمعنون قدماً في تصوراتهم . اما علماء النفس فينزعون إلى الشعور بأنه قبل اجراء تغييرات حاسمة في التربية (او في اية حقول اجتماعية اخرى) ، لابد من توافر دليل قوي ناجم عن دراسات محكمة بشكل مناسب ، للتدليل على العواقب المحتملة لهذه التغيرات . ويبدو من السخف هؤلاء العلماء أن يناقش المحافظون والاشتراكيون إلى حد التقزز مسألة التصنيف الانتقائي بناء على تصورات مسبقة لا دليل عليها ، في حين يمكن تنفيذ البحث العلمي للحصول على دليل واقعي يستطيع وحده حل المشكلة نهائياً وعلى نحو حاسم . (ما قيل هنا حول هذه المشكلة الخاصة هو صحيح بدرجة مماثلة طبعاً بالنسبة لجميع المشكلات التربوية الأخرى . والحجج السياسية حول الحقائق السيكولوجية ليست مؤثرة او مقنعة ، وينبغي تأكيد الحقائق بالتجربة والبحث) . لقد سقط الطرفان كلاهما في مهمة انشاء البحث العلمي المطلوب على نطاق واسع ، والذي سيمكننا وحده من تقديم جواب مناسب عن هذه المسألة الهامة .

اننا لا نغالي في تأكيد الحاجة إلى البحث العلمي في التربية . فعلى الرغم من ان التربية قد احتلت البند الأكبر في ميزانية الأمة ، إلا أن ما انجز من بحث فيها يبعث على السخرية ولا يتمتع بنوعية متميزة . هل تغرس الاساليب الجديدة لتعليم الصغار التهجئة او الرياضيات طرق فهم اصيلة في اذهانهم فعلاً ، اما أنها تجعلهم غير قادرين على التهجئة او العدّ فقط ؟ ان « وحدة بحث القراءة » التي انشأها الدكتور داوبينغ والتي كانت تبحث آثار ادخال « التعلم الاولي للحروف » في تعلم القراءة ، وتدير سلسلة تجارب محكمة الضبط بهذا الصدد ، قد تعرضت للاغلاق من أجل مبلغ مقداره (٤٠،٠٠٠) جنيه تتطلبه متابعة السيرة المدرسية لألفين وخمسمائة طفل . وبذلك ضاع الوقت والمال المصروفان في تلك التجارب . تشير هذه الواقعة إلى مثال نموذجي لمنحى السياسيين غير العلمي وغير العملي حيال التربية ، وتحدد مشكلات واقعية الامر بدلالة التحيز السياسي والشكل الاجتماعي السائد . اما الاطفال (والمجتمع في نهاية الأمر) فهم موضوع المعاناة . ليت في الامكان فقط لو كان السياسيون الذين يتشدقون في شؤون قيادتنا في القرن العشرين والاختراقات التكنولوجية والتقدمات العلميّة ، عرضة لقانون الصد او المنع . والحال كما هو ، فجميع النضال الكلامي حول « تربية حديثة » ما هو إلا امعان في ضباب كثيف . والتقدمات العلمية والاختراقات التكنولوجية لا تزدهر في مناخ من هذا القبيل . ان القرن العشرين هو قرن البحوث التجريبيّة والبرهان العلمي .

اما المجادلات الفلسفية حول المسائل الواقعية ، مثل المجادلات التي يمارسها معظم السياسيين (١) ، فتنتمي إلى القرن الثامن عشر .

ان التجارب التي تناولت « تصنيف » الاطفال ذوي القدرة العقلية المتشابهة معاً في صفوف او مدارس منفصلة ، قد اعتمدت عادة على درجة ذكاء مفردة . ومن المؤكد تقريباً أن هذا الاجراء ليس الطريقة المثلى لضمان نظام « تصنيف » مناسب . فالموضوعات المدرسية المختلفة تتضمن قدرات عقلية مختلفة ، وقد يتمتع طفل ذو قدرة لفظية مرتفعة وقدرة عددية منخفضة بدرجة الذكاء ذاتها التي يتمتع بها طفل ذو قدرة لفظية منخفضة وقدرة عددية مرتفعة ، إلا أنهما يستجيبان لتعليم اللغة الانكليزية والرياضيات على نحو مختلف تماماً ، وذلك انسجاماً مع نزعاتهما الخاصة . يجب علينا قبل الوصول

---

(١) عندما كان الجدل حول المدارس الشاملة في اوجه عام (١٩٦٥) ، كان المبلغ الاجمالي المخصص للتربية هو (١٢٧٦) مليون جنيه ، صرف منه (٢٥٠٠٠) جنيه على البحث التربوي في انكلترا وويلز ، اي بواقع جزء واحد من خمسة آلاف جزء ! قارن هذه النسبة بجمعية البحث الخزفي البريطانية التي بلغ دخلها (٢٩٤٢٠٠) جنيه ، بالاضافة إلى منحة حكومية مقدارها (٦٤١٥٨) جنيهاً . وفي حين تحصل التربية على منحة حكومية مقدارها (٢٠٠٠٠) جنيه ، فان بحث الخبز يحصل على (٢٨٠٠٠) جنيه ، ويحصل بحث الطحين على (٢٥٠٠٠) جنيه ، ويحصل بحث الجوارب على (٢٨٠٠٠) جنيه ! من الواضح اننا نوجه رعاية اكبر للسيراميك . والطحين والجوارب من التي نوجهها للتربية ، وذلك ضوء مقدار الاموال التي تكرسها للبحث في هذه الميادين . لقد ارتفع الآن مقدار الاموال الكلي المصروف على التربية ، غير أن النسبة المخصصة للبحث التربوي فشلت في الارتفاع . وفي الواقع ، ان حالة من العمى لا تؤدي إلى العمى فحسب ، بل ترفض على نحو عنيد قبول أية مساعدة ايضاً .

إلى اي استنتاج معقول ، ان ندخل في بحثنا وفي اجراءات انتقائنا اختبارات متعددة العوامل تقيس عدداً من القدرات العقليّة المؤسسة بصورة افضل . ليست درجة الذكاء غير مفيدة بأية طريقة ممكنة ، لكنها غير كافية بشكل واضح . لن يؤدي مثل هذا البحث بالضرورة حتى لو كان ناجحاً ، إلى اعادة النظر في مبدأ التصنيف ، والقول بأن الوقائع لا تؤيد عملية التصنيف في دخول المدرسة .

ان تعقيد العوامل المتضمنة في بحث « التصنيف وفق القدرة » هي غير مفهومة عادة ، وبخاصة من اولئك الذين تقوم وجهات نظرهم على اعتبارات سياسية ، سواء كانوا مع التصنيف أم ضده . والقول بأننا لا نعرف ماهية الحقائق تماماً ، قد لا يكون مضاداً للحقيقة إلى حد بعيد . فكر فقط في عدد قليل من التعقيدات التي تنشأ بهذا الصدد ، وتبيّن أنها تؤثر في النتائج ، ومنها :

(١) ان اتجاهات المعلمين هامة ، فمن غير المرجح أن « يعمل » المعلمون المؤيدون لنظام التصنيف في نظام لا تصنيفي بالفاعلية نفسها التي يعملون فيها في نظام تصنيفي ، والعكس بالعكس .

(٢) ان متوسط القدرة العقلية ومدى القدرة داخل الجماعة ، هما هامان كلاهما . فما يصدق على مجموعة غبيّة متماثلة تقريباً ، قد لا يصدق على مجموعة تتضمن اطفالاً اذكياء على نحو متطرف واغبياء على نحو متطرف .

(٣) التكوين الاجتماعي — فما يصدق على مجموعات اطفال الطبقة العمالية . قد لا يصدق على مجموعات اطفال الطبقة المتوسطة ، او على المجموعات التي تتضمن نسباً مختلفة من اطفال الطبقتين .

(٤) الشخصيّة — يبدو أن الانطوائيين يلقون نجاحاً افضل في نظام التصنيف من الانبساطيين .

(٥) المادة الدراسية — يبدو أن نظام التصنيف يتفوق في بعض المواد الدراسية ، بينما يتفوق نظام اللاتصنيف في مواد اخرى .

(٦) السنّ — لا يمكن الافتراض بأن تفوق نظام اللاتصنيف في سن معيّنة ، سوف يؤدي إلى تفوقه في سنّ اخرى ايضاً .

تلك هي فقط التعقيدات الواقعية الجوهرية المتضمنة في بحث نظام التصنيف . فكر بعد ذلك في مسألة تعددية المحكات . كيف يجب علينا أن نحكم على تفوق او دونية نظام معين ؟ أبدلالة نتائج الامتحانات ؟ أم بدلالة التكيف الاجتماعي للاطفال ؟ أم بدلالة تطور اتجاهات طويلة المدى اثناء الحياة المدرسية تجاه أناس من طبقة اجتماعية مختلفة ؟ أو بدلالة اي من المحكات الاخرى التي يتم اقتراحها ، ويمكن أن تشكل الاهداف التربوية على نحو معقول . ان السؤال الجوهري هو : هل التصنيف افضل من اللاتصنيف ؟ يبدو هذا السؤال بلا معنى ، اذ يجب علينا اولاً ايجاد اجوبة عن الاسئلة التالية : الافضل من اجل ماذا ؟ والافضل تحت اية شروط ؟ ان المشكلات التربوية كما يدرسها عادة السياسيون والمعلمون وعلماء التربية انفسهم ، هي مشكلات زائفة ، ولا يمكن توافر اية اجابات ذات معنى تتعلق بطبيعة هذه المشكلات ، فالنقاش يولد حرارة فقط ، ولكنه لا يحدث نوراً . هناك عدد قليل جداً من المسائل ، والمشكلات الاجتماعية الاحادية البعد ... اي تتطلب جواباً بسيطاً عن

« الافضل والأسوأ » . غير أن معظم المشكلات هي من النوع المتعدد الابعاد ، بحيث يمكن الحكم على اي حل مقترح بأنه افضل وفق محك معين ، وأسوأ وفق محك آخر ، ومكافىء وفق محك ثالث . وعلى سبيل المثال ، قد يؤدي نظام التصنيف إلى تحصيل تربوي افضل في اللغة الانكليزية والرياضيات من النظام اللاتصنيفي عن الاطفال الاذكياء والمنتمين إلى الطبقة المتوسطة والانطوائيين والبالغين من العمر اثني عشر عاماً فأكثر ، وعندما يقوم معلم بتعليم هاتين المادتين في صفوف وحيدة الجنس ويتمتع هو نفسه بالجنس ذاته ، وقد يكون الأثر عكس ذلك في مادتي التاريخ واللغة الانكليزية بالنسبة لاطفال انبساطيين دون الثانية عشرة وينتمون إلى الطبقة العمالية ولا يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء ويعلمهم معلمون من الجنس الآخر في الصفوف التربوية . وقد تكون الآثار الاجتماعية في الاتجاه المضاد ، كما قد لا تتأثر الاتجاهات الطبقية بعيدة المدى بالتصنيف اطلاقاً . ان معلومات من هذا القبيل هي المطلوبة قبل أن نتمكن فعلاً من قول اي شيء حول مرغوبية او عدم مرغوبية التصنيف ، وهذه المعلومات هي التي نفتقدها بالتحديد بهذا الصدد . يتأرجح الرأي لدى الجماعات التربوية بين نهايتين متطرفتين على نحو واسع ، ولكن ليس على اساس واقعي ، بل بناء على الرأي والانطباع والتأمل والنقاش والتحيز السياسي واي شيء آخر من هذه الامور . متى سنتعلم أن فكرة « الخبراء » الجوهرية لا معنى لها عندما لا تولد الوقائع تلك المعارف التي تستطيع وحدها فقط أن تجعل من شخص ما « خبيراً » ؟ اننا نقوم جميعاً في الوقت الراهن بالتخمين والبحث المرتبك وتبديد الاموال

على تربية اطفالنا . واننا نقير الشروط على نحو عشوائي ودون تجريب بالمعنى المناسب ، لأنه لا يوجد ضبط مناسب وقياس ملائم للآثار او المتابعة .

قد يتساءل القارىء لماذا نمارس عملية الانتقاء اصلاً إذا لم يؤد تصنيف الاطفال ذوي الذكاء المتشابه معاً إلى تحسين ادائهم وتحصلهم ؟ فكر ملياً في الوقائع . ان المدارس تنزع لدى قبول تلاميذها إلى الاعتماد على السكان المجاورين لها . فالمدرسة الكائنة في حي تقطنه طبقة عمالية ، سوف تنزع غالباً إلى قبول اطفال مجموعة الطبقة العمالية اما المدرسة الكائنة في حيّ تقطنه طبقة متوسطة ، فستنزع إلى قبول اطفال مجموعة الطبقة المتوسطة بشكل غالب . يضع ستيفن وايزمان (Stephen Wiseman) في كتابه « التربية والبيئة » (Educateon and Emrronment) صورة للفروق التي يمكن نوافرها في هاتين المدرستين . يطلب وايزمن منا أن نفكر في تلميذين متماثلين من حيث الذكاء ، احدهما التلميذ (ا) ، وهو تلميذ ممتاز يؤم مدرسة تقع في منطقة فقيرة وتقل الدرجة المعيارية لذكاء حوالي ٧٠٪ من تلاميذها عن (٨٥) درجة (علماً بأن متوسط الذكاء هو « ١٠٠ » درجة) . والثاني هو التلميذ (ب) ، وهو تلميذ متوسط يؤم مدرسة تقع في احدى الضواحي الخارجية ولا يتجاوز عدد تلاميذها المتخلفين ٥٪ . « فكر في فروق جدول مواعيد المدرستين . من المرجح أن يتوافر للتلميذ الأول (التلميذ « ا ») فترات زمنية عديدة يكرسها للقراءة والانكليزية الأساسية والحساب الأولي ، كما يرجح أن تكون دروسه الأخرى القليلة العدد بالضرورة ، اولية

من حيث المضمون وشكلية من حيث الاسلوب تقريباً . اما التلميذ الآخر (التلميذ « ب ») فسيتوافر له وقت ضئيل او لن يتوافر له وقت يكرسه للقراءة (كتدريب علاجي) او للحساب الأولي ، وسوف يستخدم هذه المهارات في الادب والرياضيات . اما زميله الآخر — المتمتع بوقت أكبر يكرسه للدراسة — فسيتوافر لديه تنوع وتعقيد وتحدي اكثر بكثير » . وبالاضافة إلى ذلك طبعاً ، سيأتي التلميذ (ا) من مدرسة ابتدائية جلّ اطفالها من المتخلفين الذين سوف يجدون صعوبة في اداء دراسة مناسبة ، في حين سيأتي التلميذ (ب) من مدرسة ابتدائية لا يعاني اطفالها من هذا الضرر . وبدلالة التحصيل المدرسي ، سيكون التلميذ (ا) ادنى من التلميذ (ب) في المراحل جميعها ، وذلك بسبب خلفيته الاجتماعية فقط . وإذا كان يجب حمايته من هذه الخلفيّة ، فسيبدو ان قياساً مباشراً لذكائه ، والافضل لنمط قدراته الكلي ، هو الطريقة الوحيدة التي ينبغي اتباعها . يمكن اقتراح نظام التصنيف هنا ، ولكن قد لا يتوافر في المدارس الافقر عدد كاف من الاطفال لتشكيل تصنيف يتمكن فيه التلميذ (ا) من التقدم وفق قدرته العقليّة .

من المرجح أن تغدو هذه المشكلة اكثر خطورة كلما اصبحت نزعة الاسر ذات الوضع الاجتماعي المتشابه إلى العيش في احياء معينة معاً ، وارسال اطفالهم إلى المدرسة ذاتها ، اكثر فأكثر تطوراً . ولقد ادى هذا الوضع في الولايات المتحدة الاميركية إلى تنقلات متطرفة ومحبطة ذاتياً إلى حد ما ، مثل جمع الاطفال في منطقة واحدة ، ونقلهم بالحافلة إلى منطقة اخرى في سبيل التغلب على تلك النزعة . ثمة ،

اتجاهات مماثلة ملفتة للنظر تتوافر حتّى في لندن في الوقت الراهن . لقد ذهب اثنان من اطفالي إلى مدرستين شاملتين متجاورتين تماماً . كانت احداهما شبيهة بالمدرسة الموصوفة بصدد الحديث عن التلميذ (ا) ، وكانت الأخرى شبيهة بالمدرسة الموصوفة بصدد الحديث عن التلميذ (ب) ، هذا على الرغم من أن السلطات التربوية قد وضعت حدوداً لعدد الأطفال المقبولين في كل مجموعة قدرة عقلية . فإذا كان على اطفال الطبقة العمالية الأذكياء ان يتلقوا تربية تناسب قدراتهم ، فلابد من عمل شخصي يخلّصهم من دائرة الشر هذه . واختبار الذكاء فقط ، هو الذي يوحي بذاته كجواب ممكن لحل هذه المشكلة .

لقد استخدمت اساليب اخرى طبعاً لتصليح التوازن ، ولكنها قد لا تروق للآباء البريطانيين . ثمة قانون نافذ المفعول في المانيا الشرقية يضمن ملء نصف مقاعد المدارس العامة باطفال الطبقة العمالية او بأطفال الفلاحين . وينطبق هذا القانون التوزاني المفروض بالقوة على الجامعات ايضاً . وفي حين لا ارغب في الدفاع عن شيء من هذا القبيل ، إلا انني اودّ اثارة الانتباه إلى واقعة يمكن التنبؤ بها من نظريات الذكاء الوراثية لا البيئية ، وهي أنه بصرف النظر عن النوعية المشعشعة لهذا النظام الذي ادخله كورت هاغر (Kurt Hager) ، فقد انجز نتائج ممتازة ، ويضاهي على نحو ايجابي نظام المانيا الغربية (حيث يشكل اطفال الطبقة العمالية ٦٧٪ من مجتمع التلاميذ ، ولكنه ينتج ٧٪ فقط من منتسبي الجامعات) . لقد احتلت المراكز الثلاثة الاولى « الاولمبياد الرياضي » (من الرياضيات) الحديث اقطار تقع خلف الستار الحديدي ، واحتلت المانيا الشرقية المركز الثالث

متقدمة تماماً على المانيا الغربية رغم عدد سكانها الأكبر . ان مشكلة كيفية اختيار اطفال الطبقة العمالية الذين يشكلون التوان بين . المقبولين في المدارس العامة بألمانيا الشرقية ما زالت قائمة ، ولكنني أريد توجيه الانتباه إلى أن المانيا الشرقية قد نجحت في بناء جدارة تقوم تربيتها ظاهرياً على مبدأ « تساوي الفرص للجميع » ، وذلك من خلال انتقاء القدرات لاطفال الطبقة العمالية ورعايتها . ان قياس حاصل الذكاء يوفر لنا فرصاً اكثر ديمقراطية للقيام بالشيء ذاته.

سوف يتبيّن من خلال حديثي انني أرى في اختبار الذكاء اداة ايجابية لاكتشاف الموهبة ، بينما تتكرر الشروط البيئية على دفن امكانيات الطفل الذكي . ولكن ينبغي لهذه النظرة أن تكون متعارضة مع النظرة التي يؤمن بها على نحو واسع الآباء المحبطون للاطفال الفاشلين في اختبار (+ II) ، والذين يرون في هذا الاختبار عقبة مصطنعة تمنع اطفالهم من نوع التربية التي يرغبون فيها . من المؤكد أن نظرة جود فري تومبسون إلى اختبارات الذكاء ليست على هذه الصورة . واعتقد أن البروفسور وايزمان بحصافته الشخصية المؤثرة ، قد اصاب الهدف عندما قال بأن الدرجة المرتفعة على اختبار الذكاء هي دليل لا يقبل الجدل على القدرة العقلية العالية ، بينما قد تعود الدرجة المنخفضة

* من الجدير بالذكر هنا أن نسبة أطفال الطبقة العاملة الذين دخلوا جامعات بريطانيا العظمى اثناء سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كانت اكبر من نسبة اي قطر ديمقراطي آخر في اوروبا . وربما كنا صادقين جزئياً على الاقل ، إذا قلنا بأن هذه النتائج الجيدة تعود إلى استخدام اختبارات الذكاء لدى الانتقاء في مرحلة الدراسة الثانوية . وسأعنى بمعرفة ما إذا كان يمكن الحفاظ على هذا التمايز في حالة اغفال استخدام اختبارات الذكاء .

إلى أسباب أخرى غير الغباء . واستدل بحق كما اعتقد ، على أنه ينبغي لنا أن نواجه اهتماماً اكبر بكثير إلى درجات الذكاء المرتفعة مما نوجهه إلى درجات الذكاء المنخفضة . دع امر تحديد الفشل . للعلامات المدرسية (ويفضل أن تكون موضوعية واكثر موثوقية) حتى اليوم ، ولكن دع لاستخدام اختبار الذكاء امر انقاذ الاطفال الأذكياء الذين لا يجاري تحصيلهم قدراتهم العقليّة لأسباب تتعلق بالشروط البيئية . قد يعاني الاطفال « ذوو التحصيل الادنى من المتوقع » من نقص او عيوب في الشخصيّة تجعل نجاحهم في احراز تحصيل مدرسي بارز متفق مع قدراتهم امراً غير محتمل اطلاقاً ، على الرغم من ارتفاع هذه القدرات لديهم . ولكن قد يعود الخطأ في العديد من الحالات إلى الاتجاهات الشخصيّة والوالدية . ويمكن للوقائع الموضوعية كتلك التي يوفرها قياس الذكاء ، أن تكون كلية الأهمية في تغيير هذه الحالات . وإذا لم يستخدم المجتمع اختبارات الذكاء حتى الآن ، فالكثير من الاسوأ سينال من المجتمع ذاته . لقد ادينت اختبارات الذكاء وامتدحت في كثير جداً من الاحيان لأسباب خاطئة. ان اختبار الذكاء في ذاته ما هو إلا مجرد مقياس علمي لشيء هام جداً (ولكن ليس كلي الأهميّة !) في التربية والحياة . اما كيفية استخدام مثل هذا المقياس فهي مسألة مختلفة طبعاً . ولكن ينبغي عدم الاجابة عنها ، كما هو معتاد ، دون معرفة واسعة تماماً بما هو ذكاء وما ليس بذكاء ، وبما يستطيع الذكاء عمله او لا يستطيع . ليست الحجة السياسية بديلاً عن البحث المعرفي ، والتناقض الذي كان على الاشتراكيين الانكليز ارتكابه مدفوعين بهوى عاطفي نحو العدالة

الاجتماعية ، والمتمثل في رفضهم الضاري للاداة الوحيدة المعروفة التي تكفل على نحو دقيق علم تطوير استخدام الادوات التي ستساعد على تحقيق ما ينشدون ، يشير على نحو اكثر وضوحاً من اي شيء آخر إلى الغموض الذي يكتنف ويهدد المسألة برمتها .

اني لا ارغب في تكوين اعتقاد مفاده انني اعارض التغيير من انواع المدارس المختلفة إلى مدارس عالمية شاملة ، جراء اقتراحي بأنه ينبغي لنا اعادة النظر في ابعاد اختبارات الذكاء عن المناقشات الرفيعة . لقد اظهرت اليس جريفن (Alice qrffin) أن تنبؤات الكارثة المدرسية التي ترافق الانتقال إلى المدارس الشاملة لم تتحق ، حيث وجدت في دراساتها المقارنة لأنماط مختلفة من الدارس أن

(١) المدارس الشاملة في ضواحي وسط انكلترا قد زودت جميع الاطفال ذوي مستويات القدرة العقلية جميعها ببيئة مثيرة .

(٢) وجد فرق ضئيل بين ثلاثة انماط من التنظيم المدرسي من حيث التحصيل في اللغة الانكليزية .

(٣) كانت اتجاهات التلاميذ الأذكى نحو المدارس الشاملة افضل من اتجاهاتهم نحو المدارس العامة ، ويصدق هذا بشكل خاص في حالة البنات .

(٤) تؤيد النتائج الفرضيات التي اقترحها ميللر (Miller) ، وهي أن المدارس الشاملة تساعد في التغلب على تقدير التفاوت بالنسبة لانماط التنظيم المدرسي المختلفة ، وأن لها تأثيراً موحداً في المعنويات ، كما يبدو أنها تقوي سلطة ادارة المدرسة . من الطبيعي أننا في حاجة

إلى مزيد من هذا النوع من البحث العلمي ، غير أن الدليل يبدو قوياً ــ شريطة أن ما يصدق على مدارس شاملة معينة تمت دراستها ، لا يصدق بالضرورة على المدارس الشاملة الأخرى جميعها ، فثمة فروق حيوية تماماً بين مدارس تحمل اللقب ذاته .

واختصاراً لما قلته ، سوف اخلص إلى الاستنتاج بأن نمط مجتمعنا الرأسمالي وكذلك الشيوعي ، يحدثان طبقات اجتماعية ينزع اعضاؤها إلى الاختلاف من حيث الذكاء على الرغم من التداخل الكبير بينهم . ويختلف الاطفال ، المولودون في هذه الطبقات من حيث القدرة العقلية ، بيد أن اختلافهم اقل من اختلاف والديهم (ومردُّ ذلك إلى الانحدار نحو المتوسط ، وهو حقيقة وراثية معروفة تماماً) . ان أطفال الطبقة العمالية معوقون من حيث انجاز النجاح المدرسي ، وذلك بسبب العجز البيئي والاتجاهات الوالدية والنظم القيميّة المكتسبة ، حيث تحتل التربية مرتبة ادنى في السلم القيمي من المرتبة التي تحتلها بالنسبة لاطفال الطبقة المتوسطة . لقد تبيّن أن هذه المعوقات البيئية فعّالة جداً في منع العديد من اطفال الطبقة العمالية من انجاز مستوى تربية متناسب مع قدراتهم ، وبذلك نحرمهم من العدالة الاجتماعية (تساوي الفرص التربوية) ونسلب المجتمع من مواهبهم المطلوبة بصورة ملحة في ثقافة تعتمد على نطاق واسع على حاصل ذكاء مرتفع . ربما تؤدي اختبارات الذكاء إلى اكتشاف الموهبة غير المستخدمة لدى الاطفال ذوي التحصيل المتدني عن المتوقع ، وقد يؤدي ذلك إلى اهتمام اجتماعي بالمشكلة بدلاً من اخفائها تحت البساط . ان السؤال عن المقاييس الخاصة التي ينبغي للمجتمع استخدامها في سبيل انقاذ

هؤلاء الاطفال من مصيرهم المرجح لتربية دائمة لعينة ، ما زال سؤالاً مفتوحاً . قد يكون من الممكن تقديم بعض المساعدات المالية الخاصة بالاضافة إلى استخدام درجة ذكاء مرتفعة لاصلاح التوازن ، غير أن ذلك لا يضمن علامات مدرسية عالية جداً في سباق صعود السلم التربوي . ان الهدف من هذا الفصل هو اثارة الاهتمام بمشكلة جعل الفرص التربوية المتساوية اكثر من غطة تقيّة بحيث يؤدي إلى مقترحات تطبيقيّة صلبة . وعندما يدرك السياسيون وعلماء التربية قيمة اختبارات الذكاء بهذا الصدد ، فمن المرجح حينئذ ، وحينئذ فقط ، أن نهيء المناظرة العامة الضرورية التي يمكن أن تسبق العمل الاجتماعي . وربما سنعد ايضاً الدافع المطلوب لاجراء بحث علمي افضل يتمكن وحده من تحسين المقاييس المتوافرة حالياً ويقلّص مقدار الخطأ المتأصل في القياس العلمي جميعه . ان التقدم في انجاز مردود تربوي اعلى وافضل لدى مجموعات المجتمع ، سيكون معوقاً بالنسبة للعديد من اطفال الطبقة العمالية القادرين بدون مساعدة من اختبارات الذكاء ، الامر الذي يمكن عدداً كبيراً من الأفراد دوي القدرة المتوسطة من الوصول إلى القمة ، بينما يجعل العديد من الأفراد ذوي القدرة الفائقة مغمورين . ان نشوء هذه الجدارة المتوسطة الجديدة ، هي ظالمة اجتماعياً ، ومشؤومة وطنياً ، وغير مقبولة اخلاقياً .

يجيب العديد من الناس عن هذه الحجج جميعها باعتراضات معينّة ينبغي سماعها على اقل تقدير ، زغم أنها قد تكون غير متسقة منطقياً او غير معقولة واقعياً . يعبر البعض عن اعتراض ضد التصور الاساسي لنخبة تربوية او لأي شكل آخر من اشكال النخبة ، ويضعون

المساواة قبل المثل الأخرى للثورة الافرنسية . بيد أن فهم فكرة المساواة يكون خاطئاً ، إذا كانت المساواة تعني الاشارة إلىأن جميع الناس يولدون بقدرات متساوية ، وانهم يتمتعون بالقوه والجمال والرشاقة على نحو متماثل . متى كان العلماء جميعهم مماثلين لنيوتن وأينشتاين ، او متى كتب الموسيقيون جميعهم سمفونيات كبيتهوفن واوبيرات وفيردي ، أو متى يلاكم الملاكمون جميعهم مثل ديمبسي وجو لويس ، او متى يلعب لاعبو التنس جميعهم مثل بارج او نيلدون . عندما نستطيع أنا وأنت أن نغني مثل كاروزو او جالي ـ كورسي ، وأن نمارس الحب مثل كازانوفا ، وان نتمتع بفتنة ركس هاريسون ، وجاذبية مارلين مونرو الجنسية ، وقوة محمد علي كلاي ورشاقته ، ومواهب سيكيريو او ونستون تشرشل ، وحكمة سقراط ، وتواضع سانت فرانسيس ، وذكاء بيرتراندرسل ، وشجاعة أولئك الذين ناضلوا في اقطار استبدادية ـ حينئذ سيكون هناك مقام للحديث عن مساواة من ذلك النوع . ان المساواة كما تشير إليها الاسطر الشهيرة القائلة بأن الناس جميعهم خلقوا متساوين ، هي مساواة في نظر الله ، مساواة ما قبل القانون الذي يحدد حقوقاً وواجبات متساوية بالقدر الذي يكون فيه الامر موضع اهتمام . لم تعن المساواة اطلاقاً اقتراح غياب الفروق الفطرية . وإذا تحدثنا على نحو بيولوجي ، فإن الفروق الفطرية تشكل معظم ارثنا النفيس . وهي التي تمكننا من التكيف مع الظروف المتغيرة من خلال مجموعة جينات مسائدة او اخرى غير مسائدة . ان التماثل المطلق سوف يضمن موتاً سريعاً للنوع الانساني بمجمله . ودعنا نقدم عرفان الجميل لأننا لا نشبه جميعنا مجموعة اعداد لا متناهية من التوائم احادية البيضة .

يجادل آخرون ضد فكرة الوراثة ، ولكن نيس والاحتكام إلى حقيقة مؤكدة علمياً وتجريبياً ، بل والاحتكام إلى حالات فردية التقوها مصادفة . سيصرخ هؤلاء قائلين ، انظر إلى هذا الطفل ، انه لم يتمتع بفرصة اطلاقاً ! فأبوه سكير مجرم ، وامه عاهرة تقضي طيلة نهارها في تعاطي المخدرات وطيلة ليلها خارج البيت ، ولا تتوافر له كتب أو حياة اسرية لائقة ، ويضربه والده لأقل نزوة . وبعد ، هل هناك أية دهشة في كون ذكائه منخفضاً او ادائه المدرسي ضعيفاً ؟ دعنا نفكر في الحالة على نحو غير عاطفي موفرين عاطفتنا لبذل جهود تعمل على تحسين الظروف التي يجب على الكثير جداً من الاطفال أن ينموا في ظلها ، حتى في النمط المتقدم لمجتمعنا . ما يجب علي تبيانه هنا ، هو انني لا اقصد الايحاء بأية طريقة كانت ، بعدم وجوب انجاز مثل هذه الجهود ، بل يجب في الواقع ان تتلقى دعماً مالياً وقانونياً اكبر بكثير مما تلقاه الآن . وجميع ما ارغب في السؤال عنه ، هو صلة الحالة بالحجة المأخوذة على الوراثة . فعند تعريض آباء وامهات امثال هؤلاء الاطفال للاختبار ، يتبيّن عادة أن حاصل ذكائهم يتراوح بين (٧٠و٨٠) درجة . والوراثة وحدها كفيلة باظهار أن اطفال هذه الزواجات سيكونون اغبياء ودون المتوسط في معظم الحالات مهما سيكون اداؤهم المدرسي ضعيفاً ، ولن يبلغوا أية مراتب عقلية عالية اثناء مراهقتهم ورشدهم . ان الظروف البائسة التي ينشأ الطفل في ظلها ليست إلا عوامل مساعدة تؤثر بعد قيام الواقعة ، وقد تدمر الطفل التعيس في مستنقع اعمق ، بيد أنها ليست هي المسؤولة وحدها . ثمة اعداد كبيرة من الاطفال الذين ولدوا في اسر من هذا النوع ،

ومع ذلك ، كان اداؤهم على اختبارات الذكاء افضل من اداء اطفال ولدوا في اسر محبّة ودودة ، وتفعل كل شيء من اجل ذريتها . كيف يفسر البيئيون هذه الامثلة المتعارضة ؟ ان الحالات التي تأخذ فيها الوراثة والبيئة كلاهما الاتجاه ذاته ، لا تساعدنا في الفصل بين النظريتين موضوع النقاش ، والوقائع لا تغدو هامة إلا إذا اخذت الوراثة والبيئة اتجاهين متعاكسين . يوفر الآباء الاغبياء بيئة فقيرة للاطفال ، ولكنهم قد يحملون جينات تتمتع بامكانيات اعلى بكثير من التي اظهروها هم انفسهم . لذلك يبيّن الاطفال الاذكياء المنحدرون من آباء اغبياء وبيئات فقيرة أهمية الوراثة .

ومع ذلك ، ثمة عدل في ادعاءات الاطباء النفسيين والعاملين الاجتماعيين والمعلمين الذين اتصلوا بأطفال معدمين . يقول هؤلاء ببساطة ، أنه لا يمكن تصديق الارقام التي تبيّن أن ٢٠٪ او ٢٥٪ فقط من الفروق الفردية في الذكاء تعود إلى عوامل بيئيّة . ينبغي أن نتذكر بهذا الصدد أن هذه الارقام هي متوسط مأخوذ من عينة عشوائية (او عشوائية على نحو معقول) للمجتمع الاحصائي . وان ما يصدق على المتوسط لا يصدق بالضرورة على كل فرد يدخل في تكوين العيّنة . فكون متوسط طول افراد المجتمع الانكليزي خمسة اقدام وعشرة انشات ، لا يعني عدم وجود عمالقة طولهم سبعة اقدام ، او اقزام طولهم اربعة اقدام . وعلى نحو مماثل ، قد تكون الوراثة في حالات فردية اقل اهمية بكثير مما ستوحي به الارقام ، بينما قد تكون البيئة في حالات اخرى — لتكوين قيمة المتوسط — اقل اهمية حتى مما هي بوجه عام . والاطفال الذين قابلهم الاطباء النفسيون والعمال

الاجتماعيون وعلماء النفس الاكلنيكيون ، هم من نوع الحالات الاولى على وجه التحديد . وفي الواقع ، ان للارقام المتوسطة صلة وثيقة ادنى بالنسبة لعينة المجتمع الاحصائي غير الممثلة على نحو مرتفع . ان ذلك لا يعني أن الارقام خاطئة ، بل يعني فقط أنه يجب علينا تفسيرها على نحو دقيق واستخلاص الاستنتاجات التي تتجاوز الوقائع . لقد تبيّن في عدد ضئيل من الحالات ـ ضئيل جداً ولكنه مع ذلك مطمئن تماماً ـ أن العوامل البيئة تناوىء إلى حد بعيد ، فكرة أن هذه العوامل مسؤولة عن نسبة كبيرة جداً من تخلف طفل معين ، ولن ينكر ذلك اي عالم وراثة لحظة واحدة . بيد أن ذلك ليس سبباً جيداً لالقاء الطفل الصغير في حوض من الماء مفترضين أن الوراثة تلعب دوراً ضئيلاً في احداث الفروق الفردية . من حيث القدرة العقلية لدى افراد المجتمع الاحصائي جميعهم . ان الحالات المتطرفة تصنع قوانين سيئة ، والامثلة المنتقاة لا تدحض فائدة عامة في العلم .

يجب الاعتراف بأنه مهما كانت الاعتراضات على تعميم دراسات الحالة الفردية صادقة . فإن لهذه الدراسات فتنة تفوق في اهميتها ، واجب البحث العلمي كله بالنسبة للكثير من الناس . ولهذا السبب سوف اختتم هذا الفصل باقتباس حالة فردية ايضاً . ان هذه الحالة هي قصة صحيحة وثابتة تماماً ، وتشرح بشيء من التفصيل لا كيف يستطيع طفل أن يعيش في ظل ظروف حرمان بيىء دون ضرر فحسب ، بل يستطيع ايضاً ان ينمو على نحو يغدو فيه احد علماء العالم العظام . كما تبيّن القصة اضافة لذلك ، كيف أن هذه الحرمانات الطفولية لم تمنع ذلك الطفل من النمو ليكون احد رجالات الطبيعة العظام ،

لا بالمعنى العلمي لهذه الكلمة بل بالمعنى الانساني . اعتقد أن هذه القصة هامة ، ويجب أن تعرف على نحو افضل مما هي عليه ، وأن في مكنة البينيين المفعمين بالعاطفة أن يجدوا فيها شيئاً يفكرون فيه ملياً إذا تأملوها بما تستحقه من اهتمام .

ولد بطل قصتنا واسمه « جورج » اثناء الحرب الاهلية الاميركية لأم زنجية اسمها « ماري » ، وتقيم في مزرعة بميسوري يملكها موسز كارتر وزوجته سوزان . كان لماري ، وهي امرأة ارمل ، طفلان آخران هما بنت صغيرة تدعى « مياسيا » وصبي يدعى « جيم » ، وذلك بالاضافة إلى الرضيع « جورج » . وفي عام (١٨٦٢) قام قطاع الطرق الملثمون الذين مارسوا الارهاب في الريف وسرقوا الدواب والعبيد ، بمهاجمة مزرعة كارتر وعرضوه التعذيب من اجل اكراهه على الاعتراف بالمكان الذي اختبأ فيه عبيده . عاد قطاع الطرق ثانية بعد اسابيع قليلة ، غير ان الفرصة لم تسنح هذه المرّة لماري للاختباء في الكهف كما في المرة الاولى ، فجرها المغيرون مع ابنتها مياسيا وابنها جورلم في ليلة شتاء قارصة البرودة . اقد لاحقهم موسز كارفر غير أنه لم يستطع إلا ارجاع جورج فقط ، حيث منحه المغيرون لبعض النساء قائلين « انه لا يساوي شيئاً » . قامت سوزان زوجة كارفر بتنشئته وتحصينه ضد كل مرض طفولي يمكن تصوره ويمكن لجسده الصغير ان يكون عرضة اه على نحو خاص . بيد أن الخبرات الصدمية التي تعرض لها قد احدثت عنده تلعثماً شديداً لم تتمكن من شفائه . ان اسمه الحقيقي غير معروف ، ولكن كان يدعي « كارفر ؛ جو »

(Carver, sqoerge) اشارة لتبعيته لاسرة كارفر (فيما لو كان لهذا اللقب اية دلالة على كونه رقيقاً) .

على الرغم من انتهاء الحرب الاهلية وتحرير العبيد ، إلا أن جورج وجيم استمرا في الاقامة عند اسرة كارفر . كان جيم قوي البنية على نحو كاف مكنه من أن يصبح راعياً وقادراً على ادارة اعمال زراعية اخرى . اما جورج فكان واهن البنية واقتصرت خدماته على محيط المنزل . وقد تمثل استجمامه المفضل في تسلله إلى الغابات ومراقبة الحشرات ودراسة الزهور واصبح مطلعاً على الطبيعة . لم يتلق جورج اي نوع من التعليم المدرسي ، ولكنه تعلم رعاية الزهور واصبح خبيراً في البستنة . وكان كبيراً تماماً عندما شاهد اول لوحة في حياته في منزل الجيران ، فعاد إلى البيت مفتتوناً واستخراج صبغة من العصير الاسود لثمر العليق وبدأ الرسم على صخرة . واستمر في تجريب الرسوم مستخدماً حجارة حادة لرسم الخطوط على قطع ملساء من الأرض . لقد اصبح معروفاً بين الجيران باسم « دكتور النبات » وساعدهم في تنظيم حدائقهم رغم حداثة سنه .

وعلى بعد معين من مزرعة كارفر ، كان يوجد كوخ ذو غرفة واحدة يستخدم كبناء مدرسي اثناء ايام الاسبوع ، وككنيسة في أيام الاحد ، وعندما اكتشف جورج وجود المدرسة ، طلب من موسز كارفر أن يأذن له بالذهاب اليها ، بيد أنه علم بأنه غير مسموح للزنوج بارتياد هذه المدرسة . تغلب جورج بعد مدة قصيرة على الصدمة التي واجهها لدى سماع هذا النبأ . واكتشفت سوزان كارفر في ذلك

الحين كتاب تهجئة قديماً ، فسرعان ما تعلم القراءة والكتابة بعون منها . ثم اكتشف وجود مدرسة في « نيوشو » تقبل الاطفال الزنوج وتبعد ثمانية اميال عن مزرعة كارفر ، فشدّ الرحال إلى نيوشو بجسمه الصغير النحيل وتلعثمه الشديد ، عاقداً العزم على كسب بعض المال لاعالة نفسه هناك . كان في الرابعة عشرة من عمره عندما اقام منزله مع قابلة وغسالة ملونتين . تصف ماريا ، المرأة الغسالة ، جورج قائلة : « لقد اخبرني هذا الصبي بأنه قدم إلى نيوشو ليكتشف ما الذي يصنع البرد والثلج ، وما إذا كان في استطاعة الشخص أن يغير لون زهرة بتغيير البزرة . اخبرته أنه لن يستطيع اكتشاف ما يصبو اليه في نيوشو ، وربما لا يستطيع ذلك حتى في مدينة كانساس . ولكنني عرفت طيلة الوقت أنه سيكتشف ما يريد في مكان ما » . وطلبت ماريا منه أن يسمي نفسه « جورج كارفر » ، لأنه لا يستطيع الاستمرار في تسمية نفسه « كارفر جورج » . وبذلك الاسم دخل جورج الكوخ المتداعي ، وهو مبنى « مدرسة لنكولن للاطفال الملونين » والتي يديرها معلم زنجي شاب هو عضو هيئة التدريس الوحيد فيها .

كان جورج مريضاً على نحو دائم طيلة فصول الشتاء ، بيد أنه واصل دراسة جميع ما تستطيع المدرسة تقديمه له . وعندما استنفد رصيد معرفتها الضئيل انتقل إلى « فورت سكوت » . ثم استمر في التنقل بين مدرسة واخرى حوالي عشر سنوات ، باذلاً اقصى ما في استطاعته لاعالة نفسه بمزاولة اعمال مؤقتة غير منتظمة . وكان يصرف جميع الوقت الموفر لديه في الدراسة والقراءة وأداء واجباته المدرسية . ومع كل ذلك ، كانت حياته هادئة ، ولم تنل منه الصدمات

التي يعتقد محلل نفسي بأنها سوف تتسبب في حدوث خبرات مروعة . لقد شاهد جورج في احد الأيام حادثة اعدام دون محاكمة قانونية ، حيث قامت مجموعة من الفوغاء المهتاجين بأخذ زنجي من السجن ، ورموا به في مشعلة كبيرة بعد أن بللوه بالزيت . ان هذا المنظر هو حدث يومي في ذلك القطر الأكثر مسيحية ، ومع ذلك اصبح جورج متديناً على نحو متطرف والتحق بأعضاء الكنيسة المشيخيّة .

وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره ، ذهب إلى « مينيابوليس » برفقة زوجين زنجيين كهلين كانا قد صادقاه . دخل هناك مدرسة ثانوية ، واستخدام اسماً متوسطاً ايضاً هو « واشنطون » لتجنب الخلط بين اسمه واسم « جورج كارفر » آخر . مات اخوه جيم بالجدري دون أن يتعلم القراءة والكتابة اطلاقاً ، كما لم تكن لديه اية اهتمامات عقلية من اي نوع كان . وبعدئذ جاءه نبأ سار حملته إليه رسالة تشير إلى تأييد طلب قبوله في كلية هايلاند وهي مدرسة مشيخيّة صغيرة في كانساس . لقد انفق آخر قرش لديه في سبيل الوصول إلى هذه الكلية . ولكن عندما قدم نفسه إلى المدير وهو مفعم بالأمل ، طرد على نحو فظ وقيل له « نحن لا نقبل الزنوج ! » . تخلى وهو جريح الفؤاد عن كفاح غير متكافىء ، واصبح صاحب منزل وارض ، وطالب بقطعة ارض مساحتها (١٦٠) ايكر وتقع على حدود كانساس وبنى منزلاً ريفياً وباشر عمله كمزارع . لقد حارب الطبيعة بمفرده لمدة سنتين ودون عون او مال من احد . استرد تدريجياً روحه المعنوية ، وبدأ القراءة والرسم ثانية ، إلى أن رهن مزرعته اخيراً وتوجه عائداً إلى المدينة . وفي نهاية المطاف ، حط الرحال به في كلية « سيمبسون »

باندیانولا . وعلى الرغم من أن هذه الكلية مخصصة للبيض فقط ، إلا أنها قبلته ودرس فيها « الابتمولوجيا » (علم اصول الكلمات وتاريخها — المترجم) والانشاء والرياضيات والفن . وكسب عيشه بانشاء مصبغة يغسل فيها ملابس الطلاب الآخرين . لقد كان رساماً فائقاً على نحو واضح ، حيث عرضت من تعلمه الرسم بعض اعماله (صورة لتجربة تطعيم نبات الصبار كان قد قام باجرائها) على والدها الذي كان يشغل وظيفة استاذ علم البستنة في « كلية ايوا الزراعية » بإيمز . سمع هذا الاستاذ بمهارة الرجل الشاب في ميدان النباتات ، واقترح عليه الذهاب إلى ايمز ودراسة الزراعة . تجاوز جورج الثلاثين من عمره ورغب في تصدير ما تعلمه إلى الناس ، وبدا له ان الزراعة هي الطريقة الواضحة لذلك ، فقرر الذهاب إلى ايمز . وبعد عمل له شاق ، نال اخيراً درجة البكالوريا في العلوم عام (١٨٩٤) وهو في الثانية والثلاثين من عمره .

كان صعود جورج بعد ذلك نيزكياً ، غير أن قصته تفقد الاهتمام من وجهة نظرنا (لقد سردها لورنس اليوت على نحو جيد في كتابه « ما وراء الشهرة او النجاح ») . فلقد اخذه عالم نبات شهير يتخصص في علم الفطريات كمساعد له واصبح مرجعه معتمداً في هذا المجال . ان العالم العلمي بين يديه الآن . ولكن رسالة جاءته من بوكر واشنطن ، القائد الزنجي الأول في تلك الأيام . كان واشنطن يحاول بناء معهد « زنجي » للتعلم ، غير أنه واجه مشكلة بارزة فكتب إلى جورج كارفر القاطن على بعد (٨٠٠) ميل قائلاً له : « لا يعرف هؤلاء الناس — اي الزنوج — كيف يحرثون ويحصدون ، وأنا لست ماهراً في هذه

الأعمال — انني اعلمهم كيف يقرأون ويكتبون ، وكيف يصنعون احذية جيدة وقرميداً جيداً ، وكيف يبنون حائطاً . ولكنني لا استطيع أن اوفر لهم طعاماً ، كما لا استطيع أن امنحك مالاً او مركزاً او شهرة . فالمال والمركز متوافرن لديك ، واما الشهرة فستنالها دون ريب من خلال ما تشغله الآن من مركز . انني اطلب منك التخلي عن هذه الاشياء جميعها ، واعرض عليك بدلاً منها عملاً شاقاً جداً ، وهو مهمة المضي بشعب يعيش حالة انحطاط وفقر وضياع والوصول به إلى حالة رجولة كاملة » .

قبل جورج عرض واشنطن ، وكانت نضالاته في سبيل انشاء معهد من لا شيء فعلاً ، جزءاً من تاريخ الزنوج . لقد غير العادات الزراعية والغذائية لأهل الجنوب . وابتكر نموذجاً فردياً لزراعة الغذاء وحصاده وطبخه ، الامر الذي نقل الزنوج (والبيض ايضاً !) من حالة الجوع والفقر المتوقع إلى حالة يدينهم بها جهلهم . وبالاضافة إلى جميع اعماله العملية والتعليميّة والادارية والخطابية ، فقد كان لديه الوقت لاجراء بحث علماء مبتكر واساسي فعلاً . لقد كان احد اوائل العلماء الذين بحثوا في ميدان الصناعات الكيميائية ، ونسب اليه علم الكيمياء الزراعية . ان صناعة الفول السوداني الاميركي ، وهو الانتاج الزراعي السادس من حيث الأهمية في اميريكا اليوم ، ومئات من المنتجات الثانوية الاخرى ، تستند إلى اعماله وبحوثه . لقد استبدت به على نحو اكثر فأكثر فكرة امكانية ابتكار مواد مفيدة من المواد الزراعية والصناعية المبددة . ويعتقد على نطاق واسع أن هذه الفكرة الاصيلة كلياً ، هي الاسهام الاكثر اهمية لكارفر .

تشكل اكتشافات كارفر واختراعاته عدداً وفيراً ، وهو منتج في ميدانه كأديسون في مجاله . وكان في استطاعته أن يكون مليونيراً مرات عدة ، بيد أنه لم يقبل مالاً على الاطلاق مقابل اكتشافاته . كما لم يقبل أية زيادة في راتبه ، وبقي يتقاضى (١٢٥) دولاراً شهرياً (٥٠٠ جنيه سنوياً) وهو المبلغ الذي خصصه له واشنطن اصلاً (لقد رفض ذات مرة مبلغ « ١٠٠,٠٠٠ » دولار سنوياً عرضه عليه اديسون للعمل معه) . توفي جورج كارفر عام (١٩٤٣) وهو يناهز الثمانين من عمره ، واعلن الحداد لوفاته في الولايات المتحدة جميعها . كتبت جريدة « نيويورك هيرالد تريبيون » آنذاك (يعرف كل واحد أن الدكتور كارفر كان زنجياً ، غير انه انتصر على كل عقبة . وربما لا نظير له في هذا القطر قد قام بأكثر مما قام به هو في سبيل توطيد فهم افضل بين الاجناس . ان لهذه العظمة صفات الابدية) . لم يكن كارفر نفسه متعصباً او عدوانياً اطلاقاً ، رغم جميع الاضطهادات التي كان ينبغي له ولأتباعه الزنوج تحملها . لقد نقشت على ضريحه عبارة « ما من انسان يمكنه دفعي إلى كراهيته » . كان في مكنه جورج كارفر أن يحظى بقسط اوفر من الشهرة ، لكنه لم يعبأ بذلك ، ووجد السعادة والشرف في كونه مفيداً للعالم .

ان هذه القصة القصيرة لعالم عظيم وكائن انساني رفيع ، تثير بعض المشكلات الاساسية جداً . فالكليات والجامعات في الولايات المتحدة الاميركية تنتج كل سنة عشرات الآلاف من الخبراء الزراعيين ، والبيولوجيين والبيوكيميائيين ، ومن الخبراء الآخرين في الحقول التي عمل بها جورج كارفر . وان لكل من هؤلاء الخبراء تربية وخلفية

اسرية ودرجة اعانة لم تتوافر لكارفر لدى مقارنته معهم . لقد مات ابوه قبل ولادته ، واختطفت امه وهو رضيع ، وولد عبداً زنجياً ضعيفاً واهناً في اعماق الجنوب . ونشأ في منزل معدم يكاد يصعب وجود اي كتاب فيه ، ومع اناس بيض زودوه بتربية لا تختلف كثيراً عن الاميّة . ولما كان ممنوعاً من التعليم المدرسي بسبب لونه ، فقد ترتب عليه أن يلمّ بمبادىء التربية وهو في جوع دائم ، وان يمارس اكثر الاعمال وضاعة في سبيل حصوله على كل قرش انفقه . لقد تعرض طيلة الوقت لصدمات مؤذية متكررة بسبب لونه ، واصيب بتلعثم شديد يفترض أنه حدث بسبب اختطافه المبكر في طقس ذي شروط سلبيّة متطرفة (دون التحدث بشيء عن رجاعه الانفعالية) . وبما انه لم تتوافر له إلا اكثر انواع التعليم ابتدائية وضعفاً ، ورفض من معاهد التعليم العالي بسبب لونه ، فقد كان عليه أن يشق طريقه بنفسه إلى المدرسة الثانوية والكلية . ان هذا النوع من الاعاقة غير معروف الآن بشكل عملي ، مهما كان ضعف التربية التي يتلقاها الاطفال الزنوج في الولايات المتحدة هذه الايام . ومقارنة تربية الاطفال الزنوج بتربية الصبيان والبنات البيض المميزين الذين يتقدمون بوجوه مشرقة إلى مراسم احتفالات التخرج بالكليات والجامعات الاميركية ، هي مثال نموذجي يجسد جميع التقدمات التي اصبح العلم التربوي الحديث قادراً على السعي في سبيلها . وان جميع هذه الميزات التربوية مرتبطة غالباً بخبرات طفولية سعيدة هادئة ، يرعاها اهتمام الآباء الودودين وتوجيههم الحكيم .

والامر المثير للعجب هنا ، هو اننا لن نتوقع اعتماداً على فرضية بيئية ان يكون هؤلاء الاطفال العباقرة قادرين على الانجاز ! من المؤكد أن العالم سوف يتغير سريعاً وعلى نحو كلي باكتشافاتهم — فكل منهم منتج ومبتكر وحصيف ، مثله في ذلك مثل الصبي الزنجي الفقير ذي التربية الخرقاء والحياة الاسرية المعدومة ! بيد أن الواقع يعلمنا أنه من غير المرجح أن ينجز واحد من عشرات آلاف الصغار المدللين ، عشر ما نجح في تحقيقه جورج واشنطن كارفر غير المثقف وذاتي التعليم ، رغم جميع ما يتمتعون به من تنشئة متميزة على نحو مرتفع ومعيار تربية مرتفع وخلفية اسرية معصومة . لابد للفرد من الشعور بأن شيئاً قد حدث خطأ على نحو خطير . فاذا كانت البيئة كلية القوة او التأثير . فكيف يتسنى لبيئة تتصف بأسوأ ما يمكن تخيله من شروط أن تنتج كائناً انسانياً مذهلاً وعالماً بارزاً مثل كارفر ؟ وكيف يتسنى لأفضل نوع من البيئة الواسعة الثراء القادرة على شراء افضل الادمغة في التربية ، أن تنتج هذا العدد الضخم من اشخاص تافهين ربما ينتشر بينهم عدد ضئيل نسبياً من العلماء ؟

تأمل في التجهيزات الفيزيائية التي كانت متوافرة لكارفر آنذاك ، والتي تتوافر حتى لطالب صغير في هذه الأيام . عندما وصل كارفر إلى « توسكيجي نورمال » و « المعهد الصناعي » تلبية لدعوة بوكر واشنطن ، لم ير إلا رملاً ووحلاً اصفر اجرد — كل شيء غارقاً في الرمال . لقد كان هناك عدد قليل من الاكواخ البائسة ، ولم يكن يوجد إلا بناء قرميدي واحد . كما لم يكن هناك نظام لتصريف المياه القادمة . قال له واشنطن « ان دائرتك لا توجد إلا على الورق ،

وسوف يكون مختبرك في رأسك » . حثّ كارفر طلابه على جمع الزجاجات القديمة ، والقدور والمقالي البالية ، وقطع المعادن المهملة ، والفناجين والصحون المنكسرة – واي شيء آخر يمكن توافره في اماكن تجميع نفايات المدينة المجاورة واوساخها . وبعدئذ ، صنع من هذه النفايات هاوناته ومدقاته واكوابه ومعوجاته الكيميائية . لقد صنع مصباح « بنزن » من زجاجة حبر ، واستخدام خيطاً مربوطاً بسدادة فلينيّة لأداء عمل الفتيل . وصنعت المصافي بتثقيب علب التنك بالمسامير . هذه هي التجهيزات التي كان على كارفر وطلابه استخدامها في الأكواخ التي ترتب عليهم بناؤها في البدء . اما بالنسبة لتجاربهم الزراعية (والتي يفترض أن تشكل مغامرتهم الكلية في سبيل تحقيق التموين الذاتي) ، فقد توافرت لديهم « أسوأ تربة في الاباما » ولم يكن لديهم اية اسمدة على الاطلاق ! قارن هذا الوضع بوضع الطالب الحديث المزود بتجهيزات مذهلة ، مثل المكتبات الكبيرة (من الطبيعي أن الكتب والمجلات المعنية بميدان اهتمام كارفر لم تكن متوافرة على الاطلاق في توسكيج ، كما لم يكن هناك بناء لتكوين مكتبة فيما لو وجدت مثل هذه الكتب والمجلات) ، والادوات التجريبية الضرورية ، ومناطق اراض مناسبة تشكل عينات لجميع انواع التربة التي تتطلبها تجاربه ، والاسمدة والخبرة الماهرة المساعدة ، والمصادر المالية لجامعة كبيرة . من المعروف أن بعض الطلاب الحديثين يشتكون عندما لا يتمكن كل واحد منهم من الاتصال بشاشة حاسب الكتروني منفصلة !

من المؤكد ان البرهان الذي يجب اثباته هنا ، هو أن المحنة التي واجهها كارفر بالتحديد ، هي المسؤولة عن نجاحه الفائق ، انها هي التي صبّت الفولاذ في روحه وملأته عزماً وتصميماً . « ان الامور في منتهى السهولة بالنسبة لصغار الناشئة ، وما يحتاجون إليه هو فترة يعيلون فيها انفسهم » . هل يعادل ذلك اقتراحاً مفاده أنه ينبغي اعادة نظامنا التربوي إلى اكواخ يديرها معلم واحد ، وانه ينبغي لجميع الاطفال أن يكسبوا عيشهم وهم يؤمون المدارس ، وأنه من الأفضل فصل الاطفال عن والديهم في سنّ مبكرة ، وان يعملوا على اعالة انفسهم بأنفسهم ؟ ان لم تعن الفرضيّة البيئية مثل هذه الامور ، وتتيقّن بأن كل طفل هو مضطهد بسبب لونه ، فإنها لا تعني إلا شيئاً ضئيلاً . وعلى اية حال ، ليست هذه الفرضيّة هي المسؤولة عن حالة جيم ، شقيق كارفر . لقد واجه هو ايضاً المحنة ذاتها ، ودرجة الحرمان ذاته ، غير أنه لم يتعلم القراءة والكتابة اطلاقاً ، واصبح راعياً احمق ، ولم تبد عليه أية دلائل حتى لدرجة ذكاء متوسط . ان النار التي تذيب الشمع تقوي صلابة الفولاذ بالتأكيد ، ولكن ألا ينطوي هذا القول على التسليم بأن الشمع والفولاذ مختلفان « فطرياً » ؟

قلت قبل الآن أن الامثلة الفردية هي قصصيّة اساساً ، ولا يمكنها توفير استنتاجات علمية واسعة النطاق مهما بلغ صدق تفصيلاتها . بيد أنها توضح نقاطاً اسسها البحث العلمي بطريقة اخرى ، ويمكنها توفير امثلة يستطيع مناصرو النظريات المختلفة تجريب فاعلية اسلحتهم فيها . سوف يجد البيئيون المتعصبون في هذا الامر مشكلة عسيرة

جداً — ومن الطبيعي أن قصة كارفر ليست المثال الوحيد بهذا الصدد . فسيرة العلم والرسم والموسيقى والادب والقادة الحربيين ، تنطوي على امثلة عديدة معروفة تماماً لاطفال تحدّروا من اكثر البيوت حرماناً وفقراً ، ولم يتمتعوا بأية ثقافة ورعاية ، ومع ذلك ازدهروا على نحو غير متوقع ، ووصلوا اوج العبقرية التي تجعلنا نقف امامهم مشدوهين باعجاب صامت . ما من شيء في بيئة هؤلاء الاطفال كان قد اقترحه البيئيون اطلاقاً كسبب لهذا التطور ، ولا توجد أية تشابهات واضحة يمكنها اعطاء تلميح واحد من هذا القبيل .

ولكن لنعد إلى موضوع اكثر أهمية . إذا كان البيئيون محقين في ادعاءاتهم الشاملة بصدد أولوية اهمية العوامل البيئية وهيمنتها ، فسيتوافر بين ايديهم اساوب سهل جداً لبرهنة ذلك . دعهم يحددون التفصيلات البيئية الدقيقة اللازمة لانتاج انسان بمنزلة جورج واشنطن كارفر ، وزود عينة عشوائية مؤلفة من مئة طفل مثلاً بهذه التفصيلات ثم زود مئة طفل آخرين ببيئة اخرى محكوم بسلبيتها (ولضمان عدم اتهامنا بوحشية قاسية لا رحمة فيها) ، دعنا نتأكد من أن المئتي طفل جميعهم قد اختيروا من بين الاطفال الذين تكون توقعاتهم الطبيعيّة ادنى من نوع البيئة التي سيزود بها الاطفال المئة المتضررون او بذلك سوف يجني الاطفال جمعهم كسباً ، ولكن على نحو متفاوت بعض الشيء) . تابع حياة هؤلاء الاطفال فترة سبعين سنة تقريباً ، واكتشف ما عدد الاطفال في كل من المجموعة الاولى والمجموعة الثانية الذين استطاعوا انجاز اي شيء شبيه بما انجزه كارفر . هل من قارىء يستطيع الشك في أن نتيجة التجربة ستكون فاشلة تماماً — فما من

عبقري في الواقع في اي من المجموعتين ، وقد لا يوجد حتى عالم من الدرجة الثالثة يكون موضوع تهليل محلي محدود . ان الحقيقة ، وكما يعرفها كل معلم مخلص ، هي اننا لم نكتشف تلك الجوانب من الضبط البيئي التي يمكنها منح فوائد حاسمة جوهرية إلى اولئك الاطفال الذين نرغب في ابرازهم من الجمهور العام . اننا نعرف إلى حد ما عدداً قليلاً من الشروط التي تستطيع عموماً انتاج ضرر معتدل ، ولكن قد نمضي مخطئين حتى في هذا النوع من المعرفة — كما في حالة جورج واشنطن كارفر . ان المذهب البيئي دين وليس نظرية علمية مبنيّة على حقيقة لا جدال فيها ، ويعتقد مناصرو هذا المذهب ان البيئة كلية الأهمية ، ولكنهم غير قادرين على توفير الدليل الوحيد المقبول — اي الضبط الواقعي المؤدي إلى نتائج افضل . ولا يمكن لحججهم أن تنال الاحترام بين العلماء إلا عندما يتمكنون من توفير هذا الدليل .

لقد ابتعدنا كثيراً عن بداية نقاشنا ، غير أن صلة ما كنا نبحث فيه بنقاشنا ستتضح بصورة بيّنة . يخلق الناس غير متساوين في القدرات والمزاج والشخصيّة . ويعتمد المجتمع في بقائه وتقدمه على اولئك الذين يتمتعون بالقدرات العظمى في اتجاهات عديدة مختلفة . ليس ثمة عدد كبير من المتفوقين ، ولا نستطيع تحمل التبذير في مواردنا النادرة . وسوف يصار إلى تعويض المجتمع إذا تخلّى عن طريقته الحاليّة واكتشف في سنّ مبكرة اولئك الذين تؤهلهم قدراتهم وشخصياتهم واتجاهاتهم للقيادة الفكرية ، وإذا قدّم لهم دعماً غير محدود وهم في سبيلهم إلى القمة ، ومهّد لهم هذا السبيل في جميع

الاحيان . سوف لا تنعكس هذه الاجراءات بأية طريقة كانت على المحرومين من الاطفال الآخرين ، إذ لن يتعطل او يتأثر تعليمهم بأي شكل من الأشكال . ان منافسات اكتشاف الموهبة التي تشكل مظهراً هاماً من الاجراءات المتبعّة في اميريكا بهذا الصدد ، ليست هي المثال النموذجي الذي افكر فيه . فعشرات الآلاف من الصغار الأذكياء يدخلون هذه المنافسات ، ويتم اختيار اكثرهم نجاحاً وتقديم الدعم المستمر لهم . ومع ذلك ، من المبكر جداً معرفة ما إذا كان قد تم اكتشاف أية عبقرية كامنة فيهم ، على الرغم من ان اولئك الذين اختيروا بهذه الطريقة هم بارزون على نحو متماثل تقريباً . لماذا لا نتركهم يقارعون المصير — الامر الذي لم يمنع كارفر من النجاح ؟ ان في ذلك تعميم زائد لقصته غير عادية نوعاً ما ، ولم يوح بأن القوى البيئية لا تستطيع أن تساعد او تعوّق تطور الطفل بأية طريقة كانت . ان اي اقتراح من هذا القبيل لا معنى له طبعاً ، فحتى الرقم المتوسط البالغ ٢٠٪ او ٢٥٪ الذي خصصناه لدور القوى البيئيّة في تحديد سببيّة الفروق الفردية من حيث الذكاء ، ينم عن الأهمية الحيوية للشروط البيئية — ان عدداً ضئيلاً من الناس سوف يتمكنون من التغلب على ٢٥٪ من الاعاقة ! لم يقترح اي عالم وراثة الغاء اثر البيئة . والافكار الجوهرية لقوى البنية الوراثية وقوى البنية البيئية تشير إلى وجهة نظر متوازنة تعترف بالتفاعل الحتمي لهاتين المجموعتين من القوى كلتيهما .

ان القيود الخاصة بافتقارنا إلى معلومات محددة حول كيفية تنظيم البيئة من خلال جهودنا الهادفة إلى انتاج عبقرية علمية او اخرى

يجب أن لا تفسر على نحو يؤدي إلى شكل من العدميّة التربوية. لقد نظمنا مجتمعنا بطريقة تبيّن أن ثمة سبيلاً ملحوظاً على نحو واضح يتجه من القاعدة إلى القمة ، ووضعنا عقبات متتالية في هذا السبيل. تتصل هذه العقبات بهدف السباق في بعض الحالات ، اذ يجب على الاطفال أن يتعلموا القراءة والكتابة قبل قبولهم في المدرسة الثانوية ، وأن يتعلموا بعض التفاضل والتكامل قبل التحاقهم بقسم الرياضيات في الجامعة. ولكن هناك ايضاً مقداراً كبيراً من التلويث ، فمعلمو الطبقة المتوسطة يفضلون في العديد من الحالات اعضاء الطبقة المتوسطة ، كما أن الضغوط والتسهيلات البيئية تجعل امر التغلب على هذه العقبات اسهل بالنسبة لاطفال آخرين ، وبذلك يتمتعون بميزات غير عادلة في السباق. ان اولئك الذين يرغبون في الغاء فكرة الجدارة ، انما يرغبون في الغاء السباق ، وهو امر يبدو طوباوياً ، ومن المؤكد أنه غير قابل للتطبيق في الوقت الراهن. اما اولئك الذين يرغبون في منح حد اقصى من العدالة للجميع ، فيقترحون امكانية استخدام مقاييس القدرة العقلية المتوافرة حالياً بشيء من الفعالية ، وذلك في سبيل اصلاح التوازن غير العادل ، والغاء الميزات الممنوحة لصبيان وبنات بسبب « ثروة » آبائهم ، او التأثير الاجتماعي ، او أية اعتبارات اخرى لا علاقية. تؤدي الجدارة المتوسطة إلى جمود كلي وانشغال وطني بمسألة لا جدوى لها. اما الجدارة فتضمن أن لا يبقى شعار « فرص متساوية للجميع وفق القدرة العقلية لكل منهم » كلاماً فارغاً. توحي الخبرة بأن اختبارات الذكاء تساعد في التوجه نحو عالم اقرب إلى مثل العدالة الطبيعيّة. ولكنها لا تستطيع طبعاً المضي

بنا في كامل الطرائق ، وإلا لن يكون هناك شيء يدعيه اي شخص على الاطلاق .

ما نتيجة هذا النقاش المعقد نوعاً ما ؟ ان الذين ينتقدون فكرة الجدارة لم يفصحوا اطلاقاً على نحو واقعي وبالتفصيل عما يعتبرونه بديلاً مرغوباً فيه . وهذا امر طبيعي ، لا لشيء إلا لأن ما يرغبون فيه فعلاً يعاني عجز الطوباويات جميعها — فهو يتطلب سلالة من الكائنات الانسانية تختلف على نحو جذري عن الكائنات الموجودة واقعياً . وإذا خلق الناس جميعهم متساوين فعلاً من حيث القدرات والمزاج والاتجاهات والصفات الشخصيّة الأخرى ، فسيغدو من الممكن أن نعاملهم جميعاً بطريقة متشابهة ، وان تخصص مراكز القيادة بالقرعة او بطريقة عشوائية اخرى . ولكن لما كان الواقع مختلفاً عن ذلك ، فسيبدو الهروب من الحاجة إلى نخبة امراً عسيراً . وإذا لم يتم اختيار هذه النخبة بناء على اسس علاقية ، مثل القدرة وقابلية التعلم وصفات الشخصيّة كالمثابرة والتكامل ، فسيصار إلى اختيارها بناء على اسس لا علاقية ، مثل المولد او المنشأ الارستقراطي والروابط الاسرية والمبدأ العام « اختر من تعرفه » . اننا لا نختار فريقنا الرياضي لـ « كأس ديفز » من خلال النقاط عدد ضئيل من اللاعبين في الملعب على نحو عرضي وباسلوب عشوائي محض . كما لم يتم اختيار فريقنا الذي اعاد « الشعلة » من استراليا بسحب القرعة على نحو غامض . بل نختار الصغار الواعدين بشكل دقيق ، ونزودهم بتدريب خاص في سبيل تنشئتهم ، مهملين اولئك الذين لم تصل قدراتهم او امزجتهم إلى المستوى المطلوب . وبعدئذ ، ننتقي من

بين الصامدين اولئك الأفراد الذين يميزون انفسهم خلال سلسلة من المباريات في طول البلاد وعرضها ، إلى أن تبقى في نهاية المطاف نخبة صغيرة تمتاز بمرتبة رفيعة محددة بوضوح . ونختار الفريق بعدئذ من بين افراد هذه النخبة . من يرغب في مشاهدة مباراة « كأس نهائي » يكون فيها الفريقان المتقابلان متوسطي القدرة على نحو دقيق او مشاهدة « العاب اولمبيّة » لا يمثل المتنافسون فيها افضل من بعثت بهم بلدانهم ؟ هل الحكم والعلم والفن اقل اهمية من الرياضة ؟ وهل ينبغي لنا فعلاً أن نسمح بضياع الموهبة النادرة ؟ وهل ينسجم هذا فعلاً مع اهتمامنا الوطني ؟ وهل هو عادل بالنسبة لأولئك الذين صادف وورثوا موهبة او قدرة غير عادية ؟

يصعب أن لا تشعر بالحزن حيال اولئك الذين ورثوا ذكاءً ضعيفاً ، وولدوا بموهبة ضئيلة في اي شيء ، ولهم شخصيات ضعيفة غير هامة . ينبغي لنا بالتأكيد ، وضمن حدود قدرتنا الوطنيّة ، ان نفعل ما باستطاعتنا للوصول بهؤلاء الناس إلى قمة ما يمكن أن تسمح به قدراتهم العقلية المحدودة — دون أن نفرض على نفوس معارضة ما نعتقد أنه خير لها . ولكن يجب علينا ان نرفض الانغماس في تزويد الافراد الاكثر قدرة على الاستفادة من التربية . بتربية اقل كفاية على اساس أن الآخرين قد ولدوا اقل حظّاً . اننا غير مسؤولين عن الالعاب الوراثية للبيئة ، ولكننا نمضي في مقاومة ما تمليه علينا بمخاطرة منا . ان الرعاية القصدية لحدارة متوسطة تعمل على كبح العباقرة والمبتكرين الاذكياء الاصلاء ، من اجل الحفاظ على توسط مشهد النجاح البارز ، هي بالنسبة لي أمر كريه يستثير

الاشمئزاز ويعارض الامنية المطروحة في بداية هذا الفصل ، والتي تؤكد مرغوبية سياسية « تكفل حقّ المواطن الراشد في تربية تمكنه من تحقيق الحدود القصوى لقدراته الطبيعيّة » . يشمل هذا الحق الذكي والغبي على حد سواء ، ولا شأن لنا بتكييف « فراش بروكسيتز » (اي ان ننهج مكرهين على نحو تعسفي — المترجم) على نحو يسلب فعالية عدّائينا الأكثر سرعة . ان الشفقة على الاعرج والمقعد حق وخير ، وهي احدى معالم المدنيّة المتقدمة . ولكن يجب أن نحاذر من عدم تجاوزها لما هو حق ومناسب ، وعدم تسببها في كبت الذكاء المرتفع والجدارة الرفيعة . وحتّى للقادرين انفسهم حق غير قابل للتحويل ، ويتجاهلهم المجتمع بمخاطرة منه . ليس ثمة خطأ في الجدارة ، طالما كانت الجدارات موضوع الاهتمام على صلة وثيقة بمهمة في متناولنا . ان اليوتوبيا ليست هي البديل ، بل البديل هو بلد غبي يحكمه غبي لصالح غبي ، بلد يشير مصطلح « الفن » فيه إلى برامج تلفزيونية اعدها غير الموهوب من اجل شخص محافظ متزمت ، وبلد لا يعني العلم فيه إلا مخضاً لا يمكن تخيله من التكنولوجيا البسيطة التي تدعم مبدأ الاضمحلال المبيّت . ربما كانت يوتوبيا الجدارات المتوسطة غير بعيدة جداً ، وربما حان الوقت للجدارة كي تؤكد ذاتها ، وعندها يكون قد فات الأوان على نحو اكثر مما تظنّ ! .

* * *

الفصل الرابع

تناقص الاشتراكية
في انكلترا واميريكا

الاتجاه الاجتماعي
والطبقة الاجتماعية

تشكل الاتجاهات جوانب هامة من الشخصيّة ، وتنزع إلى الاعتقاد بأننا قد شكلنا اتجاهاتنا بناء على اساس منطقي ، ولكن غالباً ما ننفعل بصورة حادة عندما يهاجمها شخص ما . اننا ننزع إلى الشعور بانفعال شديد حول اتجاهاتنا (دينية واجتماعية وسياسية) بحيث نغدو في معظم الاحيان غير قادرين على تمييز المعنى الحقيقي للاعتراضات والحجج المقدمة ، وتقوم بالتعميم بناء على تعصباتنا وتحيزاتنا . لقد تلقيت مدخلاً قوياً إلى هذا الجانب العاطفي الذي ينبغي له أن يكون منطقياً محض ، ونمط بحث غير مشبوب بالعاطفة ، عندما عرضت بعض النتائج التجريبية لقياس الاتجاهات في اجتماع عقدته « الجمعية

البريطانية لتقدم العلم » في براتيون بعد الحرب مباشرة . كنت قد اجريت بعض البحوث في مجال اللاسامية ، وقدمت في سياق حديثي ارقاماً تفصيليّة تبيّن أن الناس الذين كانوا اكثر محافظة (وبتعبير ادق ، الذين صوتوا لصالح حزب المحافظين) قد اجابوا عن سؤالي في الاتجاه المضاد للاسامية على نحو اكثر تواتراً من الذين هم اقل محافظة (وبشكل ادق ، الذين صوتوا لصالح حزب الاحرار) . واثناء النقاش الذي تلى حديثي ، نهض عالم يهودي بارز وسأل عما إذا كانت حقيقة حصول عدد كبير غير عادي من اليهود على جائزة نوبل لم تبرهن على أن اليهود متفوقون فطرياً من حيث الذكاء على المجموعات الاخرى (لقد اثار « اللورد سنو » النقطة ذاتها حديثاً في محاضرة عامة القاها في اميركا ، واقترح ايضاً أن لليهود حوضاً جينياً متفوقاً) . اجبت ذلك العالم بأن هناك مسألتين ينبغي اخذهما في الحسبان اشارت المسألة الاولى إلى أن هناك جذوراً ومصادر عديدة لانجاز من ذلك النوع وربما يكون التفوق الفطري احدها . ولكن ثمة امكانيات عديدة بديلة ، مثل حب اليهود التقليدي للتعلم ، واللاسامية التي اجبرت اليهود على العمل بشكل اصلب لاكتساب مكانة في مجال الاعمال الاكاديمية ، واسباب مشابهة اخرى هي بيئية على نحو صرف . وبتعبير آخر ، ان الوقائع هامة ، ولكن في غياب برهان اكثر دقة (وعلى سبيل المثال ، لم يتفوق الاطفال اليهود على الاطفال غير اليهود في اختبارات الذكاء) ، لا اعتقد أن تلك الفرضية محتملة جداً . والمسألة الأخرى ، هي أن اليهود جماعة دينية (واصبحوا جماعة قومية فيما بعد) ، وان هتلر والمعادين الآخرين للاسامية ،

هم الذين دفعوا النظرية القائلة بأن اليهود عرق بالمعنى البيولوجي . وما يمكن قوله بشكل ذي معنى الآن ، هو أن للعرق فقط حوضاً جينياً مختلفاً ، وليس للجماعة الدينية التي تعيش في وسط هجيني إلى حد بعيد مع جماعة او جماعات دينيّة اخرى . لذلك تفترض حجة ذلك العالم أن هتلر كان على صواب في تأملاته البيولوجية السخيفة ، وأن اليهود عرق منفصل بيولوجياً فعلاً ، الامر الذي لن يقبل به اي عالم بيولوجي حديث .

كانت عواقب ذلك الحديث والنقاش والتي نشرتها الصحف في حينها مذهلة إلى حد ما . فقد تلقيت سيلاً من الرسائل ، نصفها من محافظي براتيون يعبرون لي فيها عن اسفهم لعدم نجاح هتلر في القضاء عليّ قبل ان أوجه مثل هذه المعايير إلى حزبهم ، والنصف الآخر كان من يهود براتيون ، ويقولون لي فيها أنني لم اتخلص معنياً اطلاقاً من المانيا الهتلرية وطني الروحي . لاحظ أنني كنت بالوقائع فقط ، ولم ينطو حديثي على آرائي الخاصة اطلاقاً . ومع ذلك ، فإن مجرد ذكر بعض الوقائع البسيطة البريئة ، قد احدث ضجة طال امدها تماماً . يرى عالم النفس أن الاتجاهات عادات عقلية ، مثلها مثل الطريقة التي تمارسها في تجزئة الرمية نحو الهدف في لعبة الجولف ، او الاسلوب الذي تنسلّ فيه كل يوم احد لتشجيع فريق « تشلسي » في مباراة « الكأس » النهائي . ان العادات مقاومة جداً للتغير ، وتواجه المحاولات الهادفة إلى احداث مثل هذا التغيير مقاومات انفعالية قوية . لذلك ينبغي لعالم النفس أن لا يفاجأ كثيراً من هذا الرجع الغريب . لقد تابعت البحث في الاتجاهات الاجتماعية غير هيّاب ، وفي نهاية المطاف نشرت

النتائج التي تمخض عنها هذا البحث في كتابي « سيكولوجية السياسية » (Psychology of politics) الذي اعتقدت عن حسن نيّة بأنه سيلقى رواجاً واسعاً ويغدو شعبياً بصورة معقولة نظراً للنتائج الهامة الجديدة التي اوردتها في ثناياه .

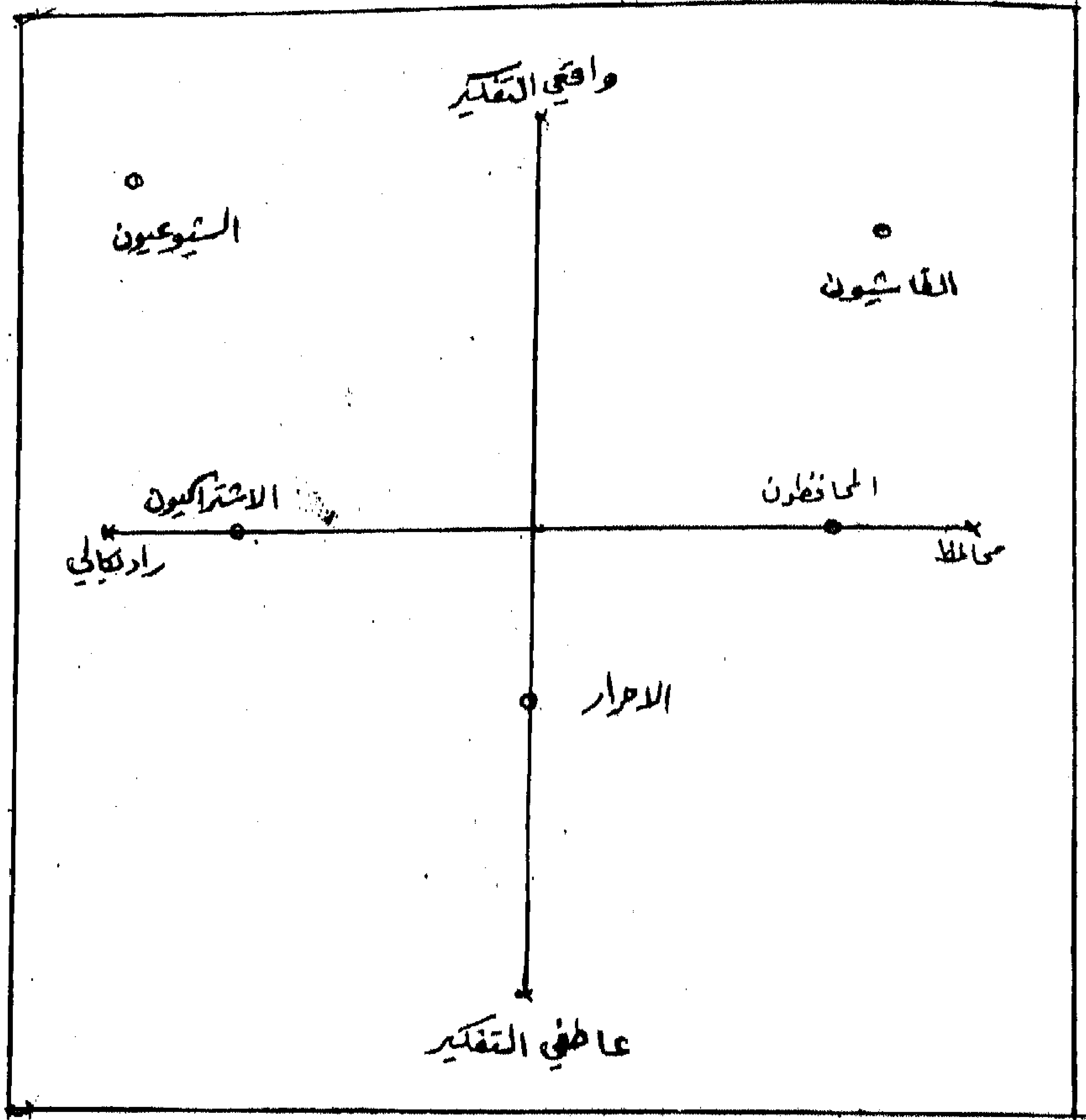
انطلقت في بحثي من فرضية أن وجهة النظر المعتنقة على نحو واسع والتي تفيد بأن الاتجاهات الاجتماعية والسياسية منظمة حول محور يمين — يسار منفرد ، هي وجهة نظر خاطئة ، وأن بعداً او ابعاداً اخرى اكثر عمقاً ، هي ضرورية لتقديم وجهة نظر أكثر توازناً حول ما يفكر فيه الناس بصورة واقعية . وعندما اختبرت عينات مختلفة ، باستخدام استفتاءات للاتجاهات تتراوح بين الدينية والسياسية ، والاتجاهات الاخلاقية والجنسية اكتشفت فعلاً أنه قد ظهر في هذه العينات جميعها ، بالاضافة إلى محور يمين — يسار ، محافظ — راديكالي محور ثان قررت تسمية واقعي التفكير مقابل عاطفي التفكير ، متبعاً في ذلك وليم جميس في تمييزه الهازل لوجهات النظر الفلسفيّة . تصورت هذا البعد الثاني كنوع من اسقاط الشخصيّة على المجال الاجتماعي ، حيث يعتنق الانطوائيون وجهات نظر عاطفية التفكير ، بينما يعتنق الانبساطيون وجهات نظر واقعية التفكير . وبذلك تندرج الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في اربع ربعيات هي : وجهات نظر راديكالية ، ويمكن أن تكون واقعية التفكير (مضاد للدين — متساهل) او عاطفية التفكير (مسالم — متسامح) . وكذلك وجهات النظر المحافظة ، إذ يمكن أن تكون واقعية التفكير (مصاب برهاب الاجانب ، كاظم) او عاطفية التفكير (ديني ، تقليدي) . ثمة

اتجاهات راديكالية « محض » مثل (الغاء الملكية الخاصة) ، واتجاهات محافظة « محض » مثل (التأميم غير فعال) . ولكن لا توجد اتجاهات اجتماعية عاطفية التفكير « محض » او واقعية التفكير « محض » ، لأن اسقاطات خصائص الشخصيّة في المجال السياسي يجب أن تستقطب على طول محور يمين — يسار . واكتشفت في الواقع دليلاً يؤيد فكرة أن العقليّة العاطفية والعقلية الواقعية ترتبطان بالشخصيّة على النحو المفترض ، حيث نزع الانبساطيون إلى اعتناق اتجاهات واقعية ، ونزع الانطوائيون إلى اعتناق اتجاهات عاطفية . وفي الواقع ، هناك دليل اضافي ينطوي عليه الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وسوف نتذكر أن الاتجاهات الجنسيّة المتساهله (واقعي التفكير) هي خاصية الانبساطيين ، وأن الاتجاهات الجنسيّة والدينية التقليدية هي خاصية الانطوائيين . ويبدو اجمالاً ، ان الصورة العامة تتفق إلى حد بعيد مع الخط الصحيح ، رغم أنها مبسطة على نحو كبير طبعاً .

لقد مضيت خطوة ابعد في هذا المجال ، وجربت انطباق الاحزاب السياسية الموجودة على هذه الصورةالعامة . وبدلاً من أن ارى هذه الاحزاب منتظمة على طول متصل منفرد بدءاً من اليسار الشيوعي ومروراً بالعمال فالاحرار ومن ثم يميناً إلى المحافظين فالفاشيين اخيراً ، فقد رأيتها متموضعة على شكل حدوة حصان تقريباً ، حيث يقع الشيوعيون في ربعية التفكير الواقعي الراديكالي ، ويقع الفاشيون في ربعية التفكير الواقعي المحافظ مشكلين نهايتي الحدة . اما مواقع الاحرار ، فقد كانت على التواء الحدوة ، اي في الموقع العاطفي التفكير المتوسط بين اليمين واليسار . كان العمال في اليسار ، والمحافظون

في اليمين . ولكن لم يكونوا واقعي التفكير ولا عاطفي التفكير ، ولاختبار هذ الفرضيّة، بحثت الاتجاهات الاجتماعية لعينات كبيرة من هذهاتباع هذه الاحزاب المتنوعة:اي من الناس الذين ينتمون إليها او صوتوا لصالحها في الانتخابات الاخيرة على اقل تقدير . لقد ادت محاولات تعقب مشايعي الاحزاب ، وبخاصة الشيوعيين والفاشيين منهم . إلى احراج كبير في بعض الحالات . لقد كان على « ثيلما كوتر » ، وهي مساعدة لي وقتلت اخيراً في حادث مأساوي ، ان تتصل فعلاً بالحزبين الشيوعي والفاشي لكي تتمكن من الاقتراب إلى عدد معقول من اعضائهما واجراء الاختبار عليهم ! (ومن حسن الحظ أن أياً من الحزبين لم يعرف بعضويتها في الحزب الآخر ، مما قد يسبب حرجاً كبيراً آنذاك) . وعلى اية حال ، ايدت البيانات التي تم جمعها أخيراً الفرضية المقترحة ، واوحت بيانات الشخصيّة ، وبخاصة ما تم جمعه منها من مجموعات شيوعية وفاشية ، أن هذه المجموعات تتسم بدرجة مرتفعة من العدوان بشكل خاص ، وهو عدوان ظاهري لدى الفاشيين ، ومضمر لدى الشيوعيين .

كانت الوقائع واضحة جداً بحيث جعلت التفسير غير ضروري تقريباً ، وهو امر مقنع في البحث العلمي طالما جعل الشطط في التفسير او سواء التفسير في حدوده الدنيا . لذلك توقعت بشيء من الثقة لدى صدور الكتاب ان النقاد لن يجدوا فيه ما يعترضون عليه إلا القليل ، بيد انني كنت مخطئاً في توقعي. ربما كان ينبغي لخبراتي السابقة في التصادم مع فرويد أن تكون موجهاً تحذيرياً لي ، فأي انتقاد من هذا القبيل مهما كان مسوّغاً، واي عمل تجريبي يناقض فيما يبدو « رأي



السيد »مهما كانت اجراءاته دقيقة ، يتعرضان فوراً لوابل من الانتقادات العدائية المفرطة . والموجهة عادة ضد الشخص وليس الحجة . لقد اصطدمت في كتاب سيكولوجية السياسيين » على نحو متعمّد مع نبيّ عظيم آخر للقرن التاسع عشر . ني لا يقل عن كارل ماركس العظيم ذاته . وهاجمني اتباعه بعنف في سبيل هدم اي تأثير قد يتمتع به الكتاب . بدا الاعتراض الرئيسي في انني قد صنّفت الشيوعيين بطريقة ما مع الفاشيين . وكان ذلك اثماً قاتلاً . رغم انني اشرت مرة تلو اخرى في دفاعي إلى أن هذه التصنيف هو ما اسفرت عنه

البيانات بالضبط . بيد ان الوقائع لا تشكل حماية ضد هذا النوع من الاضطهاد ، وارتفع علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي إلى مستوى المسؤولية **وادانوا المؤلف والكتاب معاً . لقد انضم هؤلاء إلى علماء النفس الروس الذين اعتبروا الكتاب** (وبصورة طبيعية تماماً) **هداماً** و « يمينياً » — رغم انهم اعتبروا اعمالي في العلاج السلوكي والشخصية « **انحرافية ميكانيكية للجناح اليساري** » ولم يعتبروها تفسيراً للتناقض .

ان النظرية التي ناقشتها في كتاب « سيكولوجية السياسيين » معتنقة على نطاق واسع جداً ، وتعود في اصولها إلى « روسو » وفكرة « المتوحش النبيل » . يؤمن العديد من الناس بأن الانسان البدائي كان اكثر طبيعية بطريقة ما (وهي دون ريب وجهة نظر صحيحة بالمعنى الأكثر ابتذالاً لهذا المصطلح) ، ويستنتج هؤلاء بأن موازنة ما هو طبيعي مع ما هو نبيل وكريم في طبيعتنا ، تعمل بطريقة تؤدي إلى تلويث النبالة البدائية ، وتنتج تفسخاً واعراضاً اخرى لحياة غير طبيعية . ان الاطلاع على ممتلكات الناس البدائية لا يؤيد اجمالا هذه النظر ، فبعض هذه الجماعات ودية ، وبعضها الآخر رديئة ، وتبعاً لتصوراتنا المسبقة — ليس ثمة نبالة عالمية جلية تسمو بالميزات الفردية لعشيرة او مجموعة معينة . **غير أن هذه الاسطورة ادت إلى انبعاث معتقد آخر طرحه ماركس** ، واصبح عقيدة لا ريب فيها للعديد من اتباعه — وكذلك للعديد من الآخرين **الذين يؤمنون بأفكار الجناح اليساري**،**رغم انهم هم انفسهم غير ماركسيين** بالمعنى التقني لهذا المصطلح وليسوا اعضاء في الحزب الشيوعي ، يمكن تسمية هذه

العقيدة **باسطورة ضحية الظلم والاضطهاد** ، او على اكثر وضوحاً ، إسطورة حكمة الطبقة العمالية . تفيد هذه الاسطورة بشكلها الاوسع وباختصار شديد ، أن للناس المضطهدين (العبيد والزنوج وافراد الطبقة العمالية عموماً) نوعاً خاصاً ن الحصافة يمكّنهم من اعتناق آراء قيمّة اجتماعياً ، بحيث يتعارضون مع الظالمين الذين يعتنقون بالتحديد نظريات واتجاهات معارضة لنظريات الطبقة المستغلّة واتجاهاتها وهي بالتالي نظريات واتجاهات رجعيّة وربما « فاشيّة » . لقد اصبحت هذه النظرية مقبولة على نحو واسع ، وهي تشكل الآن خاصيّة العديد من افراد الجناح اليساري ، بل وحتى الناس « التقدميين » على نحو غامض . ولكن هل هذا صحيح ؟

يبدو الدليل للوهلة الأولى غير مؤثر بالتأكيد ، فأعضاء الطبقة العماليّة للحرب العالمية الثانية ، هم الذين صوتوا لصالح الحرب ، **وهدموا ما يتبجحون به من تضامن عالمي للطبقة العمالية . كما لم يتضح أن اعضاء الطبقة العمالية اقلّ شوفونية من اعضاء الطبقات الاخرى في اي بلد اعرفه ، ولم يكونوا اقل عنصرية من الناس الآخرين** . فالاعتراضات على هجرة الملونين في انكلترا ، وعلى مساواة الزنوج في الولايات المتحدة الاميريكية ، لم تصدر عن افراد الطبقة العمالية بشكل اقل من صدورها عن افراد المجموعات الأخرى . وينبغي لتذكر بهذ الصدد أن عمال احواض السفن (الذين يصعب الادعاء بعدم كونهم من الطبقة العمالية قد ساروا إلى البرلمان لتأييد خطابات « اينوتش باول المضادة للهجرة . وأن اولئك الذين احتجوا على زيارات فريقي جنوب افريقيا لالعاب الركبي والكريكيت إلى

انكلترا بناء على سياسية التمييز العنصري المتبعة هناك ، لم يكونوا اجمالاً من أفراد الطبقة العمالية ، بل كانوا من الطلاب ومفكري الطبقة المتوسطة . لا يشكل هذا جميعه دليلاً « قوياً » طبعاً ؛ ومع ذلك قد ينتاب الفرد بعض الشك بصدد ما إذاً كان موقف الشيوعي او الماركسي ليس في حاجة إلى بعض الدعم الواقعي إذا كان ينبغي الدفاع عنه .

يبدو أن الحجة الشيوعية العادية ، والممارسة الشيوعية العادية ، تتخليان عن هذه النقطة ، وتعتبر الطبقة العمالية وفق هذه الممارسة وتلك الحجة ، طبقة صامتة وتحتاج إلى شخص يتحدث لصالحها . ان الشيوعيين هم المتحدثون المختارون طبعاً ، ويعبرون عن الارادة السريّة للطبقة العمالية (تماماً كما يعتقد نيكسون بأنه من المفيد التعبير عن « الغالبيّة الصامتة ») . ان التعبير عن وجهات النظر « الصادقة » لمجموعة صامتة ، هي امر سهل دائماً . وطالما لا توجد طريقة معروفة لاكتشاف ما هي وجهة النظر « الصادقة » فعلاً ، فإن موقف الشيوعي هو نفس موقف الفرويدي ذاته تماماً — التفسير ضروري ،ومن يستطيع تقديم هذا التفسير غير الماركسي او الفرويدي؟ ان المحكات الموضوعية غير معترف بها .وتعبس المجوعتان كلاهما (الماركسيون والفرويديون) فعلاً حيال هذه المحكات . وكما قال فرويد بأنه ليس في حاجة إلى برهان تجريبي لاكتشافاته ، حيث يوجد مثل هذا البرهان في « سرير » العلاج ؛ كذلك لا يطلب الماركسيون برهاناً ناجماً عن بحوث مستقلة للاتجاهات الاجتماعيّة ، بل يكمن برهانهم في قيادة حركة الطبقة

العماليّة التي استولوا عليها او تاقوا إلى الاستيلاء عليها في معظم الاحيان . وعندما نجحوا في الاستيلاء على هذه القيادة ، فقد اولوا اهتماماً كبيراً إلى كبح حرية التعبير نهائياً وبصورة حاسمة – انهم على صواب حتى في الحالة التي قد لا يوافقون فيها على التفسيرات التي يصرحون بها . بيد أن ذلك لا يجيب عن سؤال المتشكك : ماذا يفكر رجال الطبقة العمالية ونساؤها فعلاً بصدد المشكلات الاجتماعية المتنوعة ؟ لا يبدو السؤال عديم المعنى . ولكن على الرغم من أنه لا ينبغي الاعتماد إلى حد كبير على الاجابات التي قد يتمخض عنها ، إلا أنه يشير إلى مشكلة هامة يبدو أنها لم تطرح في كثير من الاحيان ، ولم يبذل في بحثها أية جهود جادة . هذه هي المشكلة التي يتناول الفصل الراهن بحثها مستعيناً ببعض الدراسات التي جرت في مختبراتنا بشأنها .

ليست هذه الدراسات استقرائية على نحو صرف ، بل يمكن القول بأنها جرت لتأييد او تفنيد فرضيّة محددة . قد تكون هذه الفرضيّة مصوغة على نحو بسيط تماماً ، لأنها فرضية مقابلة للفرضية التقليدية المقبولة على نحو واسع من كتاب الجناح اليساري . وربما يكون احد اشكال صياغة الفرضيّة على النحو التالي : ان افراد الطبقة المتوسطة اكثر ميلاً إلى اعتناق الافكار التقدميّة من افراد الطبقة العمالية ، إذا كانت هذه الافكار غير مرتبطة على نحو مباشر بتملك او بيع ملكية خاصة . والفرضيّة الأخرى التي يمكننا طرحها : هي أن افراد الطبقة العمالية هم اكثر ميلاً إلى اعتناق الافكار التقدميّة من افراد الطبقة المتوسطة . إذا كانت هذه الافكار مرتبطة على نحو مباشر بتملك او بيع ملكية خاصة . لذلك تقترح فرضيتنا تغيراً ملحوظاً

بين نوعين من الافكار التقدمية . نوع الافكار التي تبحث في . الاشتراكية مقابل الرأسمالية . ونوع الافكار التي تبحث في الامور الاخرى جميعها . كما توحي الفرضيّة بأنه سوف يوجد في طبقة معيّنة انسجام بين وجهات النظر التقدمية في جميع الامور . ولكن سوف يوجد انقسام بين الطبقات .. ان افراد الطبقة العمالية تقدميون بالمعنى الاشتراكي ، لكنهم رجعيون من حيث المعاني الأخرى جميعها. وإن افراد الطبقة المتوسطة رجعيون بالمعنى الاشتراكي . لكنهم تقدميون من حيث المعاني الاخرى جميعها . تؤدي هذه الفرضية إلى نشوء تناقض هام . فأحزاب اليسار مثل حزب العمال في بريطانيا والحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة (يستخدم مصطلح اليسار هنا بطريقة نسبيّة إلى حد بعيد طبعاً) . تتمتع بسمعة « التقدميّة » لا بمعنى مهاجمة الامتياز والملكية فحسب . بل بمعنى انهم اكثر تحرراً « ليبرالية » او راديكالية في الامور الأخرى جميعها ايضاً . وعلى نحو مماثل ، يتمتع المحافظون والجمهوريون بالسمعة المضادة ، ولا يعتبرون رجعيين بمعنى الدفاع عن الامتياز والملكية فحسب . بل ايضاً بالمعاني الأخرى جميعها لمصطلح « الرجعية » . لذلك ينزع حزب الاحرار البريطاني إلى التعبير عن مسائل مثل مساواة المرأة ، وكراهية السياسة العنصرية ، والتسامحيّة ، وضبط السلاح ، والدولية ، والغاء الاعدام ، والمساواة العرقية ، وما شابه من هذه المسائل . ويتضح من نتائج التصويت على الموضوعات التي تتناولها الخطابات في البرلمان . أن اعضاء حزب العمال هم الذين يصوتون عادة لصالح مثل هذه المسائل بالاشتراك مع قلّة نادرة من المحافظين وبدعم من

الاحرار في معظم الأحيان . اما اعضاء حزب المحافظين فيصوتون عادة لصالح الاتجاه المضاد بالاشتراك مع نذر يسير من اعضاء حزب العمال وبتأييد احياناً من الاحرار

يغدو التناقض الآن جلياً إذا ادركنا أن غالبيّة المصوّتين لصالح حزب العمال (وغالبية المصوتين لصالح الحزب الديمقراطي) هم من افراد الطبقة العمالية ، بينما غالبية المصوتين لصالح حزب المحافظين (وغالبية المصوتين لصالح الحزب الجمهوري) ، هم من افراد الطبقة المتوسطة . وبتعبير آخر ، إذا كانت فرضيتنا صحيحة . فإن كلاً من المجموعتين الرئيسيتين تتمثل بأعضاء برلمانيين يعارضون اجمالاً الاتجاهات التي يتبناها ناخبوهم حيال عدد كبير من المسائل الاجتماعية ! يتخذ افراد الطبقة العمالية اتجاهات محافظة بشأن العديد من المسائل الاجتماعية ، ولكنهم يصوتون لصالح اعضاء البرلمان الذين يؤمنون بأفكار تقدمية حيال هذه المسائل ذاتها . اما بالنسبة لأفراد الطبقة المتوسطة . فالامر على العكس ، إذ يعتنق هؤلاء اتجاهات تقدمية بصدد العديد من المسائل الاجتماعية ، إلا أنهم يصوتون لصالح اعضاء البرلمان الذين يؤمنون بأفكار رجعيّة ازاء هذه المسائل نفسها . وبعد ، إن المسائل التي يتفق بصددها الناخبون والاعضاء البرلمانيون ، هي تلك المسائل المتعلقة بالتأميم وفرض الضرائب والسلطة الاقتصادية بوجه عام . اما بالنسبة للمسائل الأخرى جميعها ، فثمة تقاطع واضح ، حيث يجري « تصويت عرضي متقاطع » يقوم خلاله الناخبون والمنتجون بانتهاج طرقهم المختلفة . لذلك لا يستغرب أن يقوم عمال أحواض السفن بتأييد اينوتش باول ، هناك العديد

من النتائج الهامة التي تنجم عن هذا التناقض ، وسنأتي إلى نقاشها في مكان لاحق من هذا الفصل . اما الآن فدعنا نفكر ما إذا كان الدليل يؤيد هذه الفرضيّة في الواقع .

دعنا نفكر اولاً فيما يدعى « المحافظة الاقتصادية » ، اي في مجموعة الاتجاهات المرتبطة على نحو مباشر بالمناظرة « رأسمالي — اشتراكي » . ثم في مجموعة الاتجاهات المتعلقة بالاهتمامات الذاتية المباشرة الاسمى والمتشابهة لدى افراد الطبقتين العمالية والمتوسطة . اجرى ريتشارد سنترز (Richard centers) في كتابه ، « سيكولوجيا الطبقات الاجتماعية » (psychology of Socialclasses) احدى اكثر الدراسات كفاءة في هذا المجال . لقد استطلع عينة عشوائية مكونة من اكثر من الف ناخب اميريكي مستخدماً مجموعة اسئلة على النحو التالي :

(١) هل توافق او لا توافق على أن اميريكا هي بلد الفرص المناسبة ، وأن الناس ينالون ما يستحقونه على نحو ممتاز في هذا القطر ؟

(٢) هل توافق على أن كل فرد سيكرن اكثر سعادة وامناً وازدهاراً إذا توافر للناس العاملين مزيد من السلطة والتأثير في الحكومة ، ام انك ستقول بأننا سنكون افضل حالاً إذا لم يتمتع الناس العاملون بسلطة اكبر من التي يتمتعون بها الآن ؟

(٣) انك تعرف ان الحكومة قد تولت اثناء هذه الحرب (لقد اجري البحث اثناء الحرب العالمية الثانية) امر تسيير العديد من الاعمال

والصناعات الخاصة . هل تعتقد ان الاجور والرواتب ستكون اكثر عدلاً . وأن الاعمال ستكون اكثر استقراراً ، وأن عدد العاطلين عن العمل سيكون اقل ، إذا تولت الحكومة تسيير امور مناجمنا ومعاملنا وصناعاتنا في المستقبل ، أم انك تعتقد بأن الامور ستكون افضل حالاً في ظل الملكية الخاصة ؟

(٤) اي من العبارات التالية توافق عليها بصورة قصوى :

(ا) ان المهمة الاكثر اهمية للحكومة هي ضمان وجود فرص جيدة امام كل شخص للفوز بطريقته الخاصة .

(ب) ان المهمة الأكثر أهمية للحكومة هي ضمان عمل ثابت ومستوى معيشة محترم لكل شخص .

(٥) هل تقف عادة إلى جانب العمال أم إلى جانب ارباب العمل لدى قيام الاضرابات والنزاعات بين هذين الجانبين ؟

(٦) هل تعتقد أن ارباب العمل يعاملون عمالهم على نحو عادل وشريف عادة . ام انهم يخدعونهم احياناً ؟

تبيّن أن هذه الأسئلة مترابطة تماماً فيما بينها (عدا السؤال الأول الذي لم يكن معداً بشكل ممتاز) ، وانها مترابطة مع اهداف التصويت إلى حد بعيد . فالديمقراطيون نزعوا إلى التصويت لصالح الراديكالية الاقتصادية ، بينما نزع الجمهوريون إلى التصويت لصالح المحافظة الاقتصادية . ولدى جمع سنترز للاجابات عن هذه الاسئلة بشكل مناسب ، تكون لديه مقياس تدريجي منفرد ذو خمسة مستويات تتراوح بين محافظ متطرف وراديكالياً متطرف مروراً بمحافظ ومتوسط

وراديكالي . وتبيّن أن ٥٥٪ من المحافظين المتطرفين قد صوتوا لصالح الجمهوريين . في حين صوت لصالحهم ٥٪ فقط من ، الراديكاليين المتطرفين . واتضح أن قيمة معامل الارتباط بين مقياس المحافظة الاقتصادية والطبقة الاجتماعية هو (٠,٥٩) . مما يشير بوضوح إلى أن افراد الطبقة العمالية (مع أن كثيراً من الناس كانوا يعتقدون آنذاك بأنهم في مجتمع غير طبقي) قد نزعوا إلى الراديكالية الاقتصادية . وأ افراد الطبقة المتوسطة قد نزعوا إلى المحافظة الاقتصادية فسرّ سنترز نتائجه بما يتفق مع ما يعرف احياناً بنظرية مصلحة الطبقات الاجتماعية . ولقد صاغ هذه النظرية على النحو التالي : « تنطوي هذه النظرية على مغزى مفاده ان مكانة الشخص ودوره بصدد عمليات المجتمع الاقتصادية . يفرضان عليه اتجاهات ومصالح وقيماً ترتبط بدوره ومكانته في المجال السياسي والاجتماعي . كما تشير إلى أن المكانة الاجتماعية ودور الفرد فيما يتعلق بوسائل الانتاج وتبادل البضائع والخدمات . يحدثان لديه شعور العضوية في طبقة اجتماعية تشاركه تلك الاتجاهات والمصالح والقيم » . ولكن هل يطابق الناس انفسهم مع طبقات اجتماعية مبنية على نحو صحيح حقاً ؟ ان حوالي ثلاثة ارباع العاملين في الاعمال التجارية والحرفية والادارية والتعليمية . يطابقون انفسهم مع الطبقة المتوسطة او العليا . عندما تتاح لهم فرصة تحديد الطبقة الاجتماعية التي يعتقدون بأنهم ينتمون إليها . بينما نسبة اكبر من جميع العمال اليدويين (٧٩ ٪) يتطابقون مع الطبقات العمالية او المنخفضة . ثمة دليل جيد على « نظرية مصلحة » الطبقات الاجتماعية . وبخاصة عندما يتعلق الامر بالراديكالية الاقتصادية .

هل يمكن اتساع معنى مصطلح « محافظ . . راديكالية » بحيث يتضمن مسائل اخرى غير المسائل الاقتصادية ؟ لقد كانت الاجابة الايجابية عن هذا السؤال موضع شك في كثير من الاحيان . وجادل المؤلفون الاميريكيون بشكل خاص قائلين بعدم وجود عمومية متأصلة في مفهوم الراديكالية او المحافظة تستغرق تنوعاً عريضاً من المسائل المختلفة وغير المترابطة منطقياً . ولكن على الرغم من ذلك ، يبدو أن هذا الامر غير صحيح . وقد بيّنت في كتاب « سيكولوجية السياسيين » أن العديد من المسائل المختلفة تظهر بالفعل انماطاً متميزة من الارتباطات لدى طرح هذه المسائل على التصويت . كما بيّن جلين ويلسون (Glenn wilson) حديثاً ، عرضاً واضحاً لهذه الحقيقة ، حيث بنى نمطاً بسيطاً لاستفتاء الاتجاهات قمت بنسخه ثانية فيمايلي بعد الحصول على اذن منه بذلك .

تتضمن قائمة جلين ويلسون كما يتضح من الجدول رقم (٤) مجموعة كبيرة من المسائل المتنوعة. وعلى الرغم من هذا التنوع فقد كان ثبات (موثوقية) الدرجات مرتفعاً جداً حيث بلغت قيمة معامل الارتباط (٠,٩٤) . وهذا يشير إلى أن الشخص الذي يقرّ فقرة « راديكالية » ، سوف ينزع عموماً وبشكل قوي جداً إلى الاقرار بفقرات « راديكالية » اخرى ايضاً . وبما أن ارتفاع الدرجات على الاستفتاء يشير إلى « المحافظة » ، فقد وجد ويلسون أن رجال الاعمال وربات البيوت قد نالوا اعلى الدرجات (٥٨ درجة لرجال الاعمال ،

الجدول رقم (٤) . قائمة جلين ويلسون لقياس المحافظة - الراديكالية .



التعليمات: فيما يلي عدد من الفقرات، فإذا كنت تؤيد احداها أو تؤمن فيها فضع دائرة حول كلمة «نعم»، وإذا كنت تعارضها ولا تؤمن فيها فضع دائرة حول كلمة «لا»، أما إذا كنت غير متأكد اطلاقاً من رأيك فضع دائرة حول الاشارة «؟»، لاتوجد اجابات صحيحة وأخرى خاطئة، لذلك لاتفكر وقدم أول اجابة تخطر لك واجب عن جميع الأسئلة.

١	عقوبة الاعدام	نعم	؟	لا	٢٦	ميوسيقى الكومبيوتر	نعم	؟	لا
٢	نظرية التطور	نعم	؟	لا	٢٧	العفة (الطهارة)	نعم	؟	لا
٣	الزيّ المدرسي الموحد	نعم	؟	لا	٢٨	الفلورة (اضافة الفلور للماء الشرب)	نعم	؟	لا
٤	عروض التعرّي	نعم	؟	لا	٢٩	الولاء	نعم	؟	لا
٥	طقوس السبت	نعم	؟	لا	٣٠	القضاة بين النساء	نعم	؟	لا
٦	الوجوديون	نعم	؟	لا	٣١	الملابس التقليدية	نعم	؟	لا
٧	الوطنيّة	نعم	؟	لا	٣٢	سياقة المراهقين	نعم	؟	لا
٨	الفن الحديث	نعم	؟	لا	٣٣	سياسة التميز العنصري	نعم	؟	لا
٩	انكار الذات	نعم	؟	لا	٣٤	نوادي العراة	نعم	؟	لا
١٠	الأمهات العاملات	نعم	؟	لا	٣٥	السلطة الكنسية	نعم	؟	لا
١١	البروج	نعم	؟	لا	٣٦	نزع لسلاح	نعم	؟	لا
١٢	تحديد النسل	نعم	؟	لا	٣٧	الرقابة الخلقية	نعم	؟	لا
١٣	التدريب العسكري	نعم	؟	لا	٣٨	الكذب الأبيض	نعم	؟	لا
١٤	التعليم المختلط	نعم	؟	لا	٣٩	التأديب بالعصا	نعم	؟	لا
١٥	القانون الالهي	نعم	؟	لا	٤٠	الزواج المختلط	نعم	؟	لا
١٦	الاشتراكية	نعم	؟	لا	٤١	القواعد المحددة	نعم	؟	لا
١٧	تفوق البيض	نعم	؟	لا	٤٢	موسيقى الجاز	نعم	؟	لا
١٨	زواج أبناء العموم والأخوال	نعم	؟	لا	٤٣	سترة المجانين أو المساجين	نعم	؟	لا
١٩	التدريب الأخلاقي	نعم	؟	لا	٤٤	الرزق غير المنتظم	نعم	؟	لا
٢٠	الانتحار	نعم	؟	لا	٤٥	تعلم اللاتينية	نعم	؟	لا
٢١	الوصيفات	نعم	؟	لا	٤٦	الطلاق	نعم	؟	لا
٢٢	الاجهاض الشرعي	نعم	؟	لا	٤٧	الضمير الفطري	نعم	؟	لا
٢٣	مبنى الأمبير	نعم	؟	لا	٤٨	هجرة الملونين	نعم	؟	لا
٢٤	تبهرج الطلبة	نعم	؟	لا	٤٩	حقيقة الانجيل	نعم	؟	لا
٢٥	قوانين التراخيص	نعم	؟	لا	٥٠	حفلات البيجاما	نعم	؟	لا

و٦١ درجة لربات البيوت) ، بما حصل العمال غير المهرة على (٤٧) درجة . اما طلاب الجامعات فقد حصلوا على ادنى الدرجات (٣٣ درجة) . في حين حصل الحرفيون الراشدون على درجات منخفضة إلى حد ما (٤٤ درجة) . ولقد بيّن ويلسون أن مقياسه مرتبط تماماً بالافكار السياسية المعروفة وانماط التصويت ، حيث بلغ متوسط درجات عينة من اعضاء نادي الكتاب اليساريين (١٧) درجة . في حين بلغ متوسط درجات عينة من اعضاء حزب يميني (٥٦) درجة . وما يجدر بالاهتمام على نحو خاص في هذه النتائج ، هو أن الفقرات التي تمتاز بدقة تنبؤية عالية بالنسبة لمقياس الراديكالية ـ المحافظة ترتبط على نحو واضح بالجدل المتعلق بالاحداث الجارية (الوجوديون ، وعقوبة الاعدام ، وهجرة الملونين . والفقه ، والزواج المختلط ـ الزواج من جماعات دينية مختلفة ـ والولاء ، والقانون الالهي . ونزع السلاح ، والفن الحديث) ؛ بينما ترتبط الموضوعات غير المتعلقة بالاحداث الجارية على نحو ضعيف بالفقرات الباقية للمقياس (تعلم اللاتينية ، والكذب الابيض ، وانكار الذات ، وبهرجة الطلبة ، والفلورة) . من الظاهر أننا مؤهلون لتوسيع معنى « المحافظة » و « الراديكالية » إلى ما وراء حدود المسائل الاقتصادية .

ينبغي لعامل المحافظة ـ الراديكالية الاكثر عمومية . والذي ينطوي على راديكالية اقتصادية كأحد مكوناته ، ان يمايز بين افراد الطبقة المتوسطة وافراد الطبقة العمالية . بيد أن اتجاه هذا التمايز سوف يسلك سبيلاً حسب فرضية « للطبقة العمالية الراديكالية » القديمة . والتي تشير إلى أن افراد الطبقة المتوسطة هم اكثر ميلاً من

افراد الطبقة العمالية إلى اعتناق الافكار التقدمية غير المرتبطة على نحو مباشر بامتلاك الملكية الخاصة وبيعها . لقد قمت بتطبيق استبيان مؤلف من (٣٥) فقرة على اكثر من الف شخص ينتمون إلى الطبقتين العمالية والمتوسطة : واستخرجت درجاتهم على كل من العامل « R » (راديكالية ــ محافظة) والعامل « T » (عقلية واقعية مقابل عقلية عاطفية) . انقسم افراد كل من مجموعتي الطبقتين وفق ولائهم السياسي على نحو شكلوا فيه مجموعات فرعية من المحافظين والاحرار والاشتراكيين والشيوعيين . تبيّن في ضوء نتائج كل من هذه المجموعات الفرعيّة . أن درجات اعضاء الطبقة المتوسطة هي اعلى من درجات اعضاء الطبقة العالية من حيث الراديكالية والعقلية العاطفية . ان الدرجات الواقعية التي تم الوصول إليها مبيّنة في الجدول رقم (٥) ، حيث يتضح من هذا الجدول وفي داخل جميع التصنيفات الجزئية ، ان افراد الطبقة المتوسطة هم راديكاليون وعاطفيون التفكير اجمالاً ، بينما أفراد الطبقة العمالية هم محافظون وواقعيو التفكير . تتفق هذه النتيجة مع فرضيتنا إلى حد بعيد ، فالطبقة العمالية تؤيد فرض عقوبة الاعدام والجلد والمعاملة القاسية للمجرمين ، ويتبنّون عموماً فلسفة « العصا لمن عصى .... والعصا من الجنّة » . وانهم ينادون للساميّة ولتمازج الاجناس ومعارضون للملونين . كما أنهم اكثر وطنيّة ومعارضة للتخلي عن السيادة الوطنية سبيل السلام ، واكثر مقاومة لمن يرفضون حمل السلاح والخدمة في القوات المسلّحة . تعارض هذه الاتجاهات جميعها وبشكل شديد جميع السياسات التقدمية الانسانية التنويرية التي يناصرها حزب العمال . والامر

اكثر شبهاً باسطورة « النساء المحافظات » اللواتي يصرخن مطالبات باعادة فرض عقوبة الاعدام وهن يرتدين قبعاتهن المزدانة بالزهور ! ربما كانت بياناتنا دليلاً اكثر احكاماً من التقارير اللفظية للمقابلات المنتقاة وغير الممثلة إلى حد بعيد ، والتي تنطوي عادة على وجهات نظر خاصة بعض الشيء .

الجدول (٥)

البعد	الراديكالية		العقلية العاطفية	
المجموعات الفرعية	الطبقة المتوسطة	الطبقة العمالية	الطبقة المتوسطة	الطبقة العمالية
مجموعة المحافظين	٤ر٦	٢ر٨	٧ر٦	٦ر٣
مجموعة الأحرار	٦ر٣	٣ر٧	٧ر٩	٧ر٤
مجموعة الاشتراكيين	٩ر٤	٦ر٤	٨ر٠	٦ر٢
مجموعة الشيوعيين	١٢ر٤	١٠ر٧	٦ر٨	٦ر٠

قد يصار إلى الاعتقاد بأن التقسيم الفرعي لمجموعات الطبقة الاجتماعية باستخدام التصويت يعمل على تشويه الصورة (الوضع) ، لذلك دعني اقتطف بعض الارقام المتوافرة لدى معهد جالوب والتي تم الحصول عليها نتيجة تطبيق استفتاءات استطلاعية على عينات عشوائية من السكان ، واعادة عرضها هنا بعد موافقة المعهد الكريمة

على ذلك . في نيسان عام (١٩٦٨) ، أي عندما كان مشروع قانون العلاقات العرقية موضوع الابناء في ذلك الحين ، طرح معهد جالوب اسئلة حول ما إذا كانت بريطانيا العظمى قد استفادت أم تضررت من المهاجرين .اشارت نتائج الاستطلاع إلى أن ٢٤٪ من مستجيبي الطبقة المتوسطة قدا عتقدوا بأن بريطانيا استفادت من المهاجرين ، في حين شاركهم في نظرتهم هذه ١٢ ٪فقط من مستجيبي الطبقة العماليّة . كماتبيّن أن ٦٤٪ من افراد الطبقة العماليّة قد اعتقدوا بأن الهجرة تؤدي إلى الضرر، بينما شاركهم في هذه النظرة ٥٤ ٪ فقط من افراد الطبقة المتوسطة . وعلى نحو مماثل ، تبين من نتائج الاستطلاع المتعلقة بالسؤال عما إذا كان ينبغي السماح لمعالي المهاجرين بدخول بريطانيا العظمى ، ان ٤٩٪ من مستجيبي الطبقة المتوسطة قد اجابوا بالنفي ، في حين اجاب بالنفي ٥٩٪ من مستجيبي الطبقة العمالية . من الواضح ان مستجيبي الطبقة العمالية هم اقل تحرراً فيما يتعلق بهجرة الملونين . اما المسائل التي تبيّن أن افراد الطبقة المتوسطة هم اكثر تحرراً بصددها فكانت : فتح الحانات في أيام الأحد ، وممارسة الرياضة الحرفية في أيام الاحد ، وما إذا كان ينبغي للطلاق ان يكون اكثر صعوبة ، وما إذا كان ينبغي معارضة نشر الصور العارية في المجلات ، والعديد من المسائل الاخرى الموجودة في بريطانيا والولايات المتحدة والتي يؤدي نشرها على نحو مفصل إلى الارهاق . ومع ذلك ، ثمة انعطاف جاد عندما تأتي إلى مسألة الراديكالية الاقتصادية . ففيما يتعلق بالسؤال عما إذا كان المزيد من التأميم امراً مرغوباً فيه ، تبيّن أن ٥٪ من افراد الطبقة لمتوسطة اجابوا بالايجاب ، بينما اجاب ٩٪

من افراد الطبقة العمالية المهرة ، و١٣ من افراد الطبقة العمالية غير المهرة على هذا النحو . اما نسب الأفراد الذين ايدوا الغاء التأميم من افراد الطبقات الثلاث السابقة الذكر ، فهي على التوالي : ٥٤٪ و٣٨٪ و٣٧٪ . يبدو أن هذه الارقام تؤيد التعميم القائل بأنافراد الطبقة المتوسطة ، وليس افراد الطبقة العمالية ، هم الذين ينزعون إلى التمتع بوجهات نظر تقدميّة في المسائل اللااقتصادية .

دعني الآن انتقل إلى دراسة خاصة يشكل افرادها البالغ عددهم (٢٠٠٠) مستجيب عنية معقولة من السكان (مجتمع الدراسة الاحصائي). طلب من هؤلاء الأفراد أن يجيبوا عن اسئلة استفتاء للاتجاهات اجتماعية اخذ معظمها من استفتاء اوسع منشور في كتاب « سيكولوجية السياسيين » . لقد كان على كل مستجيب ان يكتب بعد قراءة كل سؤال الرمز (+ +) إذا كان يوافق على ما جاء فيه بشكل قوي ، وأن يكتب الرمز (+) إذا كان يوافق عليه ، وأن يكتب الرمز (.) اذا كان لا يعرف الاجابة او غير متأكد منها ، وأن يكتب الرمز (—) إذا كان لا يوافق على ما جاء في السؤال ، وان يكتب الرمز (— —) إذا كان لا يوافق عليه بشكل قوي . حولت هذه الرموز فيما بعد إلى درجات تراوحت بين درجة واحدة للرمز (+ +) وخمس درجات للرمز (— —) ، وا جريت حسابات احصائية على الدرجات التي اسفر عنها تطبيق ذلك الاستفتاء . لقد تركز الاهتمام طبعاً على الفروق التي قد تظهر بين الطبقات الاجتماعية ، ولكن وجّه الانتباه ايضاً إلى الفروق بين الجنسين (ذكور واناث) وإلى الفروق بين الشباب والمسنين . وفيمايلي الاسئلة الفعليّة المستخدمة في تلك الدراسة .

استفتاء الاتجاهات الاجتماعية والسياسية

١ ـ ينبغي للناس ان يدركوا بأن التزامهم الاعظم هو التزامهم نحو اسرهم .

٢ ـ ينبغي للانتاج والتجارة أن يتحرر امن تدخل الحكومة البريطانية .

٣ ـ احتلال بريطانيا من قوة اجنبية هو افضل من الحرب .

٤ ـ يحق للنساء والرجال البريطانيين ان يكتشفوا ما إذا كانوا مناسبين جنسياً قبل الشروع في الزواج .

٥ ـ يتدخل الافراد البريطانيون اكثر فأكثر في شؤون لا تعنيهم هذه الايام .

٦ ـ ان اليهود البريطانيين هم مواطنون يتمتعون بالقيمة ذاتها التي يتمتع بها افراد اية مجموعة اخرى .

٧ ـ ان معظم الناس المتدينين في بريطانيا هم منافقون .

٨ ـ ان معاملتنا للمجرمين قاسية جداً ، وينبغي لنا أن نشفيهم لا أن نعاقبهم .

٩ ـ ان العلاقات الجنسية غير الزواجية هي خاطئة تماماً .

١٠ ـ من الافضل ابقاء الملونين في مناطقهم ومدارسهم الخاصة بهم ، لمنعهم من التواصل الشديد مع البيض في بريطانيا .

١١ ـ ان التدريب العسكري الاجباري في وقت السلم ، هو امر ضروري للحفاظ على بقاء بريطانيا .

١٢ — تستحق الجرائم الجنسية مثل الاغتصاب والاعتداء على الاطفال اكثر من مجرد عقوبة السجن ، ويستحق مرتكبو مثل هذه الجرائم عقوبة الجلد او ما هو اسوأ منه .

١٣ — ينبغي اخضاع الاشخاص البريطانيين ذوي العيوب والامراض الوراثية الخطيرة إلى عمليات عقم اجبارية .

١٤ — من الخطأ ترئيس الملونين على البيض في العمل .

١٥ — « ان بريطانيا بلدي وانا معها سواء كانت على صواب أم خطأ » يعبر هذا القول عن اتجاه مرغوب فيه بصورة جوهرية .

١٦ — (١) — — — — — — — — — —

١٧ — ينبغي للشخص البريطاني أن يكون حراً في ممارسة حياته الخاصة دون اي تدخل من المجتمع إذا كان يرغب هو في ذلك .

١٨ — ينبغي تشجيع الحب الحر بين النساء والرجال البريطانيين كوسيلة لتحسين الصحة النفسيّة .

١٩ — ان الكذب الابيض هو شيء جيد في معظم الاحيان .

٢٠ — يستحق ما يدعى بـ « الخاسر » قليلاً من الشفقة او المساعدة من جانب الاشخاص « الناجحين » .

٢١ — ينبغي للكنيسة البريطانية محاولة زيادة تأثيرها في الامة البريطانية .

٢٢ — ان الناس الملونين ادنى من الناس البيض فطرياً .

---

(١) وردت عبارة حول فكرة الله لا تتفق مع معتقداتنا — المترجم .

٢٣ — ان القاء القنبلة الذرية الاولى على مدينة يابانية ، والتي ادت إلى قتل آلاف النساء والاطفال الابرياء ، هو عمل خاطىء اخلاقياً ويتعارض مع نوع حضارتنا .

٢٤ — ينبغي جعل جميع اشكال التمييز العنصري غير شرعية وعرضه لعقوبات قاسية .

٢٥ — ان الرأسمالية لا أخلاقية لأنها تستغل العامل بفشلها في اعطائه القيمة الكاملة لعمله الانتاجي .

٢٦ — (١) — — — — — — — — — —

٢٧ — ان الحفاظ على النظام الداخلي في الامة البريطانية هو اكثر أهمية من ضمان الحرية الكاملة للجميع .

ولدى تحليل مجموعات الطبقات الاجتماعية (والمكونة من عشر مجموعات) . تبيّن أنها مكونة من ثلاث طبقات هي : الطبقة المتوسطة (الحرفيون والاداريون والتقنيون والتنفيذيون) وطبقة العمال المهرة ، وطبقة العمال غير المهرة . كما تكونت الاعمار من ثلاث مجموعات هي : مجموعة الشباب ، ومجموعة الكهول ، ومجموعة المسنين . وباضافة متغير الجنس إلى الطبقات الاجتماعية الثلاث والمجموعات العمرية الثلاث ، تكون لدنيا (١٨) مجموعة فرعيةحسبت درجات افراد كل منها على كل سؤال من الاسئلة السابقة جميعها . وعند مقارنة مجموعات الطبقة الاجتماعيةفيما بينها ، اعتمدتفقط الاسئلة التي تمايز بين الطبقات بغض النظر عن العمر والجنس . وبالمثل ،

---

(١) ورت عبارة حول السيد المسيح لا تتفق مع معتقداتنا — المترجم .

عند مقارنة الرجال والنساء ، اعتمدت الاسئلة التي تزودنا بالفروق بينهما بغض النظر عن الطبقة والعمر .وبعد ، ما الذي نجده بصدد الطبقة الاجتماعية ؟

نتناول فيمايلي فقرات الاستفتاء التي اختلف بصددها افراد الطبقة العمالية عن افراد الطبقة المتوسطة — ثمة تقدم في كل حالة تقريباً من الطبقة المتوسطة إلى طبقة العمال المهرة فطبقة العمال غير المهرة . لذلك على الرغم من أن التحليل قد تناول المجموعات الطبقية الثلاث ، إلا أن قصر البحث على الفروق العامة بين رأي الطبقة العمالية والطبقة المتوسطة ما زال امراً مناسباً . يؤيد أفراد الطبقة المتوسطة — الزواجات التجريبيّة ، ولا يرون أن مزيداً من الناس يتدخلون في شؤونهم الخاصة ، ويعتقدون أن لليهود قيمة المواطنين الآخرين ، وان عقوبة الاعدام بربرية ، وان معاملتنا للمجرمين قاسية ، ولا يعتقدون أن معظم الافراد المتدينين منافقون ، او ان الزواج الجنسي الاضافي خاطيء . انهم لا يرغبون في ابقاء الملونين منفصلين . ولا يؤيدون التدريب العسكري الاجباري او الجلد لارتكاب الجرائم الجنسية ، او التعقيم الاجباري لذوي الامراض والعيوب الوراثية الخطيرة . وانهم لا يعارضون رئاسة الملونين للبيض ، ولا يؤمنون بالقول « بريطانيا بلدي سواء كانت على صواب أم خطأ » . انهم يعتقدون بأن الخاسرين يستحقون الشفقة ، وانه ينبغي للكنيسة البريطانية أن تزيد تأثيرها ، ولكنهم لا يرون أن الناس

* ان جميع العبارات التي وردت هنا هي نسبية ، فعبارة « يؤيد افراد الطبقة المتوسطة ..... » تعني أنهم اقوى تأييداً لتلك العبارات من افراد الطبقة العمالية .

الملونين ادنى من البيض او أن الرأسمالية لا اخلاقية ، ويعتقدون أن النظام اكثر أهمية من الحرية الكاملة . اما افراد الطبقة العمالية فيؤمنون بوجهات نظر مضادة ازاء هذه المسائل . وبتعبير آخر ، لقد تبيّن أنهم محافظون وذوو تفكير واقعي بالنسبة لمعظم الامور التي تناولتها اسئلة الاستفتاء (فيما عدا السؤال الذي يبحث في الراديكالية الاقتصادية — عدم اخلاقية الرأسمالية) . وباختصار ، ان افراد الطبقة العمالية هم اكثر وطنية وحتى اكثر شوفونية ولا سامية ولا انسانية وكراهية للاجانب . كما انهم اخلاقيون بصورة ضيقة بصدد الامور الجنسيّة ، وغير معنيين بالمسائل الاخلاقية والدينية . تؤيد النتائج بتفصيل مسهب الفرضيّة المطروحة من قبل والقائلة بأن افراد الطبقة العماليّة هم محافظون في جميع معتقداتهم فيما عدا معتقداتهم الخاصة بالمحافظة الاقتصادية . وينسحب هذا التعميم على الرجال انسحابه على النساء ، كما ينسحب على الشباب انسحابه على الكهول والمسنين . ان ضم نتائج هذه الدراسة إلى نتائج الدراسات التي سبق بحثها ، يشير إلى وجود دليل مقنع نوعاً ما على « تناقض الاشتراكية في بريطانيا » . ذلك التناقض الذي يشكل عنوان هذا الفصل .

من الطبيعي ان هناك فروقاً ايضاً من حيث الجنس مستقلة عن فروق الطبقة الاجتماعية ، وقد تكون بعض هذه الفروق ذات أهمية . تعتقد النساء ان الاحتلال سيكون افضل من الحرب ، وان عقوبة الاعدام بربرية ، ولكن لا يعتقدن بأن الناس المتدينين منافقون . انهن يعتبرن الجنس الزواجي الاضافي خطأ ، وان الحب الحر امر

غير حميد ، ويرغبن في رؤية الكنيسة وهي تزيد من تأثيرها ، ويعتبرن القاء القنبلة الذرية عملاً لا اخلاقياً . انهن ضد التمييز العرقي ، ولا يعتبرن الناس الملونين ادنى من البيض . وبتعبير آخر ، لقد تبيّن ان النساء يتمتّعن بعقلية اكثر عاطفية من الرجال ، الامر الذي ايده البحث العلمي السابق . ويتفق هذا تماماً مع حقيقة أن النساء اكثر انطواء عموماً من الرجال . ويبدو أن السنّ يجعل الناس اكثر محافظة واكثر واقعية في التفكير . فلدى مقارنة المستجيبين الاصغر سناً بالمستجيبين الاكبر سناً ، نجد أن الأفراد الأكبر سناً يعتقدون في التزام الفرد باسرته ، ويمتعضون من التدخل الحكومي ، ولا يؤمنون بالزواج التجريبي ، ولا يعتبرون الناس المتدينين منافقين ، ويرون الجنس الزواجي الاضافي امراً خاطئاً، ويريدون ابقاء الملونين منفصلين ويؤمنون بالتعقيم الاجباري والجلد ودونية الملونين ، كما انهم لا يحبذون رئاستهم للبيض . انهم لا يؤمنون بالحب الحر ، ويريدون من الكنيسة أن تزيد تأثيرها ، ويعتبرون النظام اهم من الحرية ، ولا يشعرون بأن الرأسمالية لا أخلاقية . ربما كانت هذه المقارنات متفقة إلى حد كبير مع ما قد توقعه الفرد . ولكن ما يجدر الاشارة إليه هنا ، هو أن هذه الدراسة ليست من النوع التتبعي ، فكبار السنّ الذين فحصت آراؤهم فيها قد ولدوا فعلاً في مناخ فكري مختلف تماماً . ومن الممكن ، ولكن ليس صحيحاً بالضرورة ، أن آراء صغار السن الذين شملتهم الدراسة سوف تتغير في الاتجاه ذاته كلما تقدموا في السنّ ، والدراسة الطولانية التتبعيّة هي الوحيدة القادرة على القاء الضوء على هذه المشكلة .

ليست هذه الدراسة طبعاً هي الدراسة الوحيدة التي كشفت مثل هذه الفروق بين الطبقات الاجتماعية . ان استنتاجات مشابهة ظهرت في دراسة تجريبيّة غير منشورة اجرتها « بليتكا » (I.Pletka) وتبيّن لها وجود مؤشرات واضحة على الاتجاهات الطبقية المتفاوتة في عدد كبير من عبارات الاتجاهات الاجتماعية والتي يشكل بعضها تكرارات للفقرات المقتطفة توآ . تظهر النتائج الاعمق التي حصلت عليها بليتكا أن افراد الطبقة العمالية لا يؤيدون ابقاء عدد كبير جداً من الناس الملونين في انكلترا ، ويؤيدون اعالة الاسيويين لأنفسهم ، والعودة إلى الماضي المجيد المنسي للتمكن من انجاز تقدم اجتماعي واقعي ، وفرض ضرائب عالية على الدخول المرتفعة . وانهم اقل ايماناً بالبقاء بعد الموت ، واكثر ايماناً بأن لليهود سلطة وتأثيراً اكثر مما ينبغي ، و« يتوافر لديهم ايمان عميق بالحس الفطري العام للانسان العادي ، رغم أن الجماهير تسلك على نحو احمق تماماً في بعض الاحيان » . يرى افراد الطبقة العمالية وفقاً لمعتقداتهم ، أن معظم ما يسمى بمساعدات الامم الافقر يؤول في نهاية المطاف إلى جيوب المستغلّين في تلك البلدان ، وان الحياة قصيرة جداً ، ومن المبرر أن يمتع الانسان نفسه قدر استطاعته ، وان ما يدعى بالمظلوم او الخاسر يستحق قليلاً من المساعدة او الشفقة من الناس الناجحين (انه اعتقاد غريب يؤمن به اولئك الذين يجب اعتبارهم خاسرين او مظلومين !) . واكثر من ذلك ، يعتقد افراد الطبقة العمالية أنه إذا الغيت الرقابة الاخلاقية نهائياً ، فسوف تزدهر الاباحية ، وستتقوض اخلاقية الامة ، وانه ينبغي التأكد من ان اشتراك انكلترا

في اي شكل من اشكال التنظيم العالمي سوف لن يؤدي إلى المساس باستقلالها وسلطتها ، وأنه على الرغم من امكانية وجود استثناءات قليلة ، غير أن اليهود متشابهون تماماً بوجه عام ، وانه لا يحق للأقليات القوميّة ان تحكم ذاتها ، وان نشوء الاحزاب النازية الجديدة في المانيا يبيّن أن بعض الناس لم يتعلموا من التاريخ اي شيء على الاطلاق !

ومن جهة اخرى ، يريد افراد الطبقة المتوسطة (بصرف النظر عن اعتقادهم بنقيض كل من هذه العبارات) أن تكون جميع اشكال التمييز العرقي ضد الملونين غير شرعية ، ويعارضون سياسة التمييز العنصري في جنوب افريقيا بشتى السبل ، ويعتبرون معاملتنا للمجرمين قاسية ، ويرون أنه ينبغي لنا أن نشفيهم لا أن نعاقبهم . كما يعتقدون ايضاً ان الواجب الاخلاقي للامم القوية هو حماية الامم الافقر الاضعف وتطويرها . وهكذا يبدو أن افراد الطبقة المتوسطة ثانية اكثر تحرراً من افراد الطبقة العماليّة ، وهم اكثر تأييداً لجميع معتقدات جيلنا التقدمية (كما يمكن أن ينكشف الدفاع عنها في صفحات كتاب « رجل الدولة الجديد » او « كتاب الجمهورية الجديدة ») من اولئك الذين تستميل اهتماماتهم السياسية والاجتماعية قلوب محرري الصحف ومشتركيها .

لا ينطبق ما تقدم قوله على انكلترا فحسب ، بل ينطبق ايضاً على الولايات المتحدة ، وربما على البلدان الاوربية كذلك ، غير ان الولايات المتحدة وحدها هي التي اجرت دراسات تجريبيّة وافية للتأكد من صدق هذا الاستنتاج . لقد نشر روبنسون (Robinson) وراسك (Rusk) وهيد (Head) كتاباً عنوانه « معايير الاتجاهات الاجتماعية

(Measureof Social Attituols) تضمن مسحاً رائعاً لدراسات من هذا القبيل كما تم نشرها (وهناك دراسات عديدة لم تر النور اطلاقاً) . سوف اعيد صياغة بعض استنتاجاتهم دون الاستشهاد بالعدد الضخم من الدراسات بشكل تفصيلي * . لقد اشار هؤلاء الباحثون إلى أن التربية والمكانة الطبقية المتوسطة مترابطتان على نحو وثيق بحيث يستحيل الفكاك بينهما تقريباً . فما يصدق على مقارنة المثقف الافضل بالاقل ثقافة ، يصدق على نحو مماثل عادة على مقارنة افراد الطبقة المتوسطة بأفراد الطبقة العمالية . يشير هذا الارتباط ايضاً وبشكل اجمالي إلى أن الذكاء متضمن في هذه العلاقة — فدرجات ذكاء افراد الطبقة المتوسطة ذوي التربية الجيدة ، ستكون اعلى من درجات ذكاء افراد الطبقة العمالية ذوي التربية الضعيفة بحوالي ٢٠ إلى ٣٠ درجة . ليس الانقسام في هذه الدرجات مطلقاً طبعاً ، بل ثمة تداخل كبير بينها . وماقيل يصدق على المتوسط فقط ، وثمة استثناءات وفيرة في هذا المجال . وبعد ، ماهي اتجاهات افرادنا ذوي التربية الجيدة في الولايات المتحدة الاميركية ؟

يشير هيرو في المقام الأول إلى أن « استجابات الفرد الافضل تربية لبعض انماط المسائل ، كتلك التي تعنى بتسامح الفرد حيال الافكار والمجموعات المختلفة عنه ، كانت اكثر تحرراً إلى حد كبير جداً » . ويضيف أنه في بعض الحالات « لقي اقتراح بإنشاء برنامج

* لقد كتب الفرد هيرو (Alfred Hero) الفصل الذي استشهد به بشكل خاص ، وعنوانه « اساس السلام العالمي » ، وقد استمد هيرو بياناته من استفتاءات متنوعة طبقت في الولايات المتحدة عبر سنوات عديدة .

تحرري خاص تأييد اقلية فقط في البدء ، ولكنه لقي تأييد الأكثرية تدريجياً بعد أن اصبح قانوناً ، وقد نزع الفرد الافضل تربية في حالات من هذا النوع لأن يكون طليعة المؤيدين ، في حين ازداد عدد المؤيدين الادنى تربية بعد وضع القانون موضع التنفيذ ، وبعد أن عبرت عن تأييده صراحة مؤسسات وشخصيات وطنية مرموقة » . قامت هذه الاستنتاجات بناء على دراسات طويلة مستمرة امتدت سنوات عديدة ، وتناولت دراسات مسائل معيّنة باستخدام عينات متتالية ، ولسوء الحظ ، لم يجر إلا القليل من العمل في هذه المسائل في انكلترا ، بيد أن استنتاجات مشابهة ستصدق دون ريب على المجتمع البريطاني ايضاً ، طالما اعتمدنا في احكامنا على مثل تلك الارقام التي وفرتها نتائج استفتاءات الرأي العام .

وإذا صرفنا النظر عن هذا المجال الخاص ، نجد « مع بعض الاستثناءات أن التربية كانت اكثر ارتباطاً بشكل وثيق في فترة ما بعد الحرب بتأييد التعاون الدولي من ارتباطها بتأييد الآراء حول اكثر البرامج الوطنية تحرراً .... فبالاضافة إلى دعم التربية للحقوق المدنية والحريات المدنية ، كان هناك تأييد لاقتراحات طوباوية ، مثل اقامة حكومة عالمية ، غير أن هذه الاقتراحات اقتصرت على اولئك الذين يتمتعون بخبرات جامعية عالية » . واجمالاً ، « كلما ارتفع مستوى التربية ، ارتفع مستوى الرغبة في الانهماك في علاقات تفاوضية ، وتوفيقيّة واقتصادية وثقافية ، وعملت الجهود اللاعسكرية الاخرى على تخفيض التوترات مع الدول الشيوعية (ومع اقطار اخرى ايضاً) . وعموماً ، غدا البحث عن حلول غير عسكرية — من خلال ضبط

السلاح والمساعدات الاقتصادية وغيرها — اكثر تمييزاً للشخص الافضل تربية . وقد تبيّن ذلك على نحو خاص فيخفض توترات الحرب الباردة اثناء العقد الماضي ، حيث تبدّى هذا الهبوط في « التفكير المتشدد » بين الافراد الافضل تربية ، من خلال الاتجاهات نحو الاتحاد السوفيتي ونحو الصين ايضاً . ففي آذار عام (١٩٦٧) ، اعتقد ٣٨٪ من الاشخاص الادنى تربية مقابل ٥٧٪ من الأكثر تربية ، بأن حرباً بين الولايات المتحدة الاميريكية والصين لا يحتمل وقوعها . كما تبيّن أن الامريكيين ذوي التربية الجامعية ، كانوا اكثر ميلاً بصورة واضحة إلى تحبيذ تأييد عضوية الصين الشيوعية في الامم المتحدة وإلى اقامة علاقات دبلوماسية طبيعيّة منها . وعلى نحو مماثل ، كانت الموافقة على فكرة ما يدعى بحرب وقائية ضد الصين الشيوعية او الاتحاد السوفيتي او اي قطر شيوعي آخر ، متمركزة على نطاق واسع بين المواطنين ذوي التربية الضعيفة . كما تبيّن أن عدد اولئك الذين رغبوا في توسيع اوتصعيد العمليات العسكرية التقليدية المحليّة إلى صراعات حدودية ، كما في كوريا أو فيتنام ، كان ضخماً على نحو غير متكافيء بين الافراد الاقل تربية » .

لقد كانت مجموعات الطبقة المتوسطة اكثر تأييداً لمساعدة الاقطار الاخرى . كما كان دعم « انتشار أوزيادة حجم المساعدة غير العسكرية اقل انتشاراً بين الفئات الادنى تربية » . اما تأييد التجارة الأكثر حرية فقد كان اقل اعتماداً على التربية . ومع ذلك « فقد افاد غالبية طلاب الصفوف المدرسية ووجهات نظر ثابتة تقريباً ، مفادها انه ينبغي زيادة او ابقاء المستويات السائدة للتعرفات الجمركية والحواجز التجارية الاخرى الراهنة

في الولايات المتحدة ، وأنه ينبغي تخفيض الاستيرادات او الحفاظ على مستوياتها الحالية . اما غالبية الافراد ذوي التربية الجامعية ، فقد ايدوا تخفيض التعرفات الجمركية وتوسيع الاستيرادات » . ومن جهة اخرى ، « كان المواطنون المتمتعون بمستوى تربية مدرسية اكثر تأييداً احياناً لاقامة مؤسسة دفاعية قوية تتضمن التجنيد الاجباري ، من زملائهم المواطنين المتمتعين بمستوى تربية جامعية » . لقد كانت مسألة حرية التعبير آخر قائمة مسائل « التحرر » التي نال عليها افراد الطبقة المتوسطة ذوو التربية الجيدة درجات اعلى من درجات افراد الطبقة العمالية ذوي التربية المتدنية . ترتبط التربية في اميريكا على نحو وثيق بالموافقة على الحريات المدنية ، وحرية التعبير ، والانفتاح على افراد مجموعات ايديولوجية غير شعبيّة ، مثل الشيوعيين والفاشيين والاشتراكيين واللامتدينين والوجوديين .

اما نتائج دراسات الاتجاهات نحو الزنوج ، فتتسم بشيء من التشويش لأن اكثرية افراد الطبقة العمالية المنخفضي التربية الذين شملتهم هذه الدراسات هم من الزنوج الذين يفترض فيهم أن لا يظهروا درجة التمركز حول العرق الموجهة ضد مجموعتهم الخاصة بالقدر ذاته الذي سيظهره افراد الطبقة العمالية البيض . ومع ذلك ، « فإن الافراد ذوي التربية الجامعية الذين رأوا في الزواج العرقي المتبادل امراً مقبولاً ، وافادوا بأنهم سوف يصوتون لصالح زنجي مؤهل جداً لمنصب الرئاسة ، هم ضعف الأفراد الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى مرحلة التعليم الثانوي » — اما كونهم صوتوا على هذا النحو ام لا ، فهو امر آخر . ان توزع الآراء حول الكوكلوكسي (جمعية اميريكية سريّة اسست

بعد الحرب الأهلية لتكريس سيطرة البيض على الزنوج ــ المترجم) ، والاعدام دون محاكمات قانونية ، وفرض الضريبة على الاشخاص وعدم المساواه البيولوجية بين البيض والزنوج ، لم تكن م تبطة على نحو وثيق بمستوى تربية الطبقة الاجتماعية . ويفترض أن يعود ذلك بشكل كبير إلى المعارضة الشديدة التي يتبناها زنوج الطبقة العمالية ذوي التربية المنخفضة ضد هذه الآراء والسياسات .

وعند انتقالنا من المسائل اللاقتصادية التي تبيّن أن مجموعات الطبقة المتوسطة اكثر تحرراً بصددها ، إلى المسائل الاقتصادية الاكثر تحديداً ، نجد أن الاميريكيين يتبعون ايضاً نمطاً محافظاً كنمط محافظة الطبقة المتوسطة البريطاني .« لقد كان الاميريكيون الافضل تربية اكثر محافظة او اقل تحرراً بشكل واضح من الاميريكيين المعدمين تربوياً ازاء المسائل التي تتضمن النشاط الاجتماعي الخيري ، والانفاق الوطني ، وانتقال الثروة من المواطنين الاكثر انتعاشاً إلى المواطنين الاقل انتعاشاً المذلك ، كلما كان مستوى التربية مرتفعاً ، كانت جماعة المواطنين اكثر ميلاً إلى معارضة الانفاق الفيدرالي والعجز التمويلي ، واكثر تأييداً للتقليص في الموازنة العامة . ان معارضة الاميريكيين ذوي التربية الجامعية تبلغ ثلاثة اضعاف او اكثر من معارضة الاميريكيين ذوي التربية المدرسية لمفاهيم مثل« دولة الرفاهية للجميع » و « الخدمات الطبيّة الحكومية »، بل وحتى لبرامج رعاية طبيّة اخرى اقل راديكالية وعلى نحو مشابه ، كان عدد المتمتعين بتربية جامعية والذين ابدوا استعداداً لقبول زيادة الانفاق الفيدرالي لصالح المحاربين القدماء ،

والدعم الزراعي ، والاسكان الزهيد التكاليف ، والمعاشات التقاعدية للمسنين ، والعمل الاجتماعي الخيري ، والضمان الصحي والاجتماعي ، نصف عدد المتمتعين بتربية مدرسية تقريباً . ولقد عارضت الغالبية الاساسية للأفراد ذوي التربية الجامعية وعلى مدى ثلاثة عقود اجراء زيادة متتالية على الحد الادنى للاجور ، في حين ايدت الغابية الاساسية للأفراد ذوي الترابية المدرسية اجراء مثل هذه الزيادة . وبشكل عام ، كان ميل ذوي التربية المدرسية ضعف ميل ذوي التربية الجامعية إلى تبنّي الآراء المؤيدة لبرنامج الاصلاح الاجتماعي الذي وضع في نهاية الثلاثينات ، ولبرنامج « المجتمع العظيم » الذي وضع بعد ثلاثين عاماً . فكلما كان مستوى التربية اعلى ، كان الاميريكيون اكثر ميلاً إلى تأييد التجارة ضد العمال ، وإلى الشعور بأن تأثير النقابات اكبر من تأثير القادة الصناعيين في واشنطن ، وإلى تأييد الاسواق الحرّة وقوانين العمل ومفاهيم اخرى تعارضها النقابات العمالية .

ان التربية ، كما اشير إلى ذلك للتو ، مرتبطة على نحو وثيق جداً بمستويات المعيشة وبالمهنة بشكل خاص ، حيث يصعب تحديد آثارها — بمعزل عن ذوي التربية المتمايزة — في الاتجاهات نحو السياسة الفيدرالية . ولذلك من غير المستغرب أن تكون ارتباطات الدخل بالميول والمعرفة والاتجاهات والسلوكات الأخرى ، هي في معظمها في اتجاه ارتباطات التربية ... ففي مجال المسائل الوطنية ، كان الافراد الاكثر ثراءً ، كالافراد الافضل تربية ، إذ عبروا بشكل اساسي عن تأييد اكبر للحريات المدنية وحرية التعبير ... والشيء ذاته ينطبق على زملائهم

المواطنين الاقل ثراء ... اي انهم اقل تأييداً لتلك المسائل . وعلى الرغم من ذلك ، كان للمكانة الاجتماعية الاقتصادية بين سكان الولايات المتحدة ارتباط ضعيف بالعلاقات العرقية والمشاعر حول الزنوج . لقد نزع عدد الزنوج غير المتكافىء في المراتب الاجتماعية الاقتصادية المنخفضة إلى تخفيض المستوى المتوسط للعرقية في اميريكا . ورغم ذلك ، كان افراد الطبقة الفقيرة البيض اكثر عرقية من افراد الطبقة الموسرة البيض . ولكن كان الوضع معكوساً فيما يتعلق بمعظم الاعمال الخيرية الداخلية والمسائل الاقتصادية ، غير المساعدات في مجال التربية . لقد كان ارتباط الدخل ببدائل السياسة الوطنية المفضلة اكثر وثاقة من ارتباط هذه البدائل بالمهنة او حجم المجتمع المحلي او حتى التربية . ويبدو ان الفائدة الاقتصادية الذاتية المدركة ، هي محدد قوي في هذه الامور . فكلما كان الدخل اكثر ارتفاعاً ، كانت الاتجاهات اكثر محافظة بصورة واضحة ، حتى في حالة تثبيت عوامل اخرى مثل عامل التربية .

كانت الفروق بين السكان الاكثر ثراءً والاقل ثراءً واسعة جداً من حيث معظم اجراءات الاصلاح الاجتماعي ، حيث بلغت نسبة مؤيدي هذه الاجراءات بين الاقل ثراءً ضعفي او ثلاثة اضعاف مؤيديها بين الأكثر ثراءً . بيد أن هذه الفروق قد انخفضت عموماً في السنوات الحديثة ،ومع ذلك فقد بلغت نسبة الاغنياء الذين عارضوا التوسع في التشريعات الاجتماعية الخيرية ودافعوا عن تقليص الموازنة ، حوالي ضعفي نسبة زملائهم المواطنين الفقراء نسبياً . واكثر من ذلك ، ففي الوقت الذي اختلفت فيه الجماعات التربوية نسبياً من حيث تأييدها

العام للاتحادات النقابية في السنوات الحديثة ، كان الافراد ذوو المراتب الاكثر ثراءً اكثر عداءً على نحو واضح لهذه الاتحادات من الأفراد ذوي المراتب الادنى ثراءً .

اما فيما يتعلق بالمسائل الدولية ، فقد تبيّن أن التّربية هي العامل الأكثر أهمية من الدخل او المهنة في تحديد معظم الخيارات . وفي حالات نادرة جداً ، كانت الفروق في مستويات المعلومات او الاتجاهات حول العلاقات الدولية بين الافراد الاكثر غنى والاقل غنى ، وحتى بين مجموعات الاعمال الحرفية ومجموعات الاعمال اليدوية ، اعلى من الفروق بين الافراد ذوي التّربية الجامعية وذوي التّربية المدرسية . وفي الواقع ، نادراً ما كانت هذه الفروق كبيرة . فعند تثبيت عامل التربية ، يكون اثر الدخل ضئيلاً في معظم انماط التفكير حول تلك المسائل ، ولكن عند تثبيت عامل الدخل ، يحافظ الأفراد الافضل تربية على نزعتهم لأن يكونوا اكثر تحرراً بصدد المشكلات العالميّة .

وهكذا ترى أن التناقض ذاته الموجود في المملكة المتحدة ، قد اصبح واضحاً في الولايات المتحدة الاميريكية . فمجموعات الطبقة العمالية هي راديكالية فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية والخيرية ، بيد أنها محافظة فيما يتعلق بالتسامح وحرية التعبير ، وانشاء حكومة عالمية ، وتخفيض السلاح ، والحريات المدنية ، والتمركزية العرقية ، ومساعدة الاقطار الاخرى ، والعلاقات السلميّة مع الاقطار الشيوعية . اما فمجموعات الطبقة المتوسطة ، فقد ظهرت النمط المضاد تماماً ، حيث تبيّن أنها محافظة فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية والخيرية ، وتحررية فيما يتعلق بالحريت المدنية وجميع المسائل الأخرى المذكورة آنفاً . تتحالف

الاحزاب مع مؤيديها إلى حد كبير بناء على الفوائد الطبقية (اي فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية والخيرية) ، وتتعارض معها فيما يتعلق بالمسائل الاخرى جميعها . تشير هذه العبارة طبعاً إلى تعميم من النوع الذي يجب تعديله بطرق عديدة شتى ، ولا ينطبق على كل عضو من اعضاء الطبقة العمالية او الطبقة المتوسطة . فمن المفترض ان العديد من اعضاء الطبقة المتوسطة ، يصوتون لصالح حزب العمال (او لصالح الحزب الديمقراطي) ، لأن هذا الحزب يدافع عن السياسات التي تتفق مع تفكير الطبقة المتوسطة بالطرق الاخرى جميعها ، رغم أنه يعارض الفوائد الاقتصادية الذاتية لهؤلاء الاعضاء . وبالمثل ، يفترض أن العديد من أفراد الطبقة العمالية يصوتون لصالح حزب المحافظين (او لصالح الحزب الجمهوري) لأنه يدافع عن السياسات الاقرب تفكير الطبقة العمالية . بجميع الطرق الأخرى ، رغم أنه يعارض الفوائد الاقتصادية الذاتية لهؤلاء الأفراد . ويفترض ثانية ، أن هناك اسباباً عديدة اخرى لهذا النوع من سلوك « التصويت المتقاطع » ، فلقد اتضح أن اتجاهات « العم توم » عند افراد الطبقة العمالية البريطانية نحو قادتهم « الطبيعيين » تلعب دوراً في هذا المجال ، كما تبين أن هناك العديد من المشكلات المحليّة في الولايات المتحدة الاميريكية والتي يمكن أن تكون اكثر اهمية في انتخابات معينة من المسائل الوطنية العامة كالتي نوقشت هنا . ومع ذلك ، ان الفرضيّة القائلة بأن « التصويت المتقاطع » قد يرتبط بتقاطع الاتجاهات التحررية والمحافظة طالما كانت السياسات الاقتصادية والتحررية موضوع اهتمام ؛ ربما تكون فرضية قيمة وتستحق تفكيراً جدياً .

ومن المثير للاهتمام ، ان التناقض الذي وجهنا الانتباه اليه ، قد مضى دون أن يكون ملحوظاً حتى اليوم . وقد كان الامر كذلك حتى من جانب افراد الطبقة المتوسطة الذين يجب استثناؤهم من جميع هذا المصدر للحكمة والطيبة بحكم انتمائهم لهذه الطبقة ذاتها . قد يثير المرد مسألة ما إذا كان يمكن ملاءمة هذا التناقض ضمن حدود نظرية « المصلحة الطبقية الاجتماعية » ، وان لم يكن الامر على هذا النحو ، فسوف تتطلب الوقائع شكلاً بديلاً آخر للتفسير . انني اعتقد إلى حد ما ، أنه يمكن تعديل هذه النظرية على نحو تؤدي به هذه الوظيفة ، وجميع ما يترتب علينا القيام به ، هو أن نفحص بصورة دقيقة الفروق من حيث المصلحة الذاتية بين الطبقات الاجتماعية . تأمل في الاتجاهات حيال الناس الملونين . طالما كان افراد الطبقة المتوسطة هم المعنيّون يصعب أن يكونوا منزعجين من جماعات الزنوج والباكستانيين والهنود وجماعات ملونة أخرى ، فهم لا يتنافسون معهم حول الاعمال أو الاسكان او بأية طريقة أخرى . ونتيجة لذلك ، يعتبر تسامح افراد الطبقة المتوسطة حيال هذه الجماعات فضيلة عندما تكون ممارسته سهلة جداً فقط ، وسنكون جميعنا فاضلين إذا كانت ممارسة الفضيلة لاتكلفنا شيئاً . بيد أن الوضع يختلف تماماً بالنسبة لأفراد الطبقة العمالية . فهم (او يعتقدون انهم) في تنافس مباشر مع الملونين من اجل الاعمال والاسكان بل ومن اجل البنات . فكل شخص ملون على قائمة الاسكان ، يعني مزيداً جداً من الانتظار بالنسبة لشخص ابيض يأتي بعده في القائمة . وقد يحول العامل الملون الرخيص الاجر دون رفع مستوى اجور اعمال معينة بحيث يتفق هذا المستوى مع زيادات الاجور في مهن اخرى .

يشكل سائقوا الحافلات وقاطعوا التذاكر وربما الممرضات ايضاً ، امثلة حسنة حول هذا النوع من واقع الحياة الاقتصادي . وهكذا سوف تتنبأ نظرية المصلحة الطبقية الاجتماعية على نحو دقيق بما نلاحظه في الواقع فعلاً . فأفراد الطبقة العمانية يعارضون الهجرة بصورة اقوى ، كما يعارضون عموماً الملونين وجماعات الاقلية الأخرى الذين يمكن أن يشكلوا تنافساً على مصادر العمل النادرة . كما يجب وضع التعليم في هذه الفئة ايضاً ، فأفراد الطبقة العمالية هم الذين يشعرون بشكل قوي بأن المعايير التربوية مهددة بسبب تدفق الفرق الكبيرة من اطفال الملونين والمهاجرين الآخرين ، والذين لا يعرف كثير منهم تكلم اللغة الانكليزية . لذلك ، ان القول بأن افراد الطبقة العمالية ليسوا متحررين في اتجاهاتهم حيال الناس الملونين ولا تناقض مع نظريتنا العامة في الاتجاهات الاجتماعية . ان التنبؤ بهذا الرجع لواقع حياة الطبقة العمالية هو امر ممكن ، ويجب أن يكون السياسيون قد توقعوه بالتأكيد . فمسيرة عمال احواض السفن ضد هجرة الملونين ، لم تدرك كحدث منعزل وشاذ وغير متوقع ، بل هي حدث منطقي تماماً ، ويمكن التنبؤ به ، ويمثل تعبيراً عن احباطات حياة الطبقة العمالية .

فكر بعدئذ في مسألة معالجة المجرمين . إن مواقف افراد الطبقة المتوسطة وافراد الطبقة العمالية هي مختلفة تماماً بصدد هذه المسألة ايضاً . يميل شخص الطبقة المتوسطة غالباً إلى مواجهة الجريمة بمعنى السرقة ، وسيكون مطمئناً طبعاً في اغلب الاحوال ، لذلك لا يعاني كثيراً جداً من نتائج هذا النشاط الاجرامي . اما افراد الطبقة العمالية فهم اكثر احتمالاً من افراد الطبقة المتوسطة لأن يكونوا ضحايا العدوان

والضرب والاذى ، وإذا تعرضوا للسرقة ، فهم اقل قدرة على تحمل الخسارة من افراد الطبقة المتوسطة .... ومن الطبيعي انهم اقل ميلاً إلى الاطمئنان بكثير . لهذا ، ترهق النشاطات الاجرامية كاهل افراد الطبقة العمالية على نحو اكثر شدة مما ترهق كاهل اعضاء الطبقة المتوسطة وان نظرية المصلحة الاجتماعية ، سوف تتنبأ هنا ايضاً بأن اعضاء الطبقة المتوسطة سيكونون اقل دافعية للشعور على نحو شديد بقوة قانون « العين بالعين والسن بالسن ».

وفيما يتعلق بالمسائل الجنسيّة ، يكون شخص الطبقة المتوسطة اكثر تنوراً واكثر تحرراً واكثر ميلاً إلى منح الناس حرية الطلاق وسهولته . وعلى أية حال ، ان الموقف الواقعي لأفراد الطبقتين العمالية والمتوسطة بصدد هذه الامور هو غير متماثل على الاطلاق . فثمة فروق كبيرة بين هؤلاء الافراد فيما يتعلق بالقيود التي يفرضها عليهم اسلوب حياتهم . فمن المرجح أن يكون الزوج الذي يحطم منزل طبقة متوسطة ليعيش مع امرأة اخرى ، قادراً على توفير المال الكافي لتمكين زوجته من العيش دون مواجهة تطرفات الحرمان . اما الزوجة المهجورة من الطبقة العمالية ، فمن المرجح أن لا يكون لديها مال على الاطلاق ، وستكون عاجزة كاياً في وجه الكارثة المفاجئة . وعلى نحو مماثل ، ان فتاة الطبقة المتوسطة الحامل غير المتزوجة ، تستطيع على نحو اكثر سهولة ايجاد مساعدات طبيّة وغيرها في مواجهة مشكلاتها ، في حين تواجه فتاة الطبقة العمالية صعوبات أكبر . يحتاج افراد الطبقة العمالية على نحو اكثر وضوحاً إلى الاسرة كمؤسسة اجتماعية ، اما افراد الطبقة المتوسطة ، فيستطيعون غالباً افتداء وضعهم بمنأى عن المتاعب . لذا ،

قد يكون تسامحهم وآراؤهم التقدمية مجرد انعكاس لوضعهم المالي الموسر .

او دعنا نتناول اهتمام افراد الطبقة المتوسطه الاكبر بالمسائل الدينية والاخلاقيه . لقد اشار كارل ماركس إلى أن الدين افيون الطبقات العامله ، وقد اضاف اوسكار وايلد قبل ذلك بكثير قوله بأن العمل لعنه الفئات السكّيرة . يعيش افراد الطبقه العماليه قريباً جداً من حافه الفقر والاملاق ، بحيث لا يتمكنون من تحمل التهذيب الاخلاقيه والدينيه التي تعتبر خاصيه اخلاقيه الطبقه المتوسطة . ومن غير المرجح أن يؤدي انكار او اهمال هذه الفروق الموضوعية المؤيدة للتسميات إلى تحويل « عنصريي » الطبقة العمالية إلى أساليب افضل . واخيراً ، ان التربية جميعها ، والفن جميعه ؛ والرياضة جميعها ، والاخلاقية جميعها ، هي نتاج لمستوى معيشي يتجاوز الحدود الدنيا لمتطلبات الحياة الاساسية . ان الرجال والنساء الذين يستغرقون جميع نشاطاتهم في اشباع حاجاتهم الاساسية ، من غير المحتمل ان ينغمسوا في اي من هذه النشاطات اللانفعية . والنظر إلى الخلاص الديني كبديل لاشباع الحاجات الاساسية المعقولة في ظل الظروف الراهنة ، هو جانب آخر من معتقدات نظرية « المصلحة » واتجاهاتها . وهذا الجانب من الدين هو الذي وضعه ماركس في ذهنه عندما قال تلك العبارة الشهيرة . لكن مضمون الدين هو مسألة اخرى لا تغطيه نظرية « المصلحة » ؛ لذلك كان افراد الطبقة العمالية اقل ميلاً إلى اعتناق وجهات نظر مرغوب فيها اخلاقياً ، لكنها تناقض المصالح الفردية او الطبقيّة .

ما قيل هنا حول الظروف الانكليزية ، ينطبق وحتى بقوة اكبر على الظروف الاميريكية . فالحركة « الاتجاعية » للبيض في الولايات

الشمالية ، يجب أن لا تكون غير متوقعة كما تراءى للعديد من علماء الاجتماع . ان نظرية المصلحة في الاتجاهات تتنبأ بصورة واضحة ودقيقة برجع من هذا القبيل لدى افراد مجموعات الطبقة العمالية البيض المعنيّة بشكل رئيسي . لا يؤدي هذا القول طبعاً إلى الاتفاق مع حجج « العرقي » ، او إلى اعتبار العلاجات السياسية والاجتماعية التي اقترحها اولئك الناس بأنها مبررة . فكل ما يجب على نظرية المصلحة قوله هو أن نمو هذه الاتجاهات ليس نزوياً وليس غير قابل للتعليل . وتوحي هذه النظرية بأن العادة التحررية التي تسم هذه الاتجاهات بصفة « القولبة » و « اللاعقلانية » ، لا تفي الاسباب الموضوعية المؤدية إلى نشوئها حقها من الانصاف . كما لم توح بأن الناس الذين يشكلون اتجاهاتهم وفق نظرية المصلحة في تشكيل الاتجاهات ، هم على صواب بالضرورة في ادراكهم للواقع . بسبب المهاجرون الملونون مشكلات لأفراد الطبقة العمالية البيض فعلاً ، لذلك يستبعد أن تكون رجاع هؤلاء الافراد « عقلانية » . وهناك وجه آخر طبعاً لهذه الدالية ، ـــ المسألة ـــ . فالناس الملونون يؤدون ايضاً خدمات ايجابية ذات نفع وعون كبيرين لاعصاء المجتمع المحلي البيض . ان الاطباء والممرضات الملونين هم عناصر لا غنى عنها للحفاظ على الخدمة الصحية ، كما أن سائقي الحافلات وقاطعي التذاكر الملونين ، هم بالمثل عناصر لا غنى عنها للمحافظة على خدمات النقل المدينيّة . وعلى أية حال ، تعتبر اسهامات المهاجرين الايجابية (في المنافع اليومية الواضحة) من وجهة نظر سيكولوجية ، منعزلة بعض الشيء عن النمط النموذجي لرجل او امرأة الطبقة العمالية . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الجوانب السلبيّة

لوجود المهاجرين والمتبدّية في الاكتظاظ واستخدام المصادر النادرة (اي تلك الجوانب التي يلعب فيها الملونون دور كبش الفداء ويعتقد بأنهم مسؤولون عنها) هي التي تبدو واضحة جداً فقط (علماً بأن ما يبدو واضحاً ليس صحيحاً بالضرورة ، لأن جميع انواع العوامل تتدخل في احداث هذه الظواهر) . ان تغلب الاسهامات الايجابية على الجوانب السلبيّة ، لا يلعب دوراً حاسماً بالنسبة لنظرية المصلحة . فتشكيل الاتجاهات الذي تتنبأ به هذه النظرية ، يحدث في سباق الحياة اليومية المعقد ، الامر الذي يجعل من الصعب ترجيح البرهان عليها ، سواء كان ذلك على نحو عقلي محصن ، او في دراسة تجريبيّة ، او عبر معالجة يقوم بها مختص في الاحصاء . وربما كانت هذه النقطة في حاجة إلى شيء من التوسع .

ما نقترحه بشأن تشكيل نظرية المصلحة في الاتجاهات هو مايلي : الاتجاهات عادات عقلية كما ذكرنا من قبل ، وهذا يعني أنها تتطور طبعاً للقوانين ذاتها التي تحكم العادات الاخرى . وقوانين التعزيز العامة التي ناقشناها في الفصل الذي تناول تكنولوجيا عالم النفس السلوكي ، هي التي تحكم العادات ونموها . فالافعال التي يصار إلى تعزيزها ، (اثابتها) ايجابياً ، تنزع إلى التكرار إلى أن تصبح معتادة . ويتوقف اثر هذا التعزيز على عوامل عديدة ، منها عدد التعزيزات وقوتها وفوريتها . والتعزيزات السبيّة لعادات التفاهم والتسامح العرقي ، هي من النوع المتكرر والفوري بالنسبة للعديد من افراد الطبقة العمالية البيض الذين يتنافسون على نحو مباشر مع الملونين على الاعمال والاسكان وضرورات الحياة الأخرى . وبالمثل ، ان الغذيات الراجعة السلبيّة

الصادرة عن المدرسة والمؤسسات التربوية الاخرى ، هي متكررة وفورية ايضاً . اما التغذية الراجعة الايجابية فهي اقل تكراراً واقل فورية . اننا نعرف أن هناك العديد من الاطباء والمرضات الملونين في مستشفياتنا ، غير أن هذه المعرفة عقلية ، ولا تحقق هدف تعزيز العادات الجسمية (الفيزيائية) للاستجابة ، باستثناء عدد قليل من الناس الذين يحتكون بالمستشفيات بصورة فعلية . لذلك تكون النفوس مشحونة ضد تعزيز الاتجاهات التسامحية والودية ، ومؤيدة للاتجاهات العدائية والتعصبيّة . ان النظرية المصلحة في الاتجاهات لا تسعى إلى تبرير اتجاهات الشخص العنصري والاتجاهات اللاتحررية الأخرى ، كما يجب أن لا تفهم على أنها تشجع هذه الاتجاهات ، بل هي تسعى فقط إلى فهم الاتجاهات وتقديم نظرية معقولة لنموها وتطورها .

يجب على نظرية من هذا القبيل طبعاً ، أن تمتاز بشيء تقوم به حيال طرق ضبط التعصب ووسائله ، والاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من نظريتنا هي في الواقع واضحة بصورة مناسبة . فإذا كانت الظروف الموضوعية المؤثرة في مصالح الافراد الشخصية (وهم على الاغلب من افراد الطبقة العمالية (مسؤولة جزئياً عن التعصب المضاد للملونين ، فمن الطبيعي حينئذ أن يكون تغيير هذه الظروف ا وضوعية هو الامر المطلوب . لقد كيّفت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميريكية منحى بسيطاً يكافيء سياسة عدم التدخل في هذه المشكلات . لقد اعدت ترتيبات خاصة جداً في هذا السياق ، فما من جهد كرّس لتوقع الصعوبات في الاسكان والتربية ، مما أدّى في نهاية المطاف إلى هجوم مباغت ساخط بسبب نشوء هذه المشكلات كعاقبة

لهذا الاتجاه المتسم بالاهتمام والاعاقة القصدية . قارن هذا الوضع بالادخال الاقل ازعاجاً بكثير للعمال الملونين في هولندا ، حيث وجه اهتمام خاص لمصادر الاحتكاك الممكنة ، وبوشر تخطيط واسع على نحو مسبق ، وكان للاسكان والتربية الأولوية في هذا التخطيط . ونتيجة لهذه الاجراءات ، فقد نشأ في هولندا عدد قليل جداً من الصعوبات التي انزلت الكوارث بنا ، ولا وجود فيها للتعصب الذي يسم بريطانيا واميريكا وصمة عار و. قد يكون التعصب غير عقلاني ، غير أن ذلك لا يعني أن التعصب لا ينهج مساراً منتظماً ، ويجب أن يكون من الممكن فهم اسبابه وضبطها . ومما يؤسف له ، أن ممارسة الضبط قبل وقوع الحدث هو اسهل بكثير ، والوقاية في هذا المجال هي افضل من العلاج دائماً . وحتى في الوقت الراهن ، هناك محاولة ضعيفة للقيام بفهم علمي يؤدي إلى طرق عقلانية للبحث في المشكلة . وما قمنا به بدلاً من ذلك ، ليس إلا مشاحنات ومناورات سياسية لمصلحة حزبية . ربما كان التسليم بأهمية المشكلة وحجمها هو خاصيّة اسلوبنا اللاعلمي القائم بناءً على حجة مفادها أنه لا يتوافر عملياً المال الواجب انفاقه على البحث العلمي المطاوب والذي بدونه يصبح عملنا جميعه مظلماً . ان العمل في غياب المعرفة ، لابد وأن يكون اقل فاعليه من العمل القائم بناء على اساس فهم علمي مناسب .

تعالج نظرية المصلحة بعض المسائل التي نشأت عن تناقض تقاطع — التصويت ، لكنها لا تعالج هذه المسائل جميعها . فمن الواضح ان عوامل الشخصيّة تلعب دور هاماً هنا ايضاً ، كما رأينا في الفصلين الأول والثاني . وعلى سبيل المثال ، يستحيل فهم الفروق الفردية من

حيث الجنس دون النظر إلى عوامل الانبساط والانطواء . ان نظرية المصلحة كما تم طرحها عريضة وعامة جداً بحيث لا تتمكن من التنبؤ بأية اتجاهات فردية دقيقة تكونت من خلال مزاج شخص معين ، وحوادث عرضيّة في تاريخ حياته ، والشروط التعزيزية لعضويته الطبقيّة . ونظرية المصلحة الماركسية (الغامضة) تتفق بوضوح مع التوجهات الصحيحة ، بيد أنها محدودة جداً في ذاتها بحيث لا توفر لنا جميع المعلومات المطلوبة . فالاسباب الاقتصادية وغيرها لا تستطيع تحديد السلوك إلا من خلال تأثيرها في الشخص الفردي . ويبدو ذلك بديهياً للغاية بحيث يتعذر عليّ ان افهم كيف يستطيع أي شخص ان يشكّ فيه بصورة جديّة . ان عضوية الشخص الطبقية تؤثر على نحو واضح في سلوكه بطرق عديدة ، بيد أن هذه التأثيرات تتعدّل بخصائصه المزاجيّة الفطرية الفريدة ، كما تتأثر على نحو مماثل بقدراته الفطرية وبما يدعوه سكنر « تاريخه التعزيزي » ، اي حوادث حياته العرضية التي تحدد تقريباً ما الافعال والاتجاهات والعادات التي تم تعزيزها ايجابياً او سلبياً .

تتضمن نظرية المصلحة كما نوقشت حتى الآن ، أن المصالح التي اعتبرت مسؤولة عن نمو الاتجاهات هي مصالح واقعيّة ، وان التعزيزات الايجابية والسلبيّة التي يتلقاها معتنقو هذه الاتجاهات هي خصائص موضوعية للأوضاع المنتجة لها . قد يكون الشخص مخطئاً طبعاً بصدد مصالحه الواقعية ، ولكن هناك عموماً عنصر من العقلانية حول النظرية ربما يكون مضللاً . بيد أن هذا العنصر ليس ضرورياً ، وفي الواقع ، ان العديد من المعتقدات والاتجاهات هي طبعاً سلوكات

خرافية محض . فكر في النص المقتبس التالي المأخوذ من « بني هندوسي » :
« قدمنا بالامس ثلاثاً من الماعز قرباناً في طقس ديني كنا قد حصلنا عليها حديثاً من شركة الطيران النيبالية لضمان سلامة طائرة افروية . لقد شعر مسؤولو شركة الطيران ان تحطم احدى طائراتها حديثاً في نيودلهي ، هو نتيجة لفشلهم في اقامة احتفال ديني مماثل في دوشيرا . وفي الوقت الذي كان يقام فيه الاحتفال الهندي الديني التقليدي ، كانت الطائرة المنكوبة تخضع لعمليات التصليح في بومباي » . كيف تتولد معتقدات خرافية — وهي ذات طابع ديني غالباً — من هذا النوع ؟ لقد استشهدت في فصل سابق بتجربة سكنر الشهيرة حول اكتساب السلوك « الخرافي » ، وتنطبق هذه التجربة بشكل مماثل على المعتقدات الخرافية الدينية والعرقية انطباقها على الدوافع الفرويدية .

ثمة تشابه تمثيلي بين نمو السلوك الخرافي عند الحمام ، وقصة معروفة تماماً لمريض مصاب بوسواس قهري يتمثل في حفاظه على القيام بطقطقة اصابعه بصورة مستمرة . عندما سأله الطبيب النفسي « لماذا تطقطق اصابعك باستمرار ؟ » اجابه المريض « كي اجعل الاسود بمنأى عني » . وعندها قال له الطبيب « ولكن لا توجد اسود هنا » ، فأجاب المريض على الفور « حتى ترى مدى نجاح فاعلية طقطقة الاصابع ! » . يمكن تطبيق التعزيز على اساس واقعي في الوضع الذي تكون فيه الاتجاهات الناتجة متفقة مع الفائدة والواقع . ولكن يمكن ايضاً تطبيق التعزيز على اساس عرضي في وضع تكون النتيجة فيه معتقداً خرافياً كما في حالة حمامات سكنر . لا يختلف اساس تطور هذه الاتجاهات الخرافية عن تطور الاتجاهات الاخرى طالما كان قانون النشوء هو موضع الاهتمام .

غير أن تلك الاتجاهات الخرافية غير متكيفة مع الواقع وليست مفيدة لمعتنقها ، ومع ذلك قد يكون استئصالها صعباً جداً ، لأن التعزيز المبني على اساس عرضي قد يبقى في المتناول . فالحمامات المنغمسة في سلوكها الخرافي سوف تتناول غذاءها سواء وثبت على قدم واحدة أم لم تثب ، وسواء حركت اجنحتها ام لم تحرك . وعلى اية حال ، انها لا تعرف ذلك ، لهذا تسيء تفسير الشروط التعزيزية المرتبطة بظروف تقديم الطعام لها . ان الكائنات الانسانية ليست حمامات ، بيد أن لا عقلانية الكثير من اتجاهات هذه الكائنات يوحي بأنها لم تكتسب هذه الاتجاهات عبر عملية طويلة من البحث العقلاني والفهم العلمي ، بل عبر عملية تعزيز عرضيّة او عشوائية . اننا ننزع إلى الابتسام لدى مواجهة اتجاهات من هذا النوع ، مثل الاتجاهات المبيّنة في قصة تقديم القرابين الثلاثة اثناء الطقس الديني الهندي ، ولكن ينبغي لنا ان ندرك أنه في الوقت الذي تكون فيه المعتقدات الخرافية مسليّة وغير مؤذية في اغلب الاحوال فقد تكون ذات آثار مصيرية في احوال اخرى .

تأمل على سبيل المثال في وضع قبيلة السوثو التي تعيش بجوار البحر . تعاني هذه القبيلة من سوء تغذية خطير يعود إلى تزايد عدد افرادها ، حيث ادّى ادخال الخدمات الطبية الحديثة إلى تخفيض وفيات الاطفال ، ولكن لم تتوافر زيادة مماثلة من حيث التزود بالاغذية . لذلك تواجه القبيلة خطر المجاعة ، ومن المرجح أن يكون العديد من الاطفال الذين تم تحصينهم ضد الامراض المعدية وغيرها ، عرضة لموت اكثر ايلاماً بسبب الجوع . ثمة غذاء وفير متيّسر في البحر ، فالاسماك وفيرة ، ورجال القبيلة بحارون ماهرون ، بيد أنهم اكتسبوا

اتجاهات ومعتقدات خرافية ازاء تناول السمك منعتهم من القيام بأية محاولة لحل مشكلتهم باستثمار السمك المتوافر لديهم . كما يوجد وضع مماثل في الهند ايضاً ، ففي حين تهدد المجاعة الكثير من المواطنين هناك ، وغدت مستوطنة تقريباً في بعض المناطق ، فإن بعض المعتقدات الدينية الخرافية المتمثلة في تحريم قتل « البقر المقدس » واكلها ، تحول دون الحل الواضح لهذه المجاعة ، وتحظر المساس بالبقر في الوقت الراهن . من الواضح أنه يمكن انقاذ الكثيرين من الموت لو كان تغيير هذه الاتجاهات امراً ممكناً . وتبدو حقيقة هذا الوضع اكثر وضوحاً عندما نفكر في اتجاهات هتلر نحو اليهود ، او في اتجاهات « محكمة التفتيش الكاثوليكية » حيال اولئك الذين لا يشتركون معهم في معتقداتهم (حتى من المسيحيين) .

يختلف مصدر التعزيز في هذه الحالات بصورة واضحة عن ذلك المصدر الذي يغذي المعتقدات المضادة للملونين عند اسر الطبقة العمالية البريطانية والاميريكية . ويبدو أن المصدر الاكثر احتمالاً هو الاستحسان الاجتماعي . فالمعلمون والآباء وجماعات الأقران يعززون معتقدات معينة على نحو ايجابي ، بينما يعززون معتقدات اخرى على نحو سلبي . من الطبيعي أن هذا شكل فعال جداً من اشكال غسيل الدماغ ، فالفرد يتعلم أن يعتنق بداهة الاتجاهات التي يصار إلى تعزيزها وتمجيدها إلى حد كبير وبشكل متماثل . ويتبادر إلى الذهن هنا بصورة خاصة ، الاتجاهات الدينية والقومية . فمن الواضح أن مثل هذه الاتجاهات غير عقلانية في انكلترا وامريكا ، ومع ذلك ، فان التمسك بها قوي جداً ، لذا يتراءى للفرد بأنها قد عززت على نحو قوي ومتكرر .

(ربما لا يكون ضرورياً أن نمضي في تفصيل اسباب لا عقلانية هذه الاتجاهات . فالقليل من المسيحيين اختاروا دينهم بناء على فحص دقيق غير متحيز لحوالي ثلاثمائة دين متوافر في العالم . ان اطفال المسلمين يصبحون مسلمين . واطفال الهندوس يصبحون هندوسيين ، واطفال المسيحيين يصبحون مسيحيين . وحتى ضمن هذه الاديان ذاتها ، يتبنّى الاطفال معتقدات والديهم المتعلقة بجوانب طائفية معينة يحبذها والدوهم ، ويصبحون كاثوليكيين اوبروتستانيين او مؤيدين لأي معتقد يؤيده الأب او الأم . ان هذا الوضع لا يبرهن على اختيار عقلاني ، بل على حكم لا عقلاني قائم على التعزيز الايجابي) . وفي الواقع ، يبدو من الشاذ وربما من التناقض أن يكون للتعصب المضاد للزنوج ، والذي يعتبر غالباً نموذجاً اصلياً تقريباً للاتجاهات اللاعقلانية المتميزة ، قدر كبير من الخلفية الواقعية العقلانية في الشروط التعزيزية للبيئة ، في حين تتبدى المعتقدات الدينية ، مثل معتقدات الهنود الممثلة بقصة القرابين الثلاثة ، كمعتقدات خرافية محض بالمعنى السكنري لهذا المصطلح .

هنالك طبعاً اساليب نفسية لمقاومة الاتجاهات التعصبيّة ، وقد جرت بحوث تجريبيّة كثيرة حاولت ابطال الشر الذي انتجه التعزيز العرضي (او غير المفرق في العرضيّة) السابق للاتجاهات « الخاطئة » . ليس هذا بالمكان المناسب لمناقشة هذه الاساليب ، ويبدو من المستغرب ان اولئك الذين هم اكثر احتكاكاً بالمشكلات العملية التي يفرضها التعصب ، يعرفون غالباً الحد الأدني حول مخزون المعلومات والمقترحات

العمالية بهذا الصدد . بيد ان البحث العلمي في مجال الاتجاهات لا يختلف كثيراً عن البحث العلمي في مجالات علم النفس الاخرى جميعها . وكما سوف اجادل في الفصل الأخير ، يمتعض الافراد الممارسون غالباً من ادخال الاجراءات العلمية للاستدلال والتجريب في مجالاتهم ، ويفضلون العمل على نحو مشوش يتفق مع الطرق القديمة « الجيدة » بدلاً من الأخذ بالمعلومات الجديدة في حسبانهم . يتعلق هذا الاتجاه اللاعلمي ذاته بالباحثين طبعاً ، وربما يقومون ببحث اكثر كماً ودقة مما تلقاه حتى الآن . ومن بين جميع السلوكات الخرافية للنوع الانساني ، يعتبر هذا السلوك — الاتجاه اللاعلمي — من اكثرها ايذاءً وضرراً .

يجب طبعاً أن يكون للتناقض العام الذي اشتق عنوان هذا الفصل منه ، تضمينات سياسية عديدة ، ويمكن اختتامه بالتفكير في بعضها لقد تمت الاشارة في كثير من الاحيان ، كنقد لنظرية المصلحة في تشكيل الاتجاهات احياناً ، إلى أن العديد من افراد الطبقة العمالية يصوتون لصالح المحافظين (ربما واحد من كل ثلاثة) ، في حين يصوت العديد من افراد الطبقة المتوسطة لصالح العمال (ربما واحد من كل اربعة) . لذلك تم اثبات أن نسبة مرتفعة من الأفراد يصوتون ضد الحزب الذي يمثل مصالحهم الاقتصادية ، وقد فسّر ذلك احياناً بأن مثل هذا السلوك هو « لا عقلاني » . من الواضح ان الأمر ليس على هذا النحو بالضرورة ، فالراديكالية الاقتصادية هي جانب واحد فقط من عامل الراديكالية الأكثر عمومية . فقد يشعر شخص الطبقة العمالية باطمئنان اكبر حيال السياسات المحافظة للحزب المحافظ ، والتي تخدم مصالحه بطرق عديدة ، على الرغم من استنكار سياساته

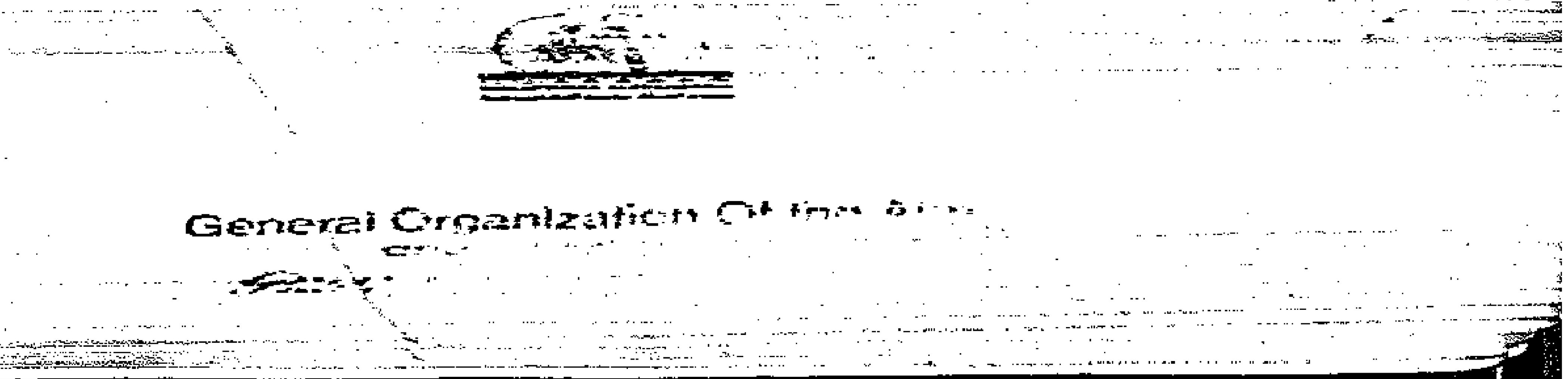
الاقتصادية . وبالمثل ، قد يشعر شخص الطبقة المتوسطة باطمئنان اكبر ازاء السياسة التقدمية العامة لحزب العمال ، على الرغم من استنكار راديكاليتهم الاقتصادية . ثمة صراع مستفحل في النظام الحزبي الثنائي ، ويسمح هذا الصراع بأنماط حل عديدة مختلفة ، بيد أن اياً من هذه الانماط ليس لا عقلانياً بالضرورة، فعلى الرغم من تصويت الفرد ضد مصالحه الطبقية الاقتصادية، إلا أنه قد يبدو ماركسياً معززاً إلى حد بعيد .

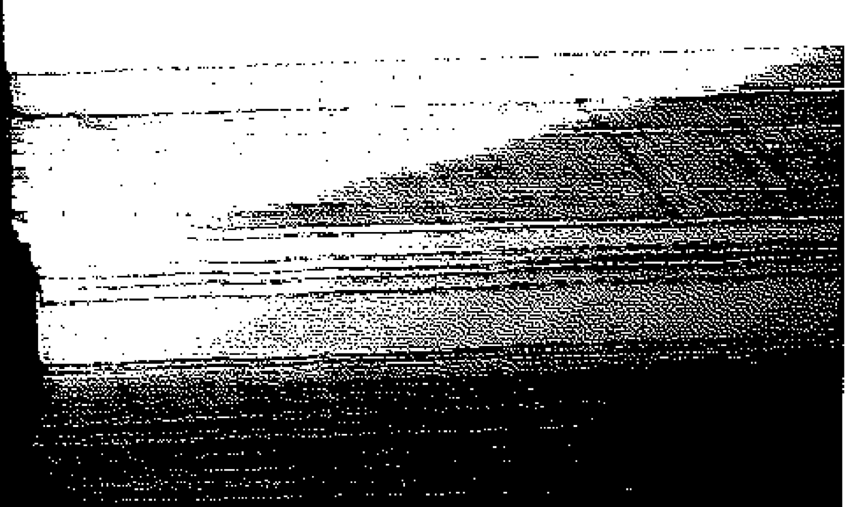
ربما يبدو أن الحجة الاقتصادية تفقد الأهمية تدريجياً ، ولم يعد التأميم مصدر نقاش متّقد كما كان في الماضي . فالقليل من الاشتراكيين يرغبون الآن في توسيع التأميم على نطاق اكبر ، والقليل من المحافظين يرغبون في تفكيك الصرح الكلي للصناعات المؤممة . وطبقاً لنتائج استفتاءات معهد جالوب ، تبيّن أن ناخباً واحداً فقط من كل خمسة ناخبين عماليين يرغب في مزيد من التأميم . ولكن تبيّن على نحو مماثل ايضاً ، أن ناخباً واحداً من هؤلاء الناخبين يرغب في المزيد من اعادة الصناعات المؤممة إلى الملكية الخاصة . من الواضح انه لا يمكن اعتبار حزب العمال حزباً ملتزماً بالتأميم الجملي . واذا كان ذلك صحيحاً ، فيمكن أن يحدث اعادة تراصف تدريجي للطبقات والاحزاب ، حيث ينزع المزيد من افراد الطبقة المتوسطة إلى التصويت لصالح الراديكالية « اللااقتصادية » التي تشكل مخزون حزب العمال ، كما سوف ينزع المزيد من افراد الطبقة العمالية إلى التصويت لصالح المحافظة « اللااقتصادية » لحزب المحافظين . ينبغي أن لا يكون توثيق مثل هذه التغييرات امراً مستحيلاً إذا كان لها ان تحدث ، وسوف تزودنا بدعم هام للنظرية التي نحن بصدد الدفاع عنها هنا .

يمكن متابعة التناقض الذي نوقش في هذا الفصل عبر التاريخ الأنكليزي الحديث ، بدءاً من أيام كرومويل (وهو زعيم سياسي وعسكري انكليزي هزم الملكيين واعلن الجمهورية عام ١٦٥٣ — المترجم) وحتى الوقت الراهن . ويبدو من المرجح ان هذا التناقض يلعب دوراً بارزاً هاماً مماثلاً في الاقطار الصناعية الاخرى . لقد ناضل كرومويل في سبيل اسقاط سلطة الملك ، لكنه لم يكن على يقين بأن عامة الناس سيصوتون لصالح برلمان لا يعمل اعضاؤه على استعادة الحكم الملكي دون ابطاء . لذلك تمثل فشله النهائي المسلم به في برلمان « الباربونز » المكون من « اشخاص يخافون الله ويحبذون الاخلاص والولاء » والذين عينهم كورمويل نفسه بالتشاور مع مجلس ضباطه . وحتى عندما فشل « الباربونز » ، لم يكن هناك من بديل إلا حكم فردي تولاه اللورد « بروتكتور » . لقد تبيّن لهذا الديكتاتور الأول نتيجة دراسته للظروف جميعها ، أن عامة الناس الذين اعتقد بأنه يعمل لمصالحهم ، يتمتعون بأفكار مختلفة جداً حول ماهية هذه المصالح . ولذلك قرر كما فعل الآخرون من بعده أن « يفسر » مصالحهم « الحقيقية » كما يدركونها هم انفسهم . والاحداث المألوفة على نحو اكثر قليلا ، هي احداث انتخابات عام (١٩٧٠) ، حيث هُزِمَ حزب العمال بصورة شديدة ، على الرغم من التنبؤ بأرجحية فوزه حسب نتائج الاستفتاءات السابقة للانتخابات . ونتيجة البحث في اسباب الخلل الحاصل في نتائج هذه الانتخابات ، تبيّن أن تأييد الطبقة العمالية لاينوتش بوويل واتجاهه المضاد للملونين ، كان السبب الرئيسي في فوز حزب المحافظين . لقد كان الخطأ الاكبر الفادح للحملة

الانتخابية « هو الخطاب الدعائي الواسع الذي القاه انتوني ويدجوودبن » وانتقد فيه بصورة عنيفة اتجاه بوويل المضاد للملونين . توحي هذه الحكمة بعد وقوع الحدث أن السبب في خسرة العمل وفوز المحفظين ، هو أن حزب العمال قد تجاهل توجيه الانتباه إلى الوضع المتقلقل الذي يضعهم فيه تناقض الاتجاه الطبقي . اقد تنصّل زعيم حزب المحافظين من اقوال اينوتش بوويل طبعاً ، غير أن ما ادلى به بوويل من خطابات واقوال على نطاق واسع ، كان له اثر اكبر في رجل الشارع من اثر الاستنكارات التي ادلى بها السير هيث وآخرون في هذا السياق . وسيكون من الهام أن ترى كيف تمارس الاحزاب اللعبة عندما تكون الانتخابات القادمة وشيكة الحدوث .

* * *


General Organization Of the



الفصل الخامس

الا تلقوا اللوم كله على عالم النفس السلوكي

انه يبذل قصارى جهده

ما من احد يحب جنيّة وهي في الاربعين من عمرها، وهذا طالع سوء ضد جنيات ذات عمر غير محدد . اما عالم النفس السلوكي ، فما من احد يحبّه في اي وقت كان . ويبدو ذلك جوراً عابثاً ، الامر الذي قد يحدو الفرد إلى التساؤل عن السبب في ذلك . ومهما بذلنا من جهد ، فستبدو صورتنا — اي صورة علماء النفس السلوكيين — خاطئة باستمرار ، وربما كان التعذيب وغسيل الدماغ من ارق الاتهامات المروعة الموجهة الينا . يتخذ جميع الفلاسفة والادباء والفنانين ورجال الدين والسياسيين وعلماء التربية والاطباء النفسيين مظهر الحزن والوقار امام عالم النفس السلوكي ، ويقف واحدهم منكمشاً وكأنه امام مرض مهلك ، وينسحب بعيداً للاحتفاظ بمسافة امن تحصّنه من العدوى بصورة معقولة . ان هذا الموقف غريب جداً ، لأن جميع مانحاول القيام به هو دراسة السلوك الانساني (والحيواني) باسلوب ، علمي

لكي نتمكن من تقديم عون ونصح قائمين على حقيقة سليمة مؤسسة جيداً ، بدلاً من قيامهما على الظن والعمل التخميني يعني معظمنا — علماء النفس السلوكيون — بالحالة البائسة للانسانية ، وندرك المشكلات الصعبة المريعة التي تواجهها . ونشعر أن بعض المعلومات حول الانسان — بوصفه كائناً بيولوجياً — قد تكون ذات فائدة احياناً في مساعدتنا على ايجاد حلول لبعض هذه المشكلات . ولما كان هذا الهدف ليس بالهدف الوضيع ، فلماذا اذن يوجه هذا الازدراء العالمي لعالم النفس السلوكي ، والذي يصل احياناً إلى البغض والاضطهاد الفعال ؟ تعترف كاثلين نوت ، الفيلسوفة الشاعرة ، في كتابها « روح في الفرق » (Asoul in the quad) (وهو كتاب مكرس على نحو واسع لهجوم قصدي ولاذع تماماً على السلوكية بعامة وعلى كاتب الاسطر بخاصة) بأنها اكتشفت أن السلوكيين « مزعجون » ، وهو مصطلح ملهم جداً لروح هادئة عقلانية من هذا النوع . لماذا نحن مزعجون ؟ ربما تشكل ثلاثة وجوه للسلوكية بداية حسنة لهذا الفصل ، وهذه الوجوه هي : الوجه المتيافيزيقي ، والوجه الميثودولوجي ، والوجه التحليلي . اشتقت هذه التمايزات من « ميس » (C. Mace) وهو استاذ لي وغدا صديقي فيما بعد . لقد جمع ميس بين تدريب الفيلسوف وتدريب عالم النفس ، ونجح في القاء نظرة وديّة ولكنها ناقدة على نشاطات زملائه الاكثر تجريبيّة . تشكل التمايزات بين تلك الوجوه الثلاثة خليفة ضرورية لأي نقاش جوهري للسلوكيّة . وتنزع الحجج بدونها إلى التغاضي عن الجوانب الصحيحة لبعضها البعض ، فكل فريق يعزو معان مختلفة للمصطلحات المستخدمة .

ان السلوكية المتيافيريقية ضعيفة حقاً ، ولكنها قناع لمعتقد فلسفي قديم جداً ، وهو بالتحديد المادية العتيقة الطراز ، اقد كان ديكارت هو المسؤول عن ايماننا الحديث بشكل من اشكال الثنائية المعتنق على نحو واسع . تؤكد هذه الثنائية وجود صنف من الموضوعات تسمى « اشياء » ولها ابعاد فيزيائية ، ووجود صنف آخر من الموضوعات تسمى « عقول » وليس لها ابعاد قابلة للقياس . ينكر الفلاسفة المثاليون وجود الصنف الأول من الموضوعات - اي الاشياء - (على الرغم من معارضة الدكتور جونسون المثالية بقوله « وهكذا انني ادحضها » ... إلا أنه كان فيلسوفاً ضعيفاً : مثله في ذلك مثل بعض السلوكيين المحدثين) . كما ينكر الفلاسفة الماديون وجود الصنف الثاني من الموضوعات - اي العقول - ، الامر الذي يفعله السلوكيون المتيافيزيقيون ايضاً ودون أن يضيفوا اي شيء هام للحجج المغرقة في القدم . هناك طبعاً عدد من المواقع حول مشكلة العقل - الجسم يستطيع الفرد أن يشغلها دون أن يكون مثالياً او مادياً ، والثنائية مثال على احد هذه المواقع . غير انني لا ارغب في تكرار هذه النزاعات الفلسفية القديمة ، فالامر لا يقتصر على عدم وجود جواب متفق عليه فحسب ، بل لا يوجد ايضاً اية محكات للحكم على اي جواب كان ، كما لا يوجد اتفاق حول ما إذا كان هذا الأمر مسألة واقعية او ذات معنى اصلاً ، وحول ماهية انواع الوقائع ذات العلاقة الوثيقة بها . وبتعبير آخر ، تبدو هذه المسألة كغيرها من المشكلات المتيافيزيقية العديدة الاخرى ، مظلمة تماماً وغير قابلة للحل ولا معنى لها إلى حد ما . بذلك ما زالت عظماً قديماً مفضلاً تجرب فيه اسنانك المتيافيزيقية الجدلية . اما طلاب

الفاسفة اليافعون ، فيرون أن الخبرة تعلـّم الفرد بأنه ما من شيء هام هام يحتمل أن يتمخض عن هذا الجدل جميعه . وإذا كان بعض السلوكيين ماديين بهذا المعنى ، فإن الغالبية العظمى منهم يتثاءبون ازاء هذه المشكلة ويعزفون عنها تماماً . لذلك سوف لا تجد كثيراً من السلوكيين الذين ابدوا اي اهتمام كبير في المسائل المتيافيزيقية . ثمة تجاذب مزاجي بين السلوكية والواقعية الساذجة ، بيد أن هذا التجاذب ليس اساسياً ولا تفكيراً دقيقاً في اي اسلوب فلسفي ، فمعظم السلوكيين سوف ينزعون إلى القول بنفاذ صبر « دعنا نواصل العمل في تجاربنا ، ولا تلق بالاً إلى الفلسفة » انهم يستخدمون هذه العبارة بأكثر المعاني الممكنة ازدراءً . تعتبر الفلسفة بالنسبة للسلوكي تأملاً عديم الجدوى حول مسائل تتصف اما بعدم امكانية معرفتها او بعدم اهميتها او بالأمرين معاً . وسوف يجد دعماً لموقفه هذا من الفلاسفة المحدثين الأكثر قدرة ، والذين احالوا المتيافيزيقا إلى ركود اكاديمي او شرّعوها خارج الوجود تماماً . نشأت الصلة الطبيعية بين السلوكية والمادية بشكل واضح جداً اثناء التاريخ المبكر للسلوكية ، وبخاصة في فرنسا — رغم عدم أدراك هذا الأمر دائماً — التي زودت السلوكية بالاصل الذي انبثق عنه العديد من الافكار الاساسية التي تكوّن السلوكيّة الحديثة الآن .. لقد كان ديكارت مادياً طالما كانت الحيوانات موضوع اهتمامه، فهو يشبـّه الحيوانات بالتماثيل المتحركة الموجودة في الحدائق الملكية ، والتي تتحرك عندما يخطو شخص فوق الصفيحة المعدنية المخفيّة الموصولة بهذه الحيوانات . والانسان ايضاً هو انسان آلي طالما كان جسمه موضع الاهتمام ، بيد أنه معالج ايضاً لروح تحدد افعال هذا الانسان الآلي .

غير أن هذا المفهوم الثنائي كان لا منطقياً ومتناقضاً حتى في كتابات ديكارت نفسه ، وكان الاتجاه نحو الواحدية امراً لا مفر منه . لقد جعل لاميتري من الروح قطعة اخرى من الأثاث الميكانيكي ، واخيراً قام كونديلاك باهمالها نهائياً .

ولد جولين اوفري لاميتري عام (١٧٠٩) ودرس اللاهوت والتحق بجماعة المذهب اللاهوتي الينسيني . تؤمن هذه الجماعة ، متبعة في ذلك افكار سانت اوغسطين ، بالقضاء والقدر ، لذلك اصبح لاميتري مقتنعاً بالحتمية وهو في سن مبكرة . تحول لاميتري إلى دراسة الطب وحصل على درجة دكتور وهو في الخامسة عشرة من عمره وبدأ مزوالة مهنة الطب ، ثم درس الفلسفة في ليدن على يد الفيلسوف بويرهان ، وقام بترجمة اعمال هذا الفيلسوف ، كما قام هو نفسه بتأليف كتب لحسابه الخاص واعتبرت جراءة شاب ، الامر الذي ادى إلى هيجان غاضب في اوساط المهنة الطبية . من الواضح أن مجرد كونه يافعاً ، هو جريمة لا يمكن التكفير عنها إلا بالاحتفاظ بالهدوء ! عندما كان لاميتري مريضاً جداً نتيجة حمى اصابته ، لاحظ خسراناً في قواه العقلية مماثلاً لخسرانه في قواه الجسدية ، وغدا مقتنعاً بأن التفكير ما هو إلا نتاج ونتيجة لعمل المخ والجهاز العصبي . ادى الاقتناع بلاميتري إلى تبني وجهة نظر مادية بصدد الروح ، وعمم وجهة نظر ديكارت المادية بصدد الحيوانات على الانسان نفسه . لم تلق وجهة نظره هذه اعجاب زملائه واضطر للعودة إلى ليدن حيث طبع اشهر كتبه وهو « الانسان الآلة » (L, Homme Machine) . لقد كان هذا الكتاب ثقيلاً جداً حتى بالنسبة لمواطني هولاندا ، وكان على

لاميتري أن يلجأ إلى براين حيث عيّنه فريدريك الاكبر قارئاً البلاط . وهناك بحث في القسم الثاني من نموذجه النظري يتنبأ فيه للمرة الثانية وعلى نحو يثير الاستغراب إلى حد ما بمعظم النظريات السلوكية الحديثة اثورندايك وسكنر . لقد وضع سلفاً نظرية اللذة القائلة بأن السلوك محكوم كلياً بالتعزيزات الايجابية والسلبية — او كما يصوغ الامر نفسه قائلاً بأن الملذات هي غاية الحياة . توفي لاميتري وهو في الحادية والأربعين من عمره ، وربما كان الكاتب السلوكي الأول الذي لعنه فعلاً الأشخاص ذوو التفكير اليميني جميعهم .

اما كونديلاك فقد ربط مادية لاميتري الفيزيولوجية بالتجريبيّة الانكليزية ، وربما كانت حكاية التمثال الرمزية القادر على الاحساس والتعلم هي من افضل الاعمال التي عرفت عنه والتي يظهر فيها عدم علاقة الروح بتوليد السلوك . لم ينهج كونديلاك نهج لاميتري من حيث مكننة الروح ، بل تخلّص منها نهائياً ، وتأكيده على الاحساس والمدركات يزود السلوكيّة الحديثة بحبل ثالث ، وكان تمثاله الحساس المفسّر الأول لشكل المثير — الاستجابة . وهكذا نجد لدى هؤلاء الكتاب المبكرين نظرة تمهيدية عامة للسلوكية الحديثة في هيئة فلسفية وفيزيولوجية — ثمة تفسير ميكانيكي شامل للسلوك ، ونظرية في الدافعية تؤكد التعزيز ، ونظرية في المثير — الاستجابة دعاها ثورندايك بـ « الربطية » . بيد أن هذه التوقعات لم تؤد إلى اي شيء هام بصورة واقعية لأنها كانت ميتافيزيقية كلياً . لقد كانت المعرفة الحديثة في مجال الفيزيولوجيا مندمجة في النقاش فعلاً ، واستخدمت في المحاجّة ، ولكن المقوم الحيوي للسلوكية الحديثة كان مفقوداً ، الا وهو المثيودلوجية

العلمية . فعلى الرغم من أن هؤلاء الكتاب المبكرين قد اعدوا الاساس ، وكان لهم بالتأكيد صلات مع السلوكيين الاميركيين المحدثين ، إلا أن هناك اختلافاً بين لاميتري وواطسن ، وبين كونديلاك وسكنر ، وبين ديكارت وثورندايك . كان لاميتري وكونديلاك وديكارت فلاسفة وميتافيزيقيين ، وانصبّ اهتمامهم بالدرجة الأولى على مشكلة العقل — الجسم ، اما واطسن وسكنر وثورندايك فلم يعيروا ادنى اهتمام لهذه المشكلة ولم يفكروا فيها اطلاقاً — لقد سلمّوا بأن المثيرات وآثارها هي التي تحدد السلوك الانساني ، وانطلقوا بعد ذلك في توضيح القوانين التي يجري هذا التحديد وفقاً لها . يجب على برنامج من هذا القبيل أن يصمد او يسقط من خلال نجاحه التجريبي ، ولا علاقة لصدق او كذب اسسه الفلسفية بهذا الشأن . قد تكون المادية « صادقة » (لقد وضعت كلمة « صادقة » بين قوسين لأنني اشكّ فيما إذا كان لمصطلح المادية اي معنى) ، ورغم ذلك فقد يفشل البرنامج السلوكي . وبالعكس ، فقد تكون المادية « غير صادقة » ، ومع ذلك ، فربما ينجح البرنامج السلوكي بشكل جيد . لا علاقة للميتافيزيقا بالبحث التجريبي اطلاقاً ، وكذلك الامر بالنسبة لأفكار السلوكيين الخاصة او اللاموجودة ، فلا هي ميتافيزيقية ولا هي تجريبية . لقد غامر بعض السلوكيين على نحو لا يمكن انكاره في دخول ساحة معركة الميتافيزيقا ، بيد أن جثثهم المشوهة تشهد على حماقة مثل هذا التهور .

وبعد ، ان السلوكية الميتافيزيقية لا تتمتع باهتمام اي شخص ، ولا تقدم اي شيء جديد ، ولا تفصح عن اي شيء معقول ، وهي ليست سلوكية على وجه الخصوص — وفي الواقع ، قد يقول الفرد بأن

ثمة تناقضاً في مصطلح « السلوكة الميتافيزيقية » ذاته ، لأن مصطلح « ميتافيزيقي » يتضمّن امكانية المحاجّة بناء على اسس قبليّة لما هو عليه العالم ، ومصطلح « السلوكية » يتضمن اتجاهاً تجريبياً بصورة تامة ، اي ينطوي على انكار امكانية وجود اي معنى لهذه الحجج القبلية مهما كانت . انك لا تستطيع أن تؤمن بمعتقدات متناقضة في الوقت ذاته (واذا كان في استطاعتك ذلك فينبغي لك أن لا تفعله) ، وتبعاً لذلك ، يجب على السلوكية الميتافيزيقية أن لا تسبب لنا اي ازعاج بعد الآن . يستطيع السلوكيون أن يمتازوا بوجهات نظر فلسفية طبعاً ، ولكن بوصفهم فلاسفة لا بوصفهم سلوكيين . وإذا بلغت موقفاً يجب عليّ فيه تأييد احدى نظريات العقل — الجسم العديدة (الامر الذي لم افعله لحسن الطالع) ، فأعتقد بأنني سوف افضل الفينومنيولوجية المصاحبة التطورية (نظرية تطورية مفادها أن العمليات العقلية هي ظواهر مصاحبة للعمليات البيولوجية — المترجم) — توفر هذه النظرية معنى افضل قليلاً من ابة نظرية اخرى ، فهي ترى أن المادة تكتسب خصائص الشعور في هذا السياق . هل اتوقف عن كوني سلوكياً من خلال قبولي بامتلاك الوعي والافكار والمشاعر ؟ آمل أن لا يكون ذلك ، اذ يبدو من الحماقة انكار شيء صحيح على نحو واضح جداً . ويجب أن نفكر فوراً فيما إذا كان وجود مثل هذه المشاعر والرغبات والافكار الواعية يناقض اي شيء اكدته السلركية .

ان السلوكية الميثودلوجية هي شيء آخر تماماً ، وتزودنا بجوهر ما كان يعتبر في عصرنا ثورة علمية . لقد كان علم النفس قبل واطسن معنياً على نطاق واسع بالحوادث العقلية وبالوصف الاستبطاني لمضمون

العقل ، وبمحاولات تبرير هذه الحوادث وتحويلها إلى شكل علمي وقانونية صادقة . كان الاستبطان هو الاسلوب الرئيسي في البحث السيكولوجي ، وحاول العديد من الأفراد المحنكين ذوي القدرة العالية استخدام هذا الاسلوب في سبيل توطيد علم نفس علمي . لم يكن الفشل المطبق الذي اصاب هؤلاء الأفراد في مسعاهم قابلاً للتنبؤ بناء على اسس منطقية . وكان يجب القيام بهذه المحاولة ، ولكن ينبغي ان نستفيد من الفشل وندرك أن الشعور وتقارير الافكار والمشاعر الواعية لا تصنع مادة جيدة لبحث علمي . من الممكن طبعاً أن تظهر بمرور الزمن شخصية بارزة في علم النفس تعلمنا كيف نقوم بهذا البحث العلمي على النحو المناسب . ولكن يبدو ذلك الامر بعيد الاحتمال ، اذ لن يستطيع المرء أن يكون على يقين في هذا الصدد . وريثما تظهر تلك الشخصية البارزة ، وتقوم بالبحث العلمي المنشود ، يجب علينا أن نتفق مع واطسن واتباعه العديدين الذين يرون أن السلوك وليس الشعور هو معطياتنا الاولية ، وأنه يجب تكوين قوانيننا حول السلوك القابل للملاحظة ، لا حول حالات الشعور غير القابلة للملاحظة .
لا يتضمن هذا القول انكاراً لوجود حالات الشعور (رغم أن بعض السلوكيين يكتبون ما يوحي بذلك) ، بل المسألة لا تتعدى ما يشير إليه مايلز (T.R.Miles) عندما يقول « يفيد الوضع الميثودلوجي للسلوكي بأنه لو وجدت اشياء مثل العقول والحوادث العقلية ، فلا يمكن اعتبارها من وجهة نظر ميثودلوجية موضوعات للدراسة علميّة » . ان عبارة من هذا القبيل هي عرضة للدحض ، ولذلك تعتبر عبارة علمية ذات معنى . فإذا لم تقبل بها ، وترغب في دحضها ، فكل ما ينبغي لك

القيام به هو تقديم اسلوب يمكنه جعل الحالات والحوادث العقلية مناسبة للدراسة العلمية . وطالما لم يتم هذا الامر بعد ، فإن للسلوكيين وضعاً قوياً ، ويشعر العديد من الناس أن ثورتهم كانت في اوانها المناسب تماماً . وكما اشار السير بيتر ميداوور ، هناك فرق شاسع بين القول : « الكلب ينبح » والقول : « الكلب منزعج » . غالباً ما كان هذا التمييز الحيوي مغفلاً تماماً قبل نشوء السلوكية . اننا – اي السلوكيون – معنيون بالنباح ، ونعترف بكوننا غير قادرين على قول اي شيء معقول حول حالة العقل المزعومة التي يكشف عنها سلوك الكلب .

ان مصطلح « السلوك » بالنسبة لعالم النفس السلوكي ، هو اكثر شمولاً بكثير مما هو بالنسبة للانسان العادي الذي يستخدمه في حديثه العامي . فهو يتضمن الكلام والرجاع الجسمية القابلة للقياس جميعها مهما بلغت من الصغر وكانت غير قابلة للاكتشاف بالعين المجردة . لذلك يتضمن السلوك التغيرات في نبضات القلب والتغيرات الدقيقة في الايصالية الكهربائية للجلد والمرافقة حتى للتغيرات البسيطة في الانفعال . وفي ضوء هذا المعنى الشامل للسلوك ، ستكون التغيرات في نمط الموجات الكهربائية للمخ وافراز البولة وظيفة للخبرات الانفعالية . ان قاسات التغيرات الكهربائية التي تجري في الاعصاب الموصلة إلى العضلات المتنوعة ، ستشكل « سلوكاً » مماثلاً تماماً للسلوك الذي تكونه حركة هذه العضلات ذاتها . وتتطلب معظم الرجاع التي درسها علماء النفس تجهيرات ومؤهلات متخصصة بصورة عالية ، كما يتطلب تفسيرها خبرة ماهرة جداً . ان الاساليب التليمترية (اساليب تستخدم اجهزة قياس متطورة جداً تقوم بتسجيل التغيرات موضوع الاهتمام

وعدّها عن بعد) — أي الاساليب القائمة على ربط اجهزة التسجيل والعدّ بشخص يستطيع التجول متحرراً لأن في استطاعة هذه الاجهزة بثّ التغيرات التي تطرأ على سلوكه إلى محطة استقبال مناسبة — لقد توسع مجال تطبيق تلك الاساليب إلى حد بعيد .

يشكل « السلوك اللفظي » فكرة تجعل العديد من الناس متضايقين ويسألون ما وجه الاختلاف بين هذا السلوك والاستبطان ؟ وإذا كان الاستبطان محظوراً ، فلماذا يجب أن يكون السلوك اللفظي مسموحاً ؟ ان الجواب بسيط نوعاً ما . اذا قلت « ان رأسي يؤلمني » ، فليس ثمة اشكال حول اداثك لهذه العبارة ، فهي تقع في المجال العام وتغدو مادة لبحث علمي . ومع ذلك ، لا يمكن استخدام تلك العبارة كدليل مباشر على انك تعاني في الواقع الفعلي من آلام الرأس ، والا سيكون استبطاناً ومدعاة للشك . ورغم كل شيء ، قد ترغب في تضليل الباحث ، وتدعي المعاناة من آلام الرأس تهرباً من اداء مهمة معينة . ليس ثمة شك حول عبارتك الواقعية ، بيد أن هناك شكاً كبيراً حول معناها وصدقها ، وهو شك يصل إلى حدّ يجب فيه تشكيل قواعد خاصة تخولنا استخدام العبارات اللفظية . يتمثل احد الانتقادات الرئيسية الموجهة للتحليل النفسي في عدم استخدامه لمثل هذه القواعد المنظمة على نحو دقيق لدى تعامله مع التواصل اللفظي ، وفي أنه يمضي إلى ما وراء الاستخدام العادي للألفاظ في قبوله وتفسيره للعبارات اللفظية على أنها دليل على الحوادث « اللاشعورية » .

كيف نستطيع التأكد من ان العبارات اللفظية يمكن أن تستخدم على نحو مناسب ؟ تأمل في وضع بسيط للغاية : اننا نرغب في بناء

استبيان لقياس بعد الانفعالية او العصابية في الشخصيّة . نقوم في سبيل تنفيذ هذا الهدف بالدنو من استبصارنا الاكينيكي ، او من تصورنا ، او من البحوث المنشورة ، ثم نكتب مجموعة اسئلة مكونة من مئة سؤال ، مثل : « اعاني من الم متكرر في الرأس » . بحيث ينبغي للمستجيب أن يجيب عنه اما بكلمة « نعم » او كلمة « لا » . افترض ان احد المستجيبين قد اجاب عن هذا السؤال بكلمة « نعم » . من الواضح انك لا تستطيع استخدام هذه الاجابة كدليل على معاناته لآلام رأس متكررة وذلك للأسباب التي طرحناها تواً . ولكنك تستطيع استخدام تلك الاجابة كدليل على « شكواه » من آلام الرأس ، الامر الذي يقوم به فعلاً في اللحظة الراهنة ! في استطاعتك الآن أن تتناول مجموعة من الافراد الذين تم تشخيصهم ومعرفتهم كعصابيين ، وان نقارنهم مع مجموعة اخرى من الافراد غير العصابيين والاسوياء بصورة تامة . احسب بعد ذلك عدد مرات تكرار افراد كل مجموعة للاجابة بكلمة « نعم » عن ذلك السؤال ، وتبيّن ما إذا كانت النسب المئوية لاجابات افراد هاتين المجموعتين مختلفة فعلاً . اذا وجدت ان هذه النسب مختلفة جداً ، فيمكنك حينئذ القول وبثقة تامة ، بأن العصابيين ينزعون إلى الشكوى من آلام الرأس على نحو اكثر من العاديين ، كما يمكنك تعيين الشخص الذي تجهل وضعه في المجموعة الاكثر احتمالاً للعصابية بناء على اجابته عن ذلك السؤال (وعن فقرات الاستبيان جميعها) . ان الاستبطان لا يتدخل في هذه العمليّة ، لأنك تبحث في جميع الحوادث الواقعية السلوكية .

ربما كانت الطريقة المتعلقة بالتمييز الحسي ، هي الطريقة الأخرى الاكثر أهمية والتي تستخدم فيها عبارات لفظية . افترض انك تريد معرفة إذا كان النحل « يرى : الألوان . تصاغ هذه المشكلة كسؤال « عقلي » بحيث تبدو وكأنك تتساءل عما يجري في عقل النحلة عندما تكون متعرضة لمثير ملّون . ولكن يمكننا تحويل هذه المشكلة إلى سؤال سلوكي إذا تم تقديم المثير الملون مع مشكلة لا تتمكن من حلها إلا عضوية تتمتع بالقدرة على تمييز الألوان . وعندئذ نسأل : هل تستطيع النحلة أن تنجح أم أنها ستفشل في تمييز ذلك المثير ؟ هذا هو شكل السؤال الذي اختاره العالم البيولوجي الالماني الكبير فون فريسك . قام هذا العالم بتقديم ماء سكري في زبادي للنحل ، وكان يضع هذه الزبادي باستمرار على قطع صغيرة من الورق الملون . سوف يربط النحل من خلال هذه الطريقة اللون الازرق بالطعام . ثم سيتعرض النحل ذاته بعدئذ إلى مجموعة متنوعة كبيرة من قطع الورق الصغيرة ، بعضها ازرق اللون ، والاخرى جميعها رمادية اللون ، وتتراوح من حيث درجة لمعانها من الاسود وحتى الابيض . اختار النحل دون تردد قطع الورق ذات اللون الازرق مبيناً بوضوح قدرته على تمييز اللون من بين قطع الورق ذات اللون الرمادي المتميزة بدرجة اللمعان ذاتها . وبطريقة مماثلة ، قام طبيب اطفال الماني في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر بحلّ مشكلة معرفة ما إذا كان صغار الرضع قادرين على تمييز الألوان — كان يعتقد أنذاك أنهم لا يستطيعون ذلك قبل حوالي سنّ الرابعة . كان هذا الطبيب يقدم للرضع الذين يجري عليهم دراسته وهم في الشهر السادس من اعمارهم زجاجتين من

الحليب ، احداهما مغلّفة بورق اخضر اللون ، والاخرى مغلّفة بورق احمر اللون ولهما درجة اللمعان ذاتها .كانت الزجاجة الخضراء مليئة بالحليب ، بينما كانت الزجاجة الحمراء مليئة بالماء . كما كان محتوى الزجاجتين مخفياً تماماً بالورق ، لذلك يجب على الرضّع أن يتعلموا (إذا كان في استطاعتهم !) ربط محتوى الزجاجة باللون . لقد انجز الاطفال الرضع هذه العملية على نحو ناجح ، حيث امسكوا بالزجاجات الخضراء بسرعة كبيرة وبذوا الزجاجات الحمراء . وهكذا يبيّن سلوك الاطفال الرضع وسلوك النحل بصورة حاسمة أنهم يمتازون بالقدرة على تمييز اللون الرمادي ، وتمييز لون من آخر . من الممكن طبعاً المضيّ ابعد من ذلك في هذه التجارب وتقرير الحدود الدقيقة لتجهيزهم الحسّي ، اي تحديد مدى صغر الفرق الذي يستطيعون تمييزه من حيث الظل وا ون . ثمة بحث كلي ناجح حول هذه الموضوعات وتعلم التمييز هو احد اكثر اجزاء علم النفس الحديث أهمية .

يمكننا من حيث المبدأ طبعاً القيام بالشيء نفسه تماماً مع افراد من الناس للبالغين . فإذا اردت أن تعرف ما إذا كان في قدرة احد افراد دراستك أن يميّز بين الاحمر والأخضر ، يمكنك ان تضعه امام جهاز ذي رافعتين مصنوعتين من زجاج برّاق ، ويوجد داخل كل رافعة مصباحان مضيئان ، احدهما احمر والآخر اخضر . يمكنك الآن ممارسة تجربتك وفق المبدأ التالي : يضيء اللون الاخضر او الاحمر في كل رافعة حسب ترتيب عشوائي ، بحيث يؤدي الضغط على الرافعة الخضراء إلى الاثابة بتقديم فول سوداني تدفعه آلية سلكية خاصة عبر انبوب معين بعد الضغط على الرافعة المناسبة . إذا افترضنا ان فرد

دراستك كان جائعاً ويحبّ الفول السوداني المملّح (يمكنك تأسيس كل من هاتين الواقعتين — الجوع والرغبة في تناول الفول السوداني — بسهولة كبيرة وفق نماذج تجريبيّة خالية من الاخطاء) فستكشف على الفور أنه نجح على نحو سريع جداً في الضغط على الرافعة عندما تضاء بلون اخضر ، وعدم الضغط عليها عندما تضاء بلون احمر . ولكن من الواضح أن هذا الاجراء هو اسلوب اخرق في معالجة الأشياء . ولابد أن تتخلى عن اسلوبك في اقامة وضع تمييزي مصطنع اذا توافر لديك اسلوب اسهل كثيراً — كل ما يترتب عليك عمله في مثل هذه الحالة هو أن تطلب من فرد دراستك استدعاء لون قطعة الورق التي قدمتها له ! واذا كان في استطاعته تمييز الاحمر من الاخضر بصورة صحيحة ، فإنه يستطيع حينئذ التدليل على ذلك باستدعاء اللون الصحيح استجابة لتعرضه لقطعة ورق ملّونة . ولدى قيامه بذلك أن تتوافر له قرائن اخرى (مثل تمايز قطع الورق من حيث درجة اللمعان) فسوف تعتبر قدرته على الاستجابة لفظياً باسلوب صحيح ، دليلاً كافياً على تمتعه بالقدرة على تمييز الألوان . هذا هو الاستخدام السلوكي المناسب للعبارات اللفظية ، وليس ثمة تضمين ضروري في كل ذلك حول الحوادث العقليّة او حول الحياة الداخليّة لفرد دراستك — ربما تكون خبرته الذاتية في اللون الاخضر مختلفة كلياً عن خبرتك ، وقد تتفق هذه الخبرة فعلاً مع ما تود دعوته بالخبرة العقلية للأحمر . ولكن لا صلة لذلك بالموضوع اطلاقاً ، وما من طريقة معروفة لحل المشكلة التي ينطوي عليها (اذا كانت هناك مشكلة ذات معنى فعلاً) ، فكل ما نحن معنيّون به ، هو قدرة ذلك الفرد على التمييز ، وقدرته على القيام

بهذا التمييز ، يمكننا من القول بأنه قادر على ادراك اللون ، غير أن العكس ليس صحيحاً بالضرورة . فإذا فشل في التمييز ، فقد يكون ذلك راجعاً إلى عجز واقعي ، ولكن قد يعود ايضاً إلى حسن فكاهي في غير موضعه او إلى خبث فعلي . ليس ثمة طريقة لاكتشاف ذلك في وضع بسيط كهذا . ولكن إذا تناولنا اوضاعاً اكثر تعقيداً نغيّر فيها الالوان وتمايز اللمعان ايضاً ، او إذا قمنا بقياسات للفروق القابلة للملاحظة تماماً على متّصل معيّن . فسيكون من غير الممكن عملياً أن يقوم الفرد بالغشّ على نحو ناجح . هناك قوانين معروقة جيداً ترتبط بهذه الاوضاع ويستبعد أن يعرفها فرد الدراسة ، وتدل سريعاً على أن احكامه قائمة على اساس عشوائي ، وانها غير مماثلة لأحكام اولئك الافراد الذين يتمتعون بضعف في ادراك الالوان ، ولكنهم يحاولون باخلاص بذل ما في وسعهم من جهد . وحتّى الخبير المطلع على هذه القوانين ، لا يستطيع المثابرة على الغشّ لأية فترة زمنية ، فالقيود المفروضة على تجهيزاته سوف تفضح غشّه سريعاً .

ما زالت تجارب التمييز تبدي بعض الصعوبات ، بيد أنها صعوبات من النوع التقني المحض ، لذلك يكون بعض الناس اكثر مجازفة في احكامهم ، في حين يكون البعض الآخر اكثر حذراً . قدم مثيرين مختلفين على نحو بسيط جداً إلى شخصين يتمتعان بالقدرة ذاتها على التمييز واطلب منهما تحديد ما إذا كان هذان المثيران مختلفين . ربما تتوافر لدى احدهما شجاعة مناسبة تؤهله لأن يقول « نعم » ، بينما يحتاج إلى مزيد من البيّنة قبل أن يورّط نفسه بالاجابة . يمكن التغلب على هذا النوع من المشكلات باستخدام اساليب « الاختيار الاجباري »

ــ اي اجبار كل فرد على توريط نفسه باجابة معينة في كل مرّة ــ ، او باتاحة الفرصة امام الفرد للتعبير عن مدى تأكده من قراره ، والقيام بعد ذلك بفحص نمط اجاباته احصائياً للتخلص من تأثير عوامل اتخاذ القرار . وعلى العموم . ان استخدام الاحكام اللفظية في عملية التمييز مفهومة بصورة جيدة تماماً ولا تثير مشكلات بالنسبة للسلوكي ، اذ من المؤكد أن استخدامه للعبارات اللفظية لا ينطوي على خصائص الاستبطان بمعناه التقليدي .

ربما يقول الفرد بأن جميع علماء النفس تقريباً هم سلوكيون الآن بشكل ما من وجهة النظر الميثودولوجية ، وبذلك يكف مصطلح « سلوكي » عن الامتياز بأية دلالة تمييزية ، وجميع ما يعنيه هذا الفرد في الواقع هو أن علماء النفس يطبقون الاساليب العلمية التقليدية على مشكلاتهم الخاصة . بيد أن هناك فروقاً شاسعة بين علماء النفس من حيث النظريات التي يعتبرونها اعظم فائدة ، ومن حيث المشكلات التي يعتبرونها اعظم أهمية ، ومن حيث الاساليب المحددة التي يعتبرونها اعظم ملاءمة . لقد تعرض علماء النفس لقدر كبير من النقد والعداء نتيجة تقييد انفسهم بما هو قابل للملاحظة والقياس . وقد قيل في كثير من الاحيان أن ما تخلّى عنه هؤلاء العلماء هو بالتحديد ما يرغب معظم الناس في معرفته . ان ذلك امر ممكن ، ولكن من الممكن ايضاً أن لا تكون للاسئلة التي يدعي العديد من الناس اهتماماً بها اية اجابة علمية ، او قد تكون بلا معنى على الاطلاق . فواقعة امكانية طرح سؤال ما ، لا تعني من حيث المبدأ امكانية توافر الاجابة عنه . ومهما يكن الأمر ، فقد طرح علماء النفس اسئلة معيّنة واكتشفوا اجابات

معيّنة باستخدام المثيودولوجية السلوكية . ويجب علينا الآن أن نكون معنيين بأثر هذه الاكتشافات .

وقبل المضي في هذا المجال الأكثر جوهرية ، دعني اتناول باختصار المعنى الثالث لمصطلح « سلوكي » ، اي المعنى التحليلي . يعرف ميس (Mace) هذا المعني على النحو التالي : (يرى السلوكي التحليلي أن وجود العقل او الشعور المحدد على نحو يتعذر اختزاله وكمتميز عن المادة وسلوكها ، هو امر غير قابل حتّى للتصور بأية مصطلحات ايجابية . وإذا جاز التعبير ، يستمتع العقل بمكانة عدد اوّلي بحيث تكون قيمته اما اكبر من تسعة عشر او اصغر من ثلاثة وعشرين . ان العبارات التي تدور حول العقل او الشعور تغدو عند التحليل العلمي السلوكي مجرد عبارات حول سلوك الاشياء المادية ، وتغدو العبارات حول « الادراك » عبارات حول « الاستجابات التمايزية » ، كما تغدو العبارات حول « المحبة » و « الرغبة » عبارات حول استجابات « الاقدام » و« الاحجام » ، وهكذا الامر بالنسبة لأي نوع من « الخبرة » او « الظاهرة النفسية ») . ان هذا المعنى هو في الواقع شكل حديث بصورة متميزة لحل مشكلة زائفة ، وذلك عن طريق اخضاعها إلى تحليل لغوي . انك لا تغير الوقائع ، ولكنك تغيرّ طريقتك في التحدث حول الوقائع . يمكن لهذه الطريقة أن تكون مفيدة جداً ، وبخاصة عندما تؤدي الطريقة القديمة في الحديث عن الوقائع إلى سوء الفهم وعدم الاتساق . كما يمكن لتلك الطريقة أن تكون خرقاء جداً ، فالاسهاب المطلوب من اجل تحويل لغتنا الثنائية بشكل اساسي إلى « سلوكية تحليلية » مناسبة ، تجعل الكتابة — والقراءة —

ذات صبغة اختبارية حتى اكبر مما هي عليه عادة . ولهذا السبب ، سوف لا احاول اجراء هذا التحليل على ما يجب عليّ قوله حول تأثير السلوكيّة . ويستطيع القراء ذوو العقول الفاسفيّة اداء هذه المهمة من اجل انفسهم إذا كانوا يرغبون في ذلك .

ومن خلال جميع ما ذكر ، تبدو السلوكية حقاً كشيء عديم اللون تماماً ، وبدون اي مذهب متميّز . وما يجب عليها قوله هو ببساطة أن علم النفس هو فرع علمي من المعرفة ، وله الحق في انتقاء المفاهيم التي يرى أنها اعظم فائدة في تنفيذ مهمته ، ومثله في ذلك مثل الفروع العلميّة الاخرى . اذن لا مطلب لعلم النفس إلا لعزوف عن المتيافيزيقيا وادارة ظهره لها . ليست السلوكية « مدرسة » علم نفس فعلاً ، اي بمعنى أن لتعاليمها مضموناً محدداً (كما في حالة التحليل النفسي مثلاً ، او حالة المدرسة الجشتالتية) ، بل فيضوي تحت مظلة السلوكية مجموعة كبيرة متنوعة إلى حد بعيد من علماء النفس الذين تجمعهم خاصية مشتركة بسيطة ، وهي الرغبة الملحّة في اداء عمل تجريبي ناجح وضروري لارساء قاعدة راسخة من اجل انشاء علم نفس حديث يستحق تسميته « علمياً » . ما الذي يوجد في ذلك كله ويجعل الناس يقومون ازاءه بتجعيد انوفهم والتنفيس عن كآبتهم ؟

يمكننا ان نصرف النظر عن الاجابة منذ البداية فعلاً . فمن المحتمل أن تجد دائماً بعض علماء النفس السلوكيين الذين يقولون او يكتبون اشياء تافهة او سخيفة في لحظة غير حذرة . ويجب طبعاً اخذ استثناء من هذا القبيل في الحسبان ، فما من شخص يستطيع الشكوى عندما تخطر مثل هذه المحاولات غير الحذرة بصورة شديدة في مجال التفلسف

او السياسة او الكتابات الاخلاقية . ان واطسن نفسه ، وهو مؤسس السلوكية ، يزود النقاد بمادة وفيرة عندما ينكر وجود الشعور مثلاً ، او عندما يدلي بادعاءات مستحيلة مفادها أنه قادر على تنشئة اي طفل على نحو يستطيع معه انجاز اي شيء في العالم ، شريطة تخويله حرية التصرف في هذه التنشئة . ولكن رغم أن هذه الانتقادات صحية ، بيد أنها لا تمسّ السلوكية في حد ذاتها ، بل تعنى بأقوال معينة لأفراد معينين . ويعبر سكنر عن هراء مفرط في احيان كثيرة (كما في وولدن الثانية) ، إلا أن ما يقوله سكنر هو رأي خاص به ، وليس « سفراً مقدساً » يلزم السلوكيين الآخرين . ومع ذلك ، جميعنا نقول ونفعل اشياء قد نأسف لها في لحظاتنا الأكثر حصافة . وتنشأ عباراتنا الأكثر جدلية في بعض الاحيان لاستثارة تفكير الناس (باستخدام اسلوب التناقض الذي استخدمته الفلسفة القديمة) . ان الحكم على فرع معرفة علمي كامل من خلال مثل هذه الهيجانات العاطفية المنفردة هو امر غير معقول . ويجب على الانتقادات الموجهة إلى حركة كلية أن تتركز على نقاط ذات اجماع كبير فقط . فعزل عبارات منفردة لكتاب فرديين لا يمثلون جماعة السلوكيين جميعهم ، هو كما قال أليس (Alice) هزل صارع جيد ، إلا أنه ليس حجة جديّة .[٣٣]

ثمة جواب آخر بما يكون اكثر صلة بالصعوبة الاساسية التي يواجهها معظم الناس عندما يتناولون السلوكية بشكل جدّي او حتى عندما يميلون إليها .لقد عبرّ السير سيرل بيرت عن هذه النظرة العامة جداً عندما تذمّر قائلاً : طالما قايض علم النفس الحديث على وجه ، ثم تخلّى عن عقله ، فهو يبدو الآن وكأنه يواجه نهايته قبل الأوان إذا

خسر الشعور جميعه . يصار إلى ادراك السلوك الانساني في الحديث العام المقيّد على نحو اساسي بالمعتقدات الدينية للماضي الغريب ، كسلوك هدفي ينشأ عبر توسط عقل يفكر ويحكم افعالنا وفق قواعد الاستدلال المنطقي . كما يدرك هذا السلوك ايضاً بكونه متمايزاً عن النشاط الانعكاسي للحيوانات بعلامة مميزة معيّنة يمكننا أن ندعوها « روحاً » وذلك رغبة منا في استخدام مصطلح افضل للدلاله على هذه العلامة المميزة . (ينزع الكتاب الانكليز احياناً ، وعلى نحو مختلف جداً عن الكتاب الفرنسيين ، إلى استثناء الكلاب والخيل من القانون العالمي الذي ينكر الروح على الحيوانات . وتضيف الكاتبات احياز القطط إلى هذه الطائفة المتميزة من الحيوانات . ان الفرنسيين اكثر منطقية بهذا الصدد للملك كانوا غير معروفين اطلاقاً بعشقهم للحيوانات) ان السلوكية شبيهة جداً بمادية لاميتري وكونديلاك المبكرة ، فهي تجرح مشاعرنا من خلال رفضها التسليم بكينونات مثل القصد والعقل والروح ، ويبدو أنها تنكر علينا اثمن ما نملك قيمة ، الا وهو ارثنا الانساني . يحيلنا علم النفس الحديث وهو الاتهام الموجه اليه ، إن كلاب بافلوفية يسيل لعابها حول طعامها وفق اجراس يقرعها المجرّب . ليس ذلك بالصورة الجذابة التي ترتضينا والتي لا نميز انفسنا فيها . من المؤكد أن سمفونية لموزارت ، وتمثالاً لدافنشي ، ولوحة لريمبراندت وقصيدة غنائية لغوتيه ، وسوينتة لشكسبير ، هي نتاجات مختلفة نوعياً عن نتاجات عمليات السبر التي يقوم بها العالم التجريبي . ولكن هل من المؤكد أن مراقبة فئران تعدو في متاهات لا يمكن أن تخبرنا بشيء حول مشكلات انسانية محددة يتركز اهتمامنا عليها (١) ؟

---

(١) لقد طرح ارثور كوستلر في كتابه « الشبح في الآلة » (The qhost in the Machine) هذا الوضع بوضوحه المألوف قائلا : « يستحيل الوصول إلى=

ليس ثمة اعتراضات غير معقولة ، حتى على الرغم من أنها اعتراضات انفعالية من حيث الجوهر . وهي شبيهة بالتذمرات التي نشأت عندما طرد كوبرنيك الارض من موقعها المبجّل في مركز الكون وتوّج الشمس هناك ، او عندما تجرأ دارون وبين صلتنا بديدان

= تشخيص النوع الانساني — وإلى العلاج ضمناً — من خلال البدء بعلم نفس ينكر وجود العقل ويقوم على قياسات تمثيلية خادعة مشتقة من نشاطات الفئران في الضغط على المزلاج . ولدى مقارنة سجل السنوات الخمسين لعلم النفس ذي الشكل الفأري ، بحذلقته العقيمة ، مع سجل السكولاستية في فترة انحطاطها عندما هبطت إلى مستوى زوايا رأس الدبوس ، يبدو في حساب هذه الزوايا تسلية اكثر جاذبية من حساب عدد مرات الضغط على المزلاج في الصندوق » . لاحظ أن كوستلر لا يشك اطلاقاً في أن القياسات التمثيلية خادعة . وليس ثمة دليل على ذلك ، فالعديد من الادلة التجريبية التي ادت إلى قوانين اشتقت من نشاطات « فئران في الصندوق » والتي يمكن استنتاجها من الكائنات الانسانية في كثير من الاحيان ، قد تم اهمالها بصمت يتسم بالازدراء . ولاحظ ايضاً ولوع كوستلر بحساب زوايا غير موجودة بالمقارنةمعفئر ان واقعية حقيقية تمارس الضغط على المزلاج . ان الروح غير العلمية في المسائل الانسانية ، لا تتمكن من الرغبة في اكثر من بلاغة اغنية شاعرية ! لم يتساءل كوستلر واصدقاؤه العديدون من الفلاسفة عن البديل الممكن للسلوكية اطلاقاً ، او لم يتساءلوا لماذا فشل علماء نفس القرن التاسع عشر الذين انغمسوا في الاستبطان وحاولوا توضيح قوانين « العقل » فشلا كلياً تماماً . ليس علماء النفس مكفوفي البصر ، فاذا عرضت عليهم اسلوب عمل افضل واكثر نجاحاً ، فسوف ينخرطون فيه مبتهجين . وما يبدو لهم عديم الجدوى ، هو الشجب الفلسفي الكاذب لجميع ما يفعلون ، ودون اية محاولة لاحلال شيء افضل مكانه . ان العديد من الانتقادات لها ما يبررها دون ريب ، وأي جزء من العلم ليس عرضة للنقد ؟ بيد أن النقد العلمي الذي لا يقترح بدائل وتحسينات ، هو نقد فارغ عديم الجدوى ، وبخاصة عندما ينطلق في جدله من مقدمات فلسفية ودينية بدلا من النتائج العلمية التفصيلية . هل فشلت السلوكية حقاً ؟ ان نظرة عادلة لما انجزته السلوكية ، قد لا ترى فيها طفلا عجيباً ، كما سوف لا ترى فيها خللا عقلياً ايضاً ، وهو الانطباع الذي قد يكونه اي قارىء لكتاب كوستلر .

الأرض والخنازير الوحشية والقردة عبر نظريته التطورية . كانت تلك الاعمال صفعات شديدة لاحترامنا لذواتنا ، فما بدأه كوبرنيك وداروين انهاه بافلوف ، ولقد ابقينا على حياة الاثنين الاولين ، وسنبقي على حياة الثالث ، غير أن قليلاً من العرفان تلقاه واحدهم عما قام به من اعمال . نادراً ما يوجد شخص يستطيع التحدث عما سوف يخفض الرجع الانفعالي . فكما رفض الاسطوطاليون النظر في تلسكوب غاليليو لمشاهدة اقمار المشتري الاربعة ، كذلك يرفض انظارهم المحدثون النظر في الدليل المبيّن للجزء الهام الذي يلعبه الاشراط في تحديد السلوك الانساني . ولكن قد يكون هناك بعض الاعتراضات العقلانية المختلطة باعتراضات انفعالية (تماماً كما في حالة نظرية الشمس مركزية ، حيث يوجد العديد من الاعتراضات الفلكية السليمة تمام والمختلطة باعتراضات انفعالية لا صلة لها بالموضوع . وعلى سبيل المثال ، كان غياب المنظور النجمي – التغير الظاهري في موقع الجرم السماوي – عقبة كأداء بالنسبة لأولئك الذين قبلوا النظرية الشمس مركزية . ان تفسير الفشل في رؤية المنظور النجمي بالمسافات الشاسعة بصورة لا تصدق ، لم يكن تفسيراً قوياً ، طالما لم يتوافر دليل خارجي على هذه المسافات ، لذلك بدت المسألة برمتها افضل قليلاً من (الحجة الدائرية) . قد يكون من المفيد فحص تلك الاعتراضات العقلانية ، وتبيان أنه يمكن التعبير عن وضع السلوكي بطرقتين ، احداهما قوية والاخرى ضعيفة .

يتمثل الوضع القوي للسلوكي في القول بأن جميع السلوك الانساني محكوم بقوانين نفسية ، وان هذه القوانين تؤثر في العضوية من خلال

قوي الوراثة والبيئة ، وان وظيفة علم النفس هي تحديد هذه القوانين من اجل تفسير السلوك الانساني والتنبؤ به وضبطه — تماماً كما نفسر ونتنبأ ونضبط افعال وحركات الاجسام الطبيعية (الفيزيائية) من معرفتنا للقوانين الفيزيائية . ربما اعتنق العديد من علماء النفس هذه النظرة بصورة ضمنيّة بدلاً من اعتناقها على نحو ظاهري ، وهي ليست نظرة لا منطقية ، ولكنها ليست في ذاتها نظرة علمية كذلك . انها معتقد فلسفي لا يخضع لبرهان تجريبي في الوقت الراهن ، وما من تأييد لهذا التصور إلا بالقدر الذي يكون فيه الدليل التجريبي عليه متوافراً . لقد بدأنا في تكوين قوانين علميّة بعيدة المدى في مجال بعض العلوم الفيزيائية المعيّنة فقط ، بينما مازلنا بالنسبة لعلوم أخرى (مثل علم التعزيز) غير قادرين على التقدم إلى حد بعيد في هذا الاتجاه . ولكننا اكتشفنا (كما في مبدأ الشك الذي قال به هيزنبرغ) أن « مبدأ الحتمية » هو افتراض غير قابل للتأييد تجريبياً . فالاكتشاف بأنه يستحيل من حيث المبدأ تحديد موقع الكترون معين وسرعته بدقة تامة ، وأن ثمة خطأ كمياً متضمناً لا يمكن انقاصه يجعل حتمية احدهما اقل دقة كلما زدنا دقة حتمية الآخر ، قد جعل نوع الحتمية الذي اشاعه لابلاس امراً يتعذر الدفاع عنه . وإذا اعتقدنا أن نشاط المخ هو المسؤول عن السلوك بصورة اساسية ، فسيترتب على ذلك عندئذ أن الحتمية التامة لنشاط المخ (نزولاً حتى حركة كل الكترون وكل بروتون) هي فقط التي يمكنها ضمان الحتمية التامة للسلوك . ولما كانت حتمية نشاط المخ مستحيلة حسب مبدأ هيزنبرغ ، فمن غير الممكن ايضاً التسليم بحتمية السلوك على نحو معقول . لذلك ، يغدو الشكل القوي للسلوكية

غير مدعوم بالقدر الذي يمضي فيه الدليل العلمي . لا يعني ذلك طبعاً أن افتقار الحتمية التامة إلى الدعم التجريبي يؤدي بالتالي إلى تأييد حرية الارادة كبديل لهذه الحتمية فالفيزيائيون واضحون تماماً فيما يتعلق بماهية تضمينات مبدأ هيزنبرغ ، غير انهم لا يؤيدون عموماً الارادة الحرة كبديل . من الممكن أن تكون المصادفة التي لا ترضي اولئك الذين يحبذون فكرة الارادة بناء على اسس دينية او اخرى ، هي البديل المناسب . كما يمكن ان تكون حركات الالكترونات ومواقعها محددة في الواقع ، ولكن اسباباً واضحة تتعلق بتدخل الملاحظ هي التي تحول دون قدرتنا على القيام باجراء القياسات الضرورية للبرهنة على هذه المسألة . بل وقد يكون هذا العائق غير مطلق ، وهذا ما يعتقده العديد من الفيزيائيين في الوقت الراهن ، بيد أن آخرين (بما فيهم اينشتاين نفسه) لا يعتقدون ذلك . ثمة اهمية ضئيلة في تفحص المستقبل ، ويجب ترك النبوءة للانبياء . اما من حيث الوضع الراهن ، فالجواب هو اننا لا نعرف ما الحدود بالنسبة للحتمية التامة . وإذا كان الأمر على هذا النحو في الفيزياء ، افليس من المؤكد ان ادعاء ما هو اكثر منه في علم النفس ، هو ادعاء غير حكيم ؟

اذا رفضنا الوضع القوي للسلوكية ، واعتنقنا وضعها الضعيف ، فسنكون على اسس اكثر سلامة بكثير . يشير هذا الوضع الضعيف إلى أن افعالنا محددة في جزء منها (وجزء كبير ان شئت) بالوراثة والبيئة ، وأن وظيفة علم النفس هي اكتشاف القوانين التي يحدث هذا التحديد وفقاً لها . لسنا مضطرين في هذه الحالة إلى اثبات السببية الكلية لكل فعل ، وقد يكون تفسيرنا جزئياً على الاغلب . والامر

متروك للملاحظة التجريبية كي تقرر الدرجة التي "يمكن دفع التفسير التحديدي إليها . اننا لا نضع اية حدود ، وقد ينتهي الأمر بنا إلى انجاز نجاح تام يتطابق فيه وضع السلوكية القوي مع وضعها الضعيف . عندئذ سوف يتوقف الوضع القوي عن كونه معتقداً فلسفياً ، وسيغدو بدلاً من ذلك عقيدة مثبتة علمياً . من الطبيعي أن مثل هذه التساؤلات ستكون كثيرة جداً في المستقبل ، ولكن لا يوجد في اللحظة الراهنة اقتراح يفيد بأننا سنكون قادرين حتى على التنبؤ بالافعال الانسانية بثقة تامة ، او تفسيرها بالتفصيل وفق مجموعة معينة من القوانين العامة . دعنا نكون متواضعين ، ولدينا الكثير مما نكون متواضعين حياله ! ولكن ثمة قوة في هذا التواضع ، اذ يمكن اخضاع وضع السلوكية الضعيف إلى برهان ساحق جداً لن يتمكن اي شخص خبير بالبرهان العلمي أن يشك في الصحة الجوهرية لذلك الوضع . وحتى الحس العام ينبئنا بأن الكائنات الانسانية تتأثر إلى حد بعيد بالبواعث ، وانها تسلك تحت ظروف معينة طبقاً للتنبؤ ، وأنه يمكن ضبط سلوكها احياناً من خلال معالجة مثيرات مناسبة . ليست السلوكية في حاجة إلى اكثر من ذلك لكي تباشر عملها . فإذا كانت هناك بعض الثوابت في السلوك الانساني ، فمن الممكن البحث عنها ، وتحديد قصورها ، واخضاع تفصيلاتها الدقيقة للقانون . وبهذه الطريقة ، يغدو علم النفس مماثلاً لعلم الفيزياء من حيث اسلوبه الحديث المبسط . فكلاهما يتخلى عن الميتافيزيقيا والحجج حول الارادة وما شابه ذلك ، ويحيلها إلى الفلسفة . وبدلاً من المجادلة حول هذه المسائل الرفيعة ، فإنهما يعملان على اكتشاف ما يستطيعان عمله ، ومعرفة مقدار قدرتهما على التنبؤ ،

ومعرفة إلى اي مدي يستطيعان ضبط المتغيرات التي تشكل موضوع دراستهما . وإذا كنت راغباً في التسليم بعقل او روح او حتى لا شعور تلك حرية القيام بذلك طبعاً . فجميع ما يقوله عالم النفس ، هو أن هذه المفاهيم لا تدخل في صيغته ! وإذا اجبته بقولك « ان صيغتك هي الاسوأ إلى حد بعيد » ، فستجده غير مستعد للجدل ، لأن درجة نجاحه في اداء عمله دون الرجوع إلى مفاهيم فلسفية من هذا القبيل ، هي التي تنبئه بصورة حاسمة فيما إذا كان اختياره حكيماً ام لا . ينبغي أن لا يؤدي مثل هذا الادعاء المتواضع إلى ذلك القدح ، فربما هناك حافر مشقوق مخفي ما زال تحت البنطال !

ان الحافر المشقوق متضمن في المصطلح « .... اداء عمله » . فما هو عمل عالم النفس ؟ من المؤكد أن عمله هو اكتشاف الوقائع المتعلقة بالسلوك والتصرف الانساني ، وتكوين نظريات بناء على هذه الوقائع ، واخيراً ، المناداة بقوانين تبدو مسوّغة في ضوء مكتشفاته . يمكن بعدئذ لمجتمع متنّور أن يستخدم هذه القوانين والنظريات ، والمكتشفات ويطبقها على نحو مفيد في بحث المشكلات المتعددة الانواع والناتجة من التربية وعلم الجريمة والطب النفسي والسياسة والحياة الاجتماعية بصورة عامة . قد يبدو ذلك مهمة عسيرة ، ولكن طالما توجد مشكلات صعبة وملحّة جداً كما في هذه الميادين ، فقد تكون المعرفة مفيدة بصورة اكيدة حتى لو كانت ضئيلة . فهل نفضل السلوك في جهالة أم اعتماداً على التقليد والخبرة السابقة وما نسمعه من الآخرين ؟ من المؤكد تقريباً ، ولسوء الحظ ، أن الاجابة عن هذا السؤال النظري هي « نعم » ، وان هذه الحقيقة المحزنة هي المسؤولة عن كثير من

الازدراء الموجه إلى علم النفس . ان المشكلات النفسية موجودة دائماً ، وقد تم ادراكها منذ زمن سحيق ، وتصدى المختصّون إلى بحثها بصورة مماثلة . فلدينا معلمون وكهنة واطباء وسياسيون ومدراء وقضاة وضباط سجون وآخرون كثيرون ممن يسهمون في هذا الأمر ولكن لا يمكن الافتراض بأن هؤلاء سيرحبون بوافد جديد يدّعي العمل في مشكلات علمية محكمة كانوا قد عالجوها هم انفسهم باسلوب عديم المعنى في افضل الاحوال ، مما ادى إلى جعل الامور في وضع اسوأ بدلاً من جعلها في حالة افضل . ثمة اهتمامات عديدة منوطة بالميادين التي يشملها علم النفس ، وهناك في الوقت نفسه ذوات قوية عديدة جداً معرضة للهجوم وتعتنق افكاراً راسخة يمكن أن تكون معجزة فيما لو لم يكن صوت علم النفس مخنوقاً بصرخات المعارضة والمفاجأة الأليمة . ان الاشخاص موضوع الاهتمام طبعاً ، والذين يجب أن يكونوا الاكثر ربحاً بدلالة الكفاءة ، والأكثر خسارة بدلالة « احترام الذات » ، هم بالتحديد اولئك الأفراد الذين يمثلون جميع مراكز التأثير والسلطة في التربية وفي علم الجريمة وفي الطب النفسي وفي جميع الميادين الاخرى التي ذكرتها .

دعني أبيّن نوع الوضع الذي قد ينشأ عندما تنمو هاتان القوتان ــ قوة الروح العلميّة البحثية لعلم النفس وقوة الاسلوب الخامد للسلطة المؤسسة ــ ضد بعضهما . حصلت الحادثة التي سأرويها بعد فترة قصيرة من حصولي على وظيفتي الاولى في حياتي ، وهي وظيفة عالم نفس باحث في « مستشفى الطوارىء بميل هيل » أيام الحرب ، والتي كانت تعنى بمصابي الحرب المضطربين عقلياً والعصابيين على الاغلب . تم

تشخيص حالات هؤلاء المصابين من حيث النظرية واعطوا علاجات طبقاً « لمرض معين » كان قد تم تشخيصه اما كحالة قلق او حالة هستيريا او حالة فصام أم لا . قد يكون هذا النموذج الطبي ملائماً او غير ملائم بالنسبة لنوع الاضطرابات السلوكية موضوع الاهتمام . والامر الذي كان واضحاً ، هو أن هذا النموذج في حاجة إلى تشخيص يجب أن يكون ثابتاً على نحو معقول — وبتعبير آخر ، يجب أن يكون تشخيص احد الاطباء النفسيين متفقاً مع تشخيص طبيب نفسي آخر ، اذا صدف وشخص هذان الطبيبان المريض نفسه . لقد كان لديّ سبب آخر لاهتمامي بهذه المشكلة ، حيث كنت اطبق اختبارات للشخصيّة على مرضى تم تشخيصهم على نحو متباين ، آملاً في اكتشاف الدليل على او ضد النظرية التي طرحها يونغ والقائلة بأن حالات القلق ومرضى القلق الآخرين هم من النمط الانطوائي للشخصيّة ، بينما الهستيريون هم من النمط الانبساطي . فإذا كان التشخيص غير ثابت ، فمن الواضح عندئذ أنه لا يمكن توقع ظهور فروق في نتائج الاختبارات بين المجموعتين المختارتين اللتين يمثل افراد احداهما حالات القلق بينما يمثل افراد الاخرى حالات الهستيريا . لقد كان المرضى كما حدث في الواقع ، ينتقلون في كثير من الاحيان من « مصحّة » إلى اخرى ، وكان يتغير الطبيب تبعاً لذلك . وهكذا تعرض العديد من المرضى لتشخيصين من طبيبين مختلفين ، بيد أن هذين التشخيصين لم يكونا مستقلين بصورة دقيقة ، طالما عرف الطبيب الثاني تشخيص الطبيب الأول ، وكانت تقارير الاول متوافرة للثاني لدراستها . تراءى لي أنه من الأهمية بمكان اكتشاف مدى الاتفاق بين الشخصيات

التي يدلي بها اطباء مختلفون ، لذلك طلبت الاذن من مدير المستشفى كي يسمح لي باجراء هذا النموذج الاحصائي البسيط .

لقد استقبلني المدير بشكل ابوي ، وانصت إلى خطتي بشكل حليم ، ولكنني فوجئت بعد ذلك عندما اقترح بأن هناك العديد من الاشياء الأكثر أهمية والتي يمكنني القيام بها ، وبدى الوضع كأنه اشفاق على ضياع وقتي بهذا الاسلوب . ومع ذلك اضاف قائلاً : الا يعرف كل شخص أن هؤلاء الاطباء النفسيين قد تدربوا جيداً ، وحصلوا على درجات علمية طبية ، ولهذا سوف (بالتعريف تقريباً) لا يخطئون . وعندما اقترحت بروح مرحة أنه حتى مثل اولئك الرجال المتفوقين قد يرحبون ببرهان محدد على موثوقية احكامهم ، اصبح اكثر جدية وحاول اقناعي بأنه من غير اللائق اطلاقاً لشخص حديث العهد جداً مثلي وغير مؤهل طبياً ، أن يبدي شكاً فيما قام به من هم اكبر منه سناً ومرتبة وافضل منه خبرة . وحين اجبته بأنني لا اشك في اي شيء او في اي شخص ، وانما اردت فقط ان اعرف بشيء من الدقة كيف يمكن لهذه الاحكام الصعبة المعقدة أن تكون صحيحة ، اجابني بعبارات توكيدية بأنني حر في جمع هذه البيانات ، بيد أنه اخبرني ايضاً بأنني حر في البحث عن وظيفة اخرى . بدت هذه الحجة فائزة ، واعترفت بقوتها المتفوقة من خلال انسحابي من مباراة غير متكافئة . لقد جمعت بياناتي طبعاً ، ولكنني احتفظت بهدوئي حيالها نوعاً ما . كانت النتيجة كما توقعت تماماً ، اذ تبيّن أن هناك اتفاقاً ضعيفاً بين الاطباء النفسيين من حيث تشخيصاتهم ، على الرغم من تلوث الحكم الثاني بمعرفة الحكم الأول . وتضاعفت هذه النتيجة

عدة مرات منذ ذلك الحين ، وتبيّن دون اي شك اطلاقاً بأن التشخيصات غير موثوقة إلى حد بعيد ، اي أنها لا يمكن أن تتكرر هي نفسها من اطباء نفسيين آخرين . يمكن في وضع معين ، او حتى في قطر معين احياناً ، تمييز فئات تشخيصيّة عريضة بشيء من الدقة ، مثل تشخيص الذهان مقابل العصاب ، غير أن هذا التمييز ليس على هذا النحو اذا اتخذنا وجهة نظر اوسع . ولقد قامت وحدة بحث عالمية كبيرة تعمل في مودسلي بتصوير فيلم تلفزيوني ذي دارة داخلية لمقابلات تشخيصيّة اجراها على المرضى اطباء نفسيون ذوو سمعة حسنة . وتبيّن أن معدل تشخيص حالة المريض بالفصام هو خمسة اضعاف معدل تشخيص حالته على هذا النحو ، عندما يقوم بتشخيص الحالة طبيب نفسي اميركي بالمقارنة مع طبيب نفسي أنكليزي ! يعني هذا طبعاً أن نتائج البحث العلمي ، ونتائج التجارب الدوائية ، والتعميمات حول آثار العلاج ، لا تستطيع تجاوز الحدود القومية . فما يصدق على الفصاميين الاميريكيين لا يصدق بالضرورة على الفصاميين الانكليز ، والعكس بالعكس . كما تبيّن ايضاً أن العلاقة بين العلاج والتشخيص هي امر بعيد المنال تماماً ، إذ يبدو أن للأطباء النفسيين معالجاتهم المفضلّة التي يطبقونها على مرضاهم بصرف النظر عن التشخيص ، لذلك لا يؤثر التشخيص في العلاج بشكل كبير جداً ، حتى لو كان تشخيصاً دقيقاً على نحو رائع . تشكل جميع هذه النتائج مواد معرفة هامة ، وقد تعتقد بأن الاطباء النفسيين سوف يرحبون بها ، ويشكرون علماء النفس بسبب توجيه الانتباه لها ، غير أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث . ويتم عادة تلقي هذا النوع من المعلومات بصمت مطلق ، والتعليق

المعتاد عليها هو ، اما أنه ينبغي أن لا يلتفت أحد إلى هذا النوع من الامور ، او أن النموذج الطبي الذي يعتبر السلوكات العصابية امراضاً قابلة للتحديد ، ينجح باسلوب غامض معين في معالجة هذه السلوكات رغم العيوب الممكنة لبعض اجزائه .

ان رجاعاً مماثلة ليست نادرة في ميادين اخرى ، فعلماء التربية يتفجرون حماساً في كثير من الاحيان من اجل اساليب جديدة ، او تعديلات جديدة لأساليب قديمة ، لذلك يجرون تغيراً مفاجئاً من وضع تربوي لآخر . لقد جاء احداث المدارس الشاملة (في انكلترا) واللجوء إلى عدم الانتقاء بعد المدارس الثانوية وانتقاء الطلاب باستخدام اختبار (+II) . وليس هناك ادنى ريب في أننا سنعامل خلال عشرين سنة اخرى وفق « موجة جديدة » من الآراء التقدمية المؤيدة للمدارس الثانوية (وربما تحت اسم آخر) والانتقاء . تعتبر هذه التغييرات نوعاً من البدع ، ومن الهام أن ندرك بأنها غير قائمة على اساس أيّ دليل واقعي مهما كان . وهذا ما فعلته تماماً امهاتنا اللواتي غذين اطفالهن الرضع وفق جدول زمني . بينما نغذي نحن اطفالنا الرضع حسب الحاجة او الطلب — وسيكون من الممتع أن نرى ما إذا كانت بناتنا سيعدن إلى اسلوب التغذية المجدولة زمنياً ! لا يتوافر مقدار ضئيل لدليل يوحي بأن اسلوب تغذية ما ، هو افضل من اسلوب آخر ، والواقع أن احتمال ما إذا كان اسلوب ما مناسباً في وضع معيّن ، يعتمد على شخصيّة الرضيع (وربما على شخصية امه ايضاً) . فمن المحتمل أن يزدهر الرضع الانبساطيون وفق اسلوب التغذية حسب الطلب ، وأن يزدهر الرضع الانطوائيون وفق اسلوب التغذية المجدولة .

(ربما يعكس علماء النفس هذه العبارة ويصرحون بأنه من المرجح أن تؤدي التغذية حسب الطلب إلى تنشئة اطفال انبساطيين ، وأن التغذية المجدولة تؤدي إلى تنشئة اطفال انطوائيين . أية تجربة ساحرة يمكنها التحقق من ذلك ! ومعرفة ما إذا كان الاطفال الانبساطيون او ، الانطوائيون يزدهرون وفق التغذية حسب الطلب — او التغذية المجدولة) لقد ناقشت دليلاً معيناً في الفصل المتعلق بنشوء الجدارة المتوسطة ، وتذكر أن بعض نتائج « الأخذ بنظام المدارس الشاملة » قد تكون مرغوبة بالنسبة لأنماط معينة من الاطفال ، وقد يكون بعضها غير مرغوب فيه بالنسبة لأنماط اخرى من الاطفال . ولكن غالباً ما تكون مثل هذه التعقيدات مهملة عند علماء التربية او السياسيين المتحمسين لنظام جديد . اذ لا يبالي هؤلاء بمطالب البحث العلمي او البرهان التجريبي ، وينبغي للأمة غير المرتابة ان تتحول إلى مشروع جديد معين قد يكون او لا يكون افضل قليلاً من المشروع الذي يحلّ محله . اما السمّ الاكثر قتلاً ، فهو مدّخر لاولائك الذين يلقون الشكوك على المشروع الجديد القائم على اسس تفتقر إلى مثل ذلك البرهان — ان المعارضة السياسية شيء يتمكن السياسيون من فهمه ، ولكن يتعذر عليهم فهم الحاجة إلى البرهان والتوثيق العلمي والتأييد التجريبي .

وعلى نحو مماثل يميل القضاة والأشخاص الآخرون المعنيون بتطبيق القانون عندما يصل الأمر إلى بحث طرق ووسائل تحسين تعاملنا مع المجرمين واستبدال فكرة الاصلاح بفكرة العقاب . ثمة اساس اكتسبته بطريقة ما تلك الفكرة القائلة بأن القضاة (من يصدرون الاحكام على المجرمين) والسجّان (من يحتفظون بالمجرمين تحت القفل والمفتاح)

هم خبراء في علم الجريمة ، ويجب عليهم أن يعرفوا الاجوبة عن مسائل هذا الميدان ومع ذلك ، ما من شيء يمكن أن يكون ابعد من هذا عن الحقيقة . فالقضاة بالتحديد لا يعرفون شيئاً عن المجرمين الذين يخضعون لاحكامهم (محظور على القضاة ولأسباب بيّنة التحدث مع المجرمين خارج حدود قاعة المحكمة . فهم لا يعرفون اقارب المجرمين ولا اصدقاءهم ولا ظروفهم ولا اغراءاتهم — كما لا يستطيعون حتى تخيل أن معظم الحالات التي يعالجونها تأتي من طبقة اجتماعية مختلفة تماماً) . يعرف القضاة القليل حول آثار الاحكام التي يصدرونها — فهل تؤدي هذه الاحكام إلى تشجيع بعض المجرمين المعينين موضوع الاهتمام ، وهل تحيلهم إلى اشخاص انتقاميين ، وهل تجعلهم على اتصال مع مجرمين اكثر حنكة يتمكنون من تعليمهم كيف يصبحون مجرمين متمرسين بحيث يتفادون عملية القاء القبض عليهم في المستقبل ؟ ليس ثمة تغذية راجعة في وضع قاعة المحكمة النموذجي ، فقرار القاضي يفتقر إلى اي اساس لمعلومات حول آثار احكامه السابقة ، ولم يتقدم القاضي على الاطلاق بمقترحات مضادة للنتائج التي يتمخض عنها قراره . وبالاضافة إلى جميع ما ذكر ، ان القاضي موضع اطراء تملّقي باستمرار ، ومحاط بتمزلفين يؤكدون خلوّ اي نوع من تصرفاته من الانتقاد . لذلك يغدو واضحاً لماذا ينزع القضاة إلى ادراك انفسهم فوق الشبهات ، وإلى امتلاك عقيدة اليقين والاستقامة التي تؤثر في « الغوغاء » ، رغم اتسامها بمكانة علمية ضئيلة . وما ينطبق على القضاة ينطبق على معظم الاعضاء القانونيين الآخرين ، فمعرفة هؤلاء هي معرفة حول عمل النظام القانوني ، لا حول شبكة النتائج التي تقترحها

وتوجهها محاضر جلسات المحكمة . ان الدراسات التتبعيّة المقاسة بصورة دقيقة والتي تتناول السجناء المحكومين ، هي الوحيدة القادرة على تزويدنا بالتغذية الراجعة المطلوبة ، ولا يمكن أن يباشر هذه الدراسات إلا الخبراء المختصون في العلوم الاجتماعية — لا الخبرء او الحراس القانونيون .

ان ما اقوم باقتراحه سيكون واضحاً الآن . ثمة اساليب تقليدية لمعالجة المشكلات الانسانية ، وثمة شخصيات شهيرة بصورة بارزة في كل من تلك المهن يقوم اصحابها باطلاق احكامهم وكأنهم « خبراء » في هذه الميادين . وعلماء النفس الذين يجب عليهم الاحتكاك بميدان او اخر من ميادين السلوك الانساني ، سوف يتبنّون اتجاهاً علمياً ازاء هذا الميدان . وهذا يعني أنهم سوف يتساءلون حول قيمة الاساليب موضوع الاستخدام وكفايتها ، وحول كفاءة الناس الذين يوظفون هذه الاساليب ويخترعونها . ومهما كان هذا التساؤل حسن النيّة وضرورياً على نحو جليّ ، فإنه رغم كل شيء ، يمثّل بالنسبة لهم تهديداً مباشراً لمركزهم وشهرتهم ومكانتهم الاميرية . لذلك ، ثمة اسباب وجيهة جداً تجعل علم النفس بعامة ، وعلم النفس السلوكي بخاصة مكروهاً بحماس شديد ، فهو يفضح الخداع الذي يقوم عليه الكثير من شؤون الحياة اليومية ، ويذنّب المؤسسة المسؤولة عن ادخال واستخدام اساليب غير مقنعة يعرضها علماء ادعياء . ورغم كل ذلك ، ان العلم نوع من الديناميت — فآثار الثورة الصناعية بشرّت بالتفوق نتيجة آثار الثورة السيكولوجية ، ويستطيع « لوديتس » شمّ نوع هذا الأثر على بعد اميال عديدة ! لهذا ، لا يوجد شيء سرّي

حول النكهة الكريهة التي يحبس علم النفس فيها ، فالوعد الحقيقي بـ « عمل الافضل » واستبدال المعرفة بالجهل ، والعلم بالخرافة والنجاح بالفشل ، هي تهديد واضح لجميع اولئك الذين استمروا لفترة طويلة جداً ، وباسلوب مشؤوم ، في السيطرة على زمام السلطة العلمية .

وحتى بالنسبة للعديد من الناس البعيدين جداً عن « زمام السلطة » هذه ، يعتبر بشير نجاح القرن السيكولوجي بعيداً جداً عن اعادة الاطمئنان ان ما يقترحه عالم النفس فعلاً ، لا يتعدّى ضرورة اقامة العمل الاجتماعي على اساس من البحث العلمي . وما يودّ قوله هو : قبل التخلّي عن المدارس الثانوية ومبدأ الانتقاء ، عليك القيام بتجربة واسعة النطاق على فاعلية المدارس الشاملة ، بحيث يكون عملك مبنياً على المعرفة . وإذا اردت أن تعيد تأهيل مجرميك ، فما يود عالم النفس قوله هو : اهمل سجناً كبيراً بمجمله ، وخصّصه لاغراض بحث علمي ينطوي على متابعات طويلة المدى ، ومقارنات ملائمة مع افراد مجموعات ضابطة مناسبة يخضعون لأنماط سجون اخرى ، وتوفير امكانية استخدام الاقتصاديات الرمزية او اي نمط علاج آخر يبدو مناسباً بناءً على اسس نفسية . واذا اردت شفاء العصابيين ، انشيء مستشفى خاصاً يمكن فيه اجراء تجارب محكمة واسعة النطاق تتناول فاعلية العلاج السلوكي ، او العلاج المنفر ، او الاقتصاديات الرمزية ، او العلاج التفجيري ، او اي اسلوب علاجي آخر قد توحي به تجارب المختبر النفسي . وبتعبير آخر ، قبل مباشرتك لأي عمل اجتماعي واسع النطاق ، قم بممارسة التجريب إلى أن تعرف ما تقوم به . وعندئذ يمكنك التقدم في عملك بثقة اكبر كثيراً ، وبناء على اساس معرفة

مؤكدة تتمخض عنها النتائج المرغوب فيها . يقتضي ذلك العمل مجتمعاً « تجريبياً » ، فقبل قيام العلم بتشييد جسر ما ، او بناء سفينة جديدة ، او تخطيط مصنع جديد ، عليه أن يجري تجرب استكمالاً لمعرفته بما هو منهمل فيه ، لذلك يندر أن يخطىء في اعتقاده بأن الجسر سيصمد ، وان السفينة ستبحر ، وأن المصنع الجديد سوف لا يسقط . لماذا لا نجرب هذا الاسلوب ذاته في الحياة الاجتماعية ؟ أليس من المحتمل أن يبرهن على اسوأ مما لدينا في الوقت الراهن ؟ لقد لازمتنا حكمة علماء التربية والاطباء والقضاة مئات بل آلاف السنين ، ولكن هل تخلو مصحاتنا العقلية من المرضى ؟ وهل اصبح اطفالنا افضل تربية ؟ وهل نحن مستعدون لتدمير سجوننا ؟ إذا كانت الحكمة التقليدية مؤثرة على نحو جيد ، فلماذا يزداد عدد المرضى العقليين بصورة مروّعة ؟ ولماذا يرتفع معدل الجريمة كل سنة بشكل مخيف فعلاً ؟ ولماذا يوجد اضطراب كبير جداً في مدارسنا ؟ ولماذا يوجد استياء شديد من طريقة تعليم اطفالنا ومن مقدار ما يتعلمون ؟ من الواضح أنه لو كان كل شيء في الحديقة فاتناً ، فما من حاجة إلى اساليب علمية . بيد ان الحقيقة القائلة بأن كل شيء يمضي نحو الأسوأ وبصورة سريعة ، ربما توحي بأن تغيراً ما في الاسلوب قد يكون مفيداً وفي حينه المناسب .

ولكن ذلك شيء مرفوض ، فالناس ليسوا خنازير غينية ، وهل يمكنك ان تقترح بصورة جدية ضرورة اجراء هذه التجارب على اناس او اطفال او مجرمين او عصابيين واقعيين ، او ما شابه ذلك ؟ قد يصار إلى التسامح مع علماء النفس طالما كانوا قابعين في مختبراتهم ، اما اقتراح ضرورة اجراء تجارب في حياتنا الاجتماعية

باستخدام أناس واقعيين ، فهو امر محظور وبالغ الخطورة ! ربما يكون الامر كذلك ، ولكن تذكر أن هذه التجارب تجري طيلة الزمن وفي أي وضع . فلقد تم الغاء المدارس الثانوية ، وادخلت المدارس الامامة ، وطرأت تغييرات على القوانين التي تحكم الجنسية المثلية والعديد من الجرائم الاخرى ، كما ادخلت اساليب علاج جديدة إلى المستشفيات . لا شيء يقف ساكناً ، فحياة ملايين الناس تتأثر بصورة دائمة بما يدعوه حتى السياسيون بـ « التجارب » . لقد شيّدت مدن جديدة ، ونفذت تراخيص بناء احياء فقيرة — ان جميع هذه الاجراءات هي نوع من « التجارب » . لقد حدثت التغيرات فعلاً ، بيد أن ما تفتقر إليه هو المجموعة الضابطة والتغذية الراجعة . وبتعبير آخر ، ان ما يعترض الناس عليه (اي معاملتهم كخنازير غينية من خلال اجراء التجارب عليهم) يحدث فعلاً ، ولكن دون اي من الفوائد التي قد تنشأ فيما لو نفذت العمليّة بمجملها كتجربة علمية مناسبة . فعندما يصار إلى الغاء المدارس الثانوية جميعها ، ويصار إلى تعليم الاطفال جميعهم في المدارس الشاملة ، فسنكون جاهلين جهلنا السابق بصدد الآثار الدقيقة للتغير الحادث ، لأنه ما من شخص سوف يفكر في أهمية توثيق التغيرات التي تطرأ على النتائج التربوية ، او في ترتيب الوضع كله باسلوب يجعل عملية اشتقاق استنتاجات علمية مناسبة منه امراً ممكناً . سوف تبنى المدن الجديدة ، ولكن سوف لا يتوافر فريق بحث علمي يقوم منذ البدء بدراسة النتائج الدقيقة المترتبة على هذا القرار او ذاك ، وبحث الطريقة الصحيحة التي يتمكن بوساطتها السكان الجدد من التلاؤم مع البيئات الجديدة ، والاخطاء التي سوف

يرتكبها حتماً اولئك الذين يخططون المشروع بأكمله . لذلك عندما يصار إلى بناء مدينة جديدة ، فسوف لا تتوافر معرفة عاصية توجه البنائين والمخططين وسيتم ارتكاب الاخطاء ذاتها تماماً مرة اخرى . وطالما لا تتوافر تغذية راجعة ، فليس ثمة نمو في المعرفة ، وطالما لم ينظم المشروع بمجمله كتجربة بصورة مناسبة منذ البداية ، فالقليل من الاستنتاجات يمكن اشتقاقها بيقين تام .

ان الناس غير المعنيين بمثل هذه الأمور ، لا يتمتعون غالباً بأي ادراك حقيقي لمدى اهمية البرهان العلمي والوقائع البسيطة بالنسبة لمعظم اولئك الذين يعنون بتوجيه الشؤون العامة ، سواء كانت سياسية او تربوية او طبيّة او ما شابه ذلك . وربما تقدم لهم قصة الدكتور ايجناز فيليب سيميلويس ، وهي قصة حزينة إلا أنها منوّرة ، بعض الوميض من الفهم لما يجري تماماً عندما تواجه الوقائع معارضة المحافظة الشديدة لرأي المؤسسة . ولد سيميلويس في بوادبست عام (١٨١٨) وتم تأهيله كطبيب عام (١٨٤٤) . روع هذا الطبيب بمعدل الوفيات بين الامهات الشابات الراجع إلى حمّى النّفاس والتي تعود بدورها إلى « المكورات العقدية الحالّة للدم » التي تجتاح الجروح الحديثة للام المستجدة في الولادة اي التمزقات التي تتناول قناة الولادة . فعندما تصل الجراثيم إلى الدورة الدموية العامه عبر تلك الجروح او التمزقات يبدأ تعفّن الدم المتبوع عادة بحرارة مرتفعة ، وبهذيان الحمى ، وبالموت في نهاية المطاف . لم يكن ثلاثون بالمئة من معدلات الوفيات امراً غير مألوف ، على الرغم من أنه بدا بعدئذ ن هذا المرض الغامض يحدث وفق دورات غير قابلة للتنبؤ اطلاقاً . كانت العدوى تنتقل من امرأة

لاخرى بوساطة ايدي الطلاب والقابلات والاطباء وهم ينتقلون من مريضة مصابة بالجراثيم إلى اخرى لم تكن مصابة بعد . تكن عملية التطهير من الجراثيم — التعقيم — بل وحتى مجرد غسل اليدين امراً معروفاً بعد ، كما لم يكن من المعروف طبعاً وجود اشياء كالجراثيم (البكتيريات) . كان سيمياويس الشخص الأول الذي وجه الانتباه إلى ضرورة النظافة ، حيث اعترض على ذهاب طلاب الطب من غرفة التشريح إلى غرفة الولادة مباشرة ، واقام مغسلة بين الغرفتين وطلب من الطلاب غسل ايديهم فيها قبل انتقالهم بينهما . اعترض الطلاب بسبب قدسية الحرية الاكاديمية على اجراءات النظافة موضحين انها لا تعنيهم في شيء . لقبهم سيمياويس ، وهو رجل متواضع سريع الاستثارة ، بالقتلة وتم طرده في اليوم التالي . هل كان لدى سيمياويس وقائع تؤيد موقفه ؟ نعم ! فلقد كان معروفاً أن معدل وفيات النساء اللواتي يعنى بهن طلاب الطب اعلى من معدل وفيات النساء اللواتي تعنى بهن القابلات . وطبيعي أن القابلات لم يقمن اطلاقاً بتشريح جثث الموتى المصابات بالعدوي ، ولم يكن على احتكاك معع ميت من هذا النوع .

وقع بعدئذ حادث غير متوقع وبدا قادراً على اثبات وجهة نظر سيميلويس العلمية بدلاً من التأملات الضبابية . لقد مات صديقه جاكوب كولتسكا اثر اصابته بجرح بسيط اثناء قيامه بعملية تشريح ، ولدى فحص جثته بعد الوفاة تبيّن وجود جميع اعراض حمى النفاس في الرجل الميت . طرح سيمياويس بعد هذا الحادث نظريته على نحو اكثر دقة ، حيث قال : « ان حمّى النفاس هي تسمّم دموي ناتج

من السمّ المتشكلّ في الجثة ..... وينتقل إلى المرأة الحامل بوساطة الطبيب الفاحص » . تلقى سيمياويس بعدئذ عرضاً لاشغال وظيفة في عيادة للأمومة يفحص فيها نظرياته . وعندما قام باستبدال طلاب الطب بالقابلات (كي يجعل نظريته اكثر عامية) ، قفز معدل الوفيات من ٩٪ إلى ٢٧٪ ، اما عندما فرض على الطلاب غسل ايديهم بماء الكلور قبل قيامهم بأية فحوص فقط هبط معدل الوفيات إلى اقل من ١٪ . هل تؤدي هذه الوقائع إلى اقناع قارىء حيادي ؟ انها لم تقنع اصحاب المهن الطبية ، فالعديد من اطباء التوليد ذوي المراتب الرفيعة قد اطلعوا على اجراءاته ، بيد انهم لم يحتملوا ثناءها ، ولم ينجح سيمياويس في استمالة اي شخص إلى اتباع اجراءاته . وليس من المستغرب أن يصبح مسعوراً ويدعو زملاءه البارزين بـ « القتلة » ، وطرد من عمله ثانية عام (١٨٤٩) . عاد بعد ذلك إلى هنغاريا كررّ بصورة ناجحة عمله الفذ المتمثل في تخفيض نسبة وفيات الامهات الولادات إلى اقل من ١٪ ، ولكن حتى هذه النتيجة لم تقنع الشكوكيين . وفي « مؤتمر عام امراض النساء » الذي عقد في باريس عام (١٨٥٨) كان على رئيس المؤتمر أن يتحدث عن نظريات سيمياويس بقوله : « قد تكون هذه النظريات قائمة بناء على بعض المبادىء المفيدة ، بيد أن انجازها الصحيح يتضمن صعوبات تؤدي إلى نتائج مشكلة لا تسوّغ وضع هذه النظريات موضع الممارسة » . توفي سيمياويس عام (١٨٦٥) وهو في السابعة والاربعين من عمره الغضّ ومايثير السخرية بصورة تامة ، هو أن تعفّن الدم كان السبب في موته ، اذ توفي اثر جرح ملوث اصابه اثناء فحص آخر جثة قام به . ان مانفعله شبيه بقول الشاعر ،

وبما رغب سيمياويس نفسه في قوله : « حالما تغدو اسوار الحصون العالية آيلة للانهيار .... تصبح جثة الفارس هامدة في جوار الجدار ففي اليوم السابق لوفاة سيمياويس ، بدأ « ليستر » في بحث تطهير الجروح تجر الجروح تجريبياً ، كما كان « باستور » يضع اسس علم الجراثيم « البيكترولوجيا » الحديث . لقد كتب ليستر نعوى سيمياويس عندما قال : « لن يتسنى لانجازاتي تحقيق اي شيء لو لا اعمال سيمياويس ، والجراحة بمعظمها مدينة لهذا الابن العظيم لهنغاريا » . نادراً ما يكون التعليق على هذه القصة ضرورياً ، فقد انهارت فعلاً تلك الحصون الخرقاء المعينّة في نهاية المطاف ، بيد أن هناك حصوناً عديدة ما زالت قائمة ، وسوف تقاتل المؤسسة (اية مؤسسة) حتى الموت من اجل حقها في الدفاع عن هذه الحصون لمدة طويلة بعد أن يبيّن الحسّ العام والبرهان العلمي بأنها حصون خيالية . وما من حصون تم الدفاع عنها بصورة عنيدة جداً كما تم الدفاع عن تلك الحصون التي تؤوي اخطاء وحماقات علم النفس اللااحترافي المفتقر إلى الدراية والخبرة العلميّة .

علينا أن ننتقل الآن إلى حجة اخرى موجهة ضد السلوكيّة ، والتي تعتبر مسؤولة عن الكثير من العداء الذي تواجهه . يمكن تسمية هذه الحجة بالحجة الاخلاقية او حجة غسيل الدماغ . ما تؤكده هذه الحجة بصورة جوهرية ، هو أن اساليب العلاج السلوكية (يصار إلى توسيع هذه الحجة عادة إلى ابعد من علاج الطب النفسي ، ولكنها تستخدم على نحو متواتر فيما يتعلق باساليب العلاج المنفر) هي اساليب غير بشرية وغير انسانية ، وتعالج الكائنات الانسانية كموضوعات

بدلاً من معالجتها كأفراد ، وتعمل على ادخال العقاب بل والتعذيب في الوضع الاستشفائي : ان صرخة « التعذيب ! » هذه ، هي صرخة انفعالية إلى حد بعيد طبعاً ، إذ تجعل الفرد يشرع في التساؤل حول الدافعية الكامنة وراء استخدامها . ومع ذلك ، يجب تناول تلك الحجة بصورة جدّية ، حتى كما يفهمها المتطرفون (امثال : ر . د : لينغ : R . D . Laing) الذين يضعون الطب النفسي جميعه في قفص الاتّهام جنباً إلى جنب مع العلاج السلوكي : تشير الحجة بشكلها الاكثر عمومية إلى أن الناس مؤهلون ليعيشوا حياتهم الخاصة ، ويأمنوا من تدخل الفضوليين امثال الاطباء النفسيين الذين لا يتعدى كونهم اكثر من رجال شرطة للمجتمع ، إذ تتمثل وظيفتهم الرئيسية في اخضاع كل فرد وجعله مطيعاً ، ويقومون في سبيل تحقيق طاعة مضمونة بتناول ما يدعى بـ « المريض العقلي » المسكين ، فيحللونه نفسياً ، ويعرضونه لصدمات كهربائية ، او يعطونه بعض العقاقير ، او يمارسون عليه علاجاً منفراً . يشكل هذا الوصف طبعاً صورة كاريكاتورية مشوهة لما يجري في العلاج السلوكي ، إلا أنها تنطوي على تحذير من بعض العناصر المؤذية التي يشتمل عليها : فثمة حكومات تلجأ إلى ايداع بعض الأفراد غير الخاضعين لمعتقداتها السياسية في مستشفيات الامراض العقلية ...، وتعاملهم كمرضى عقليين يحتاجون إلى علاج من نوع خاص . وعلى سبيل المثال ، تعتبر حكومة الولايات المتحدة الاميريكية بعض الشيوعيين والملحدين غير متكيّفين ، وترى في اعتناق الناس للمذهب الشيوعي دليلاً على الاضطراب العقلي ، وتقترح في كثير من الاحيان ضرورة اخضاعهم لمعالجات طبية . ان سخافة مثل هذه

الافكار بادية للعيان ونادراً ما نضطر للاشارة إليها او الاحتجاج عليها . ومن غير الممكن أن يوجد اناس عديون في هذا القطر (انكلترا) ممّن يعتبرون تلك الاساليب اسلحة مناسبة ضد اي معتقد سياسي او اجتماعي . بيد أن الخطر موجود في كل زمان ومكان ، وقد ادى لينغ وزملاؤه خدمة مفيدة في توجيه الانتباه إليه ، فهو خطر كامن ويجب علينا أن لا نقع فيه على الاطلاق :

غير ان الفكرة القائلة بأن الناس الذين يتعرضون للمعالجة على ايدي الاطباء النفسيين بعامة ، وايدي المعالجين السلوكيين بخاصة ، هم بعيدون عن اي ادراك لهذا النوع من العلاج ، ما هي إلا مجرد فكرة لا يمكن الدفاع عنها . تأمل فقط في بعض انواع المشكلات التي يواجهها معالج نشط ، واسأل نفسك بعدئذ فيما إذا كان ما يواجهه ويفعله هو صفعات « تعذيب » شديدة ، حتى او اتخذت المعنى الاكثر عمقاً لهذا المصطلح : دعنا نبدأ بالاطفال الذين يسلكون بطريقة مؤذية للذات ، اي الاطفال الذين ينطحون الاشياء الصلبة برؤوسهم (وغالباً ما تكون هذه الأشياء على درجة من الصلابة تؤدي إلى انفصال الشبكيات) ، ويمزقون او يقضمون نتف لحم من اجسادهم . قد يجرح هؤلاء الاطفال انفسهم على نحو مريع ، او يطرحون انفسهم ارضاً ، او يلقون بأنفسهم من اماكن مرتفعة . لقد اعتقد بعض الناس من ذوي المشاعر الرقيقة بأن هؤلاء الاطفال في حاجة إلى الحب والعاطفة ، ولكن تبيّن أن العروض الطبيعيّة للعاطفة ، والتعليقات الوديّة المؤكدة للاطمئنان والتي تعرّض لها هؤلاء الاطفال عند انهماكهم في نشاطات مخربّة للذات ، قد جعلتهم حتى اسوأ مما هم عليه : وبتعبير بسيط ،

ان هذا السلوك التعاطفي غير مجدٍ مع هؤلاء الاطفال مهما بدا شفوقاً او رحيماً . ويبدو ، كما جاء في الفصل الثالث ، أنه مهما كانت اصول هذا السلوك المؤذي للذات ، فإن استمراره او الابقاء عليه يعود جزئياً إلى عواقبه الاجتماعية ، اي إلى ما يستثيره من انتباه ، وما ينتجه من حب وتعاطف ، وإلى الاهتمام العام الذي يظهره بوضوح جميع المحيطين بمثل اولئك الاطفال : لقد تبيّن المعالجون السلوكيون الذين يعملون وفق هذه الفرضية (فرضية تأثر السلوك بعواقبه الاجتماعية) امكانية ازالة هذه الانماط السلوكيّة المزعجة جداً خلال ساعات قليلة ، وذلك بإدخال اجراءات الانسحاب الاجتماعي كلما كان السلوك المؤذي للذات متبدّياً : تتمثل هذه الاجراءات في انسحاب الاطفال والراشدين الموجودين اثناء ظهور هذا السلوك دون اصدار اي تعليق من جانبهم إلى أن يتوقف السلوك المعني عن الظهور . وعندما يكون النمط السلوكي الخاص موضوع الاهتمام بالغ الخطورة بحيث لا يمكن ترك صاحبه دون ملازمة الآخرين ، فإن عملية تطبيق صدمات كهربائية ليلة عليه كلما بدأ هذا السلوك بالظهور ، تبدو قادرة على اجهاضه بصورة ناجحة . في واحدة من الحالات ، انهمك صبي فصامي في ممارسة سلوك مؤذ للذات منذ كان في الثانية من عمره ، وعندما تم تحريره من قيوده الجسدية الكابحة لهذا السلوك ، قام بأداء (٣٠٠٠) استجابة تخريبيّة تتضمن ضرب نفسه وذلك خلال فترة زمنية مقدارها تسعون دقيقة ! لقد ادت اربع جلسات علاجية تنطوي على (١٢) صدمة كهربائية إلى ازالة هذا النمط من السلوك المؤذي للذات بشكل تام تقريباً . لقد انهمكت فتاة اخرى في سلوك مخرّب للذات لفترة

تجاوزت ست سنوات ، ولدى تطبيق ما مجموعه (١٥) صدمة ، كهربائية عليها ، امكن ازالة سلوك ضرب الرأس لديها على نحو سريع ودائم . وما يجب ملاحظته في هذا الصدد ، هو أن العلاج بالصدمة الكهربائية والعزل الاجتماعي لا يؤدي إلى ازالة تلك « الاعراض » المتعلقة بسلوك ايذاء الذات فقط ، بل يؤدي عادة ايضاً إلى تحسين الاداء الاجتماعي العام بصورة كبيرة . فلقد اصبح اولئك الاطفال اكثر يقظة ، ومستجيبين اجتماعياً ، كما تمكّنهم قدرتهم الأكبر على المحاكاة من اكتساب انماط تكيف جديدة وافضل . من المسلم به أن هناك « تعذيباً » في تطبيق جميع هذه الصدمات الكهربائية الخفيفة (تماماً كالمعاناة التي يواجهها العديد من طلاب علم النفس ارادياً عندما يتطوعون لاجراء التجارب عليهم) ، ولكن عليك أن تفكر في البدائل الاخرى المتوافرة : فإما الابقاء على الاطفال مقيدين لأشهر وسنوات ، الامر الذي يحول دون اي تطور مناسب لهم ، او اكتسابهم لتكيفات اجتماعية هم في امسّ الحاجة إليها ، وإلا اطلاق العنان لهم ، الامر الذي يمكّنهم من ايذاء انفسهم بالعمى فعلاً بل وحتى من قتل انفسهم . ليست هذه الاجراءات مشكلات اخلاقية يجب مناقشتها حول « المائدة المقدسة » ، بل هي مسائل حياة او موت فعلي بالنسبة لاطفال سيئي الحظ ، وحتى بالنسبة لوالديهم الاسوأ حظاً منهم .

تخيل أنك والد لصبي معين في الثالثة من عمره مصاب باجترار عقلي (Autistic Boy) — اي يهرب من الواقع ويغرق في التخيل

واجترار الافكار ولا يستجيب للمثيرات من حوله : المترجم — ولديه تخلف لفظي واجتماعي حاد ، وتتبدّى لديه بالاضافة لذلك نوبات غضب شديدة تتضمن سلوكات مؤذية للذات ، مثل نطح الرأس وشد الشعر ولطم الوجه وخدشه . وبعد نوبة غضب حادّة ادت إلى جرحه واصابته بنزف خطير ، رفض النوم اثناء الليل واجبر والديه على البقاء إلى جانب سريره . لقد جربت معه العقاقير المسكنة والمهدئات والقيود المادية الكابحة للسلوك المؤذي ، وكانت جميعها غير مجدية : واخيراً ، أدّى رفضه لاستخدام النظارة (كان استخدامها ضرورياً لازالة اعتام عدستي عينيه) إلى تعريض ابصاره للخطر . ماذا بوسعك أن تفعل ازاء ذلك ؟ هل ترفض قيام عالم النفس بمعالجته من خلال اساليب العلاج السلوكي لكونك تتمتع بشكوك اخلاقية حيال هذا العلاج ، أم لأنك تعتبر مثل هذه الاساليب نوعاً من « التعذيب » ؟ لقد تم شفاء هذا الصبي كلياً خلال اسابيع قليلة تبطيق نظام عزل اجتماعي بسيط (دون صدمات كهربائية !) عليه كلما سلك بصورة سيئة . يمكنك ان شئت طبعاً أن تعتبر حتى العزل الاجتماعي نوعاً من « التنفير » أو « العقاب » . ولقد آلت التجربة برمتها إلى الدمار تقريباً عندما تحدث الخدم رقيقي الفؤاد إلى الصبي بلطف وهم يرافقونه إلى غرفته ، وعندما غسّلوه باهتمام وعادوا به ! يخلط العديد من الناس بين السلوك العطوف ظاهرياً (الذي قد يعزز التصرف الخاطىء والمخرب للذات عند المريض) والسلوك العطوف حقاً ، اي السلوك المؤدي إلى شفاء

المريض مهما توجّع : ويعترض المصلحون المثاليون الحمقى على استخدام النوع الثاني من السلوك لأنه قد يبدو فظاً من حيث الظاهر قياساً بمعنى السلوك الأول . ثمة حالات لا نستطيع فيها افساح المجال للعاطفة كي تتحكم بالتفكير !

خذ حالة من نمط آخر تماماً كانت قد ذكرت في الفصل السابق . افترض أن ابنك كان مدمناً على الهيروين ، وعلمت بأن النتيجة الأكثر احتمالاً لهذا الادمان ، هي موته خلال خمس سنوات ، ولا توجد اساليب معروفة تؤدي إلى شفائه بأية درجة من اليقين : ستوافق ازاء ذلك على تلقّيه لعلاج منفرّ يتعرّض فيه إلى الحقن بعقار السكولين الذي يشلّ بعد برهة وجيزة جهازه العضلي لمدة دقيقة تقريباً ، الامر الذي يجعله غير قادر على التنفّس : سيكون هذا الفقدان المروّع للقدرة على التنفس مسبوقاً على نحو ابكر ثانية تقريباً بعملية زرق ذاتي بالهيروين — اي قيام المريض بزرق نفسه — وبذلك تغدو عملية الزرق بالهيروين مثيراً شرطياً ، ويصبح الشلل مثيراً غير شرطي : وباستخدام نموذج اشراط بسيط يتكرر فيه اقتران الزرق بالشلل مرات قليلة ، سوف يؤدي الزرق إلى انتاج قلق وخوف مناسب من الشلل ، وبذلك يمنع المريض بصورة فعالة من زرق نفسه ثانية بالهيروين (وفي الواقع بأي شيء آخر !) . ويبدو هذا النموذج الاشراطي فعالاً تماماً ، ففي دراسة تتبعيّة تناولت بحث حالات حوالي عشرة مرضى جرى خلالها تحليل بولهم بطريقة عشوائية ودون علم منهم لاكتشاف ما إذا كانوا يتعاطون الهيروين بعد العلاج ، تبيّن عزوفهم كلياً عن هذا السلوك

وخلوهم من اية آثار للهيروين . من الطبيعي أن هذا الاسلوب برمته في حاجة إلى تأكيد ومتابعة اطول ، إلا أنه الاسلوب الاكثر سرعة ووعداً بالنجاح في معالجة هؤلاء التعساء والذي تم اكتشافه حتى الآن . فهل ثمة تعذيب في هذا الاسلوب ؟ وهل ستنصح ابنك بعدم اتباعه ... فكر في البدائل الأخرى . وما من شك لديّ فيما ستكون عليه اجابتي الخاصة عن هذا السؤال : ان اعتراضات اخلاقية معتدلة ، لا يمكن أن تتنافس مع الحاح الحفاظ على حياة شخص ما .

وماذا بصدد الانحرافات الجنسيّة التي لا تعرّض حياة شخص للخطر بل يمكن القول بأنها تصرفات ضئيلة غير أنها مستهجنة اجتماعياً ولا أهمية كبيرة لها ، مثل الجنسية المثليّة : او ارتداء ملابس الجنس الآخر ، او الفيتشية — تركيز الشهوة الجنسية على جزء معين من الجسم —؟ من المسلّم به في هذا المجال من السلوك المنحرف أن يكون الضغط الاجتماعي امراً هاماً ، وربما هو السبب الجوهري في جعل المريض يقدم على المعالجة : قد يصدر هذا الضغط عن زوجة المريض ، وربما تبدو المعالجة له افضل من تحطم زواجه . او قد ينشأ الضغط عن المجتمع الأكثر اتساعاً والذي يأخذ الصيغة التالية : عليك بالمعالجة او الذهاب إلى السجن ! يصعب غالباً حل شبكة السببيّة التي تقود المريض إلى غرفة المعالجة ، ولكن ما هو اكيد عادة هو قيامه باختيار يؤكد مرغوبية التغيير تحت وطأة الضغوط والمطالب المتنوعة المفروضة عليه : لقد قرر أنه سيكون في حال افضل فيما لو استطاع التخلص من جنسيّته المثليّة ، او من ارتدائه لملابس الجنس الآخر ، او من فيتشيته : ان العديد من

هؤلاء المرضى يخجلون بصورة حقيقية من هذه العادات ، اذ ليس هناك ضغط ظاهري يصدر دائماً عن المجتمع او عن ممثليه . ولكن أياً كانت الاسباب التي تجعل الشخص يقدم على طلب المساعدة ، فهل من الأخلاق في شيء أن نرفض تقديم هذه المساعدة له على افتراض أن في مكنتنا « شفاءه » ؟ منذ سنوات خلت ، وقبل ان تصبح اساليب علاج الجنسيّة المثليّة فعاله بالقدر الكافي وقابلة للتطبيق بصورة روتينيّة ، القيت محاضرة حول العلاج السلوكي في « الجيلد هول » (كأحد محاضري جرانادا) ، ولدى انتهائي من القاء هذه المحاضرة تقدم نحوي شخص معروف وسألني ما إذا كان في استطاعتي توجيهه إلى معالج يستطيع معالجة جنسيته المثليّة ، كما اخبرني بأنه تعرض للتحليل النفسي لسنوات عدة دون اية فائدة ، ويعتقد بأن الاساليب التي كنت اقترحها في محاضرتي قد تكون مجدية معه : كان علي أن ارفض طلبه ، لأنه ما من شخص في ذلك الحين كان مستعداً لاستخدام تلك الاساليب ، وانتحر بعد اسابيع قليلة : يسهل على الفلاسفة القول بأن اللواطيين (والمنحرفين الجنسيين الآخرين) يخضعون لتكييف ضغوطهم من خلال معالجة المجتمع لهم ، وأن علاجهم امر لا اخلاقي لأنهم لا يذهبون إلى العلاج « من تلقاء انفسهم » بصورة حققة مهما يعني هذا العلاج بالنسبة لهم . ولكن هل من الاخلاق في شيء ترك شخص من هذا القبيل لاضطراباته والسماح له بقتل نفسه لأنه لا يستطيع الحصول على المساعدة التي يحتاجها ؟ انني ادرك طبعاً ان ثمة مشكلات ذات طبيعة

اخلاقية تلازم هذه المعالجات جميعها ، ولكن ما لا استطيع فهمه رغم ذلك ، هو الادعاء بأن هذه المشكلات هي ذات طبيعة مختلفة عن مشكلات اساليب العلاج الأخرى ، او أنه يجب علينا أن نفترض دون دليل بأن السلوكي يفعل ما يجده ناجعاً تماماً لأنه سادي حقيقة ، ويريد ايذاء الناس وتعريضهم لصدمات كهربائية، وليس لأن تلك الاساليب هي الوحيدة القادرة في الوقت الراهن على شفاء المريض الذي يأتي إليه طالباً مساعدته.

من المثير هنا أن هذه المناقشات تنطوي في كل حالة تقريباً على علاج منفر ، بدلاً من ازالة انواع القلق عبر استخدام اجراءات سلب الحساسية او اعادة التدريب او النمزجة . ومع ذلك ، عندما نتأمل في جميع الحالات التي عولجت بالعلاج السلوكي ، تجد ان استخدام العلاج المنفر يكاد لا يشكل اكثر من ١٪ من هذه الحالات ، ويصعب في الواقع فهم كيف توضع اجراءات ازالة قلق المريض ومخاوفه المرضيّة التي انهكته سنوات عديدة تحت عنوان « غسيل الدماغ » : ومع هذا ، فقد حاول العديد من الفلاسفة والاطباء النفسيين القيام بذلك . سوف اجنّب القارىء مهمة التنفيذ ، فثمة عبارات سخيفة جداً في حد ذاتها بحيث تغدو الحجة العقلانية ازاءها امراً مستحيلاً : فإذا كنت تشعر بانتهاك انسانيتك العامة لأنه قد تم تقديم شفاء سريع دائم لشخص مدفوع لليأس بسبب قلقه ومخاوفه المرضيّة ، وذلك عبر عملية الحساسية التي يتعلم خلالها الاسترخاء تخيّل مصادر رعبه ، فلن يكون حينئذ لأي شيء يمكن أن اقوله اية فاعلية، وسيكون الشفاء الوحيد من خلال الذهاب إلى مستشفى عقلي والتحدث إلى عدد قليل من المرضى .

اشعر احياناً ان النجاح الحقيقي للعلاج السلوكي هو في الواقع سبب كره السلوكية . يستطيع الفرد أن يتحدث حول التحليل النفسي

بصورة جدلي نوعاً ما وبنوع من الاسلوب الأدبي ، لأنه واضح أن التحليل النفسي غير ناجح مهما كانت جاذبياته ، وبتعبير آخر ، لأنه لا يشكل خطراً : ولكن يجابه المجتمع فجأة بتكنولوجيا قائمة على العلم بصورة حقيقية ، وتعمل بصورة فعالة ، وهو ما يؤدي بوضوح إلى جميع انواع الرجاع الدفاعية المتسمة بتدمرات عدائية ، وبرفض ذي مصالح شخصيّة للتعامل مع الوافد الجديد : ثمة ضربة واضحة تسدّد ضد العلم ، فمنقذ القرن التاسع عشر قد اصبح مخ فرانكشتين القرن العشرين . ان هذا الرجع غير معقول طبعاً ، فالعلم قد زودنا بالقوة ، غير ان الاعتراض ليس موجهاً ضد القوة ذاتها ، بل ضد طريقة استعمالنا لها : ومن الحماقة أن نلوم العلماء لقيامهم بعمل ما نحن في حاجة إليه ، واعني التخلّي عن المعرفة والتكنولوجيا التي تستطيع انتاج التلفزيون والسيارات والطائرات والقنابل الذرية : ان الخطأ يكمن بوضوح في انفسنا نحن الذين لا نعرف ماذا نفعل بـ « صندوق باندورا » هذا . فالمجابهة بين العلم المسؤول اجتماعياً ، والسياسيين اللامسؤولين اجتماعياً ممثّله على نحو مدهش في قصة كيفية اتخاذ قرار (قرار اتخذه السياسيون ضد النصح الجاد للعلماء) القاء القنبلة الذرية الأولى على اليابان : وفي الواقع ، يجب أن يكون تاريخ اضطلاع الاشخاص الساسيين والعسكريين بمشروع القنبلة الذرية جميعه ، ودفعه إلى نتيجته السخيفة المهلكة ، من المقرّرات الاجبارية المطلوبة من تلامذة كل صف سادس في هذا القطر : ومهما يمكن أن يكون عليه الامر ، فثمة شك ضئيل في كون هذا الاهتمام العام وحول خيريّة العلم قد اثر في حكم الناس على علم النفس : وبشكل ما ، كلما كان علم التفس اكثر علمية ونجاحاً ، كانت شكوكهم ازاءه اكبر . من الطبيعي أن الإعتراضات لن تكون عقلانية باستمرار ، بيد أنها ستبقى انفعالية ،

وان ظاهرة « الحركية الارتجاعية » هذه ، هي المسؤولة عن الكثير من عدم شعبية السلوكية .

ان لا انسانية الاساليب السلوكية هي احدى الاعتراضات الجاهزة للاستعمال ضد السلوكية ، ولقد رأينا الآن مدى ضعف هذه الحجة عند ادراكها بالمقابلة مع الآثار المفيدة للعلاج السلوكي : ثمة مثال اكثر حداثة ويمتاز ببعض الاهتمام لأنه يتضمن تدخلاً حكومياً . لقد رأينا في فصل سابق كيف يمكن أن يؤدي ادخال اجراءات « الاقتصاد الرمزي » في جناح مستشفى للأمراض العقلية المزمنة إلى معجزات ظاهرة في اعادة تأهيل المرضى الداخليين المقيمين في المصحة . ورغم ذلك . فقد تم تحريم استخدام هذه الاساليب في ولايات عدة بالولايات المتحدة الاميريكية باعتبارها عملاً وحشياً يصيب نزلاء المصحات العقليّة ! فكيف ذلك ؟ كان الجواب بأن لهؤلاء المرضى حقاً قانونياً بتناول الطعام ومشاهدة التلفزيون وممارسة جميع انواع الترفيه الأخرى ، وفي ضوء تطبيق اجراءات الاقتصاد الرمزي، يترتب عليهم بذل جهودهم الخاصة من اجل الحصول على تلك الاشياء التي يوفرها لهم حقهم القانوني ، لذلك اعتبرت تلك الاجراءات عملاً وحشياً لأنها تحرمهم من ذلك الحق حتى لو كان الحرمان لصالح علاجهم . لهذا تتوافر لدينا عقيدة مفادها أن المرضى العاجزين غير الفعالين وغير الاكفاء هم في حال افضل عما لو كانوا قادرين على اداء سلوك عقلاني واعالة انفسهم ومتمتّعين بالقدرة على ممارسة حياة عادية في العالم الخارجي ! إن حياتنا جميعها مبنيّة على قاعدة المترتبات الاجتماعية الشرطية : فنحن نتلقى ما نكسب — سواء بالعمل او بالسلوك الجيد او بالمعروف . يقحم المرضى في بيئة تبطل تلك القواعد ، حيث يصار توجيه الانتباه

اليهم عندما يسلكون بطريقة سيئة ، ويتلقون العطف عندما تتبدّى لديهم مظاهر الجموح ، ويتم التحدث اليهم عندما يتصرفون على لا عقلاني : فمن غير المدهش ازاء هذا العالم المعكوس أن يصبح المرضى اسوأ لا أفضل حالاً في كثير من الاحيان . وكما رأينا في الفصل المتعلق بتكنولوجيا عالم النفس السلوكي ، هناك دليل قوي على أن الكثير من « جنون » هؤلاء المرضى هو في واقع الامر نتاج المصحات العقليّة : والآن يقضي الوضع العطوف بحكمته بأن النظام العلاجي الذي يجعل المرضى اكثر جنوناً سوف يستمر ، وأن النظام الذي يشفيهم ويجعلهم قادرين على الاسهام في عالم تحكم السلوك فيه المترتبات التعزيزية الشرطية سوف يلغى – وذلك كله باسم الشفقة ! من المرجح أن يشكل هذا الرجع المثير حيال النجاح السلوكي نمطاً معيناً ، فثمة اعتراض تمائم من النوع ذاته يتعلق بمسألة معاملة المجرمين . اننا لا نتردد في الاحتفاظ بهم محبوسين في ظل شروط كفيلة بعدم تعلمهم اي من المهارات التي تجعل منهم وحدها مواطنين نافعين عندما ينتهون من قضاء مدد احكامهم . كما اننا نعمل على التأكد من انهم سوف يراكمون ما في وسعهم من كراهية للقوانين ولقواعد المجتمع اثناء الوقت الذي يقضونه في السجن ، وانهم سوف يتعلمون من زملائهم السجناء كيف يمارسون سلوكهم الاجرامي على نحو افضل في مرة تالية . اما الاساليب المقترحة كاجراءات الاقتصاد الرمزي التي تؤسس على الاقل بداية لتعليم السجناء قواعد المترتبات التعزيزية الشرطية الاجتماعية والتي لم يتعلموها اطلاقاً خارج نطاق السجن ، فسريعاً ما تستثير حنق المدافعين عن حقوق السجناء ! ان الحديث حول اصلاح المجرمين امر رائع ، ولكن في اللحظة التي يصبح فيها تحقيق هذا الاصلاح امراً واقعاً وينذر بالنجاح فعلاً ، تنشأ جميع انواع الاسباب والمبررات التي تسوّغ

ضرورة عدم استخدام مثل تلك الأساليب ، وفي الواقع ، لم يكن سيميلويس آخر مبدع ينطح الحائط برأسه ، فالمؤسسات الحديثة لأشأن لها بالتعلم من مضطهديه .

لذلك هناك رجع مضاد للعلم ، وما يدور من حجج حول اخلاقيات الاساليب السلوكية ووحشيتها لا صلة لها بالموضوع حقاً ، لأن الجدل متعلق بمسألة توسيع نطاق العلم ليشمل السلوك الانساني . وانني على يقين بأن الشعور العام الموحي بأن لدينا الكثير جداً من العلم ، وأنه ينبغي لنا اعلان تعليق المزيد من التقدم العلمي ، هو شعور خاطىء ورجع انفعالي لا عقلاني لمشكلاتنا . ان علم النفس في وضع جيد يمكن من خلاله تأييد الفكرة القائلة بأنه كما كان القرن الماضي هو قرن علم الفيزياء ، وأن القرن الحالي هو قرن علم الاحياء ، فإن القرن القادم (إذا كان ثمة قرن قادم !) هو قرن علم النفس . لقد اجبنا عن الكثير من الاسئلة العملية التي يجب علينا طرحها في مجال علم الفيزياء ، كما اننا في صدد الاجابة عن العديد من الاسئلة التي يجب علينا طرحها في مجال علم الاحياء ، اما بالنسبة للمستقبل ، فإن اكثر اسئلتنا أهمية هي المتعلقة على نحو شديد بمجال علم النفس . لقد انتصرنا على الطبيعة ، وعلينا الآن أن ننتصر على انفسنا او الهلاك . ولقد قمنا بمحاولات كثيرة ، واستخدمنا اساليب متنوعة وفشلنا ، ولم يعد باستطاعتنا تحمل المزيد من الفشل . وإذا كان في مكنتنا ان نحوّل فقط بعض الملايين اللامعدودة التي مازلنا نغدقها على البحث العلمي في الفيزياء والكيمياء ، ونصرفها بدلاً من ذلك على البحث العلمي في مجال علم الاحياء وعلم النفس ، فستكون الفوائد النظرية والعملية التي نجنيها عظيمة جداً . اننا نعرف ما فيه الكفاية لنقول واثقين بأنه يمكن اصلاح المجرمين وشفاء العصابيين وتحسين الممارسات التربوية على نحو يفوق التقدير . كما نعرف ما فيه الكفاية لنقول واثقين بأنه يمكن ادراك الآثار المؤذية

للأفلام والبرامج التلفزيونية وقياسها ومجابهتها فيما لو توافرت الارادة للقيام بذلك : اننا نعرف كيف نقنع الناس بممارسة تلك الاشياء التي ستطيل حياتهم ، وتجعلهم اكثر صحة وسعادة ، ونثبت انها اكثر ارضاء على المدى الطويل : لقد اسسنا البداية ولدينا من المعرفة حول تلك الامور ما يكفي لنقول على نحو مؤكد بأن البحث العلمي الموجه بشكل مناسب ، يستطيع في وقت قصير نسبياً ، وبكلفة ضئيلة إلى حد ما ، ان يحسّن نوعية الحياة ويخفض البؤس النفسي باسلوب واقعي حقيقي : ان جميع ما يقف في سبيلنا هو بعبع العلم ، فنحن نخاف تصديق العقل ونفضل الاعتماد على العاطفة — تلك العاطفة القديمة التي ضللتنا قروناً عديدة ومازالت تبشر بقيادتنا إلى الإفناء الذاتي : لقد انجز النوع الانساني ما انجزه عبر استخدام العقل ، ومضت بعض الاقطار بعيداً حيث تغلبت على الجهل والمرض والجوع والفقر والخرافة من خلال العلم الذي لا يتعدّى كونه عقلاً منظماً . لا نستطيع الرجوع إلى الوراء ، الامر الذي قد يروق كثيراً للجاهل ، كما لا يمكننا الوقوف جامدين في مواقعنا خوفاً من تخلّفنا ، بل يجب علينا أن نمضي قدماً ، والعقل هو مرشدنا في هذا الصدد ، وقد آن اوان ادخاله في معالجة المسائل الانسانية ايضاً ، وبناء تصرفاتنا على اساس من الوقائع العلميّة : تلك هي آية العظة لعالم النفس السلوكي ، والتي يجسّدها واطسن بقوله : « ان علم النفس كما يتبدى من خلال وجهات نظر عالم النفس السلوكي ، هو فرع تجريبي موضوعي محض من العلم الطبيعي ، ويتمثل هدفه النظري في التنبؤ بالسلوك وضبطه » . وإذا لم نتعلم ضبط سلوكنا قبل الاقدام على استخدام معارفنا الفيزيائية لنسف كوكبنا الارضي ، فمن غير المرجح أن نتعلم اي شيء آخر بصورة جيدة . يحاول عالم النفس تقديم العون لنا في هذا المجال ، لذلك لا تطلق النار على عالم النفس السلوكي ، فهو يبذل قصارى جهده .

الفهرس

٣٠٠٠ ط ١٩٩٦/٥/١



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر

٢٢٥ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل

٤٥٠ ل.س